نفحات القرآن

أسلوب جديد في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

الجزء الثاني

معرفة الله (١)

سماحة آية الله العظمى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي
بمساعدة مجموعة من الفضلاء

بسم الله الرحمن الرحیم

نفحات القرآن:اسلوب جدید فی التفسیر الموضوعی للقرآن الکریم

کاتب:

ناصرمکارم شیرازی

نشرت فی الطباعهٔ:

موسسه ابی صالح النشر و الثقافه

رقمی الناشر:

مرکز القائمیهٔ باصفهان للتحریات الکمبیوتریهٔ

الفهرس

نفحات القرآن المجلد ۲

اشارة

سرشناسه : مکارم شیرازی ناصر، - ۱۳۰۵
عنوان و نام پدیدآور : نفحات القرآن اسلوب جدید فی التفسیر الموضوعی للقرآن الکریم ناصر مکارم شیرازی بمساعده مجموعه من الفضلا
مشخصات نشر : موسسه ابی‌صالح النشر و الثقافه [۱۳۷۷؟].
مشخصات ظاهری : ج ۶
وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی یادداشت : عربی مندرجات : ج ۱. العلم و المعرفه فی القران .-- ج ۲. معرفه الله فی القرآن .-- ج ۳. .-- ج ۴. معرفه صفات و جلال‌الله .-- ج ۵، ۶. المعاد فی القرآن موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴
رده بندی کنگره : BP۹۸/م۷ن۷ ۱۳۷۷
رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی : م۷۷-۱۳۷۱۱

البحث عن عظمة اللّٰه ومعرفته فی القرآن الکریم

أسئلة مهمة ومصيرية:

الكل يريد أن يعرف أجوبة هذه الأسئلة:

من أين جئنا؟

أين نحن؟

وإلى أين نذهب؟

وبالطبع فثمة سؤال مهم آخر إلى جانب هذه الأسئلة الثلاثة وهو:

«لماذا جئنا؟» هل كان لمجيئنا غاية؟ وإن كانت له غاية فما هی؟.

وما هی الوسائل المتوفرة لدينا من أجل الوصول إلى هذه الغاية؟

من هو المُبدیء الأصلی لهذا العالم، ومن أين نَبَعَ عالم الخلقة؟

وأخيراً، هل هناك طريق لمعرفة هذا المُبدیء الكبير؟

هذه هی أهم أسئلة البشر.

إنّ الذين لا يرون ضرورة فی العثور على أجوبة هذه الأسئلة هم الغرقى فی الحياة المادية اليومية إلى درجة أنّهم لا يفكرون فی شیء سوى «النوم والأكل واللذة الجنسية»، فهم كالأنعام لا علم لهم «بالعالم الإنسانی».

أو أنّهم سعوا وحاولوا العثور على جواب هذه الأسئلة لكنهم لم يصلوا إلى شیء، فيئسوا وكفوا عن البحث.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۶

وإنطلاقاً من أنّ «السؤال» هو الدافع «للحركة» دائماً، الحركة نحو الإجابة، وأنّ الأسئلة كلما كانت متنوعة وعميقة كانت الحركة أوسع وأكثر تجذراً، لهذا يجب أن تستقبل الأسئلة المهمّة بصدور واسعة، ولا نخشَ كثرة الأسئلة وأهميّتها، بل نستقبلها بكل رحابة صدر.

ويمكن أن تكون محصلة عمر الإنسان ليست فى الحقيقة شيئاً سوى العثور على أجوبة الأسئلة، وأنّ نتيجة جهود كل علماء العالم والفلاسفة وعلماء العلوم الطبيعية بلا استثناء هى الأجابة عن بعض هذه الأسئلة.

يحاول علماء الفلكك أن يشرحوا كيفية ظهور السماوات والنظام الذى يحكمها.

وعلماء الجيولوجيا يجيبون على الأسئلة ذات العلاقة بظهور الأرض وتركيبها.

وعلماء الأنثروبولوجيا والتحليل النفسى وكل الذين يدرسون العلوم الإنسانية والاجتماعية يريدون أن يعثروا على أجوبة الأسئلة المتعلقة بهذا الموجود العجيب المسمى ب «الإنسان».

ويريد الفلاسفة بمساعيهم المتواصلة أن يطلعوا على حقيقة المُبدىء ومصير العالم- إلى الحد الذى يستطيع عقل البشر أن يصل إليه- أو الإجابة عن بعض الأسئلة المتعلقة بهذا المجال على الأقل.

نستنتج ممّا ذكرناه أنّه إن كان البحث حول «الخالق لعالم الوجود» ومبدأ هذا العالم الكبير الذى نعيش فيه من أقدم البحوث وأرسخ الأسئلة الإنسانية، فليس ذلكك أمراً عجيباً.

ولهذا نرى من واجبنا السعى بقدر استطاعتنا للعثور على جواب هذه الأسئلة:

من هو مُبدىء عالم الوجود؟ وكيف يمكن معرفته؟!

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۷

دوافع البحث عن عظمة اللّه

اشارة

۱- الدافع العقلى

۲- الدافع العاطفى

۳- الدافع الفطرى

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۹

۱- الدافع العقلى

تمهيد:

تمهيد:

قلنا إنَّهُ لا توجد حركة بدون حافز أو دافع، وبالطبع فلا يمكن للحركة فى طريق معرفة مُبدىء عالم الوجود أن تكون بلا حافز، ومن هنا يذكر الفلاسفة والعلماء ثلاثة دوافع أساسية للبحث عن اللّه، وجميعها أشار إليها القرآن الكريم إشارات واضحة.

۱- الدافع العقلى.

۲- الدافع العاطفى.

۳- الدافع الفطرى.

وللبعض من هذه الحوافز فروع خاصة بها.

لنبتدأ أولًا ب «الحافز العقلى» و نتأمل خاشعين فى الآيات الكريمة أدناه:

۱- «يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اسْتَجِيْبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُوْلِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيْكُمْ».

(الانفال/ ٢٤)

٢- «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ إذ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ والْحِكْمَةَ وإنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِيْنٍ».

(آل عمران/ ١۶۴)

٣- «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بالْقِسْطِ». (الحديد/ ٢۵)

۴- «يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتى كَانَتْ عَلَيْهِمْ». (الأعراف/ ١۵٧)

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٠

۵- «قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إذْ تَدْعَوْنَ* أوْ يَنْفَعُوْنَكُمْ أوْ يَضُرُّونَ ... فَإنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّى إلَّا رَبَّ الْعَالَمِيْنَ». (الشعراء/ ٧٢، ٧٣، ٧٧)

۶- «فَإنْ أَعْرَضُوْا فَقُلْ انْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ». (فصلت/ ١٣)

٧- «قُلْ إنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا للَّهِ مَثْنَى وَفُرادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ إنْ هُوَ إلَّا نَذْيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَى عَذَابٍ شَدِيدٍ».

(سبأ/ ۴۶)

جمع الآيات وتفسيرها

التحقيق من مسؤوليات الإنسان الأساسية:

الإنسان يحب الكمال، ويعتبر هذا الحب خالداً عند كل الناس، يبقى أنّ كل إنسان يرى كماله فى شىء معين، فيذهب نحوه، والبعض يذهبون وراء السراب يحسبونه ماءً ويلهثون خَلْفَ القيم الوهمية والكمالات الخيالية ويتصورونها واقعاً.

قد يسمى هذا المبدأ أحياناً ب «غريزة حب المنفعة ودفع الضرر» التى يجد الإنسان نفسه على ضوئها بأنّه ملزم أن يكون له تعامل جاد مع كل موضوع يتعلق بمصيره (بلحاظ النفع والضرر).

لكن إطلاق تعبير «غريزة» على هذا الحب يعدّ تعبيراً غير صحيح، فالغريزة عادة تطلق على أمور تؤثر فى أفعال البشر أو باقى الأحياء بدون تدخل التفكير، ومن هنا تستعمل بالنسبة للحيوانات أيضاً.

وَعلى هذا الأساس فمن الأفضل أن نستخدم تعبير (الرغبات السامية) التى استعملها البعض لمثل هذه الموارد.

وعلى كل حال، فالحب للكمال والميل نحو المصالح المعنوية والمادية ودفع كل أنواع الضرر يجبر الإنسان على التحقيق حتى فى مواضع الاحتمال، وكلما كان هذا الأحتمال أقوى وذلك النفع والضرر أعظم، كان التحقيق والبحث أكثر ضرورة.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١١

من المستحيل أن يحتمل شخص تأثير أمر مهمّ فى مصيره، ولا يرى من واجبه التحقيق حوله.

وقضية الإيمان باللَّه والبحث عن الدين تعتبر من هذه القضايا بلا شك، لأنّ هنالك فى محتوى الدين كلام عن القضايا المصيرية، وعن القضايا التى يرتبط خير وشر الإنسان بها ارتباطاً وثيقاً.

البعض يذكر مثالًا من أجل إيضاح هذا الموضوع، فيقول: لنفترض أننا نجد إنساناً واقفاً على مفترق طريقين ونسمعه يقول بقطع ويقين: إنَّ البقاء هنا خَطَرٌ، واختيار هذا الطريق (إشارة إلى أحد الطريقين) هو الآخر خطر، والطريق الثانى هو طريق النجاة، ثم يذكر قرائن وشواهد لكل ما قاله، فما من شك أن أى عابر سبيل يرى نفسه ملزماً بالتحقيق ويعتقد أنّ اللامبالاة تجاه هذه الأقوال مخالفة لحكم العقل، وبلحاظ هذه المقدمة ننتقل إلى تفسير الآيات.

إنّ أول آيـة من الآيات المعنيـة بالبحث تَعتبر دعوة رسول اللَّه إلى الإسـلام دعوةً إلى العيش والحياة الحقيقيـة، وَتدل هذه الدعوة على أنّ بالإمكـان جمع كـل محتوى الإسـلام فى مفهوم «الحيـاة»، الحياة التى تشـمل الحياة المعنويـة وتشـمل الحياة الماديـة، الحياة الشاملة والجامعة.

مع أنّ البعض فسر معنى الحياة هنا بأنّه بخصوص «القرآن» أو «الأيمان» أو «الجهاد» «١»

، لكن ممّا لا شك فيه أنّ الحياة مفهوم واسع يشمل كل هذه العناوين المذكورة وكل ما هو مؤثر فى حياة الإنسان المعنوية والمادية.

وعلى كل حال، إذا دعانا شخص بمثل هذه الدعوة فهل يمكن أن نغض الطرف عن

---

(١) ذكرت هذه الاحتمالات عن المفسـرين فى تفسير الكبير، ج ١٥ ص ١٤٧؛ وتفسير الميزان، ج ٩، ص ٤٣؛ وتفسير روح المعانى، ج ٨ ص ١٦٩؛ و تفسير القرطبى، ج ۴ ص ٢٨٢٥.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٢

دعوته ولا نرى من مسؤوليتنا حتى التحقيق فى هذه الدعوة؟.

هنا يريد القرآن بهذا التعبير أن يُوجد حافز الحركة نحو التحقيق حول الدين لدى كل من له القابلية على هذه الحركة.

يقول الراغب فى كتاب «المفردات»: إنّ حقيقـة «الاسـتجابة» هى السـعى والقابلية على اسـتلام الجواب، ولأنّ هذا الموضوع ينتهى عادةً بالجواب فقد فسروه بمعنى «الاجابة» «١».

الآية الثانية تعدُّ بعثة الرسول من أعظم النعم الإلهيّة التى منحها اللَّه سبحانه وتعالى للمؤمنين، ثم تذكر فى تفسير هذه النعمة ثلاثة برامج مهمّة للرسول: تلاوة الآيات الإلهيّة:

«يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ»، والتزكية والتربية: «وَيُزَكِّيهِمْ»، وتعليم الكتاب والحكمة «وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ والْحِكْمَةَ».

ونتيجة كل هذه البرامج هى النجاة من «الضلال المبين»: «وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبَيْنٍ».

إنّ كـل هـذه التعابير هى من أجل إحياء محفزات الحركـة نحو الأسـلام لـدى الناس، أو على الأقل من أجل أن يرى كل إنسان نفسه ملزماً بالتحقيق حول الإسلام لأنّه من الممكن أن يكون اكبر نفع وضرر للإنسان كامناً فى هذا التحقيق.

«المِنّة»: من مادة «مَن» وهى فى الأصل كما يعتقـد البعض بمعنى القطع، لهذا فإن: «أجرٌ غير ممنون» بمعنى الثواب الذى لا ينقطع أبداً، وكـذلك يقال لنوع من الاصـماغ والترشـحات ذات الطعم الحلو والتى تشاهد كالقطرات الصـغيرة مسـتقرة على أوراق الأشـجار تشـبه قطرات الندى يقال لها «المن».

ولكن يعتقد الراغب أنّ «المن» فى الأصل بمعنى الحجر الذى يَزِنون به، والذى أطلق

---

(١) ولكن يجب الالتفات إلى أنّ «الإجابة» تكون فعلًا متعدياً بدون حرف الجر، فى حين أنّ «الاستجابة» تذكر غالباً مع حرف اللام.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٣

فيما بعد على النعم الكبيرة الثقيلة.

وحينما تسـتخدم هذه المفردة فى القاموس الإلهى فتعنى «منح النعم» وحين تسـتخدم فى قاموس البشر فتعنى غالباً التحدث بالنعمة التى يجزلها الإنسان لغيره، من هنا كان معناها الأول إيجابياً والثانى سلبياً ومذموماً.

الآية الثالثة تشير إلى هدف مهم آخر من أهداف بعثة الأنبياء، وهو مسألة «العدالة الأِجتماعية»، فتقول: إنّنا جهزنا الرسل بثلاثة أشياء:

أولًا: البراهين الواضحة التى تشمل «المعجزات»، و «البراهين العقلية»: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ».

ثانياً: الكتاب السماوى الذى يبين المعارف ويشرح للناس مسؤولياتهم.

وثالثاً: الميزان: وهو الوسيلة التى بواسطتها توزن الأشياء، والعجب أنّ بعض المفسرين قد فسّروا الميزان بالمعنى الذى ذكرناه، فى حين أنّ أغلب المفسرين يعتقدون أنّ المراد من الميزان هى الوسيلة التى بواسطتها يقام العدل فيشخص بواسطتها الحق من الباطل، الزيادة من النقصان، الخير من الشر، القيم الحقة والخيرة من القيم الباطلة والشريرة، وبإمكاننا أن نفسّر الميزان بالقوانين الإلهيّة.

صحيح أنّ هذه الأمور مذكورة فى نص الكتب السماوية، ولكن ذكرها بشكل مستقل جاء بسبب أهميّتها.

وعلى كل حال، هل من الممكن أن يسمع إنسان بأنّ شخصاً يدعى الدعوة إلى وجود مثل هذه الحقائق المصيرية ولا يرى أنّ من واجبه التحقيق فى هذه الدعوة؟.

يقول الفخر الرازى: الناس ثلاثة أنواع: نوع فى مقام «النفس المطمئنة» وهم المعنيون بالآية: «أَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ»، النوع الثانى فى مقام «الْنَفسِ اللَّوامة» وهم أصحاب اليمين الذين يحتاجون إلى معيار قياسى من أجل المعرفة والأخلاق، ليكونوا فى أمان من الافراط

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١۴

والتفريط، وهم المقصودون بتعبير «الميزان»، النوع الثالث هم أصحاب «النفس الأمارة» الذين تعنيهم الآية: «انزلنا الحديد» أى هم المستحقون للعقاب والجزاء «١».

فى الآية الرابعة إشارة إلى الأبعاد المختلفة لبعثة الأنبياء وبالخصوص السياسية والاجتماعية ونزول الأديان السماوية، وفيها ذكر لبعض أوصاف رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقد جاءت لترغيب الناس فى اتباعه، منها: «يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُم الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ».

لا شك أنّ هذه أمور مصيرية وذات علاقة وثيقة بمسألة تكامل الإنسان وخيره وشرِّه، بل مجرّد احتمالها يكفى لدفعه نحو التحقيق.

«الإِصر»: على وزن مصر، يعنى فى الأصل الربط والاغلاق وحبس الشىء بقوة وعنوة، ثم أُطلقت على الحمل الثقيل والأعمال الشاقة التى تعوق الإنسان عن النشاط، ولهذا سُميت الجبال والمسامير التى تربط بها الأعمدة «آصار»، ولهذا أيضاً سمى العهد والوعد والذنب بالاصر «٢».

يمكن الاستنباط من التعابير التى وردت فى كلمات أرباب اللغة والمفسرين أن معنى كلمة «إصر» الجسم الثقيل الذى يُربط بقدم السجين لكى لا يستطيع أن يتحرك، وإنَّ ذكره إلى جانب الأغلال وهى الأطواق والسلاسل التى تقيد بها الأعناق يناسب هذا المعنى، ثم أطلقت هذه المفردة على معنى آخر يتناسب وأصل الكلمة.

مع إنّ الكثير من المفسرين فسروا «الإِصر» و «الأغلال» فى هذه الآية بمعنى التكاليف الشاقة أو الامتحانات العسيرة والمعقدة التى حلّت بالامم السابقة، لكن الظاهر أنّ لهاتين المفردتين مفهوماً أوسع وأشمل يستوعب كل أنواع قيود الاسر والحمل الثقيل الذى يسببه

---

(١) التفسير الكبير، ج ٢٩، ص ٢۴١.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ۴، ص ۴٨٨؛ التفسير الكبير، ج ١۵، ص ٢۵؛ تفسير روح المعانى، ج ٩، ص ٧٢ ومفردات الراغب، مادة (إصر) وكتاب العين، ج ٧ ص ١۴٧.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١۵

«الجهل» و «الشهوات» و «الذنوب» و «الاستبداد» و «الإِستعمار» وما شاكل، وهى أمور ترتفع وتزول تحت ظل وجود رسول اللَّه وتعليماته التحررية.

الآية الخامسة كلام ورد عن لسان محطم الأوثان إبراهيم عليه السلام عندما خاطب الوثنيين موبخاً إيّاهم على عملهم القبيح هذا (عبادة الأصنام)، وقال من أجل إيقاض عقولهم حيث كانوا يغطون فى سبات عجيب:

«هَلْ يَسْمَعُونَكُم إِذْ تَدْعُوْنَ* أَوْ يَنْفَعُوْنَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ؟!» فلابدّ للعبادة أن تكون إمّا من أجل الربح والمكافأة والمنفعة أو من أجل دفع

الضرر والعقاب.

وبالطبع لم يكن لـديهم أجوبـة إيجابيـة على هـذه التساؤلات سوى الإعتصام باتباع وتقليـد السـلف والقول: «بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ».

تدل هذه التعابير جيداً بأنّ حافز النفع والضرر (ليس النفع والضرر المادى فحسب فالنفع والضرر المعنوى أفضل وأرفع منه) وَيمكن أن يكون حافزاً للحركة باتجاه معرفة اللَّه.

حول نزول آيـات سورة فصلـت وهى الآيـة السادسـة فى بحثنـا هـذا، نقرأ أن «أبـا جهل» سأل «الوليـد بن المغيرة» وهو من رجال عرب الجاهليـة المعروفين وهو من أهل النظر والمشورة يُرجَع إليه عنـد المعضـلات: ما هـذا الـذى يقوله «محمد»؟ أهو كهانة أم سـحر؟ أهو تكهّن؟ ... فقال «الوليد»: يجب أن أذهب إليه بنفسـى وأتحقق، وعندما جاء إلى النبى صـلى الله عليه و آله قرأ له بعضاً من آيات سورة فصلت إلى أن جاء إلى الآية التى ورَدت فى بحثنا: «فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ».

فارتجف «الوليد» لسـماع هذه الآيات واقشعر بدنه ووقف شعر رأسه، فنهض من مكانه وعاد إلى بيته وأغلق الباب على نفسه، حتى ظن اكابر قريش أنّه يميل نحو الدين

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۶

الإسـلامى، وعندما جاءوا إليه وسألوه عن شأنه، قال: ما صبوت (اى لم اسـلم) وانى على دين قومى وآبائى ولكنى سمعت كلاماً صعباً تقشـعرّ منه الجلود، فلا هو بالشعر ولا بالخطب ولا بالكهانة، ولما قيل له: إذن ما نقول فيه؟ قال: قولوا هو سحر، فانّه آخذ بقلوب الناس «۱».

أولا يمكن لمثل هذه التهديدات الواردة فى الآيات القرآنية وبقيّة المصادر الدينية أن تكون حافزاً على التحرك نحو التحقيق (بالنسـبة لمن لم يؤمنوا لحد الآن).

فى الآيـة السابعـة من البحث، أُمِر الرسول صـلى الله عليه و آله أن يخـاطب جميع معارضـيه ويعظهم بمسألـة واحـدة: «قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ الَّا نَذِيْرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَى عَذَابٍ شَدِيدٍ ...».

كل تعابير هذه الآية تعابير مدروسة.

فالتعبير ب «إنّما» من أجل الحصر.

والتعبير ب «الموعظة» يستخدم فى المواضع التى يحكم فيها العقل بشـىء، ولكن لكون الإنسان غافلًا عنه فهناك شخص حريص آخر يوقظه ويعظُهُ.

والتعبير ب «القيام» دليل على الاستعداد الكامل لتنفيذ الأهداف الجدية.

والتعبير ب «مثنى» و «فرادى» إشارة إلى النشاطات الجماعية والفردية والجهود الشاملة فى هذا السبيل «لا شك أنّ الإنسان يفكر بشكل أعمق عنـد انفراده ولكنه يفكر بشـكل أكمل حين يكون ضـمن الجماعة، لأنّ الأفكار سـتتحد مع بعضـها، والجمع بين هذين (التفكير على انفراد وضمن الجماعة) هو أفضل الطرق» «۲».

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۱۷، ص ۲۱۱ وتفاسـير أخرى (الأصل فى الحديث مفصل وقد نقلناه بتلخيص، لاحظوا تفصـيله فى التفسير الأمثل ذيل الآية ۱۳ من سورة فصّلت.

(۲) قـال بعض المفسـرين: «مثنى إشـارة إلى المنـاظرة التى لهـا تـأثير كبير فى كشف الحق، فى حين أنّ «فرادى إشـارة إلى القراءة فى الوحـدة، واحتمل بعض آخر أن «مثنى» إشارة إلى التفكير الـذى يقوم به الإنسان خلال النهار ضـمن الجماعـة و «فرادى» التفكير الذى يحصل فى الليل وعند الإنفراد (تفسير القرطبى، ج ۸ ص ۵۳ و ۹۳).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۷

ثم التعبير ب «التفكر» الذى ينبع من الصميم ويهدى الإنسان إلى البراهين العقلية الواضحة.

والتعبير ب «لكم» هو الآخر ممتزج بمسألة الانذار والإلتفات إلى العذاب الشديد وفيه إشارة إلى أنّ الموضوع هنا هو نفعكم وضرركم فقط، ولا هدف للنبى صلى الله عليه و آله سوى هذا.

أفلا يجب والحال هذه أنّ يأخذوا دعوته مأخذ الجد ويفكروا فيها ويعثروا على الحق ثم يتبعوه؟

النتيجة:

إنّ الآيات أعلاه وآيات مشابهة أخرى تكشف النقاب جيداً عن الحافز العقلى للبحث والتنقيب فى طريق «معرفة اللَّه» وتدل على أنّه لا يمكن لأىإنسان عاقل أن يتقاعس ويسكت أزاء الدعوات العظيمة لأنبياء اللَّه ورسله على صعيد الدعوة إلى اللَّه ذات العلاقة الوثيقة بمصير الجميع، وهذا هو الحافز الأول للتحقيقات الدينية.

توضيحان

۱- الدوافع العقلية لفهم الدين فى الروايات الإسلامية

۱- ورد فى حديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أن أحد أصحابه سأله عن الضعفاء (المستضعفين) فكتب له الإمام فى الجواب: «الضعيف من لم ترفع إليه حجة، ولم يعرف الاختلاف، فإذا عرف الاختلاف فليس بمستضعف» «۱».

۲- و جلوه‌هاى توخالى دنيا از دور روى نفس هذا المعنى عن الإمام الصادق عليه السلام فى قوله: «من عرف اختلاف الناس فليس بمستضعف» «۲».

---

(۱) أصول الكافى، ج ۲، ص ۴۰۶، (باب المستضعف)، ح ۱۱.

(۲) المصدر السابق، ح ۱۰.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۸

وفى هذا إشارة إلى أنّ الإنسان حين يطلع على وجود الاختلاف سوف يرغمه عقله على التحقيق والمطالعة (النظر)، وعندها لا يُعتبر مستضعفاً.

وبالطبع فالقصد من «المستضعف» هنا هو «المستضعف فكرياً» الذى نسميه أحياناً ب «الجاهل القاصر».

۳- جاء فى حديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «أربعة تلزم كل ذى حجى وعقل من أمتى، قيل: يا رسول اللَّه ما هنَّ؟ قال: إستماع العلم وحفظه ونشره والعمل به» «۱».

وبهذا يعتبر النبى صلى الله عليه و آله الاستماعَ والتحقيقَ من آثار وعلامات العقل والدراية.

۲- المعاندون الملحّون

كان دائماً فى مقابل الأحرار الذين يرون التحقيق فى الحق واجبهم العقلى، هناك جماعة يخشون رؤية الحق كالخفافيش، وحتى لو ارتفع صوت منادى الحق وَدَوّى فى آذانهم سدوا آذانهم لكيلا يسمعوا صوته.

ينقل القرآن عن جماعة من قوم نوح عليه السلام على لسان هذا النبى العظيم عندما اشتكاهم إلى اللَّه: «وإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِى ءَاذَانِهِمْ واسْتَغْشَوا ثِيَابَهُمْ وأَصَرُّوا واسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا». (نوح/ ٧)

ولم يكن حال المشركين بأقل من هؤلاء، بل كأنّهم ورثوا قوم نوح المعاندين الذين تحدث عنهم القرآن: «وَقَالَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا لَاتَسْمَعُوا لِهَذا الْقُرآنِ وَالْغَوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ». (فصلت/ ٢٦)

إنّ هذه الجماعة التى لها أتباع ومقلدون فى كل عصر وزمان لا يسمحون لأنفسهم بالتحقيق فى ما يجرى أبداً، إنّهم جهلة حمقى يخشون نور الشمس كأنّهم الخفافيش، يلجأون إلى الظلمة دائماً، ويفتخرون بالجهل، إنّهم أكثر حرماناً من الجميع لأنّهم أعداء تفضحهم الشمس.

---

(١) تحف العقول، مواعظ النبى، ص ۴٠.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٩

٢- الدافع العاطفى

تمهيد:

ثمة مثل معروف يقول: «إنَّ الناس عبيد الأِحسان».

ورد نفس هذا المعنى تقريباً فى حديث عن أمير المؤمنين الإمام على عليه السلام: «الإنسان عبد الاحسان» «١».

وورد عنه عليه السلام: «بالإِحسانِ تملك القلوب» «٢».

وفى حديث آخر عنه أيضاً: «وأفضِلْ على من شِئتَ تكن أميره» «٣».

وجذور كل هذه المفاهيم فى حديث الرسول صلى الله عليه و آله إذ يقول: «إنّ اللَّه جعل قلوب عباده على حبّ من أحسن إليها وبغضِ مَنْ أساء إليها» «۴».

والخلاصة هى أنّ هنالك حقيقة تقول: إنَّ الذى يسدى خدمة لشخص أو ينعم عليه نعمة فسيكون عطفه هذا عليه منطلقاً من حبّه له ويكون هذا الآخر محباً لمن اسدى إليه الخدمة والنعمة، يحب أن يتعرف عليه تماماً ويشكره، وكلما كانت هذه النعمة أهم وأوسع، كان توجه العواطف نحو «المنعم» و «معرفته» أكثر.

ولهذا جعل علماء علم الكلام (العقائد) مسألة «شكر المنعم»- ومنذ القِدَم- إحدى الدوافع على التحقيق حول الدين ومعرفة اللَّه.

---

(١) غرر الحكم.

(٢) المصدر السابق.

(٣) بحار الأنوار، ج ٧٧، ص ۴٢١.

(۴) تحف العقول، ص ٣٧ (قسم من كلمات النبى صلى الله عليه و آله).

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٠

ولكن يجب الانتباه إلى أنّ «شكر المنعم» هو قرار عاطفى قبل أن يكون قراراً عقلياً.

نختم هذه الإشارة ببيت شعر لأبى الفتوح البستى الشاعر العربى المعروف:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ بعد هذه الإشارة ننتقل إلى القرآن ونتأمل خاشعين فى الآيات أدناه:

۱- «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَاتَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». (النحل/ ۷۸)
۲- «وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». (النحل/ ۱۴)
۳- «فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ».
(النحل/ ۱۱۴)

جمع الآيات وتفسيرها

شكر المنعم سلّم إلى معرفة اللَّه:

تتحدث الآية الأولى عن أهميّة النعم الإلهيّة لتحرك فى الناس روح الشكر وتدعوهم عن هذا الطريق إلى معرفة «المنعم»، إنَّ الحديث عن النعمة وسيلة للمعرفة، فقد تحدث القرآن عن «العين» و «الأذن» و «العقل» بقوله: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ».

فعن طريق السمع تتعرفون على العلوم النقلية وعلوم الآخرين.

وعن طريق البصر ومشاهدة أسرار الطبيعة وعجائب الخلقة تتعرفون على العلوم التجريبية، وعن طريق العقل تتعرفون على العلوم العقلية والتحاليل المنطقية.

ومع أنّ هذه المواضيع الثلاثة معطوفة على بعضها فى هذه الآية بالواو ولا تعنى بالضرورة الترتيب، إلّاأنّه ليس من المستبعد أن يكون هذا هو الترتيب الطبيعى لها، لأنّ

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۱

الإنسان عندما يولد لا يمتلك القدرة على النظر والمشاهدة إلى فترة من الزمن بعد ولادته، ولأنّه معتاد على الظلام فهو يخاف من النور ويغمض عينيه لمدّة من الزمن، فى حين أنّ الاذن تسمع الأصوات من أول لحظة، ومن الواضح أنّ القدرة العقلية والتمييز والشعور تبدأ بالعمل والنشاط لدى الإنسان بعد السمع والبصر، خاصةً وأنّ «الفؤاد» كما يصرح أرباب اللغة بمعنى «العقل الناضج العميق» ولا يمثل مرحلة عادية من العقل، وطبعاً فإنّ مثل هذا الشيء يظهر بعد ذلك.

فضلًا عن أنّ الآية المذكورة يمكن أن تكون إشارة إلى حقيقة أنّ الوصول إلى «الكليات العقلية» يأتى بعد العلم ب «الجزئيات» عن طريق الحس، وعلى كل حال، فالآية تصرح أنّ الهدف من إسداء هذه النعم هو تحريك روح الشكر لدى البشر، والذى يدعوهم بالنتيجة إلى محبّة الخالق ومعرفة اللَّه وإطاعة أوامره.

وبالطبع فإنّ هذا لا يتناقض مع كون بعض العلوم الإنسانية علوماً فطرية لأنّ المعلومات الفطرية عند الولادة موجودة فى طبيعة الإنسان على شكل الاستعداد والقابلية، وليس لها طابع الفعلية، ثم تثمر بعد ذلك.

الآية الثانية تشير إلى ثلاث نعم إلهيّة أخرى تتعلق جميعها بتسخير البحار وتعتبرها دافعاً نحو الاستفادة من فضل اللَّه وشكره، ومن هذه النعم:

أولًا: اللحوم التى تستخرج من البحر والمسماة ب «لَحْماً طَرِياً»، وهو اللحم الذى لم يبذل الإنسان جهداً فى تربيته أبداً، وإنّما ربته يد القدرة الإلهيّة فى أعماق البحار ووضعته فى متناول أيدى الإنسان مجاناً، فيعتبر نعمة كبيرة، خاصة فى عصر وزمان كانت تكثر فيه اللحوم الفاسدة وكان الناس يضطرون إلى الاحتفاظ باللحوم إلى فترة معينة عن طريق تمليحها أو شيها وتجفيفها تحت أشعة الشمس، وكانت هذه اللحوم تسبب الكثير من الأمراض والتسمم للمسافرين، فى حين كانوا يستخدمون اللحوم الطازجه بكل سهولة فى

سفراتهم البحرية أو الساحلية.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۲

ثانياً: ثم تشير الآية إلى المواد المستعملة للزينة المستخرجة من أعماق البحار والمستخدمة من قبل البشر وتقول: «وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا».

أى أنّ اللَّه وفر لكم أكثر المواد الغذائية ضرورةً بالإضافة إلى الحاجات ذات الطابع التجميلى الصرف.

ثالثاً: وفى المرحلة الأخيرة تشير الآية إلى واحدة أخرى من بركات البحار التى كان لها دور مؤثر جدّاً فى حياة البشر حتى فى يومنا الحاضر، وهى استخدام البحر كطريق كبير وواسع ومتصل لحمل ونقل أنواع الأمتعة التى يحتاجها الناس فى السفر، ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ حوالى ۷۵ بالمائة من وجه الأرض مغطىً بالبحار التى تصل إلى كل نقاط العالم، وأنّ قسماً كبيراً من البضائع والمواد الضرورية تنقل عن هذا الطريق، وأنّ قسماً كبيراً من الأسفار يتمّ من خلال هذا الطريق، ومن هنا تتضح أهميّة هذا الموضوع.

يقول عز وجل: «وَتَرَى الْفُلْكِ مَوَاخِرَ فِيهِ».

ثم يضيف فى النهاية: «لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

وبهذا جعل الالتفات إلى هذه النعم أيضاً وسيلة لإحياء روح الشكر وبالتالى اكتساب المعرفة باللَّه، وإلّا فما حاجة اللَّه إلى شكرنا؟ كل هذه ذرائع إلى معرفة ذاته وصفاته والحركة نحو هذا الكمال المطلق.

والجدير بالذكر أنّ «مواخر» هى جمع «ما خرة» من مادة «مخر» (على وزن فخر)، وهذه المادة كما يستفاد من محصلة كلمات أرباب اللغة والمفسرين بمعنى الشق والخرق، كشق «أمواج الماء» بصدر السفينة، أوشق «أمواج الرياح» بواسطة الوجه والأنف والتقدم نحو الأمام، أو شق الأرض لأجل الزراعة.

ولأنّ هذه الأمور غالباً ما تكون مصحوبة بالصوت فقد اطلقت هذه المفردة على صوت هبوب الرياح الشديدة أيضاً «۱»، إنّ كل حياة الإنسان والعالم تعتريها موانع يجب على

(۱) تفسير الكبير، ج ۲۰، ص ۷ وقد جاء نفس هذا المعنى فى تفسير روح المعانى والقرطبى تذييلًا للآية المنظورةفى بحثنا.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۳

الإنسان كشفها واجتيازها كى يشق طريقة بالتقدم والتطور، وهذه من النقاط المهمّة والحساسة.

وبالضمن فلقد علمنا أنّ «المواخر» تعنى السفن والمراكب، ولذلك فقد فسر ابن عباس «المواخر» بالسفن التى فى حالة حركة «الجارية» «۱» حيث إنّ قيمة السفينة تكمن فى كونها متحركة.

أمّا الآية الثالثة والأخيرة والتى خاطبت مشركى مكة أو المؤمنين، وفى احتمال قوى أنّ الآية عنت بخطابها الاثنين معاً، فقد أمرت بقولها: «فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ».

والملفت للنظر هنا أنّ الآية ذكرت فى آخرها: «وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ» فالبعض قال: إنّ هذه القضية شرطية وذلك لانّ هؤلاء لايعبدون اللَّه اصلًا فكيف يشكرون نعمته، فيكون الأمر «سالباً بانتفاء الموضوع».

وأيضاً يرد احتمال حول هذه المسألة وهو أنّ جزاء القضية الشرطية هى عبارة «فكلوا ممّا رزقكم اللَّه ...» والذى ورد مسبقاً حيث يعنى بان هذه الأرزاق فى حالة كونها حلالًا طيباً عندما أكون عبداً ومطيعاً لله سبحانه وتعالى، لأنّ كل النعم خلقها اللَّه سبحانه وتعالى من أجل المؤمنين، وَمثلُ ذلك مثل المزارع الذى يسقى الورد ماءً، فهو إنّما يعمل ذلك من أجل أن يحصل على الورود لا أن يجنى الأشواك بالرغم من أن الأشواك لا تخلو من فوائد، وقد ذكروا تفسيراً ثالثاً وهو أنّ الآية تخاطب الوثنيين، أنّكم إذا أردتم العبادة فاعبدوا من هو ولى نعمتكم، لماذا تعبدون الأصنام التى لا دور لها مطلقاً «۲».

(۱) تفسير الكبير، ج ۲۰، ص ۷، وكذلك ورد هذا المعنى فى تفسير روح المعانى و تفسير القرطبى وذلك فى تفسيرالآية قيد البحث هذا.

(۲) تفسير الكشاف، ج ۲، ص ۶۴۰، وثمّة تفسير آخر ورد كاحتمال من الأحتمالات فى تفسير الميزان وروح المعانى تذييلًا للآيات المنظورة فى البحث.

وليس من المستبعد الجمع بين هذه التفاسير لأنّ المخاطب حسب الظاهر هم جميع المؤمنين والكافرين، بالرغم من أنّ الآيات السابقة واللاحقة تدل على أنّ الكلام موجه إلى المؤمنين أكثر ممّا هو موجه إلى الكفّار.

وعلى كل حال، فالعلاقة بين «النعمة» و «الشكر» و «العبادة» ثم «معرفة المعبود» و «ولى النعمة» تتضح بجلاء من هذه الآية.

وبهذا نتوصل إلى الحافز الثانى لمعرفة اللَّه وهو مسألة شكر المنعم.

شكر المنعم فى الروايات الإسلامية:

۱- جاء فى حديث عن أمير المؤمنين على عليه السلام: «لو لم يتوعد اللَّه على معصيته لكان يجب ألّا يُعصى شكراً لنعمه» «۱».

إنّ التعبير ب «الواجب» فى هذا الحديث هو فى الحقيقة نفس تلك الوظيفة التى تنبع من عواطف الإنسان.

۲- نقرأ فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عند عائشه ليلتها، فقالت: يا رسول اللَّه لمّ تتعب نفسك وقد غفر اللَّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ «۲»

فقال: يا عائشه ألا أكون عبداً شكوراً» «۳».

۳- يقول الإمام الرابع على بن الحسين عليهما السلام فى أحد أدعية الصحيفة السجادية:

«والحمد للَّهالذى لو حبس عن عباده معرفةَ حمده على ما أبلاهم من مننِهِ المتتابعة وأسبغ عليهم من نعمه المتظاهرة لتصرّفوا فى مننه فلم يحمدوه وتوسعوا فى رزقِهِ فلم يشكروه ولو كانوا كذلك لخرجوا من حدود الإنسانية إلى حد البهيميّة فكانوا كما وصف فى محكم

(۱) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۲۹۰.

(۲). إشارة إلى ذيل الآية الأولى من سورة الفتح من التفسير الامثل.

(۳) أصول الكافى، ج ۲، باب الشكر، ح ۶.

كتابه إنّ هم إلّاكالأنعام بل هم أضل سبيلًا» «۱».

۴- جاء فى كلام آخر من نهج البلاغة: «... ولو فكروا فى عظيم القدرة وجسيم النعمة لرجعوا إلى الطريق وخافوا عذاب الحريق ولكن القلوب عليلة والبصائر مدخولة» «۲».

تتضح من هذه الروايات العلاقة الروحية بين «شكر النعمة» و «معرفة اللَّه وإطاعة أوامره».

(۱) الصحيفة السجادية، الدعاء الأول.

(۲) نهج البلاغة، الخطبة ۱۸۵.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۷

۳- الدافع الفطرى

تمهيد:

عندما نتحدث عن الفطرة فالمقصود هو نفس تلك الاحساسات الداخلية والإدراكية التى لاتحتاج إلى أى استدلال عقلى.

عندما نشاهد منظراً طبيعياً جميلًا جدّاً أو زهرة ذات لون ورائحة طيبة نحسُّ بقوة جذب تدفعنا نحوها، ويسمى هذا الاحساس بالميل نحو الجمال وحبه ولا نرى أى حاجة هنا للبرهنة على إثبات قولنا هذا.

أجل، إنّ الميل للجمال يعد من الرغبات المتعالية للروح الإنسانية.

إنّ الاندفاع نحو الدين وخاصةً معرفة اللَّه هو أيضاً من هذه الاحساسات الفطرية والداخلية، بل هو من أقوى الدوافع فى أعماق طبيعة وروح جميع البشر.

ولهذا السبب لا نشاهد قوماً أو أمة لا فى الحاضر ولا فى الماضى التاريخى لم تكن تمتلك نوعاً من العقائد الدينية تتحكم فى فكرها وروحها، وهذه علامة على أصالة هذا الاحساس العميق.

وانطلاقاً من أن التوحيد الفطرى يُطرح فى مجال براهين معرفة اللَّه كبرهان مستقل مع كل آياته، لا نرى داعياً للبحث المسهب حول هذا الموضوع، فنكتفى بذكر نقطة واحدة ونؤجل المزيد من البحث حول هذا الموضوع فى محلّه إن شاء اللَّه.

عندما يذكر القرآن قصص نهضة الأنبياء العظام فانّه يؤكد فى عدة مواضع على هذه النقطة وهى أنَّ الرسالة الأصلية للأنبياء تتمثل بازالة آثار الشرك والوثنية (وليس إثبات وجود اللَّه، لأنّ هذا الموضوع مخبَّأٌ فى أعماق فطرة كل إنسان).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۸

وبتعبير آخر: إنّهم لم يكونوا بصدد غرس «بذور عبادة اللَّه» فى قلوب الناس، بل كانوا فى صدد سقاية الغرسة الجديدة الموجودة واستئصال الأشواك والأدغال الزائدة المضرة التى قد تقتل أو تُذبِل هذه النبتات بصورة تامة فى بعض الأحيان.

وردت جملة: «أَلَّا تَعبُدُوا إِلَّا اللَّهَ» أو «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَاهُ» فى كلام الكثير من الأنبياء فى القرآن الكريم، وهى عبارات تفيد نفى الأصنام وليس اثبات وجود اللَّه.

كماجاء فى دعوة رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم: «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ». (هود/ ۲)

ودعوة نوح عليه السلام: «أن لَاتَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ». (هود/ ۲۶)

ودعوة يوسف عليه السلام: «... أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ». (يوسف/ ۴۰)

ودعوة النبى هود عليه السلام: «.. أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ». (الاحقاف/ ۲۱)

وَفضلًا عن هذا فَإننا نمتلك فى أعماق نفوسنا أحاسيس فطرية أصيلة أخرى منها ما نراه فى نفوسنا فى الرغبة الشديدة للعلم والمعرفة والاطلاع.

فَهل من الممكن أن نشاهد هذا النظام العجيب فى هذا العالم المترامى، ولا تكون لنا رغبة فى معرفة مصدر هذا النظام؟

أليس من الغرابة أن يقضى أحد العلماء مدة عشرين سنة من أجل التعرف على حياة النمل، ويثابر عالِم آخر عشرات السنين لمعرفة عادات أوضاع بعض الطيور أو الأشجار أو أسماك البحار بدون أن يكون لديه دافع لحب العلم؟ هل يمكن أنّهم لا يريدون معرفة مصدر هذا البحر اللامتناهى الذى يشمل الأشياء من الأَزلِ إلى الأبد؟!

نعم، هذه دوافع تدعونا إلى «معرفة اللَّه»، العقل يدعونا إلى هذا الطريق، العواطف تجذبنا نحو هذا الاتّجاه، والفطرة تدفعنا إلى هذه

الجهة.

كانت هذه خلاصة للمحفزات والدوافع الواقعية والحقيقية لظهور الدين ومعرفة اللَّه.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۹

توضيحات

التبريرات المنحرفة:

اشارة

هنالك إصرار عجيب من قبل بعض علماء الاجتماع والنفس الماديين فى الغرب والشرق على أنّ مصدر ظهور الدين والعقيدة التوحيدية معلول للجهل أو الخوف أو عوامل اخرى من هذا القبيل.

بالطبع إنّ هذا الأمر ليس عجيباً فى نظر البعض، لأنّهم كما يبدو قد اتخذوا قرارهم باتفاق مسبق، ويعتبرون من المسلمات أن ليس ثمّة شيء غير عالم المادة، لهذا يرون أنفسهم ملزمين بأن يفسروا كل ظاهرة على أساس العوامل المادية.

من ناحية أخرى نعلم أن وجود العقائد الدينية ما ينفك يزلزل أركان المادية، وإذا أضفنا إلى هذا المعنى الصراعات الشنيعة بين الكنيسة وعلماء العلوم الطبيعية فى القرون الوسطى يمكن الاستنتاج أنّ مثل هذه التفاسير المادية للدين والاعتقاد باللَّه جزء من العداء الذى تكنه المدارس المادية للدين.

مع أنّ البحث فى كل هذه النظريات بشكل مفصل يحتاج إلى أحاديث طويلة يُخرجنا الدخول فيها عن كُنه بحثنا التفسيرى، ولكن يبدو من الضرورى الإشارة إليها هنا بشكل مختصر، لكننا نكرر أن كل هذه التفاسير قائمة على أساس أحكام مسبقة وهى أن نسلّم بعدم وجود عالم وراء الطبيعة، وبأنّ عالم الوجود يتلخص فى نفس عالم الطبيعة هذا.

وَيمكن تحديد هذه النظريات- أو بعبارة أدق هذه الفرضيات- بشكل عام فى خمس فرضيات:

۱- نظرية الجهل

يقول أحد علماء الاجتماع المعروفين: «مع أنّ العلم والفن كشف الكثير من الأسباب الخفية، إلّاأنّ الكثير من هذه الأسباب ما تزال بعيدة من نطاق العلم وباقية فى لفيف

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۰

الأسرار، وضرورة التوصل إلى هذه الأسباب دعت إلى ظهور الدين» «۱».

ويضيف أحد الفلاسفة الماديين: أنّ الإنسان عندما ينظر إلى الأحداث من زاوية تاريخية فسيتصور العلم والدين عدوين لا يقبلان الصلح! وذلك لسبب واضح جدّاً، فالذى يعتقد بحركة العالم بلحاظ قانون العلية لا يستطيع أن يسمح ولو للحظة واحدة بأن يدخل عقله تصورٌ يقول: إنَّ بامكان موجود خلق الموانع والعثرات فى واقع الأحداث «۲».

وبعبارة أبسط إنّهم يريدون الادّعاء أنّ جهل الإنسان بالعلل الطبيعية كان السبب فى تصوره لوجود قوة وراء الطبيعة أوجدت هذا العالم وما انفكت تديره، ولهذا فكلما اتضحت الأسباب والعلل الطبيعية تزلزل الاعتقاد بالدين وبعبادة اللَّه.

إنّ الخطأ الأساسى لاتباع «فرضية الجهل» ينبع من:

أولًا: إنّهم ظنوا أنَّ الإيمان بوجود اللّه يعنى إنكار قانون العليـة، وإننا على مفترق طريقين: إمّا التسليم للعلل الطبيعيـة أو لوجود اللّه، فى حين أنّ الإيمان بقانون العلية والكشف عن العلل الطبيعية من وجهة نظر الفلاسفة الإلهيين يعد أحد أفضل طرق معرفة اللّه.

إنّنا لا نبحث عن وجود اللّه وسط الفوضـى والحوادث الغامضـة والمبهمة، أبداً، بل نبحث عن وجوده فى وسط الأنوار والنظم المعروفة لعالم الوجود، لأنّ وجود هذه النظم علامة واضحة على وجود مصدر علم وقدرة فى عالم الوجود.

ثانياً: لماذا تراهم يغفلون عن هـذه النقطة، وهى أنّ الإنسان ومنذ أقدم العصور ولحد الآن يرى دائماً نظاماً خاصاً يحكم العالم؟ نظاماً لا يمكن تبرير ارتباط وجوده بالعلل التى لا شعور لها، وكان يعتبره دوماً علامةً على وجود اللّه، وكل ما فى الأمر أنّ هذا النظام كان

---

(١) جامعه‌شناسى، ساموئيل كنيك، ص ٢٠٧ (علم الاجتماع عند ساموئيل كنيك).

(٢) الـدنيا التى أراها، ص ٥٨- وكم هو مضـحك قول «اوغست كونت» إنّ العلم عزل أبـا الكائنـات من وظيفته وساقه إلى مكان منزو (أى باكتشاف العلل الطبيعية لم يبق ثمّة محل للأيمان باللّه) (الدوافع نحو المادية، ص ٧۶).

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣١

معروفاً فى الماضـى بدرجـة أقل، وكلما تطور علم البشـر، إكتشـفت منه دقائق وطرائف جديـدة واتّضح علم وقدرة خالق عالم الوجود أكثر.

ومن هنا فإننا نعتقـد أنّ «الإيمان بوجود اللّه» و «الـدين» يتقدم إلى الأمام بتقدم «العلوم»، وكل اكتشاف جديد لأسـرار ونظم هذا العالم إنّما هو خطوة جديـدة لمعرفـة اللّه بصورة أفضل، فلم يكن بامكان السابقين أبداً أن يعرفوا اللّه بالشـكل الذى نعرفه اليوم، تطور العلوم لم يكن على ما هو عليه الآن.

٢- نظرية الخوف

ذكر المؤرخ الغربى المعروف «وِل ديـورانت» فى تـاريخه ضـمن بحث بعنـوان منـابع الـدين عن الحكيم الرومـانى «لوكروتيوس» بـأنّ «الخوف هو الأم الأولى للآلهـة، ومن بين أنواع الخوف هو الخوف من الموت الـذى يَحتل مكانة أهم بين بقيّة أنواع الخوف ... ولهذا لم يكن باستطاعة الإنسان البدائى أن يصدق بأنّ الموت ظاهرة طبيعية ولذا كان يتصور له سبباً ما ورائياً على الدوام» «١».

ويكرّر «راسل» نفس هذا الكلام بصياغة أخرى فى قوله:

«أتصور أنّ مصـدر الدين هو الخوف والرهبة قبل كل شـىء، الخوف من الكوارث الطبيعية، الخوف من الحروب وما شاكل، والخوف من الأعمال غير اللائقة التى يرتكبها الإنسان أثناء غلبة الشهوات عليه» «٢».

ويتّضح بطلان هذه الفرضـية من حيث إنّ أتباعها كأنّهم قد تعاهدوا جميعهم بشـكل ضمنى على الاتفاق بأنّه ليس ثمة جذور ما ورائية للـدين والاعتقاد بعبادة اللّه، ولابـدّ من البحث عن سـبب له فى الطبيعـة، سـبب يعود إلى نوع من الظن والخيال، ولهـذا فهم دائماً يرون الأمور الفرعية وينسون المسألة الأصلية.

---

(١) قصة الحضارة، ل «وِلْ ديورانت»، ج ١، ص ٨٩.

(٢) العالم الذى أعرفه، ص ۵۴.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٢

صحيح أنّ الإيمان باللّه يمنح الإنسان طمأنينة واقتداراً روحياً، وصـحيح أنّه يمده بالشـجاعة قبال الموت والحوادث العصيبة، إلى درجة

أنّه فى بعض الأحيان يكون مستعداً لكل ألوان التضحية والفداء، لكن لماذا ننسى ما هو أمام أعين البشر دائماً أى النظام الذى يحكم الأرض والسماء والنباتات والأحياء ووجود الإنسان ذاته؟!

وبعبارة أخرى فإنّ الإنسان مهما كان جاهلًا بعلم التشريح والفسلجة وما شابه، لكنّهُ حينما ينظر إلى بناء عينه وأذنه وقلبه ويده ورجله يراه بناءً عجيباً ودقيقاً، وهذا لا يمكن تفسيره أبداً بعوامل اللاشعور والصدفة، فنمو غصن من الزهور، زنبور العسل، بزوغ الشمس والقمر وسيرهما المنتظم وبقية الظواهر الاخرى لا يمكن تفسير كل هذه الظواهر بالصدفة واللاشعور.

هذا هو الشىء الذى كان موجوداً ولا يزال دائماً أمام أعين الإنسان وهو السبب الأصلى فى ظهور الإيمان بوجود اللَّه، لماذا يتجاهلون هذه الحقائق البينة ويتشبثون بمسألة الخوف والجهل؟ لا شىء غير خوفهم من نمو العقائد الدينية؟ لماذا تركوا الطريق الأصلى النيّر وسلكوا الطريق المنحرف؟ والسبب هو أنّ الأحكام المسبقة حالت بينهم وبين معرفة الحقيقة؟!

٣- نظرية العامل الاقتصادى

إنَّ أتباع هذه النظرية يعتقدون بأنّ القوة التى تحرك التاريخ هو شكل وسائل الانتاج، ويعتبرون جميع الظواهر الاجتماعية سواء الثقافية منها أو العلمية أو الفلسفية أو السياسية وحتى الدين وليدة هذا العامل!

ولأصحاب هذا الرأى تبريرات عجيبة من أجل الربط بين ظهور الأديان والمسائل الاقتصادية، منها قولهم: إنّ الطبقة الحاكمة فى المجتمعات البشرية قد أوجدت الدين من أجل القضاء على مقاومة الشعوب المستعمَرة وتخديرها، ويلفتون الأنظار إلى عبارة «لينين» المعروفة التى أوردها فى كتابه «الاشتراكية والدين» والتى يقول فيها: «الدين أفيون الشعوب»!

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٣

ولهم فى هذا الموضوع كلام كثير هو فى الغالب تكرار للمكررات.

ومن حسن الحظ أنّ أتباع هذه النظرية (الاشتراكيون) قد أجابوا على إشكالاتهم بأنفسهم من خلال عباراتهم المتناقضة، فهم عندما يواجهون الإسلام وكيف كان سبباً فى حركة ونهوض أُمة متخلفة، وكيف استطاع أن ينهى سلطة المستعمرين من أمثال سلاطين ساسان وقياصرة الروم وفراعنة مصر و «تبابعة» اليمن، يضطرون إلى استثناء الإسلام على الأقل من هذا المقطع التاريخى.

وفوق كل هذا، عندما يشاهدون اليوم الحركات والنهضات الإسلامية التى تنطلق ضد المستعمرين (خاصة فى العصر الحاضر) بوجه حكام الشرق والغرب وانتفاضة الشعب الفلسطينى ضدّ الكيان الصهيونى، فليس أمامهم سبيل سوى أن يشكّوا فى تحليلاتهم، بغض النظر عن الذين يعيشون حصاراً فى حصار ولا يستطيعون أن يبصروا حتى نور الشمس الساطع.

وعلى كل حال، مع الأخذ بنظر الاعتبار التاريخ المعاصر والقديم لا سيما الخاص بالإسلام، يتضح جيداً أنّ الدين وخلافاً لزعمهم ليس مادة مخدرة وأفيوناً أبداً، فضلًا عن أنّه السبب فى ظهور أقوى الحركات الاجتماعية وأكثرها مثاراً للإعجاب، والقضايا الاقتصادية تشكل بدورها جزءً من حياة الإنسان، وحصر الإنسان فى الزاوية الاقتصادية يعتبر أكبر خطأ فى معرفة الإنسان ومعرفة نوازعه وميوله المتعالية.

٤- النظرية الجنسية

والآن تعالوا واستمعوا للسيد «فرويد» الذى يريد أن يقيم جسراً بين «ظهور الدين» و «الغريزة الجنسية» ويعتبر الدين وليداً للغريزة الجنسية!

إنّه يحاول أن يربط هـذا الموضوع فى فرضيته باحدى القبائل الوهمية (للأب فى هذه القبيلة الخيالية نساء كثيرات، أمّا الأولاد الشباب فيعانون الحرمان، وأخيراً ثار الأولاد وقتلوا الأب وأكلوا لحمه، ثم ندموا على فعلتهم، لقد غضوا النظر عن نساء القبيلة وعمدوا

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٤

إلى إدانة وتقبيح عملهم) ومن هنا نشأ بينهم نوع من الحظر وبتعبيره «تابو» أى (حظر الزواج من المحارم).

وَيضيـف: يوجد فى القبائل المتوحشة اليوم شىء باسم «التوتم» وهو الأب أو كبير العشيرة بالنسبة لاعضاء القبيلة، ويعتبر حاميهم وولى نعمتهم.

إنّهم يحترمون «التوتم» ويتصورون أنّ عليهم أن يتشبّهوا به ويقلّدوه (هذا الاعتقاد بالتوتم نابع من نفس الاعتقاد بالقبيلة الوهمية أيضاً).

يعتقد فرويد أنّ الإيمان بالتابو والتوتم هو السبب لظهور العقائد الدينية، ووفقاً لما ذكرنا أعلاه فإن له علاقة بالقضية الجنسية! «١».

وفضلًا عن أنّ فرضية فرويد الجنسية قائمة على أساس اسطورةٍ (اسطورة القبيلة الوهمية)، فإنّ تحليلاته تشبه إلى حد كبير الأساطير والخرافات، وهذا ناتج من أنّه ينظر الى روح وجسم الإنسان الذى يحمل أبعاداً وميولات متنوعة من زاوية واحدة وبعد واحد.

صحيح أنّ للإنسان غريزة جنسية، لكن من المسلم به أنّ وجود الإنسان لا ينحصر فى الغريزة الجنسية، فجسمه يقع تحت تأثير غرائز مختلفة، ولروحه ميول متعالية مختلفة، «فَالنظر من بعد وأحد» خطأ لم يقع فيه فرويد فحسب بل إنّ الاشتراكيين الذين يحصرون وجود الإنسان فى البعد الاقتصادى قد وقعوا فيه بشكل آخر، وكلا النظريتين اخطأتاخطأً فاحشاً فى معرفة الإنسان.

كان الأجدر بفرويد وبدل الاعتماد على الأوهام أن ينظر إلى هـذه الحقيقة وهى أنّ الإنسان منـذ فجر حياته وحتى اليوم أبصر نظاماً حاكماً على العالم المترامى وعلى وجوده هو لا يمكن تفسيره بالعلل الطبيعية غير العاقلة وغير العالمة، وكان هذا هو المنطلق فى ظهور الاعتقاد باللَّه، فَلماذا يرفضون نهجاً بهذا الوضوح ويسلكون طريق الجهل والضلال؟!

---

(١) الاقتباس من فرويد والفرويدية.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٥

٥- نظرية الحاجات الأخلاقية

يقول «أنشتاين» فى بحث بعنوان «الدين والعلوم»: بقليل من الدقّة يتّضح أنّ الأحاسيس والانفعالات التى أدّت إلى ظهور الدين مختلفة ومتباينة جدّاً .. وبعد أن يشير إلى نظرية الخوف يضيف:

إنّ النزعة الاجتماعية لدى البشر هى أيضاً من أسباب ظهور الدين، فالفرد يرى أنّ أباه وأمه، أصدقاءه وأقاربه، قادته وعظماءه، يموتون، ويرحلون منْ حوله واحداً واحداً، إذن فالرغبة فى الهداية والمحبّة وأن يكون محبوباً فى مجتمعه وأن يكون له أمل فى شخص ما معتمداً عليه، تمهد الأرضية فى نفسه لقبول الاعتقاد باللَّه «١».

وبهذا فهو يريد أن يفترض دافعاً أخلاقياً واجتماعياً لظهور الدين.

وهنا أيضاً نلاحظ أنّ الذين طرحوا هذه الفرضية قد خلطوا بين «الأثر» و «الدافع»، فى حين أنّنا نعلم أن ليس كل أثر هو دافع بالضرورة، فَمن الممكن أن نعثر على كنز أثناء حفرنا لبئر عميق، وهذا هو «أثر»، والحال أنّه لا شك فى أنّ المحرك والدافع الأساسى لحفرنا البئر شىء آخر وهو الحصول على الماء وليس اكتشاف كنزٍ ما.

وعليه فصحيح أنّ بامكان الدين تسكين ومعالجة آمال وآلام الإنسان الروحية، وأنّ الإيمان باللَّه يخلصه من الاحساس بالوحدة عند فقد الأحبّة والأصدقاء ويملأُ الفراغ الناتج من فقدانهم، ولكن هذا أثر وليس دافعاً.

الحافز الأصلى للدين والذى يبدو منطقياً جدّاً هو فى الدرجة الأولى ما أشرنا إليه سابقاً، فحينما يرى الإنسان نفسه وجهاً لوجه أمام نظام فى عالم كلما تأمل فيه أكثر تعرف على عمقه وتعقيده وعظمته أكثر، فهو لا يستطيع أبداً أن يعتبر ظهور ولو «وردة» واحدة بكل ما لها من ظرافة وبناء عجيب، أو ظهور «عين» واحدة بكل ما فيها من نظام ظريف ودقيق ومعقد، لا يستطيع أن يعتبر ذلك وليداً للطبيعة غير العاقلة والمصادفات العمياء الصماء، ومن هنا يبحث الإنسان عن مُبدىء لهذا النظام.

---

(١) الدنيا التى أراها، ص ٥٣.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٦

وبالطبع فهنالك أمور أخرى تدعم هذا المعنى أشرنا إليها سابقاً.

والعجيب أن «انشتاين» نفسه الذى اقترح مثل هذه الفرضية تراجع عن كلامه فى مكان آخر وأعرب عن عقيدته فى موجد عالم الوجود وايمانه الراسخ بذلك المُبدىء الكبير بشكل ملفت للنظر، يدل على إنّه ينكر الاعتقاد الممتزج بالخرافات ولا ينكر التوحيد الخالص من أى خرافة.

إنّه يقول: «ثمة وراءَ هذه الأوهام معنى واقعى لوجود اللَّه لم يتوصل إليه سوى القليل من الناس» ثم يصرح بعقيدته وعقيدة كبار العلماء بنوع من الإيمان الدينى الذى يسميه «الأحساس الدينى بالخلق» أو «الوجود» ويدعوه فى مكان آخر ب «الحيرة اللذيذة من نظام الكائنات العجيب الدقيق».

والألطف من ذلك أنّه يقول: «إنّ هذا الإيمان الدينى سراج درب البحوث فى حياة العلماء» «١».

طبعاً الكلام هنا كثير وإذا أردنا أن نترك العنان للقلم حسب التعبير الدارج فسوف نخرج عن شكل البحث فى التفسير الموضوعى.

لهذا نعود إلى أصل الحديث مرّة أخرى وننهى هذا البحث، ونلفت النظر إلى أنّه يجب البحث عن دافع ظهور الأديان فى مطالعة عالم الخلقة أولًا (الحافز العقلى والمنطقى)، ثم فى الجاذبية الذاتية العنيفة (الحافز الفطرى)، ثم فى التوجه نحو ذلك المبدىء الكبير بسبب التمتع بنعمه اللامتناهية (الحافز العاطفى) «٢».

---

(١) الدنيا التى أعرفها، ص ٥٦ و ٦١.

(٢) من أجل مزيد من المعلومات فى هذا المجال يراجع كتابنا «الحافز فى ظهور الأديان».

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٧

براهين معرفة اللَّه:

اشارة

١- بُرهَان النظم

٢- برهان التغيّر والحركة (يبحث فى مجلّد ٣)

٣- برهان الوجوب والإمكان (الغنى والفقر) (يبحث فى مجلّد ٣)

٤- برهان العلة والمعلول (يبحث فى مجلّد ٣)

٥- برهان الصدّيقين (يبحث فى مجلّد ٣)

٦- الطريق الباطنى لمعرفة اللَّه (الفطرة) (يبحث فى مجلّد ٣)

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۹

۱- بُرهَان النظم

التمهيد:

إنّ أوسع برهان اعتمد عليه القرآن الكريم فى آياته وسوره فى إثبات «معرفة اللَّه» هو «برهان النظم» بشكل غطى هذا البرهان على كافة البراهين التى وردت فى القرآن الكريم.

وهـذا يـدل على أنّ أفضل وأوضح طريق لمعرفـة اللَّه وتنزيهه من كافة ألوان الشرك من وجهة نظر هذا الكتاب السماوى العظيم هو البحث فى نظام الخلقة وأسرار الوجود وآيات الآفاق والأنفس.

مميزات برهان النظم:

لهذا البرهان خصائص من أجلها اعتمد وأكد عليه القرآن الكريم إلى هذا الحد.

۱- إنّ برهان النظم يقنع العلماء كما يقنع عامة الناس، أى أنّ كل فئة تستطيع الاستفادة والانتفاع منه حسب قابليتها، وذلك لأنَّ الناس مختلفون فى إدراك أسرار الخلقة.

۲- ليس فى برهـان النظم الجفـاف الموجود فى الاستدلالات الفلسـفية، بل على العكس فيه لطف خاص يمنـح الإنسان حبّ الاطلاع على ذلك المُبـدىء الكبير، ويوجـد فيه نوعاً من الانـدفاع والشوق نحوه، ويخلق لـديه حالة من الخضوع الممزوج بالحبّ ومعرفة اللَّه، وبتعبير آخر فهو يروى عقل الإنسان كما يروى عواطفه وأخلاقه.

وأخيراً فإنّ برهان النظم وبسبب دراسته لأنواع النعم الإلهيّة ضمن دراسة نظم هذا العالم فهو يؤكد على مسألة شكر المنعم، وهذا بحدّ ذاته حافز آخر من حوافز التوحيد.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۴۰

۳- إنّ برهـان النظم برهـان فى حـال تطور (متجـدد)، وبتعبير آخر هو برهان لا متناه، المقدّمـة الكبرى وإن كانت ثابتـة، لكن صـغراها تمثل أعصانا متفرعـة ومورقة وذات برأعم نامية لهذا البرهان، لأنّ أى اكتشاف من الاكتشافات العلمية حول أسـرار الخلقة إنما يشـكل مصداقاً وصغرى جديدة لهذا البرهان، فهو لهذا جديد دائماً، وفى كل يوم يأخذ شكلًا آخراً، وهو متطور ومتقدم إلى جانب تطور العلم والمعارف البشرية.

۴- إنّ برهان النظم يدعو الإنسان إلى سلوك الآفاق والأنفس، وهذا السلوك المملوء بالبركة يزيد من مستوى معرفة الإنسان فى كل يوم ويجعـل تفكيره مزدهراً، خاصـة وأنّ أسـس برهـان النظم مختلطـة بحيـاة الإنسـان وهو يواجههـا فى كل خطوة من خطواته، وليس كالبعض الآخر من البراهين التوحيدية التى تقع على هامش قضايا الحياة وخارجها.

۵- برهان النظم هو البرهان الوحيد الذى يستطيع إخضاع الفلاسفة التجريبيين الذين ينكرون الاستدلالات العقلية المحضة، ويستخدم حربة العلم التى يستخدمونها فى إثبات «المادية» ضدهم، وهو بهذا اللحاظ ذو فاعلية عالية.

ولهذا ليس من العجيب أن يضع القران الكريم الغالبية العظمى من مباحثه التوحيدية على أساسه، لكن من العجيب أنّ بعض المحققين المتأثرين بشدة ببراهين أخرى (البراهين الفلسفية المحضة) يتجاهلون الأهميّة القصوى لهذا البرهان وكأنّهم لا علم لهم بمميزاته وآثاره العميقة.

أسس برهان النظم:

يرتكز هذا البرهان فى شكله الأول على ركيزتين أساسيتين، بحسب ما هو مصطلح يشكل صغرى وكبرى
١- هنالك نظام دقيق ومحسوب يحكم عالم الوجود.
٢- أينما وجدنا نظاماً دقيقاً ومحسوباً فمن غير الممكن أن يكون وليد الحوادث التصادفية، بل لابدّ أن يصدر عن علم وقدرة عظيمين.
نفحات القرآن، ج٢، ص: ٤١
والنتيجة هى أنّ هناك مبدأ علم وقدرة عظيم وراء نظام عالم الخلقة (سواء أطلقنا عليه اسم اللَّه أو وضعنا له إسما آخر) لأنّ التسمية لا تؤثر فى مثل هذه البحوث.

العلاقة بين النظام و العلم:

قبل كل شيء يجب إثبات المقدمة الثانية المسماة بكبرى القياس، ومن أجل هذا لابدّ من تعريف مختصر ل «النظام».
يمكن القول: أن أى منظمة أو موجود يعمل وفق برنامج معين ويعطى نتائج معينة، هو موجود منظم، وعلى هذا الأساس فإنّ «الحساب» و «البرنامج» و «الهدف» تشكل العناصر الأصلية الثلاثة للنظام، فمثلًا الساعة نموذج ل «الموجود المنظم»، ذلك أنّ أجزاءها مصنوعة وفق حساب دقيق، ثم هنالك برنامج لتركيبها، والهدف منها هو التشخيص الدقيق للوقت.
ولأجل التوصل إلى هذه العلاقة (علاقة النظام والعلم) يمكن الاستعانة بعدّة أدلة:
١- الوجدان: مع أننا لم نر أبداً الكثير من العلماء الكبار والمخترعين والفنانين المهرة، ولم يبق منهم سوى الآثار، إلّاأنّنا حين ننظر إلى تلك الآثار والكتب والصناعات واللوحات النفيسة والأبنية البديعة، نعترف بدون الحاجة إلى دليل بعقلهم وذوقهم وعلمهم ومهارتهم الصناعية والفنية.
٢- من أجل إثبات هذه العلاقة يمكن- بالإضافة إلى الوجدان- الاستعانة بالدليل المنطقى، فمن أجل أحداث بناية منظمة واظهارها إلى الوجود يجب أن يكون هناك اختيار فى سبع مراحل على الأقل.
فلو تصورنا بناية عظيمة وجميلة ومحكمة، وجب أن نمارس عملية الاختيار والانتخاب بشكل محسوب على عدة أصعدة «اولها» نوعية المواد المستخدمة، و «ثانيها» مقدار وكميَّة المواد، و «ثالثها» جودة المواد، و «رابعها» الأشكال والأحجام المختلفة، و «خامسها» إيجاد الانسجام بين الأجزاء، و «سادسها» إيجاد التناسب بينها، و «سابعها»
نفحات القرآن، ج٢، ص: ٤٢
من حيث وضع كل من الأجزاء فى مكانه المناسب.
وهذه الاختيارات السبعة يجب أن تتمّ كل واحدة منها وفقاً للعلم والاطلاع والحساب، وأحياناً الحسابات الدقيقة جدّاً، ومن هنا عندما نرى مثل هذه البناية نتيقن أن صانعها بلا شك كان يملك العلم والمعرفة والاطلاع الواسع.
٣- يمكن إثبات هذه العلاقة (علاقة النظام والعلم) عن طريق آخر (عن طريق البرهان الرياضى).
إنّ «حساب الاحتمالات» الذى اصبح اليوم فرعاً علمياً مستقلًا فى الجامعات ذو فاعلية جيدة جدّاً فى مجال العلاقة بين النظام والعلم، وهو نفس الشيء الذى ندركه بصورة إجمالية فى حياتنا، لكن حساب الاحتمالات يعكسه فى شكلٍ رياضى واضح.
إنّنا لا- نصدق أبداً أنّ إنساناً امياً يستطيع عن طريق الصدفة أن يؤلف كتاباً فى مجال «الفلسفة» مثلًا أو «الآداب والشعر» أو «الطب»، بمعنى أن نعطيه آلة طابعة فيبدأ بدون أن يعرف الحروف بالضغط على أزرار الآلة ليطبع كتاباً.
وليس من المستحيل كتابة كتاب علمى عن طريق الصدفة فحسب، بل لا يمكن كتابة حتى رسالة قصيرة أيضاً.
لأنّه لو افترضنا أن حروف الآلة الطابعة ثلاثون حرفاً فقط، (وهى بالطبع أكثر بكثير، لأنّ لبعض الحروف صور متعددة، فمثلًا حرف الباء الأولية والباء الوسطية والباء النهائية والباء المفردة تشكل أربع صور مختلفة لحرف الباء) يقول حساب الإحتمالات هنا: إنّ الظهور

التصادفى لكلمة «من» المكونة من حرفين هو احتمال واحد من تسعمائة احتمال.

(٣٠/ ١* ٣٠/ ١/ ٩٠٠/ ١).

واحتمال ظهور كلمة مكونة من ثلاثة أحرف هو احتمال واحد من ٢٧ ألف احتمال، وحين نصل إلى كلمة مكونة من خمسة أحرف سوف نجتاز حدود ٢١ مليون!!.

والآن إذا كانت الحروف الموجودة فى رسالة قصيرة هى مائة حرف فإنّ مجموعة احتمالات هذه الأحرف هى العدد ٣٠ مرفوعاً إلى الأُس ١٠٠ بحيث أن رسالتنا المعينة

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٤٣

تشكل احتمالًا واحداً من هذا العدد الهائل من الاحتمالات، أى عدداً كسرياً بسطه واحد ومقامه العدد ٣ إلى يمينه مائة صفر.

إنّ مقام هذا الكسر من الضخامة بحيث لا يمكن حسابه، ولا شىء فى هذا العالم يصل إلى ضخامة هذا العدد.

ولأجل إيضاح هذه الحقيقة يكفى أن نعلم أننا لو قطرنا جميع المحيطات على الكرة الأرضية قطرة قطرة وحسبنا عددها لكان عددها أقل من عدد على يمينه واحد وعشرون صفراً فقط.

وعلى هذا الحساب لو حسبنا كتاباً مكوناً من ألف صفحة فإنّ عدد الاحتمالات سيتضخم إلى درجة أنّ الاحتمال التصادفى لعدده الكسرى (البسط) يتساوى مع الصفر أى أنّه مستحيل.

وبهذا الدليل، إذا ادّعى شخص مثلًا: أنّ «ابن سينا» مؤلف كتاب «القانون» فى الطب كان أمياً تماماً، وأنّ «المتنبّى» لم يكن له ذوق شعرى مطلقاً، وأن «أنشتاين» لم يكن يفقه شيئاً من الرياضيات وأنّ بنّائى الأبنية التاريخية الشهيرة لم يكن لهم أدنى اطلاع فى فن العمارة، وأنّ جميع الآثار التى تركوها ظهرت بمحض الصدفة والحركات غير المقصودة لأيديهم على الأوراق أو على المواد الإنشائية! فلا شك أنّ من يقول مثل هذا الكلام إن لم يكن يمزح فهو مجنون!.

وخلاصة القول أنّ علاقة النظام بالعلم واضحة إلى درجة أنّ الكثير من العلوم والمعارف البشرية قائمة على النظام، فمثلًا جزء مهم من تاريخ الحضارة البشرية كتب من خلال مطالعة ودراسة الآثار الجذابة للسلف التى خلفوها بعد رحيلهم.

والعلماء- بمطالعة الآثار التى يعثرون عليها بواسطة الحفريات أو التى يكتشفونها فى قبور ومعابد الأقوام الغابرة- يتوصلون إلى مستوى ثقافتهم وحضارتهم ونوعية عقائدهم.

فى حين إذا أنكرنا علاقة النظام والعلم إنهارت كل هذه الاستنباطات.

الآن وقد اتّضحت تماماً العلاقة بين النظام والعلم، وبعبارةٍ ثبتت كبرى البرهان، نتطرّق

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٤٤

إلى مصاديقها فى عالم الوجود التى اعتمد عليها القرآن الكريم.

واللطيف أنّ آيات القرآن لا تتحدث مطلقاً عن كبرى برهان النظام، أى «علاقة النظام والعلم»، لأنّها كانت واضحة ووجدانية إلى حد أنّه لم تكن ثمة حاجة لبيانها، وكما قلنا فإنّ الإنسان إذا أنكر هذه العلاقة يجب عليه إنكار الكثير من الحقائق الموجودة فى حياته، وما من شك فى أن منكرى هذه العلاقة يشبهون ب «السفسطائيين» الذين ينكرون الحقائق أثناء حديثهم، ولكنهم فى حياتهم اليومية يقبلون جميع الحقائق مثل الآخرين، فمثلًا لو تمرضوا يراجعون الطبيب ويستعملون الدواء وينفذون إرشادات الطبيب حرفاً بحرف، أى أنّهم يعترفون رسمياً بوجود «الطبيب» و «الدواء» و «علم الطب» و «الصيدلة» ومئات الأمور الأخرى الدائرة فى هذا الفلك.

إنّ منكرى «علاقة النظام والعلم» أيضاً بدورهم يستنتجون علمياً وعملياً من أى أثر علمى وصناعى وأدبى وفنى، وجود مُبدىء واع وذى ذوق وفن، ولا يعتمدون أبداً على الاحتمالات المجنونة.

الآن وقد اتّضحت علاقة النظام والعلم تماماً، وثبتت كبرى البرهان حسب الاصطلاح المنطقى، نعرج على مصاديقها فى القرآن الكريم

والتی اعتمد علیها.

ونعتقد أن من الضروری ذکر هذه النقطة وهی: أنّ الفلاسفة المادیین الذین حاربوا برهان النظم (انکار وجود النظام فی العالم أو إنکار علاقة النظام والعلم) وعلی رأسهم «دافید هیوم» لم یتحفونا بسوی مجموعة من الوساوس التی لا قیمة لها، الوساوس التی لم یکونوا یقبلونها فی حیاتهم أبداً.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ۴۵

١- آیاته فی خلق الإنسان

اشارة

فی البدایة نمعن خاشعین فی الآیات الکریمة أدناه:

١- «وَمِنْ آیَاتِهِ أَنْ خَلَقَکُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ». (الروم/ ٢٠)

٢- «إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِیهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِیعاً بَصِیراً».

(الإنسان/ ٢)

٣- «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِّنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِینٍ* ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِی قَرَارٍ مَّکِینٍ».

(المؤمنون/ ١٢ و ١٣)

۴- «ذَلِکَ عَالِمُ الْغَیْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ* الَّذِی أَحْسَنَ کُلَّ شَیْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِینٍ* ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِینٍ* ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِیهِ مِنْ رُّوْحِهِ وَجَعَلَ لَکُمُ السَّمْعَ والْأَبْصَار وَالْأَفْئِدَةَ قَلِیلًا مَّا تَشْکُرُونَ». (السجدة/ ۶- ٩)

۵- «وَفِی خَلْقِکُمْ وَمَا یَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آیَاتٌ لِّقَوْمٍ یُوقِنُونَ» «١». (الجاثیة/ ۴)

شرح المفردات:

«بَشَرْ»: من أصل (بَشَرَة) بمعنی ظاهر جلد الإنسان، ولکن یستفاد من «مقاییس اللغة» أنّ أصلها هو ظهور شیءٍ ذی حسن وجمال، لذا فإنّ حالة «البُشر» (علی وزن الیُسر) بمعنی الفرح والانبساط، وانطلاقاً من أنّ هذه الحالة خاصة بالإنسان، کانت مفردة «البشر»

(١) هنالک فی هذا المجال آیات متعددة أخری أیضاً، صرفنا النظر عن ذکرها لتقارب مضمونها مع ما ذکرناه من الآیات، من جملتها آیات سورة النجم، ۴۵- ۴۶؛ غافر، ۶٧؛ فاطر، ١١؛ الکهف، ٣٧- ٣٨؛ النحل، ۴؛ الانعام، ٢.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ۴۶

اسماً للنوع الإنسانی «١»، وهذه المفردة تطلق علی الرجل والمرأة والمفرد والمثنی والجمع «٢».

«سُلالة»: (علی وزن عُصارة) بمعنی الشیء المأخوذ من شیء آخر، فیکون خلاصته وعصارته، وهی فی الأصل من (سَلّ) علی وزن (حَلّ) بمعنی سحب وجرّ برفق وتستخدم لسحب السیف من القراب أیضاً ثم اطلقت علی عصارة وخلاصة الأشیاء «٣»، وحینما نقرأ فی الآیات المذکورة أنّ اللَّه خلق الإنسان من سلالة من طین، فمعنی ذلک من العصارة المصطفاة من الطین، وقال البعض: إنّ المراد من هذا هو أنّ آدم مخلوق من عصارة کل الأتربة الموجودة علی الأرض (ولهذا فقد استخلص آثار الجمیع فی وجوده) وإطلاق «السلیل» علی «الابن» من باب أنّه ناتج من عصارة وجود الأب والأم.

«النطفة»: فی الأصل بمعنی «الماء الصافی»، واعتبرها بعض أهل اللغة بمعنی «الماء القلیل»، وبما أنّ الماء الذی یمثل المبدأ فی ظهور

الإنسان قليل ومصطفىً وعصارة من كل الجسم فقد أَطلقت هذه المفردة عليه، ويقال للسوائل الجارية «ناطف» أيضاً.

«أمشاج»: جمع «مَشْج» (على وزن نشج) بمعنى الشيء المخلوط، والبعض اعتبرها جمعاً ل «مشيج»، ولأنّ ماء الرجل والمرأة يختلطان عند انعقاد نطفة الإنسان فقد أطلقت هذه المفردة عليه.

جاء في «لسان العرب» أنّ هذه المادة في الأصل بمعنى اللونين المختلفين الذين يمتزجان مع بعضهما (ثم أطلقت على الأشياء المختلفة التي تختلط مع بعضها).

خلق الإنسان من (نطفة أمشاج)، يمكن أن تكون إشارة إلى المواد المختلفة التي تشكل النطفة، أو القابليات المتنوعة التي تجتمع في النطفة عن طريق عامل الوراثة وغيره من العوامل، أو أنّه إشارة إلى كل هذه الامتزاجات.

---

(١) مقاييس اللغة، لسان العرب والتحقيق في كلمات القرآن الكريم.

(٢) لسان العرب، ومجمع البحرين.

(٣) مفردات الراغب، مجمع البحرين، ولسان العرب.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٤٧

جمع الآيات وتفسيرها

آيات الأنفس الأولى

للقرآن الكريم عبارات متنوعة حول بداية ظهور الإنسان، يقول في أول آية بهذا الخصوص:

«وَمِنْ آيَاتِهِ أنْ خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَاب».

ويقول في الآية الرابعة: «وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِيْنٍ».

ويقول في الآية الثالثة: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِّنْ طِيْنٍ».

ويقول في الآية ١١ من سورة الصافات: «إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّنْ طِيْنٍ لَّازِبٍ».

ويقول في الآية ٢٦ من سورة الحجر: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ».

وجاء في الآية ١٤ من سورة الرحمن: «خَلَقَ الانْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ».

«الصَلْصَال»: في الأصل بمعنى لوى الصوت في الجسم اليابس، ولهذا سمّى الطين اليابس الذى يصدر منه صوت عند ارتطام جسم آخر به بالصلصال، وحين يُفخر على النار يقال له «الفخار».

«الفخار»: مأخوذ من مادة «فخر» أى الفخور كثيراً، ولأنّ الأشخاص الفخورين أناس كثيرو الضجيج والكلام وفارغون، فقد أُطلق هذا الاسم على الكوز وكل فخار فارغ الجوف، بل أطلق على كل أنواع الفخار «١».

يستفاد من مجموع الآيات أعلاه أنّ الإنسان كان تراباً في البداية، وقد امتزج هذا التراب بالماء واستحال إلى الطين، وقد أخذ هذا الطين بعد مضى فترة شكلَ الوحل ثم استخلصت من عصارته المادة الأصلية لآدم ثم جُفِّفَتْ، وباجتيازها المراحل المهمّة تكوّن آدم.

لكن في آيات اخرى من القرآن كالآية الثانية المعنية، يعتبر خلقة الإنسان من نطفة

---

(١) مفردات الراغب؛ ومجمع البحرين؛ ولسان العرب.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٤٨

مختلطة: «مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ».

وفى الآية الثالثة يعتبرها اولًا من «عصارة الطين»، ثم من «نطفة فى الرحم»: «مِنْ سُلالَةٍ مِّنْ طِيْنٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِيْنٍ».

واضـح أنّ المراد من هـذه الآيات هو خلقـة الإنسان فى المراحل والأجيال اللاحقـة، وبهذا فإنّ جدنا الأول مخلوق من التراب، وأولاده وعقبه من نطفة أمشاج.

وثمّة احتمال فى تفسير الآية أعلاه هو: بما أنّ المواد المكوِّنة للنطفة مأخوذة جميعها من التراب (لأنّ غذاءنا إمّا من المواد الحيوانية أو النباتيـة ونعلم أن جميع هـذه المواد نحصـل عليها من التراب)، لهـذا فلم يكن الإنسان الأول من التراب فحسب، بل إنّ جميع الناس فى المراحل اللاحقة ينشأون من التراب أيضاً «١».

وعلى كل حال، فهـذه حقّاً من العجائب الكبيرة فى عالم الوجود وغرائب عالم الخلقـة أن يولـد- من مادة ميتة وبلا روح ولا قيمـة لها كالتراب- موجود حى وعاقل وذو قـدر وقيمـة كالانسان، فهـذه من الآيات البينات لـذلك المُبـدىء الكبير، و «إنّ ذلك الخالق لجدير بالشكر والثناء لأنّه خلق من الماء والطين مثل هذا الشكل الجذاب».

وبشكل عام فإن ظهور الحياة من موجود ميت مايزال من ألغاز عالَم الفكر والمعرفة، فضمن أىّ شروط وظروف يخرج موجود حى من موجود ميت كالتراب؟ يعتقـد كل العلماء أنّ الكرة الأرضـية حين انفصـلت عن الشـمس كانت كلها ناراً محترقة، ولم تكن عليها حياة مطلقاً، ثم بردت قليلًا قليلًا وهطلت عليها سيول الأمطار من الغازات المضـغوطة الموجودة حولها، فتكونت البحار، بـدون أن يكون فيها كائن حى، ثم ظهرت بوادر الحياة سواء النباتية أو الحيوانية وأخيراً خُلقَ الانسان!

إنّنا سواء اعتقدنا بالخلق المستقل للإنسان (كما هو ظاهر الآيات القرآنية)، أو اعتبرنا

---

(١) ورد فى تفسير الميزان، ج ١۶، ص ١٧٣ إشارة مقتضبة لهذا المعنى

نفحات القرآن، ج٢، ص: ۴٩

الإنسـان متكاملًا من أنواع الأحيـاء الأخرى (كما يقول أتباع داروين، ونظريـة التكامل)، فمهما كان فإن جـذور هـذا الإنسان تعود إلى الـتراب، فهو منبثق ومخلوق منه، وإذا كـان ظهور كـائن حى أُحـادى الخليـة ومجهرى من الـتراب، محيّراً لأفكـار كـل العلمـاء، فكيف بظهور الإنسان من التراب الميت الخالى من الروح؟

هنا يجب الاعتراف أننا بأزاء آيـة كبيرة من آيات الحق وعلامـة محيّرة من عظمة اللّه، آية من العالم الصـغير هى نموذج متكامل للعالم الكبير.

يقول كاتب «سر خلق الإنسان» «غرسى موريسن» فى معرض إشارته إلى بداية ظهور الحياة على الكرة الأرضية:

«وقعت حادثة عجيبة فى بداية ظهور الحياة على الكرة الأرضـية كان لها أثر كبير على حياة الموجودات الأرضـية، حيث أصبح لاحدى الخلايا خاصـية عجيبة وهى أنّها وبواسطة ضوء الشمس بدأت تحلِّل وتجزِّء بعض التراكيب الكيميائية وتوفر بهذا العمل المواد الغذائية لنفسـها ولسـائر الخلايـا المشابهـة، وقـد تغـذت الخلايا المنشـطرة من احـدى هـذه الخلايا البدائيـة على الأغذيـة التى وفرتها لهم أمهم وأوجـدت جيـل الحيوانـات، فى حين أنّ خليـة أخرى بقيت على شـكلها النبـاتى وكونت نباتات العالم، وهى اليوم تغـذى كل الأحياء الأرضية.

ثم يضـيف: هل يمكن التصـديق أنّه وحسب الصدفـة كانت إحـدى الخلايا منشأً لحياة الحيوانات وخليـة أخرى كانت أصـلًا ومصـدراً للنباتات؟».

ووفق قول آخرين:

إنّ العلماء يقسـمون موجودات عالم المادة إلى نوعين، العضوية (وهى الموجودات القابلة للفساد كأنواع النباتات وأجسام الحيوانات)،

والموجودات اللاعضوية (المعدنية) التى لا تقبل الفساد، ولهذا يقسمون الكيمياء إلى قسمين «الكيمياء العضوية» و «اللاعضوية».

تشكل المواد العضوية جميع أطعمة الإنسان تقريباً، وهى مأخوذة كلها من التراب،

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۵۰

وحين تدخل جسم الإنسان تكوّن تراكيب كيميائية جديدة تناسب تغذية كل عضو من الأعضاء، وهذه نفس الحقيقة التى يبينها القرآن بعبارة: «إنّا خَلَقْنَاكُم مِّنْ تُراب» أو «مِنْ سُلالةٍ مِّنْ طِين» «۱».

صحيح أنّ للإنسان علاوة على المادة الترابية روحاً إلهية، ولكن لا شك أنّ الروح تكون مظهراً للأعمال والأفعال المختلفة بالتنسيق مع الجسم و عليه فإنّ هذه المادة الترابية تستطيع بالتنسيق مع الروح أن تقدم أنواع القابليات والأذواق والابتكارات والأعمال التى يحار فيها العقل.

مع أنَّ الإنسان صار موضوعاً لعلوم مختلفة، وهنالك عالِم خاص حول كل جانب من جوانبه يمارس دراساته وأبحاثه، إلّاأنّ الإنسان ما يزال موجوداً مجهولًا، ويلزم من الوقت سنين طويلة لكى يحل العلماء بجهودهم المتواصلة هذا اللغز الكبير فى عالم الوجود وينيروا زواياه، وربّما لم يستطيعوا أبداً أن يقوموا بذلك!

يمكن لكل عضو من أعضاء جسم الإنسان أن يكون لوحده موضوعاً لحساب الاحتمالات: العين، الاذن، القلب، العروق، الجهاز التنفسى، الكلى المعدة، الكبد، وأخيراً الجهاز العصبى المعقّد، وبعملية رياضية بسيطة يتضح أن أى عقل لا يوافق على أنّها خُلقت صدفة.

نعم، إنّه من أجل التوصل إلى بنية ونوع فعالية وفسلجة كل واحد من الأعضاء فقد درس آلاف العلماء والعقول المفكرة وكتبت مئات أو آلاف الكتب حولها.

هل يصدق أحد أنّه من أجل معرفة كل واحد من هذه الأعضاء تلزم كل هذه العلوم والعقول والذكاء والدراية، بينما لا يلزم صنعها علماً وعقلًا على الاطلاق؟! كيف يمكن أن يكون فهم اسلوب عمل إحدى المعامل متطلباً لسنين من المطالعة، بينما تكون صناعة هذا المعمل قد حصلت على يد العوامل غير العاقلة؟ أى عقل يصدق هذا؟!

هنا لا يعتبر ظهور الإنسان من المادة البسيطة (التراب) ومن سلالة من طين ومن الحمأ

---

(۱) مقتبس من إعجاز القرآن من وجهة نظر العلوم المعاصرة، ص ۲۳ و ۲۴.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۵۱

المسنون إحدى أعمال الخلق العظيمة والآيات الكبيرة على وجود اللَّه فحسب، بل إنّ كل واحدة من خلايا الجسم بامكانها أن تكون مرآة عاكسة لعظمة اللَّه ووجوده.

التعقيد والدقة فى نظام الخلق:

يقولون: إنّ للجهاز الفلانى نظام معقد، هذا عندما يكون بناؤه متكوناً من أجزاء وتشكيلات مختلفة ذات ارتباطات متعددة ومتنوعة، ويقوم بأعمال متباينة مهمّة، فمثلًا الحاسبة الألكترونية التى تستطيع فضلًا عن أعمال الحساب الأصلية أن تحل أنواع المعادلات الجبرية والقضايا الهندسية وتؤدّى مختلف الحسابات الرياضية بسرعة أو تحفظها فى حافظتها، تعتبر ذات نظام معقد.

يقول العلماء: إنّ خلف غشاء شبكية العين يُوجد تسعون ألف حزمة عصبية تربط بين خلايا الشبكية وسلسلة الأعصاب (بالطبع لكل عين من عينى الإنسان تسعون ألف حزمة) وهذا نظام عجيب ومعقد جدّاً، وبأخذ هذه النقطة بنظر الاعتبار نعود إلى أصل البحث:

فى عالم الخلقة وعلاوة على قضية الظرافة والدقّة، ثمّة أنظمة معقدة غاية التعقيد، تبهت الإنسان وتحيره، وحسب تعبير بعض العلماء

فإنّ فی مدینة جسم الإنسان العظیمة أبنیة تکون أکبر ناطحات السحاب فی العالم إلی جانبها مثل کوخ طینی.

وکنموذج: نأخذ بناء الخلیة وهی من بین الأنظمة المعقدة فی العالم، والذی اکتشفت الیوم أسرار عظیمة منه.

وکذلک فإنّ الإنسان وبشکل معدل فی جسمه «عشرة ملایین ملیار» وحدة حیة صغیرة تسمی «الخلیة».

کان أول من اکتشف الخلیة ووضع لها تسمیة، عالمٌ یدعی «هوک» فی القرن السابع عشر المیلادی، وطبعاً فإنّه لم یکن یعلم یومذاک ما فی بناء هذه الوحدة الصغیرة من تعقید یبعث علی الحیرة، ولکن العلماء الذین جاؤوا بعده واصلوا مساعیه وتوصلوا إلی أسرار نسرد فیما یلی جانباً من شهاداتهم:

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۵۲

۱- یمکن تشبیه خلیة مجهریة واحدة بمدینة فیها آلاف التأسیسات مجهزة بمنشآت ومعامل لتبدیل المواد الغذائیة إلی المواد التی یحتاجها الجسم، بحیث لا یمکن أن نقیس أعظم وأحدث الظواهر الصناعیة للبشر بها.

۲- تتکون هذه المدینة الصغیرة والصاخبة من ثلاثة أقسام:

أ) جدار الخلیة وهو بمثابة سور المدینة.

ب) القسم الأوسط للخلیة (السایتو بلازم).

ج) النواة أو مرکز القیادة.

إنّ السور المصنوع حول الخلیة من اللطافة والظرافة بحیث لو وضعنا ۵۰۰ ألف من هذه الجدران إلی جانب بعضها فمن الصعب أن تساوی سمک ورقة اعتیادیة! ومع هذا فهو حساس ومحکم قبال هجوم العوامل الخارجیة إلی درجة أن سور الصین المعروف لیس شیئاً یذکر بالقیاس إلیه!

وهذا السد الرقیق مصنوع بدوره من ثلاثة جدران أو من ثلاث طبقات اصطلاحاً، یتشکل طرفاه من الأنسجة البروتینیة وأسفله ملیءٌ بالدهنیات وهذه الدهنیات لاتسمح لشیء أبداً بالدخول داخل المدینة إلّابمفتاح رمزی، وهذا المفتاح الرمزی هو: أنّ المواد التی ترید الدخول إلی المدینة یجب أن تتمکن من إذابة دهون الجدار فیها والنفوذ إلی الداخل، وهذا دلیل یثبت أنّها صدیقة ولیست من الاعداء، وبهذا فإنّ هذه المدینة محروسة بشدة من کل جانب بدون حاجة إلی حارس.

۳- یوجد فی داخل هذه المدینة (الخلیة) قنوات کثیرة تمتد من الجدران إلی أطراف «النواة»، أی حصن قیادة الخلیة، تأخذ المواد الغذائیة وتحیلها إلی بروتینات.

واللطیف أنّ ۲۳ نوعاً خاصاً من الأحماض تدخل هذه الخلیة، والبروتین یتکون من ترکیب عدة أنواع منها.

۴- النواة الأصلیة بمفردِها تمثل ناطحة سحاب مکوّنة من آلاف الطبقات بحیث تکون ناطحات السحاب المعروفة فی نیویورک منزلًا متواضعاً إلی جانبها.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۵۳

للنواة الأصلیة فی الخلیة وهی مقر القیادة تشکیلات معقدة: غشاء النواة، العصارة الداخلیة، والحزمات الرفیعة حولها التی تتولی کل منها مهمّة خاصة.

۵- العجیب أنّ فی نواة الخلیة وحدات صغیرة جدّاً وظریفة تسمی «الجینات» یصل عددها طبقاً لدراسات العلماء إلی حدود ۲۵ ألف جین.

لیست «الجینات» هی الکل فی الکل فی أعمال الخلایا وحسب، بل إنّها تمسک بکل نشاطات الجسم، ومن أهمها التحکم بالأُمور الوراثیة ونقل الصفات والخصائص إلی الخلایا اللاحقة، أی أنّ انتقال کل الصفات الوراثیة عند البشر وسائر الحیوانات یتمّ عن طریق الجینات.

ولأنّ العمل الأساسى للجين يقع على عاتق الحامض الخاص فى النواة، لذا يمكن تسميته بالعقل الألكترونى أو كامبيوتر الجين.
والأعجب من هذا، أنّ نفس هذه الجينات متكونة من أجزاء أخرى تصل طبقاتها من ۳۰ إلى ۵۰ ألف حسب ما يعتقد العلماء.
ومختصر الكلام أنّ هذه المدينة العظيمة بذلك السور العجيب وآلاف المنافذ والبوابات، وآلاف المعامل والمخازن وشبكة الأنابيب ومركز القيادة بتأسيساته الكثيرة وارتباطاته المتعددة والنشاطات الحياتية المتنوعة فى تلك الحدود الصغيرة، من أعقد وأدهش مدن العالم، إذ إنّنا لو أردنا أن نصنع مؤسسات تقوم بنفس الأعمال (ولا نستطيع ذلك أبداً)، وجب علينا اقتطاع عشرات الآلاف من الهكتارات من الأرض لوضعها تحت اختيار هذه المؤسسات والأبنية المختلفة والأجهزة المعقدة لتكون جاهزة لمثل هذا البرنامج، لكن المدهش أنّ نظام الخلق قد ضغط كل هذا فى مساحة تعادل ۱۵ مليون مليمترا! «۱».
أجل، فى خلقة الإنسان آلاف آلاف من الآيات والعلامات الإلهيّة: «الْعَظَمَةُ لِلَّهِ الواحِدِ القَهَّارِ».

---

(۱) من كتب فسلجة الحيوان، فسلجة الوراثة، والسفر إلى أعماق وجود الإنسان.
نفحات القرآن، ج۲، ص: ۵۵

۲- آياته فى نمو الجنين

تمهيد:

ظلت تحولات نمو الجنين فى بطن أمه ولسنين طويلة خافية عن أعين العلماء، إلى أن رفعت يد العلم النقاب عن هذا العالم المملوء بالأسرار، وأظهرت أنّ النطفة عندما تستقر فى محلها من الرحم وتبدأ سيرها التكاملى، ماذا تطوى من المراحل المختلفة والمتنوعة حتى تصبح على هيئة إنسان كامل، والعجيب أن القرآن الكريم أكد عدة مرات على قضية نمو الجنين فى آياته المختلفة وفى ذلك العصر والزمان الذى لم تكن فيه علوم ولا اكتشافات، تارةً لإثبات التوحيد وتارة لإثبات المعاد.
مع إنّ «علم الأجنة» ما زال فى مراحله الأولى، ومعلوماتنا عن هذا العالم الغامض ما تزال قليلة جدّاً، ولكن حتى هذا المقدار الذى كشف العلم البشرى النقاب عنه، قد وضع دنيا من العجائب والغرائب مقابل أعين العلماء.
بهذه الإشارة نتأمل خاشعين فى الآيات الكريمة التالية:
۱- «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِيْنٍ* ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرارٍ مَّكِيْنٍ* ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِيْنَ». (المؤمنون/ ۱۲- ۱۴)
۲- «الَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّنْ مَّنِيٍّ يُمَنى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى . (القيامة/ ۳۷- ۳۹)
۳- «أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُّطْفَةٍ فَاذا هُوَ خَصِيْمٌ مُّبِيْنٌ». (يس/ ۷۷)
نفحات القرآن، ج۲، ص: ۵۶
۴- «قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا». (الكهف/ ۳۷)
۵- «هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أجلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُوْنَ» «۱». (غافر/ ۶۷)

شرح المفردات:

«العلقة»: من مادة (عَلَق) (على وزن شفق) وهى فى الأصل بمعنى العلاقة والإرتباط بشىء، ولهذا جاءت كلمة «عَلَق» بمعنى «الدم

المتخثر» و «الديدان المصاصة للدماء»، وقد سميت «العلقة» بهذا الاسم لأنّها احدى مراحل تكوين الجنين في رحم الأم، فهي تشبه قطعة الدم المتخثرة «۲».

جاء في «مقاييس اللغة» أنّ أصل مفهوم هذه المفردة هو ارتباط وتعلق شيء بموجود أعلى منه ثم اتسع مفهومها بعد ذلك «۳».

«المضغة»: من مادة (مَضْغ) بمعنى مضغ الطعام وبمعنى قطعة اللحم التي يمضغها الإنسان لمرة واحدة شرط أن تكون غير مطبوخة، وإطلاق هذا المصطلح على إحدى مراحل الجنين التي تأتي بعد مرحلة «العلقة» جاء من باب تشابهها مع مثل هذا اللحم، ففي ذلك الحين يصبح الجنين على شكل قطعة حمراء فيها الكثير من العروق ذات اللون الأخضر، ويقال أحياناً «قلب الإنسان مضغة من جسده»، كل هذه التعابير تعود إلى أصل واحد «۴».

---

(۱) توجد على هذا الصعيد آيات اخرى في القرآن الكريم نكتفي بذكر رقمها وسورتها لتقارب معناها من الآيات المذكورة أعلاه، فاطر، ۱۱؛ والحج، ۵.

(۲) مفردات الراغب.

(۳) وفي كتب اللغة الأخرى تعابير تشبه هذا التعبير كما في لسان العرب ومجمع البحرين.

(۴) مقاييس اللغة؛ مفردات الراغب؛ مجمع البحرين؛ لسان العرب وصحاح اللغة.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۵۷

«المنيّ»: في الأصل من مادة (مَنى) (على وزن سَعى) بمعنى التقدير والقياس، وبما أنّ في ماء النطفة مقياس إنسان أو حيوانٍ ما، فقد اطلقت هذه المفردة عليه، ولهذا أيضاً يسمى الموت ب «المنيّة» فهي الأجل المقدر للإنسان أو الحيوان.

وإطلاق مفردة «التمنّي» على الآمال جاء بسبب أنّ الإنسان يُصوِّر ويُحدِّد آماله في قلبه، ولأنّ الكثير من الآمال لا تطابق الواقع تأتي مفردة «الأمنية» أحياناً بمعنى الكذب «۱».

جمع الآيات وتفسيرها

عالم الجنين الغامض:

كما اشرنا سابقاً فإنّ القرآن الكريم أكد مراراً على مسألة المراحل التكاملية لنمو الجنين في رحم الأم، ودعا الناس كافة إلى مطالعتها بدقة، واعتبرها إحدى الطرق للوصول إلى معرفة اللَّه، وكذلك إحدىَ طرق إثبات إمكانية المعاد.

إنّ الآيات الأولى المعنية بالبحث وبقرينة العبارة الأخيرة منها: «فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» تشير إلى قضية التوحيد، وبالرغم من أنّ الآيات اللاحقة من نفس سورة «المؤمنون» هذه تدلّ على أنّها تشير إلى قضية المعاد أيضاً وبهذا تكون هذه الآيات قد تعرضت إلى مسألة معرفة اللَّه وتوحيده بالاضافة إلى معاد.

وقد تحدثت في البداية عن خلق الإنسان من «سُلالَةٍ مِّنْ طِيْنٍ» ثم من «نُطْفَةٍ فِي قَرارٍ مَكِيْنٍ»، وبعد ذكر هاتين المرحلتين تنتقل إلى ذكر خمس مراحل أخرى

۱- مرحلة «العلقة» حيث تتبدل النطفة إلى دم متخثر في داخله الكثير من العروق.

۲- مرحلة «المضغة» حيث يصبح هذا الدم المتخثر على شكل قطعة من اللحم.

۳- مرحلة «العظام» حيث تتبدل كل الخلايا اللحمية إلى خلايا عظمية.

۴- يأتي دور مرحلة تغطية العظام باللحم حيث تغطي العضلات كل العظام: «كَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً».

(۱) مفردات الراغب، مجمع البحرين، ولسان العرب.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۵۸

۵- هنا تتغير لهجة القرآن وتخبرنا عن تحول وخلق مهم وجديد للجنين، فيقول بتعبير فيه أسرار وخفايا: «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ».

وعنـدما تنتهى هـذه المراحل السبع يصف القرآن هذه الخلقة العجيبة أجمل وصف بعبارة: «فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ»، وهى عبارة لم تأتِ فى أى آية أخرى من القرآن ولم تستخدم فى مجال أى موجود آخر.

ذكر المفسرون تفاسير متنوعة فى المراد من العبارة الغامضة: «الخلق الآخر».

ويبدو أن أنسبها وأقربها إلى القصد هو بلوغ الجنين مرحلة الحياة الإنسانية، حيث يظهر فيه الحس ويبدأ بالحركة، ويضع قدماً فى عالم الحيوانـات والبشـر، يعبر القرآن عن هـذه الطفرة الكبيرة والعجيبـة بكلمـة «الإنشـاء» فى إشارة إلى الطريق الطويل الـذى يقطعه الإنسان خلال هذه المدة القصيرة.

نقرأ فى حديث عن الإمام الباقر عليه السلام فى تفسير عبارة: «ثُمَّ أَنْشَأناهُ خَلْقاً آخَرَ» قوله: «هو نفخ الروح فيه» «۱».

صحيـح أنّ الجنين كـائن حى منـد لحظـاته الأولى ولكنه وحتى فترة معينـة لا- يمتلـك أى إحساس وحركـة فى بطن الأم، ويكون فى الحقيقـة أشبه بالنبـات منه بـالحيوان أو الإنسـان، ولكن بعـد مضـى عـدّة أشـهر تُبعثُ فيه الروح الإنسانيـة، ومن هنـا جـاء فى الروايات الإسـلامية أنّ الجنين لا يسـتحق قبل بلوغه هـذه المرحلـة الديـة الكاملـة أبـداً، أمّا إذا بلغ هـذه المرحلـة كانت ديته نفس الدية الكاملة للإنسان «۲».

التعبير ب «أَحسن الخـالقين» بـالرغم من أنّه لا- خـالق غير اللَّه إنّمـا هو لأجـل أنّ مفردة «الخلق» ليست فقـط بمعنى الإيجاد بعـد العـدم فحسب، بل لها معان أخرى منها: «التقدير» و «الصـناعة» و «إعطاء الأشكال الجديدة للأشياء الموجودة فى العالم»، ولا شك أنّ الإنسان يستطيع بما منحه اللَّه من قوى أن يوجد تغييرات كثيرة على مواد هذا العالم

(۱) تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۵۴۱، ح ۵۶ و ۵۷.

(۲) المصدر السابق، ج ۲، ص ۵۴۱، ح ۵۶ و ۵۷.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۵۹

المختلفة، فيصنع من الحديد والفولاذ المصانع والمعامل أو يبنى من المواد الإنشائية بناءً عظيماً بأحجام مختلفة.

إذن فللخلق مفهوم واسع يشمل كل هذه الأمور.

ولهذا وَرَد فى القرآن الكريم عن لسان النبى عيسى عليه السلام قوله: «إِنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيْهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ». (آل عمران/ ۴۹)

وبالطبع فإنّ الخالق الحقيقى أى ذلك الـذى يوجـد المادة والصورة وإليه تعود كل قدرات وخواص الأشـياء هو اللَّه فقط، ومهمّة غيره من الخالقين وهم الخالقون المجازيون، هى تغيير الأشكال وتصميم المواد.

تشير الآية الثانية من الآيات المنظورة إلى مرحلة بداية ظهور الإنسان أولًا، أى عندما كان قطرة ماء حقير اسـمه المنى، ثم تذكر مرحلة العلقـة فقط من بين مراحل نمو الجنين ولا تـذكر المراحل الأخرى إلّاتحت عنوان: «فَخَلَقَ فَسَوّى وهو تعبير شامل جـدّاً، وتشدِّد خاصـة على قضية ولادة الجنس «المذكر» و «المؤنث» وهى من أعقد المظاهر المتعلقة بعلم الأجنة: «فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والْأُنْثى .

«سوَّى»: من مادة (تسوية) بمعنى التنظيم والتسوية، ويعتقد البعض أنّها إشارة إلى خلق الروح الذى جاء فى الآية السابقة بشكل آخر.

ويرى البعض أنَّ كلمة «الخلق» إشارة إلى خلق الروح، وكلمة «سوّى إشارة إلى تنظيم وتعديل أعضاء الجسم الإنسانى، وفسّرها البعض

بالتعديل والتكميل.

لكن الظاهر أنّ تعبيرات الآيـة شاملـة وواسـعة بحيث تسـتوعب كل ألوان الخلق والتنظيم والتعديل والتكامل التى تطرأ على العلقة حتى ساعة وضع الحمل «١».

يقول الراغب فى كتاب المفردات: تقال «التسوية» لصيانة الشىء من الأفراط والتفريط من حيث المقدار والنوعية.

---

(١) تفاسير القرطبى، روح المعانى، فى ظلال القرآن، الميزان و الكبير، فى التعقيب على الآية المعنية.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ۶٠

فى الآية الثالثة يؤكد على نقطة جديدة أخرى ويقول بعد الإشارة إلى خلق الإنسان من النطفة «خصيم مُبين».

وقـد وردت تفاسـير متعـددة لهـذا التعبير: فقالوا تارة إنّها إشارة إلى مرحلتى «الضـعف» و «القوة» لدى الإنسان، حيث كان يوماً ما نطفة حقيرة ويصبح لاحقاً قوياً ومقتدراً إلى درجة قيامه بالخصومة والضجيج ازاء كل شخص حتى ازاء اللَّه!.

وقالوا تارة إنّها إشارة إلى ملكـة النطق والفهم والشـعور لدى الإنسان، فهذه النطفة الحقيرة يصل بها الأمر إلى عدم الاقتصار على النطق فقط، بل إلى التمتع بالقدرة على الاسـتدلال المنطقى بانواعه والاقتدار العقلى، ونحن نعلم أنّ ظاهرة النطق والبيان والمنطق والاستدلال من أهم ظواهر الوجود الإنسانى.

وقيـل أحيانـاً: إنّ هـذا التعبير إشارة إلى النزاع العجيب الـذى يحصل بين الخلايا الذكريـة (الحيامن) من أجل التسـلط والاتحاد بالخلية الانثوية (البيضة)، لأنّ نطفة الذكر عندما تدخل الرحم تتحرك آلاف الحيامن بسرعة كبيرة لتصل إلى نطفة الأنثى وتتحد معها.

وأول حيمن يصل إليها وينفذ إلى داخلها يسد الطريق على بقية الحيامن، لأنّ غشاءً مقاوماً سيحيط بالبيضة ويمنع من نفوذ بقية الحيامن إليها، وبهذا فإنّ البقية سـيهزمون فى هذا الصـراع العجيب ويمتصـهم الدم، ولهذا يشير القرآن الكريم بعد ذكر مرحلة النطفة إلى قضية «خصيم مُبين» «١»

.

فى الآيـة الرابعـة أيضا يرد ذكر الخلقـة من التراب ثم النطفـة وبعـد ذلك مرحلة التسوية والتنظيم، وفى الآية الخامسة وهى آخر الآيات يضيف القرآن إلى كل هذا مرحلة «الولادة» وخروج الجنين من بطن الأم على شكل طفل وليد: «ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا».

وكما نعرف فإنّ أهم عجائب الجنين هى نهاية عمره، بالولادة، أية عوامل تؤدّى إلى

---

(١) إعجاز قرآن از نظر علوم روز، ص ٢٧ (بالفارسية).

نفحات القرآن، ج٢، ص: ۶١

إصدار الأوامر للجنين بالخروج فى لحظة معينة! وتقلبه عن شكله العادى (فى الحالة العادية يكون رأس الجنين إلى الأعلى ووجهه إلى ظهر الأم) فترسل رأسه إلى الأسفل لتسهيل عملية ولادته؟!.

فى البداية يُخرق كيس الماء الذى كان الجنين يسبح فيه، وتخرج المياه ويستعد الجنين لدخول الدنيا لوحده.

يصيب الأم ألم شديد، تضغط كل عضلات بطنها وظهرها وجانبيها على الجنين، وتدفعه إلى الخارج.

إنّ التفاعلات الكيميائية والتغييرات الفيزيائية التى تحصل للجسم أثناء الولادة على درجة من الغرابة والعجب بحيث تحكى جميعها عن علم وقدرة غير متناهيين أوجدا هذه البرامج لمثل هذا الهدف المهم.

وبهـذا نسـتنتج بوضوح من الآيات المـذكورة أنّ النظام المعقـد والمذهل لنمو الجنين يُعَدُّ من الآيات والعلامات المهمّة التى تخبر عن وجود العلم والقدرة اللامتناهية لموجده، ومن جانب آخر على قدرته على قضية المعاد والحياة بعد الموت، ذلك أنّ الجنين يتخذ كل

حين حياةً ومعاداً جديداً، ولذلك كان هذا النمو دليلًا على التوحيد بقدر ما هو دليل على المعاد.

توضيحات

١- صورة في الماء

هنالك مثل رائج ومشهور عندما يراد التذكير بعدم ثبات شيء معين فيقولون: «إنّه كالصورة في الماء» لأنّها تتبعثر بأقل حركة أو نسيم، لكن العجيب أنّ اللَّه الكبير يجعل كل الصور المختلفة للإنسان وللكثير من الأحياء الأُخرى صوراً في الماء ويودع كل هذه الصور في قطرة من ماء النطفة، من يرسم الصور في الماء سوى اللَّه الكبير؟

نفحات القرآن، ج٢، ص: ۶٢

٢- في ظلمات ثلاث

والأغرب من ذلك حسب قول القرآن، هو أنّ هذه الخِلَقِ التي يوجدها اللَّه واحدة تلو الأخرى في ماء النطفة ليخرجها خلال فترة قصيرة على هيئة إنسان كامل يقوم بها عز وجل جميعاً في محل مظلم لا تصل إليه يَدُ أحد، كما يقول القرآن: «يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُوْنِ امَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم لَهُ الْمُلْكُ لَآإِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُوْنَ». (الزمر/ ۶)

إنّ الظلمات الثلاث كما يرى الكثير من المفسرين وكما أشارت بعض الروايات هي:

ظلمة بطن الأم، ثم ظلمة الرحم، وبعد ذلك ظلمة «المشيمة» (الكيس الخاص الذي يحتوي الجنين) التي تكون على شكل ثلاث ستائر سميكة حول الجنين «١».

يحتاج الرسامون والنحاتون المهرة أن ينفذوا صورهم أمام النور والضياء الكامل، لكن ذلك الخالق الكبير يرسم صورة على الماء في ذلك المنزل المظلم بحيث يفتن ويبهر الجميع ويجذبهم للمشاهدة.

٣- مقر الأمن والامان

٣- مقر الأمن والامان

يقول القرآن بصراحة: إننا جعلنا نطفة الإنسان في مقر الأمن والأمان: «ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِيْنٍ». (المؤمنون/ ١٣)

والحقيقة إنّ أكثر نقاط الجسم صوناً هي تلك التي تستقر فيها النطفة والجنين بحيث تكون محمية من كل جانب، فمن ناحية هنالك العمود الفقري والأضلاع، ومن ناحية أخرى هنالك العظم القوي المسمى بالحوض، ومن ناحية ثالثة الأغطية والعضلات المتعددة التي تحتويها البطن، بالإضافة إلى أن أيدي الأم تتحول بشكل لا شعوري أثناء وقوع بعض الحوادث الخطيرة إلى درع مقابل البطن!

---

(١) تفسير مجمع البيان؛ تفسير الميزان؛ التفسير الكبير وتفاسير أخرى (روى المرحوم الطبرسي في مجمع البيان نفس هذا المعنى ضمن حديث عن الإمام الباقر عليه السلام).

نفحات القرآن، ج٢، ص: ۶٣

والأغرب من كل هذا أنّ الجنين يقع فى داخل كيس مملوء بماء لزج بحيث يكون معلقاً فى داخل ذلك الكيس وفى حالة تامة من فقدان الوزن، أى لا يواجِهُ أى ضغط من أى جانب، ذلك أنّ بنية الجنين وخاصة فى بداياته تكون رقيقة جدّاً بحيث يمكن لأقلّ ضغط عليه أن يسحقه.

ولهذا الكيس بما يحتويه من ماء خاصية القابلية على مواجهة الضربات، وهو تماماً كاللوالب المرنة التى توضع لأفضل السيارات، حيث بامكانها امتصاص وابطال مفعول أية ضربة توجه إليه نتيجة الحركات السريعة للأم.

والألطف أنّه يحفظ درجة الحرارة بالنسبة للجنين ضمن الحدود المعتدلة، ولا يسمح للحرارة والبرودة المفاجئة التى تهاجم بطن الأم من الخارج أن تترك آثارها بسهولة على الجنين!

فهل يمكن العثور على مقر أكثر أماناً من هذا؟ وما أجمل تعبير القرآن حين يسمى مقر النطفة ب «القَرار المكين»؟!

۴- خصيمٌ مبين

هذه أيضاً إحدى عجائب الجنين، سواء فسرناها بمعنى قدرة الإنسان على الكلام والاستدلال والاحتجاج، كما قال بعض المفسرين، أو فسرناها كونها المسابقة والنزاع الذى يحصل بين الحيامن أثناء الحركة باتجاه البويضة (نطفة الأنثى فى رحم الأم، والذى ينتهى بنجاح أحد الحيامن فى اتحاده بالبويضة، أمّا بقية الذين انهزموا فى هذه الخصومة فانّهم يفنون ويجذبهم الدم، أو اعتبرناها إشارة إلى كلا التفسيرين.

وعلى كل حال، فهذه من النقاط الظريفة والبديعة للجنين، إذ يظهر من موجود منحط وحقير ظاهرياً إِلى ظاهرة سامية وقيّمة جدّاً.

۵- تغذية الجنين

تغذية الجنين بدورها إحدى العجائب، لأنّ النمو والرشد السريع للجنين يستلزم مواداً

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۶۴

غذائية كاملة ونظيفة ومصفّاة من ناحية، ومن ناحية أخرى يحتاج إلى الأُوكسجين والماء بالمقدار الكافى الذى يجب أن يصل الجنين بشكل مستمر، وقد جعل اللَّه هذه المهمّة على عاتق جهاز اسمه «الحبل السرى» الذى خلقه منذ اللحظات الأولى إلى جانب الجنين، والذى يرتبط من أحد طرفيه بقلب الأم عن طريق شريانين ووريد واحد، ومن طرفه الآخر بالجنين عن طريق عقدة السُرّة.

يمتص هذا الجهاز كل المواد الغذائية والماء والاوكسجين اللازم بواسطة نظام الدورة الدموية للأم، ثم ينقل هذه المواد بعد تصفيتها ثانيةً إلى الجنين، ثم يقوم باستقطاب الفضلات والزوائد والكاربونات وما شاكل ويعيدها إلى دم الأم.

إذن فالحبل السرى يلعب دور الجذب والدفع بالإضافة إلى كونه مصفىً بحيث يستطيع الإنسان من خلال مجرّد مطالعته للبناء المذهل لهذا الحبل السرى أن يصل إلى عظمة الخالق.

اللطيف أنّه ورد حديث عن أحد المعصومين عليهم السلام يقول فيه ما معناه: إنّ الجنين يستفيد من النسيم الذى تستنشقه الأم!

لم تمض سوى سنوات على اكتشاف العلماء بأنّ رئتى الجنين لا تقومان بنشاطهما التنفسى وأنّه يسبح فى ماء الرحم وأنّه بحاجة إلى الأُوكسجين؟ ولم تمض سوى سنوات على معرفتهم أنّ الاوكسيجين الذى تستنشقه الأُم يدخل إلى دمها وينتقل إلى الحبل السرى فينتفع منه الجنين عن طريق سُرّته؟

على أيّة حال، لم يمض زمن طويل على ذلك لكن العين البصيرة للإمام عليه السلام رأت هذه الحقيقة منذ مئات السنين فقال: إنّ

الجنين يستفيد من هذا النسيم، هل هناك تعبير مقابل الهواء الملوّث الذى نتنفسه أفضل من كلمة النسيم الذى استخدمه الإمام للاشارة إلى الأُوكسيجين؟ «۱»

(۱) إقتبس من كتاب اولين دانشكاه، ج ۱، ص ۲۵۳ (بالفارسية).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۶۵

۶- مصير الجنين من حيث الجنس

لم يتمكن أحد من الإجابة عن السؤال القائل: كيف وبتأثير أيّة عوامل يصير الجنين ذكراً أو أُنثى أى أنّ العلم لم يعثر لحد الآن على جواب له، فمن الجائز أن تكون بعض المواد الغذائية أو الأدوية مؤثرة فى هذا المجال، لكن المسلم بهِ هو أن تأثيرها ليس مصيرياً وجازماً.

ومع هذا فالعجيب مشاهدة تعادل نسبى دائم بين هذين الجنسين (الرجل والمرأة) فى المجتمعات البشرية، وإن كان ثمّة اختلاف فانّه ليس بالاختلاف الملفت للنظر.

تصوروا يوماً يختلُّ فيه هذا التعادل فتكون نسبة الرجال إلى النساء عشرة إلى واحد مثلًا، أو على العكس يكون عدد النساء عشرة أضعاف الرجال، أيّة مفاسد عظيمة سوف تظهر؟ وكيف سيضطرب نظام المجتمعات البشرية؟ وهل أنّ المجتمع الذى يكون فيه مقابل كل رجل عشر نساء أو مقابل كل إمرأة عشرة رجال يستطيع أن يوفر لنفسه حياة هادئة؟

لكن الذى خلق الإنسان لحياة سالمة، أَوجد هذا التوازن العجيب والغامض فيها، أجل إنّ اللَّه تعالى ووفقاً لمشيئته وحكمته يهب لمن يشاء ذكوراً ويهب لمن يشاء إناثاً: «يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَآءُ الذُّكُورَ». (الشورى ۴۹)

لكن هذه المشيئة والإرادة محسوبة.

۷- تغيّرات سريعة ومبهمة

من العجائب الأُخرى فى الجنين، أنّ النطفة الأصلية للإنسان تكون فى بدايتها مجرّد موجود أُحادى الخلية، ينمو ويكثر بواسطة الانشطار على شكل متوالية هندسية، تحدث هذه الكثرة وهذه التحولات بصورة سريعة جدّاً وكما قال القرآن: «خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ» ولو استمر هذا النمو على هذه السرعة بعد الولادة لكانت للإنسان خلال مدّة قصيرة قامة بطول الجبال! ولضاق به وجه الأرض، ولكن نفس الذى منح الجنين السرعة فى سيرهِ التكاملى سوف يخفف منها عند وصول الإنسان إلى مرحلة معينة ثم يوقفها بالتدريج!

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۶۶

۸- نظرة الرحم المستقبلية!!

ما هى العوامل التى تجعل من الخلايا الناتجة عن خلية واحدة تأخذ أنواعاً متباينة:

خلايا غضروفية، عظمية، عضلية، جلدية، وغيرها؟ هل هو الرحم الذى قدّر مستقبل هذا الموجود فمنح الخلايا أشكالها كلّاً فى محلها؟

إن كان له مثل هذا الذهن والقدرة والابداع فمن وهبه هذا الذهن والقدرة والإبداع؟!

يقول العالم المعروف «الكسيس كارايل» فى كتاب «الإنسان ذلك المجهول»: «كأنَّ كل جزء من الجسم على معرفة بالاحتياجات الحالية والمستقبلية لكل الجسم، وهو يغير نفسه وفقاً لهذه الإحتياجات، للزمان والمكان مفاهيم أخرى عند الأنسجة، لأنّها (الأنسجة) تدرك جيداً البعيد كإدراكها للقريب والمستقبل كإدراكها للحال، فمثلًا تصبح الأنسجة اللينة للأعضاء الجنسية للمرأة فى نهاية فترة الحمل ألين وأكثر قدرة على الاتساع، وهذا التغيّر يُسهّل عبور الجنين فى الأيام اللاحقة عند الولادة، وفى نفس الوقت تزداد خلايا الثدى ويكبر هذا العضو بل إنّه يمارس نشاطه وينتج اللبن استعداداً لتغذية الوليد حتى قبل الولادة..

إنّ وضع وسلوك العضلات على طول فترة نمو الجنين فى رحم الام، يكون وكأنّها تعلم المستقبل مسبقاً، فيُراعى انسجام الأعضاء فى لحظتين زمنيتين متفاوتتين أو فى نقطتين مكانيتين مختلفتين» «۱».

مهما سمينا هذا الموضوع فانّه لن يتغير، لكنه على أيّة حال يخبر بوضوح عن وجود مبدأ كبير للعلم والقدرة فيما وراءَه.

۹- كساء للعظام

قرأنا فى تفسير الآية ۱۴ من سورة المؤمنون أنّ للقرآن تعبيراً خاصاً عن قضية ظهور العضلات يقول فيه: «فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً»، إنّ اختيار كلمة: «كَسَوْنَا» إحدى معجزات القرآن العلمية، فقد ثبت اليوم أنّ العظام تظهر قبل الأنسجة اللحمية «۲».

---

(۱) الإنسان ذلك المجهول، ص ۱۹۰.

(۲) إعجاز القرآن من وجهة نظر العلوم المعاصرة، ص ۲۹.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۶۷

۱۰- خروج الجنين

كما قرأنا فى تفسير الآية ۵ من سورة الحج، فإنّ اللَّه ينسب إخراج الجنين من الرحم إلى نفسه: «ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا» إنّ هذا التعبير يكشف عن أهميّة عملية الولادة التى توصل إليها العلماء فى عصرنا الحاضر.

ما هو العامل الذى ينظم زمان الولادة؟ وما هى الظروف اللازمة لإصدار الأوامر للجنين بالخروج؟ وكيف تُعَدُّ جميعُ أعضاء الجسم لهذا التحوّل المهم؟ وضمن أيّة عوامل ينقلب جسم الجنين تدريجياً ليخرج رأسهُ إلى الدنيا أولًا؟ هل تراه يعلم أنّ ولادته ابتداءً برجليه غير ممكنة أو أنّها مستعصية جدّاً؟ مَن يصدر الأوامر لكل عضلات جسم الأم بتسليط أشد الضغوط على الجنين من أجل الخروج؟

وتظهر أهميّة هذا الموضوع عندما يختل هذا النظام نادراً ويضطر الأطباء إلى عملية «فتح البطن» «الولادة القيصرية»، وربّما كان وجود مثل هؤلاء الأشخاص القلة، إنذاراً للجميع لكى يفكروا بأهميّة هذا الموضوع.

بالطبع يمكن فى بعض الحالات التنبؤ بزمان الولادة على وجه التقريب، ولكن فى بعض الحالات تحصل الولادة قبل الموعد وأحياناً بعده.

وهكذا فإنّ عملية الولادة بكل ما يتعلق بها من أمور محسوبة، إنّ هى إلّاآية أخرى من آياته تبارك وتعالى.

۱۱- التغيّرات المذهلة فى لحظة الولادة

ذكرنا أنّ أحداً لا يستطيع تعيين لحظة الولادة بصورة دقيقة، وما يتنبأ به الأطباء عموماً أو خصوصاً لإخبار الناس فإنّه ذو طابع تخميني فقط، كما تقول الآية:

«اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ» «١»

. (الرعد/ ٨)

---

(١) «تغيض» من مادة «غيض» على وزن فيض بمعنى امتصاص السائل أو احتوائه، ثم جاءت بمعنى النقصان وكذلك بمعنى الفساد، ولهذا فسر البعض كلمة تغيض فى الآية أعلاه بمعنى نقصان الجنين والبعض بمعنى الولادة قبل الموعد وهو المعنى المشهور بين المفسرين، وهو المروى فى حديث عن الإمام الباقر أو الإمام الصادق عليهما السلام، كما أنّ ذيل الآية يدل على ذلك.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٦٨

ظاهر الآية أنّ هذا من العلوم الإلهيّة الخاصة، وهو العلم بخصائص الجنين من كل الجوانب قبل ولادته، فهو عزوجل لا يعلم بالجنين من حيث جنسه فقط وإنّما يعلم بكل قابلياته وأذواقه وصفاته الظاهرة والباطنة، كما أنّ لحظة ولادته لا يعلمها إلّااللَّه، ومن أجل أن لا نتصور أنّ الزيادة والنقصان تأتيان بدون حساب أو مبرر، بل إنّ ساعتها وثانيتها ولحظتها محسوبة جميعاً، فقد أضاف قائلًا: «وكُلُّ شَىءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ».

المثير هو ظهور تغيّرات عجيبة على نظام حياة الوليد فى لحظة ولادته وهى تغيرات ضرورية جدّاً لتكييفه مع المحيط الجديد، وسوف نشير إلى اثنتين منها فقط:

أ) تغيّر نظام دوران الدم، فعملية دوران الدم فى الجنين دوران بسيط، لأنّه لا يتحرك الدم الملوّث نحو الرئتين من أجل التصفية، إذ لا تنفس هناك، ولهذا كان إثنان من أجزاء قلبه (البطين الأيمن والأيسر) الذى يتحمل أحدهما مسؤولية إيصال الدم إلى الأعضاء والثانى يتحمل مسؤولية إيصال الدم إلى الرئتين للتصفية، على اتصال مع بعضهما، ولكن بمجرّد أن يولد الجنين تُغلق البوابة بينهما وينقسم الدم إلى قسمين، قسم يُرسل إلى كل خلايا الجسم لتغذيتها والقسم الآخر إلى الرئتين لتصفيته.

أجل، ما دام الجنين فى بطن الأُم فإنّه يحصل على ما يحتاج من الأوكسجين من دم الام، لكن عليه أن يكتفى ذاتياً بعد الولادة ويحصل على الاوكسجين بواسطة الرئة والتنفس، الرئة التى كانت قد خِلُقتْ وأُعدّت مسبقاً بشكل تام فى رحم الأم، سوف تمارس عملها فجأة بأمر إلهى واحد، وهذا من العجائب حقاً.

ب) إنسداد عقدة السُرّة وجفافها وسقوطها (عادةً ما يقطعون عقدة السرة التى تعتبر طريق تغذية الجنين بواسطة الحبل السرى من دم الأم، ولكن حتى لو لم يقطعوها فإنّها تتيبس وتسقط تدريجياً).

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٦٩

أى كما أنّ طريق الحصول على الاوكسجين يتغير عند الولادة، فإنّ طريق التغذية يتغير أيضاً وبشكل مفاجىء، ويبدأ الفم والمعدة والأمعاء التى اكتملت فى الفترة الجنينية ولكنها لم تكن تعمل، فتبدأ بالعمل فجأة، وهذه واحدة أخرى من العجائب المهمّة فى خلقة الإنسان.

١٢- بكاء الأطفال

غالباً ما يكثر الأطفال الرضّع من البكاء، من الممكن أن يكون هذا البكاء دلالة على آلامهم، فهم لا يمتلكون لساناً غير لسان البكاء للافصاح عن الألم، أو أنّه بسبب الجوع والعطش، أو بسبب الانزعاج إزاء ظروف الحياة الجديدة سواء كانت حراً أو برداً أو ضوءً

شديداً أو ما شابه، لكن من الممكن أن يبكى الأطفال بدون هذه الظروف أيضاً، وهذا البكاء رمز حياتهم وبقائها.

فهم فى ذلك الحين بحاجة شديدة إلى الرياضة والحركة والحال أن ليس بامكانهم الرياضة، الرياضة الوحيدة القادرة على تحريك كل وجودهم بما فيه الأيدى والأرجل والقفص الصدرى والبطن وإدارة الدم بسرعة فى كل العروق لتغذية كافة الخلايا بصورة متواصلة، هى «رياضة البكاء» التى تعتبر بالنسبة للطفل رياضة كاملة، ومن هنا إذا لم يبكِ الوليد فيُحتمل أن يتعرض لأضرار جمّة أو تتعرض حياته كلها إلى الخطر.

وفضلًا عن هذا فإنّ هنالك رطوبة عالية فى مخ الأطفال إذا بقيت هناك يمكن أن تؤدّى إلى أمراض وأوجاع شديدة، أو تسبب العمى والبكاء يعمل على خروج الرطوبة الزائدة من أعينهم على شكل دموع، فيضمن ذلك صحتهم.

يقول الإمام الصادق عليه السلام فى حديثه المعروف ب «توحيد المفضل» بعد الإشارة إلى هذا الأمر: «أفليس قد جاز أن يكون الطفل ينتفع بالبكاء ووالداه لا يعرفان ذلك فهما دائبان ليسكتاه ويتوخّيان فى الأُمور مرضاته لئلا يبكى، وهما لا يعلمان أنَّ البكاء أصلح له وأجمل عاقبةً ...» «۱»

.

(۱) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۶۵ و ۶۶.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۷۰

وفى نفس الرواية، يشير الإمام عليه السلام إلى جريان الماء من أفواه الأطفال الذى يكمّل مهمّة دموع أعين الأطفال، ويقول: «فجعل اللَّه تلك الرطوبة تسيل من أفواههم فى صغرهم لما لهم فى ذلك من الصحة فى كبرهم» «۱»

.

۱۳- اليقظة التدريجية للعقل والحواس عند الأطفال

لو كان للطفل عقل منذ البداية فلا شك أنّه كان يتألم بشدة، لأنّه سوف يشعر آنذاك بالضعف والمذلة، فهو لا يستطيع المشى ولا الأكل ولا القيام بأبسط الحركات، يجب أن يلفّوه بقماش ويضعوه فى المهد ويغطوه بغطاء ويشطّفوه ويحفظوه.

يقول الإمام الصادق عليه السلام ضمن الإشارة إلى هذا الموضوع فى حديثه المسمى ب «توحيد المفضل»: «فإنّه لو كان يولد تام العقل مستقلًا بنفسه لذهب موضع حلاوة تربية الأولاد، وما قدر أن يكون للوالدين فى الأشتغال بالولد من المصلحة ...» «۲»

.

بالإضافة إلى أنّ الانتقال إلى عالم جديد بكل شيء ومجهول كان سيسبب له من الوحشة والاضطراب ما قد يضر بفكره وأعصابه، لكن تلك القدرة الأزلية التى خلقت الإنسان للتكامل قدّرت فيه كل هذه الأصول.

كذلك لو كانت حواسه متكاملة، وفتح عينيه فجأة وشاهد مشاهد جديدة واستمعت أذنه إلى الأصوات والأنغام الجديدة، لما كان فى وسعه تحملها، فكان التدريج فى تلقى برامج الحياة الجديدة هو الاسلوب الأمثل.

الملفت للنظر أن القرآن الكريم يقول: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُم لَاتَعْلَمُوْنَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ والأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ». (النحل/ ۷۸) وفقاً لهذه الآية فإنّ الإنسان لا يمتلك أى علم فى البداية ولا يتمتع حتى بالسمع والبصر،

(۱) بحار الانوار، ج ۳، ص ۶۵ و ۶۶.

(٢) المصدر السابق، ص ۶۴.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٧١

ثم وهبه اللّه القدرة على السماع والنظر والتفكير، ربّما كان ذكر السمع قبل ذكر الأبصار إشارة إلى أنّ النشاط السمعى عند الوليد يبدأ أولًا، وبعد فترة تكتسب الأعين قدرتها على الابصار، بل إنّ البعض يعتقد وكما أسلفنا أنّ للأذن فى عالم الجنين مقداراً من القابلية على السماع، فهى تسمع أنغام قلب الأم وتعتاد عليها.

١۴- غذاء الطفل مُعدٌّ قبل ولادته

لا يستطيع وليد الإنسان والكثير من الحيوانات فى بداية ولادته أن يأكل الأطعمة الجافة والثقيلة، ولهذا فقد هيّأت يد الخالق المقتدرة غذاءً خاصاً فى ثدى الأم إسمه «اللبن»، والحقيقة أن نفس دماء جسم الأم التى كان الطفل ينتفع منها فى الفترة الجنينية تتحول إلى لبن ضمن عملية تغيّر واسعة وسريعة، فتغذّيه حتى الفترة اللازمة.

يتغير شكل ثدى الأم بصورة تدريجية خلال فترة الحمل، ويكبر شيئاً فشيئاً نتيجة الافرازات التى يقذف بها الحبل السرى إلى دم الأم ليأمرها بالاستعداد الكامل، وهكذا يُهيء الثدى نفسه لوظيفتِهِ المستقبلية الثقيلة.

إنّ الأنابيب الموجودة فى الثدى والممتدة حتى قمة الثدى (الحلمة)، تتشعب وتزداد وتفرز إفرازات بسيطة، وعند ولادة الطفل تعلن عن استعدادها التام.

العجيب أن ترشح اللبن من خلايا الثدى ليس دائمياً وإلّا لخرج اللبن بصورة متواصلة إلى الخارج، بل إنّه بمجرّد ملامسة شفتى الوليد لثدى الأم وبدئه بالامتصاص تتجه الحوافز العصبية عن طريق الأعصاب إلى النخاع ومن النخاع إلى الهايبوثالموس فتؤدّى إلى نوعين من الافراز، يصب أحدهما فى الأثداء عن طريق الدم فيضغط على الأنسجة المحيطة بأنابيب اللبن ليندفع اللبن باتجاه الحلمة، وتتمّ كل هذه الأعمال خلال ٣٠ ثانية، والأعجب أنّ اللبن لا يتحرك فى ذلك الثدى الذى يرضع منهُ الطفل فقط، بل ويحدث هذا فى الثدى الآخر أيضاً فيكون مستعداً، ولذا يُؤكد الأطباء على إرضاع الوليد من كلا الثديين.

اللبن غذاء كامل، وخاصة لبن الأم الذى يعتبر غذاءً أكمل بالنسبة لوليدها ولا يستطيع شىء فى العالم أن يحل محله.

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٧٢

يحتوى الحليب على أنواع الفيتامينات كفيتامين A، B، D، P وفيتامينات أخرى وقد اكتشف فيه العلماء ٢٢ مادة مختلفة، علاوة على أنواع الأنزيمات «١»، والكثير من الأدوية الضرورية تنتقل عن طريق لبن الأم إلى وليدها، ومن هنا فإنّ الأطفال المحرومين من لبن الأم يصابون بمختلف الأعراض.

يبدو أنّ لبن الأم لا يغذى جسم الطفل فحسب، بل إنّه يروى عواطفه وروحه أيضاً، ولهذا قد يصاب المحرومون من لبن الأم بمشاكل ونواقص عاطفية بعض الأحيان.

وعلى هذا الأساس يقول القرآن الكريم: «وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ». (البقرة/ ٢٣٣) إنّ عجائب وغرائب اللبن أكثر من أن يحتويها هذا المختصر، وإذا أردنا أن نترك العنان للقلم لمثل هذه الأبحاث نكون قد خرجنا عن بحثنا التفسيرى.

---

(١) من أجل مزيد من الاطلاع تراجع دائرة معارف القرن العشرين، مادة (لبن)، والجامعة الأولى (اولين دانشگاه)، ج ۶، وإعجاز القرآن من وجهة نظر العلوم المعاصرة، وقد وردت إشارات مثيرة حول هذا المعنى فى حديث توحيد المفضل (بحار الأنوار، ج ٣، ص

(٦٢).

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٧٣

٣- آياته في عالم الحياة

تمهيد:

إنّ ظاهرة الحياة هي أعقد ظواهر هذا العالم حسب ما نعلم، ظاهرة حيّرت عقول كل العلماء، وقد مضت آلاف السنين والعلماء يفكرون فيها، لكن هذا اللغز لم يُحلّ لحد الآن.

ما هو السبب الذي أدّى إلى أن تضع الموجودات الجامدة وبطفرة عجيبة، أقدامها في مرتبة الحياة والعيش فتكون لها تغذية ونمو وتناسل؟! من الممكن أن يصنع الإنسان جهازاً بالغ التعقيد (كالعقول الالكترونية المتطورة جدّاً) بعد قرون من التجارب، وهذا بدوره شاهد على سعة اطلاع ومعرفة من صنعوه، ولكن هذا الجهاز الدقيق والمعقد للغاية لا ينمو أبداً، ولا يداوي أو يرمم كسوره وعيوبه، ولا يتناسل بصورة مبدأيةٍ مطلقاً.

أمّا الكائنات الحيّة، فإنّها فضلًا عن بنائها الدقيق والمعقد والمذهل إلى أقصى الحدود، فانّها تستطيع القيام بهذه الأعمال وأعمال أخرى كثيرة، والقليل من المطالعة حول وضعها يشكل آية واضحة ودليلًا بيّناً على العلم والقدرة اللامتناهية لخالقها.

يُكثر القرآن من الاستناد إلى موضوع الحياة والموت في آياته المختلفة ضمن قضية إثبات وجود الله، ونفي الشرك بانواعه، ويؤكد عليه كثيراً، والحق أنّه كذلك.

بعد هذه الإشارة نقرأ خاشعين الآيات الكريمة أدناه:

١- «إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنْ الْحيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤفَكُوْنَ». (الانعام/ ٩٥)

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٧٤

٢- «كَيْفَ تَكْفُرُوْنَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيْتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيْكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُوْنَ». (البقرة/ ٢٨)

٣- «هُوَ يُحْيِي وَيُمِيْتُ وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ». (يونس/ ٥٦)

٤- «وَهُوَ الَّذِيْ يُحْيِ وَيُمِيْتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ والنَّهارِ أَفَلا تَعْقِلُوْنَ».

(المؤمنون/ ٨٠)

٥- «إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيْتُ وَمَالَكُمْ مِّنْ دُوْنِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيْرٍ». (التوبة/ ١١٦)

٦- «لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي ويُمِيْتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الأَوَّلِيْنَ». (الدخان/ ٨)

٧- «أَلَمْ تَرَ الَى الَّذِى حَآجَّ ابراهِيمَ فى رَبِّهِ أَنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ ابْراهِيْمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيْتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيْتُ». (البقرة/ ٢٥٨)

٨- «إِنّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيْتُ وإِلَيْنَا الْمَصِيْرُ». (ق/ ٤٣)

٩- «اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيْتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيْكُم هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِّنْ شَيءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُوْنَ». (الروم/ ٤٠)

١٠- «واللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُوْنَ». (النحل/ ٦٥)

شرح المفردات:

«الحياة»: يقول الراغب فى المفردات: تستخدم الحياة فى معان مختلفة: الحياة النباتية، الحياة الحسية (حياة الحيوانات)، الحياة العقلانية (حياة البشر)، الحياة بمعنى زوال الغم والهم والحزن، الحياة الأخروية الخالدة، والحياة المذكورة كونها إحدى الصفات الإلهيّة، ويأتى لكل واحدة منها بشاهد من الآيات القرآنية.

ولكن فى «مقاييس اللغة» يُذكر لهذه المفردة معنيان أساسيان، أحدهما الحياة مقابل الموت، والآخر «الحياء» وهو ما يقابل الوقاحة والصلافة.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٧٥

غير أن البعض يعتقد برجوع المعنيين إلى أصل واحد، لأنّ الذى يتمتع بالحياة والخجل إنّما يصد نفسه عن الضعف والعجز ويتحرك باتجاه الخير والطهارة، وإن كان الثعبان العظيم يسمى ب «الحية» فذلك لشدّة تحركها التى تعتبر من أبرز آثار الحياة والعيش، وتسمى القبيلة ب «الحى» بلحاظ امتلاكها حياةً اجتماعيةً وجماعيةً «١».

وبالطبع فإنّ لهذه المفردة معانٍ كنائية كثيرة من جملتها «الإيمان» فى مقابل الكفر، و «الطراوة» فى مقابل الذبول، و «الحركة» فى قبال السكون، ويطلق على التحية اسم «التحية» من باب أنّ فيها طلباً للسلامة والحياة.

«الموت»: هو بالضبط النقطة المقابلة للحياة، لهذا كانت له أنواع مختلفة يقابل كل منها نوعاً من أنواع الحياة، منها «الموت النباتى» كما فى قول القرآن حول المطر «أَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً». (ق/ ١١)

و «الموت الحيوانى» و «الموت العقلانى» أى الجهل.

و «الموت» بمعنى الغم والحزن كما يقول القرآن الكريم: «وَيَأتِيْهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ». (ابراهيم/ ١٧)

«والموت»: بمعنى النوم، كما قالوا: «النوم موت خفيف» مثلما أنّ الموت نوم ثقيل.

وَاعتبر البعض «الموت» بمعنى الإنحلال التدريجى للكائن الحى، و «الموتة» حالة شبيهة بالجنون، وكأنّ العقل والعلم يموتان فى تلك الحالة.

كما أنّ البعض فرّق بين «الميّت» و «المائت» وقالوا: الميت هو الميت أمّا «المائت» فهو الموجود فى حالة الانحلال والانحدار نحو الموت.

ولهذه المفردة معانٍ كنائية كثيرة منها «الكفر»، و «النوم»، و «الخوف».

وَسميت الأرض الموات بالموات لافتقادها الحياة النباتية، والقابلية على الغرس والزراعة، وأمّا بعد أن تُهيَّأَ للغرس والزرع فيسمونها «مهيأة».

ورد فى قواميس اللغة أنّ أصل هذه المفردة هو ذهاب القوّة، والذى يعتبر موت الكائنات الحية من مصاديقه البارزة.

---

(١) التحقيق فى كلمات القرآن الكريم؛ مفردات الراغب، لسان العرب؛ مجمع البحرين؛ وكتب اللغة الأخرى

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٧٦

جمع الآيات وتفسيرها

خَلقُ الحياة آية الخلق:

جرى الاستناد فى الآيات العشر أعلاه وعدد آخر من الآيات القرآنية إلى قضية الحياة والموت بعنوان إحدى الآيات الإلهيّة الكبيرة وعلامات الذات المقدّسة للخالق، كان التأكيد فى أغلبها على حياة وموت الإنسان، وفى بعضها على الحياة والموت بشكل عام أى

عند جميع الأحياء، وفى البعض أكدت على حياة وموت النباتات.

فى الآيـة الأولى المخصـصة للبحث، ورد كلام عن فلق النواة والحبّـة بواسـطة القـدرة الإلهيّـة، وعن اسـتخراج الكائن الحى من الكائن الميت وبالعكس الكائن الميت من الحى، بحيث تشمل الحياة والموت بالمعنى الواسع للكلمة فى النباتات والحيوانات والبشر.

الملفت للنظر أن بـذور النباتـات ذات جـدار صـلب ومحكم، والنواة أكثر إحكاماً منه، إذ ليس فلقها بالأمر الممكن بسـهولة، ومع هـذا فالفِلْقـة الخارجـة من داخـل الحبّـة والنواة بحيث لا-يمكن وصف رقتهـا ولطافتها، أمّا كيف يمكن لتلك الفِلْقـة اللطيفـة أن تفلق تلك القلعة والحصن الحصـين فتخرج من خلال جدرانه وتستمر فى طريقها؟ فليس ذلك سوى القدرة الإلهيّة الفريدة، وكأنَّ عبارة: «إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى إشارة دقيقة إلى هذا المعنى

وحول كيفيـة إخراج اللَّه تعالى الميِّت من الحيِّ والحيِّ من الميتِ، ذكر الكثير من المفسـرين الماضـين الأمثلـة عليها، بخروج الدجاجة من البيضـة، والشـجر والنبات من الحبـة والنواة، والإنسان من النطفـة، فى حين صار من المسـلّم به لدى العلماء اليوم أنّ الكائنات الحية تظهر دائماً من الكائنات الحيـة، أى أنّ فى داخل حبة ونواة النباتات والأشـجار فضـلًا عن الكمية المعينة من المواد الغذائية، توجد خلية حيةٔ هى فى الحقيقة نبات وشـجرة مجهرية صغيرة جدّاً وإذا استقرت فى المحيط المناسب فسوف تستفيد من هذه المواد الغذائية فتنمو وتكبر، وكذلك بالنسبة إلى نطفة الإنسان والحيوان فإنّ الخلايا الحية كثيرة، وهى المصدر لتكاثر وتناسل الإنسان والحيوان.

أجاب بعض المفسرين المعاصرين (كالمراغى ومؤلف تفسير المنار) الذين التفتوا إلى

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٧٧

هذا الإشـكال بأن هذه الخلايا الخاصة مع أنّها تسمى فى عرف علماء العلوم الطبيعية بالكائنات الحية، ولكنها لا تجدر بهذه التسمية فى العرف العام للناس واللغة، لأنّ أياً من آثار الحياة والعيش لا تظهر عليها «١».

والأفضل أن نقول: إنّ المراد بخروج الكائن الحى من الميت لا يعدو أحد المعنيين التاليين:

الأول: هو بالرغم من أنّ الكائنات الحيـة فى الظروف الحاليـة تخرج دائماً من البـذور والحبوب والنطف الحية، ولكن لا شك أنّ الأمر لم يكن كـذلك فى البدايـة، لأنّ الكرة الأرضـية عنـدما انفصـلت عن الشـمس كانت عبارة عن كتلة من نار، ولم يكن عليها أى كائن حى، ثم ظهرت أول الكائنات الحيـة من الكائنات غير الحية ضـمن ظروف لا علم لنا بها اليوم وبأمر اللَّه بعد سلسـلة من القوانين البالغة فى التعقيد.

والفرضية القائلة: إنّ من الممكن للحياة أن تكون قد انتقلت من الكواكب الاخرى إلى الكرة الأرضية بواسطة القطع والأجرام السماوية والتى يُصّيِر البعض عليها، لا تستطيع أن تحل لنا أية مشكلة، لأنّ الإشكال يصدق على تلك الكواكب أيضاً، فهى ولا شك كانت فى البداية كتلًا محترقة، ولايستطيع أى كائن حى أن يتحمل تلك الظروف.

الثانى: هو أنّ البـذور والحبوب والنطف الأولى لم تكن إلّاموجودات صـغيرة جـدّاً لكنّها نمت وتطورت عن طريق تغـذيتها على المواد الغذائيـة غير الحيـة وهى فى الحقيقـة تجذب إليها الموجودات غير الحية وتحولها إلى حية، وعليه فإنّ آلاف الآلاف وملايين الملايين من الخلايا الحية قد ظهرت من الموجودات الميتة، وعن هذا يقال: إنّ اللَّه يخرج الميت من الحى ويخرج الحى من الميت.

والبعض قـالوا: إنّ المراد بهـذا التعبير ولاـدة «الكـافر» من «المؤمن» و «المؤمن» من «الكافر»، أو ولادة الجنين السـقط من الإنسان الحى، وولادة الطفل الحى من الام التى تموت فجأة ولا يزال الطفل حياً فى بطنها.

---

(١) تفسير المراغى، ج ٧، ص ١٩٧؛ وتفسير المنار، ج ٧، ص ٦٣١.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٧٨

ولكن ممّا لا شك فيه أنّ هـذه الأقوال هى مصاديق للمفهوم الكلى للآيـة ولا تشـمل كل مفهوم الآية، المفهوم الأصـلى للآية هو أحد

المفهومين المُشار إليهما.

وعلى أيّة حال فالتعقيد الذى يحيط بقضية الحياة والموت من الدرجة بحيث أنّ العلماء لا يزالون عاجزين عن فهم أسراره، فإذا كان فهم أسرار إحدى الظواهر يحتاج إلى كل هذا العقل والتفكير والذكاء، فهل يمكن إيجاد هذه الظاهرة بدون الحاجة إلى أى عقل وذكاء؟!

ولهذا يقول القرآن فى نهاية نفس هذه الآية: «ذٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنّى تُؤْفَكُوْنَ».

تقول الآية الثانية بلهجة الاستفهام المُوبِّخ: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُم ثُمَّ يُحْيِيكمْ» وفى هذا إشارة إلى أنّ قضية الحياة والموت كافية لمعرفة اللَّه.

وبتعبير آخر فإن ظاهرة الحياة والموت فى عالم الخلقة من أهم الوثائق لإثبات وجود اللَّه.

إنّ الإنسان عندما يفتح عينيه ويعرف نفسه، فإنّه يطالع هذه الوثيقة الكبيرة قبل كل شىء.

ويدرك الإنسان جيداً أنّ حياته ليست من عنده لأنّه كان يوماً فى عداد الموجودات غير الحية، إذن، ثمّة قدرةٍ وهبته الحياة، الحياة بكل أسرارها ورموزها، بكل دقائقها وتعقيداتها.

اعتبر بعض المفسرين «الكفر» فى هذه الآية بمعنى «كفران النعمة»، أى كفران نعمة الحياة والموت، هذا الموت الذى هو مقدّمة لحياة أخرى، ولكن الظاهر هو أنّ الكفر هنا بمعنى إنكار وجود اللَّه أو إنكار توحيده مِن قبل المشركين.

بالإضافة إلى أنّه جرى التأكيد فى هذه الآية على قضية المعاد، أى أنّ ظهور الحياة والموت تمثلان دليلًا على التوحيد بالإضافة إلى كونهما دليلًا على إمكان المعاد.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۷۹

الآية الثالثة تُعد ضمن آيات المعاد، ولكن كما قلنا فإنّ قضية الحياة والموت دليل على إثبات وجود اللَّه وعلى إثبات المعاد، والتعبير ب «هُو يُحْيِي وَيُمِيْتُ» إشارة إلى أنّ الحياة والموت بيد اللَّه فقط، ولا يمكن لأحد سوى اللَّه القادر المتعال أن يصنع مثل هذه الظاهرة المهمّة والعجيبة إلى أقصى الحدود.

أمّا الآية الرابعة فقد وردت ضمن آيات التوحيد فى سورة (المؤمنون)، وأكدت على قضيتين «قضية الحياة والموت»، و «قضية ذهاب وإياب الليل والنهار» ولهذين شبه كبير فيما بينهما، الموت كالظلمة، والحياة كالنور والضياء، وربما كان تقديم الليل على النهار من هذا الباب أيضاً، ذلك أنّ الموت كان قبل أن تكون الحياة وكان الإنسان سابقاً أجزاءً ميتة ثم أنعم اللَّه عليه فكساه ثوب الحياة، وسواء كان «اختلاف الليل والنهار» بمعنى ذهاب وإياب الليل والنهار (من مادة (خِلفة) على وزن حِرفة بمعنى التناوب فى المجىء والحلول محل البعض)، أو من مادة (خِلاف) بمعنى التباين والاختلاف التدريجى فى فصول السنة المختلفة، وأيّاً كان المعنى فهو يدل على النظام الدقيق الذى يحكمهما وما يرافقه من فصول أربعة ومن بركات ناتجة عنها، كما أنّ لقضية الموت والحياة والنظام الذى يحكمها فى المجتمع الإنسانى نتائج وآثاراً كثيرة لا يمكن بدونها تنظيم حياة الإنسان.

فَإذا لم يمت أحد، لَما كانت الأرض محلًا للحياة، وإن مات الجميع بسرعة خلت الأرض أيضاً، ولكن خالق هذا العالم جعل فيه نظاماً دقيقاً بحيث لا- تخلو الأرض من أقوام يعيشون عليها ويتمكنون من الانتفاع من مواهب الحياة، وهذه هى سنّة اللَّه فَقوم يأتون وقوم يذهبون.

ولهذا يقول تعالى فى نهاية الآية: «أَفَلا تَعْقِلُونَ» أفلا تتفكرون فى قدرة الخالق وربوبيته ووحدانيته؟ وإنّ من المستحيل ظهور هذا النظام البديع من غير علم ولا تدبير.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۸۰

وفى الآية السادسة جاءت قضية الحياة والموت إلى جانب قضية الربوبية، فهواللَّه سبحانه مالككم وربّكم أنتم وآبائكم، الأولين وهو

خالق الموت والحياة.

وبشكل أساسى فإنّ قضية الموت والحياة إحدى فروع ربوبية اللَّه سبحانه وتعالى، «الربوبية» بمعنى الإصلاح والتنظيم والتربية، وهذه لا تحصل إلّاعن طريق الحياة والموت، الحياة تعطى الإنسان إمكانية التكامل، والموت أيضاً مقدمة لتكامل آخر وحياة جديدة فى عالم أوسع.

تعكس الآية السابعة الحوار التاريخى بين النبى إبراهيم عليه السلام وجبار زمانه «نمرود»، ويبدو أنّ هذا الحوار جاء بعد قصة تحطيم ابراهيم الأصنام وظهوره كبطل من الأبطال وشياع صيته فى كل مكان واضطرار نمرود إلى إحضاره «١».

إنّ أول سؤال سأله هذا الرجل الأنانى الذى أذهب عقله غرور السلطان للنبى إبراهيم عليه السلام هو: «من إلهك؟».

فاعتمد إبراهيم قبل كل شىء فى جوابه على ظاهرة الحياة والموت المهمّة وقال: «ربّىَ الذى يُحيِى ويميت».

فقال الجبارالطاغى نمرود مع علمه الأكيد بأحقّية كلام إبراهيم ومن أجل استغفال من حوله وتخدير عقولهم: إننى استطيع القيام بهذا أيضاً «أنا أحيى وأميت».

لم يذكر القرآن ما صنعه نمرود من أجل إثبات ادّعائه هذا، ولكن الكثير من المفسرين قالوا: إنّه أمر فوراً باحضار إثنين من السجناء، فأطلق سراح أحدهم وحكم على الآخر بالموت وقال: أرأيت كيف أن الحياة والموت بيدى؟!

والفخر الرازى استبعَدَ هذا المعنى فى تفسيره وهو أن يكون الحضار فى مجلس نمرود

(١) ورد هذا المعنى وهو أنّ الحوار أعلاه حصل بعد تحطيم الأصنام من قبل إبراهيم فى عدّة تفاسير منها تفسير المراغى ج ٣، ص ٢١؛ و الكبير ج ٧، ص ٢٥.

من البله والسذاجة بحيث لا يدركون الفرق بين عمل نمرود وبين الحياة والموت التى تحصل عن طريق اللَّه.

ويقول: إن قصد نمرود هو قوله: أتراك تزعم أنّ اللَّه يقوم بذلك من دون أيّة واسطة؟ هذا غير صحيح، وإن كان ذلك يحصل عن طريق الاستفادة من عالم الأسباب، فإنّ ذلك بإمكاننا أيضاً «١».

ولكن يبدو أنّ الفخر الرازى نسى هذه النقطة، وهى: أنّ الجهلاء فى كل عصر وزمان ليسوا قليلين، خاصة المتملقين الذين يحيطون بحكام الجور والاستبداد والتجبر.

وقد ورد ما يشبه هذا المعنى فى حياة موسى وفرعون حيث حاول فرعون استغفال وخداع أهل مصر بكلماته الركيكة المضحكة ودعاهم إلى عبادته.

إن تفسير الفخر الرازى يلائم جماعة من الفلاسفة يجتمعون مع بعضهم ويصطنعون مثل هذه السفسطات، أمثال لو كان الفاعل فاعلًا بالواسطة لكان كذا ولو كان بلا واسطة لكان كذا.

الآية الثامنة تعتبر إيجاد الحياة والموت أمراً خاصاً باللَّه، شأنها شأن الآية الثالثة، وتعتبر عودة جميع الخلق إلى بارئهم عزوجل.

وفى الآية التاسعة يخاطب اللَّه تعالى المشركين بلهجة حازمة فيقول: «اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُم ثُمَّ رَزَقَكُم ثُمَّ يُمِيْتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِّنْ شَىءٍ»، هل بامكانهم إحياء شىء أو إماتته؟ أو رزقه؟ وما دامت كل هذه الأمور خاصة باللَّه، فما لكم تشركون به: «سُبْحَانَهُ وَتَعالىَ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

(١) تفسير الكبير، ج ٧، ص ٢۴.

وأخيراً وفي الآية العاشرة والأخيرة يطرح اللَّه قضية حياة النباتات، وهو وجهٌ مشرق، جميل ومليء بالأسرار من وجوه الحياة، ويعرض على البشر صورة الأراضي الميتة كيف يُلبس هذه الصحارى اليابسة الفاقدة للحياة لباسَ الحياة بزخة مطر واحدة أو عدة زخات، فتتصاعد من كل جانب من جوانبها أنغام الحياة فتتجلى ساحة البعث والنشور في هذه البقعة.

وَيضيف في آخر الآية: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ»، يسمعون انغام تحميد وتسبيح النباتات ويصغون بآذان قلوبهم لهمسات التوحيد من كل نبات يخرج من الأرض ويردد ذكر «وحده لا شريك له»: «انَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ».

توضيحان

۱- لغز الحياة الكبير

كشف تطور العلم والمعرفة البشرية النقابَ عن الكثير من الحقائق، وأوضح العديد من قضايا هذا العالم الكبير، ولكن كما أشرنا فعلى الرغم من ذلك فما زالت هنالك الكثير من الألغاز تواجه الإنسان، وأحد أهم هذه الألغاز هو لغز الحياة، القضية التي لم يُمَط اللثام عن وجهها لحد الآن رغم جهود ومساعي آلاف الآلاف من العلماء والعقول المفكرة على مرّ التاريخ البشري، وما زالت مستترة خلف ستار من الابهام.

واللطيف أن القرآن الكريم خاطب المشركين قبل أربعة عشر قرناً قائلًا: «يَا ايُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوْا لَهُ إِنَّ الَّذِيْنَ تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَو اجْتَمَعُوا لَهُ وإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيئاً لَّايَسْتَنْقِذُوْهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ».

المثير أنّ عجز البشر اليوم عن خلق الذبابة بمقدار عجزه قبل أربعة عشر قرناً، وعجزه أزاء هجوم الذباب والجراد وبقية الحشرات يصل إلى درجة عدم جدوى كل ما يستخدم من أجهزة التسميم والمكافحة الحديثة.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۸۳

قد يُقال: إنّ الإنسان صنع أجهزة قيّمة أكثر أهميّة من خلق الذباب كالسفن الفضائية والعقول الألكترونية المعقدة وأمثال ذلك.

ولكن هذا خطأ كبير وقياس باطل، إذ ليس للسفينة الفضائية أو العقل الألكتروني أي نمو أو تحول ذاتي ويستحيل أن ينجب مثيله، ولا يمكن من داخل نفسه ترميم ما يطرأ عليه من الأضرار، فهو لا- يُصلح قطعاته التالفة أبداً، ويحتاج إلى الهداية والقيادة من خارجه، والحال أنّ للذبابة من هذه الوجوه أفضلية واضحة على تلك السفينة الفضائية أو جهاز الكومبيوتر، ولكن كثرة الذباب أدى إلى تصوره من قبلنا كموجود حقير ولا أهميّة له، ولو كانت هنالك ذبابة واحدة فقط في العالم لاتّضح آنذاك مدى ما سيوليه العلماء لها من الاهتمام.

وفضلًا عن هذا فإننا لا نحتاج أساساً إلى هذه المفاضلة، فالهدف هو إيضاح أن بناء الكائن الحي حتى لو كان خلية واحدة والتي أشرنا إليها إشارات واضحة في البحوث الماضية، على قدر من الغموض والتعقيد بحيث يدلّ على أنّ صانعه ذو علم وقدرة غير متناهيين وذو اطلاع تام بقوانين الحياة المعقدة، وبتعبير أصح أنّه هو الذي وضع هذه القوانين.

كيف يمكن أن تحتاج معرفة ظاهرة كهذه إلى كل هذا العقل والشعور ولا يحتاج صنعها إلى أي عقل أو شعور؟!

وهذا هو الأمر الذي نحن في صدد إثباته في هذه البحوث، والذي يشكل هدف القرآن من الآيات المذكورة وآيات مشابهة أخرى نختم هذا الحديث بذكر نقطة، وهي أنّ الحياة والعيش رغم أنّها من أبرز الظواهر، ولكن حقيقتها غير واضحة لحدّ الآن لأحد، إنّ ما نراهُ هو آثار الحياة التي تمثل (النمو والتحول والتغذية والتناسل، والاحساس والحركة والتفكير)، ولكن ما هي تلك الحقيقة التي تكون بمثابة المصدر لهذه الآثار؟ لا يعلم أحد بذلك لحد الآن، وما زالت العقول في حيرة من ذلك.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۸۴

٢- هل بامكان الإنسان صناعة كائن حى؟

لاـ شك أنّ الكائنات الحية وجدت فى البداية من كائنات غير حية، سواء حدث هذا الأمر على الكرة الأرضية أو على الكواكب السماوية الأخرى، ولكن تحت أى ظروف؟

ووفقاً لأىمعادلة حدثت هذه الطفرة العظيمة؟ إنّ هذا الأمر بقى مجهولًا لحد الآن ولم يتسن لأحد معرفته، طبعاً أنّ البعض من العلماء يأملون بأنّهم سوف يكتشفون هذه المعادلة وهذه الظروف، ويقولون: لعلنا فى النتيجة نستطيع أن نصنع خلايا حية من مركبات غير حية.

لاـ أحد يعلم جدوى ومنطقية هذا الأمل؟ وهل سيتحقق مثل هذا الأمل عملياً فى نهاية المطاف أم لا؟ وعلى فرض أنّ الإنسان سيكتشف ظروف بداية الحياة ومعادلتها وسوف يستطيع صناعة خلايا حية فى داخل المختبرات، ولكن يجب أن لا ننسى أن:

أولًا: إنّ هذا العمل حين يأتى عن طريق تقليد عالم الخلقة وتركيب المواد المختلفة مع بعضها لن يكون سوى ما يشبه الصناعات التجميعية التقليدية.

ثانياً: على فرض أنّ مشكلة صناعة الخلية الحية سوف تُحل، ولكن تبقى هنالك مشكلة الكائنات المعقدة متعددة الخلايا، كبنية الذبابة أو الجرادة أو الطائر أو الأسماك الكبيرة وأخيراً الإنسان، فمن الذى يستطيع أن يوجد مثل ما ذكرنا عن طريق الصناعة؟

يقول أحد العلماء وهو (البروفسور هانز): سوف يصل الإنسان بعد ألف سنة إلى سر الحياة، ولكن هذا لا يعنى أنّه سيستطيع صناعة ذبابة أو حشرة أخرى أو حتى خلية حية.

ثالثا: لنفترض أننا ضمنّا مثل هذه الأهداف بمعونة الهبة الإلهيّة المسماة بالعقل، وتطورت العلوم وتقليد قوانين الطبيعة، لكن هذا لن يكون له أدنى تأثير على ما نحن بصدد الوصول إليه، لأنّه إن كان بالإمكان إيجاد خلية حية واحدة باستخدام كل هذه النماذج الموجودة والمواد الطبيعية الجاهزة يحتاج إلى كل هذا العلم والمعرفة، فما مقدار العلم والمعرفة اللازمة لخلق أنواع متعددة من الموجودات الحية بلاـ نموذج أو مواد سابقة؟ هل يمكن أن نعتبر للطبيعة الجامدة الفاقدة للشعور والعقل دوراً فى خلق هذه الموجودات؟

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٨٥

وألفت انتباهكم إلى عبارة ظريفة عن «غرسى موريسن» رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك فى كتاب «سر خلق الإنسان»، يقول:

«قال هيغل: أعطونى الهواء والماء والمواد الكيميائية والزمان وسوف أخلق بها إنساناً، لكن هيغل نسى أنّه بحاجة إلى نطفة وجرثومة الحياة من أجل هذا المشروع أيضاً، إنّه بعد أن يجمع الذرات اللامرئية ويرتبها إلى جانب بعضها ضمن نظام وترتيب خاص بخلقة الإنسان، عليه أن يمنح الروح لهذا القالب! وعلى فرض أنّه وُفّق للقيام بكل هذه الامور الخارقة للعادة، هنالك احتمال واحد فقط من بين ملايين الاحتمالات لخلق حيوان لم تشاهد عين الدهور شيئاً أغرب منه، والأعجب هو أن هيغل لن يقول بعد الموفقية فى هذا الأمر أنّ هذا الموجود العجيب ظهر بحسب الصدفة والحدث، بل يقول: «إن ذكائى ونبوغى هو الذى خلقه» «١».

تارة يتصور بعض السذج أنّ بالإمكان تبرير ظهور الحياة عن طريق الحوادث والصدف الكثيرة، والحال أننا لو أردنا ووفق حساب الاحتمالات حساب عملية ظهور ذرة واحدة من البروتينات،- وهى إحدى المواد المكونة للكائنات الحية- عن هذا الطريق، لما كفى عمر الكرة الأرضية لظهورها!

ول «جورج والد» أستاذ علم الأحياء فى جامعة «هارفارد» كلام عن شروط ظهور الحياة واستحالة إمكان خلق الحياة بالصدفة والذاتية، هذه خلاصتُهُ:

«من أجل تشكيل البروتين يجب التحام مئات أو آلاف الجزئيات «أحماض أمينية» بِنِسب مختلفة وبأشكال متنوعة على شكل سلسلة،

وإن عـدد أنواع البروتينـات لا محـدود حقاً، لأنّه لا يمكن العثور على نوعين من الحيوانات يكون لهما نوع واحـد من البروتينات، إذن فجزيئات المواد العضويـة تشـكل مجموعـة عظيمة لا حدود لتنوعها وتعقيدها يبعث على الحيرة، ومن أجل صـنع موجود حى واحد لا نحتاج إلى مقدار كافٍ ونسب معينة من أنواع البروتينات اللامتناهية فحسب، بل يجب ترتيبها ترتيباً صحيحاً أيضاً، أى أنّ بناءها

(۱) سر الخلق، ص ۱۳۹ إلى ۱۴۱.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۸۶

له من الأهميّة ما لتركيبها الكيميائى من الأهميّة».

ثم يضيف: «إنّ بناء البروتينات معقد حقاً، وإن اعقد الأجهزة التى صنعها الإنسان (كالعقل الألكترونى) هى بحكم الألعوبة مقابل أبسط الكائنات الحية! يكفى الإنسان أن يفكر فى هذه العظمة لتتضح له استحالة الخلقة الذاتية أو بالصدفة» «۱».

نختم هذا الكلام بحديث قيّم عن الإمام الصادق عليه السلام، وحديث رفيع المعانى عن أميرالمؤمنين على عليه السلام، للإمام الصادق عليه السـلام كلاـم مفصـل قـاله للمفضّـل فى حـديث التوحيـد المعروف ب «المفضّـل» حول خلقـة الإنسان وأعضائه المختلفـة، يقول المفضّل:

سيدى: إنّ قوماً يقولون أنّه من صنع الطبيعة! فيجيب الإمام عليه السلام:

«سلهم عن هـذه الطبيعة أهى شـىء له علم وقدرة على مثل هذه الأفعال؟ أم ليست كذلك؟ فإن أوجبوا لها العلم والقدرة، فما يمنعهم من إثبـات الخـالق؟ فـإنّ هـذه صـنعته، وإن زعموا أنّهـا تفعل هـذه الأفعال بغير علم ولا عمـدٍ وكان فى أفعالها ما قـد تراه من الصواب والحكمة، عُلِمَ أن هذا الفعل للخالق الحكيم، وأنّ الذى سمّوه طبيعة هو سُنة فى خلقه الجارية على ما أجراها عليه» «۲».

ويقول أمير المؤمنين على عليه السـلام: «ولو اجتمع جميع حيوانها من طيرها وبهائمها، وما كان من مُراحِها وسائمها وأصـناف أسـناخها وأجناسـها، ومتبلـدة أممهـا، وأكياسـها، على إحـداث بعوضـة، ما قـدرت على إحـداثها ولا عرفت كيف السبيل إلى ايجادها ولتحيرت عقولها فى علم ذلك» «۳».

(۱) معرفة الحياة «شناخت حيات»، ص ۱۱ (بالفارسية).

(۲) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۱۶۷.

(۳) نهج البلاغة، الخطبة ۱۸۶.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۸۷

۴- آياته فى خلق الروح

تمهيد:

الروح أيضاً من أعجب ظواهر عالم الوجود وأكثرها غموضاً، ومع أنّها أقرب الأشياء إلينا إلّاأننا بعيدون جدّاً عن معرفتها وتشخيصها.

لم تتوقف جهود ومساعى العلماء والفلاسـفة من أجل معرفة الروح فى أى زمن من الأزمان، واستطاعوا بفضل هذه الجهود أن يكشفوا اللثـام عن بعض الأسـرار، ولكن الـوجه والأسـرار الخافيـة للروح لم تتغير لحـد الآـن، ومـا زالت هنـاك الكـثير من الأسـئلة حـول هـذا الموضوع بدون جواب.

ومن هنا كان خلق روح الإنسان من الآيات المهمّة الدالة على علم وحكمة وتدبير الخالق.

وعلى هذا الصعيد نتأمل خاشعين فی الآیات الکريمة أدناه:

۱- «وَنَفْسٍ وَمَا سَوّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَها وَتَقْواهَا». (الشمس/ ۷ و ۸)

۲- «ويَسْئَلُونَکَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی وَمَا أُوْتِيْتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّاقَلِيْلًا».
(الاسراء/ ۸۵)

۳- «وإِذْ قـالَ رَبُّکَ لِلْمَلائِکـةِ إِنّی خـالِقٌ بَشَـراً مِّنْ صَـلْصَالٍ مِّنْ حَمَـإٍ مَّسْـنُونٍ* فَـإِذَا سَـوَّيْتُهُ وَنَفَـخْتُ فِيْهِ مِنْ رُّوْحِی فَقَعُوا لَهُ ساجِـدِيْنَ».
(الحجر/ ۲۸ و ۲۹)

۴- «ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَـةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَـةَ مُضْـغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْـغَةَ عِظَاماً فَکَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَکَ اللَّهُ أَحْسَـنُ الْخَالِقِيْنَ». (المؤمنون/ ۱۴)

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۸۸

۵- «اللَّهُ يَتَوفَّى الأَنْفُسَ حِيْنَ مَوْتِهَا وَالَّتِی لَمْ تَمُتْ فِی مَنَامِهَا فَيُمْسِکُ الَّتِی قَضَـی عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَـمًّى إِنَّ فِی ذَلِکَ لَآيَاتٍ لِّقَومٍ يَتَفَکَّرُونَ». (الزمر/ ۴۲)

شرح المفردات:

إنّ مفردة «الروح» تعنی فی الأصل التنفس والنفـخ، ويعتقـد بعض أرباب اللغـة أنّ «الروح» اشـتقت فی الأصل من «الريح» بمعنی الهواء والنسـيم والريـاح، وبما أنّ روح الإنسان أی ذلک الجوهر المسـتقل المجرّد ومصـدر الحياة والتفکير هی جوهر لطيف تشـبه من حيث تحرکها ومنحها للحياة التنفس والنسـيم، فقد استعملت هذه المفردة للتعبير عنها، بالاضافة إلی أنّ علاقة الروح بالجسم لها ارتباط وثيق بالتنفس، لهذا استعملت هذه الکلمة فی خصوص روح الإنسان.

يعتقـد البعض أنّ المعنی الأصـلی لهـذه المادة هو «ظهور وحرکـة شـیء لطيف» سواء کان فی عالم الجسم أو فی عالم الروح والمعنی ومن أجل هذا أطلقت هذه الکلمة أيضاً على ظهور مقام النبوة وقضية الوحی وتجلی نور الحق.

«الرَوح»: (على وزن قَوم) التی تعنی السـرور والفرح والراحـة والنجـاة من الغم والحزن، وهی الاخری مأخوذة من هـذا المعنی کـذلک يطلق على الالطاف والرحمة الإلهيّة «روح اللَّه».

مفردة «الريحان» تستخدم فی کلام العرب ل «الورد» من أجل رائحتها الطيبة المنعشة ونسيمها المعطر.

ومفردة «الرواح» بمعنی «طرف الغروب» حيث تعود الحيوانات إلی حضائرها لتستريح.

وعلى کـل حـال، فـإنّ مواضع اسـتعمال هـذه المفردة فی القرآن الکريم متنوعـة جـدّاً، فتـأتی حينـاً بمعنی ملاک الوحی، وحينـاً بمعنی الملاک الکبير من ملائکة اللَّه الخُلّص (أو

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۸۹

المخلوق الأفضل بين الملائکـة)، وتأتی أحياناً لتـدل على القوة الإلهيّة المعنوية التی يسـند اللَّه المؤمنين بها، وجاءت تارة بمعنی الروح الإنسانية، وهذا ما أشرنا إليه فی الآيات أعلاه «۱».

«النَفْس»: يقول الراغب فی المفردات: النفس بمعنی الروح، وتأتی أحياناً بمعنی ذات الشیء، و «النَفَس» (على وزن قَنَص) بمعنی الهواء الذی يدخل ويخرج من وإلی جسم الإنسان عن طريق الفم.

وقـد أُطلقت مفردة «النفْس» هـذه على الـدم أيضاً، لأنّ الدم إذا خرج من جسم الإنسان بمقادير کبيرة فارقته روحه، وربّما أُطلقت هذه الکلمة على کل وجود الإنسان.

على أيّة حال، فإنّ أحد المعانی المعروفة للنفس هو «الروح» التی ذکرت عدّة مرّات فی القرآن الکريم.

۱- «النفس الامارة» التی تأمر الإنسان بالسوء: «إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوء».
(یوسف/ ۵۳)

۲- «النفس اللوامة» التی ترتکب الذنوب بعض الأحیان ثم تندم وتلوم نفسها: «وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ». (القیامة/ ۲)

۳- «النفس المطمئنة» وهی النفس الواصلة إلی مرحلة الأطمئنان والراحة والطاعة التامة لأوامر اللَّه والمشمولة بعنایاته: «یَا اَیَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ* إِرْجِعِی إِلَی رَبِّکِ راضِیَةً مَرْضِیَّةً». (الفجر/ ۲۷)

جمع الآیات وتفسیرها

الروح اعجوبة عالم الخلقة:

ورد فی الآیة الأولی من الآیات التی اخترناها لبحثنا هذا قَسَمٌ یختصّ بالروح الآدمیة وخالقها.

---

(۱) مفردات الراغب؛ لسان العرب؛ مجمع البحرین؛ والتحقیق فی کلمات القرآن الکریم.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۹۰

ذلک اللَّه الذی خلق الخلق ونظم القوی الروحیة للإنسان إبتداءً من الحواس الظاهریة وهی مقدمة الإدراکات الروحیة وانتهاءً بقوة التفکیر، الحافظة، التخیل، الإدراک، الابتکار، الإرادة والتصمیم: «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا».

وعلّمهُ طرق الهدایة بعد تنظیم هذه القوی «فَأَلْهَمَهَا فُجُوْرَهَا وَتَقْوَاهَا».

مع أنّ القوی الروحیة للإنسان متنوعة وکثیرة جدّاً، ولکن القرآن هنا وضع إصبعه من بین کل تلک القوی علی مسألة «إلهام الفجور والتقوی (إدراک الحسن والقبح)، لأنّ هذه المسألة لها تأثیر کبیر جدّاً فی مصیر الإنسان وسعادته وشقائه.

قلنا مراراً: إنّ القَسَمَ یدلّ علی الأهمیّة والعظمة، أهمیّة المُقْسَمِ به والمُقَسَمِ له، خاصة القَسَمُ القرآنی لحمل الناس علی المزید من التفکّر فی آیات «العظمة» الإلهیّة.

فضلًا عن أنّ «النفس» فی هذه الآیة ذکرت بصیغة النکرة، وهی فی مثل هذه الموارد من أجل التأکید علی أهمیة الموضوع أو کثرته «(۱)».

تشیر الآیة الثانیة إلی السؤال الذی طرح من قبل جماعة من المشرکین أو أهل الکتاب، حیث وفدوا علی الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله وسألوه عدة أسئلة کان أحدها عن الروح کما قال القرآن: «وَیَسْأَلُونَکَ عَنِ الرُّوْحِ».

ثم یأمر القرآن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله: «قُلِ الرُّوْحُ مِنْ أَمْرِ رَبّی».

إنّ فی هذا الجواب غیر المستبین إشارة عمیقة إلی مدی غموض ومجهولیة هذه الظاهرة الکبیرة فی عالم الوجود، ومن أجل أن لا یَقول أحد لماذا لم تظهر واحدة من أسرار الروح؟

یضیف اللَّه فی آخر الآیة: «وَما أُوتِیْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِیْلًا».

---

(۱) تفسیر روح البیان، ج ۱۰- ص ۴۴۲؛ و تفسیر روح المعانی، ج ۳۰- ص ۱۴۲، وقد احتمل بعض المفسرین أن تکون «النفس» فی الآیة أعلاه إشارة إلی الروح والجسم کلیهما، مع أنّ عبارة: «فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» تناسب الروح أکثر، وکذلک الآیة: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَکَّاهَا ...».

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۹۱

ولیس من العجیب أن لا تطلعوا علی أسرار الروح بهذا «العلم القلیل» و «المعرفة الیسیرة» (خصوصاً فی ذلک الزمان وتلک البیئة).
روی عن أبن عباس فی بعض الروایات أنّ قریش أرسلت بعض رؤوسها إلی علماء الیهود فی المدینة وقالت لهم: إسألوهم عن محمد لأنّهم من أهل الکتاب ولهم من العلم مالیس لنا، فجاؤوا المدینة وسألوا علماء الیهود، فقال الیهود فی جوابهم: إسألوه عن ثلاثة أمور: قصة أصحاب الکهف، وذی القرنین، وقضیة الروح، فإنّ أجاب عن جمیعها أو سکت عن جمیعها فلیس بنبی، أمّا إن أجاب عن بعض وسکت عن بعض فهو نبی.
فعادت رؤوس قریش إلی مکة وعرضت الأسئلة علی الرسول صلی الله علیه و آله، فقدّم لهم الرسول شرحاً وافیاً حول ذی القرنین وأصحاب الکهف، ولکنه فیما یخص السؤال عن الروح إکتفی بذلک الجواب المغلق بأمر من اللّه «۱»، ومع أنّ هناک تفاسیر مختلفة لمعنی الروح فی الآیة أعلاه فی روایات المعصومین علیهم السلام وکلمات المفسرین، ولکن أغلب هذه التفاسیر لا تتنافی مع بعضها ویمکن الجمع بینها، والروح الإنسانیة من جملة المفاهیم الداخلیة فی مدلول الآیة المعنیة «۲».
فی الآیة الثالثة کلام عن حوار اللّه مع الملائکة حول خلق البشر، حیث یقول عزّ وجلّ مخاطباً الملائکة: «إِنِّی خالِقٌ بَشَراً مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَأٍ مَّسْنُونٍ* فَإِذَا سَوَّیْتُهُ وَنَفَخْتُ فِیهِ مِنْ رُّوْحِی فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِیْنَ».
ثمّة نقطتان تثیران الاهتمام فی هذه الآیة، الأولی إضافة روح الإنسان إلی اللّه إذ یقول:

---

(۱) تفسیر روح المعانی، ج ۱۵، ص ۲۴۱ «قالت قریش للیهود أعطونا شیئاً نسأل هذا الرجل فقالوا: سلوه عن‌الروح فسألوه فنزلت: «یسألونک عن الروح قل الروح من أمر ربی وما أوتیتم من العلم إلّاقلیلًا»».
(۲) وردت فی تفسیر المیزان أقوال متعددة فی هذا المجال، منها أنّ المراد بالروح هی الروح الواردة فی الآیة الشریفة: «یوم یقوم الروح والملائکة صفاً» ومنها أنّ المراد بها جبرائیل وقال بعض المفسرین: إنّها تعنی القرآن، وآخر التفاسیر هو أنّ المراد بها الروح الإنسانیة، ثم یضیف: إنّ المتبادر من إطلاق الروح هو هذا.
نفحات القرآن، ج۲، ص: ۹۲

«من روحی»، وهذا دلیل علی منتهی عظمة وأهمیّة الروح الإنسانیة، وهذا من قبیل الإضافة التشریفیة حسب المصطلح، ک «بیت اللّه» و «شهر اللّه» التی تشیر إلی أهمیّة الکعبة وعظمة شهر رمضان المبارک، وإلّا فإنّ کل مکان هو بیته وکل الأشهر أشهره.
والثانیة أمر جمیع الملائکة بالسجدة لآدم بعد نفخ الروح فیه، وهذا برهان آخر علی عظمة مقام الإنسان، ذلک أنّ السجدة تفید منتهی الخضوع، فکیف لو کانت من قبل کل الملائکة؟ وهذه خیر علامة علی المقام الرفیع لآدم.
فی الآیة الرابعة وبعد الإشارة إلی خلق النطفة وتطورات الجنین والألبسة المختلفة التی یکسو بها اللّه هذه القطعة الصغیرة فی مختلف المراحل، یُغیّر عز وجل لهجة الکلام ویقول:
«ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَر».
إنّ التعبیر ب «الانشاء» (الایجاد) فی هذه المرحلة وخلافاً للمراحل السابقة التی عبّر عنها بالخلقة، إضافةً إلی استخدام «ثم» التی تستعمل عادةً من أجل الفصل یدل جمیعُهُ علی أنّ الخلق فی هذه المرحلة یختلف تماماً عن المراحل السالفة، وهذه علامة علی أنّ المراد هو خلق الروح التی ترتبط بالجسم بعد تکامله.
والمثیر أنّه یعبّر ب «خلقاً آخر» وهو تعبیر غامض ومُغلق، خلافاً للتعبیرات السابقة التی یتحدث فیها عن «النطفة» و «العلقة» و «المضغة» و «العظام» و «اللحم» وهی مفاهیم معروفة جمیعاً، وهذا دلیل آخر علی اختلاف المرحلة الأخیرة عن المراحل الماضیة.
ومن العجب أنّ بعض المفسرین ذکروا تفاسیر لعبارة: «الخلق الآخر» لا تنسجم أبداً مع روح الآیة، من جملتها: أنّ المراد بانشاء الخلق الآخر هو ظهور الأسنان والشعر علی الجسم «۱»! فی حین أنّ هذا لا یتناسب أبداً مع تعابیر الآیة ولا شک أنّ ظهور الأسنان والشعر

(۱) روی هذا الاحتمال عن بعض المفسرین فی تفسیر روح المعانی، ج ۱۸، ص ۱۴؛ وتفسیر القرطبی، ج ۷، ص ۴۵۰۲.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۹۳

لیس له من الأهمیّة ما یوازی سائر تطورات الجنین المختلفة.

فی نهایـة الآیـة وردت جملـة عجیبة أخری تشـکل دلالة أخری علی الأهمیّة القصوی لخلق الإنسان فی المرحلة الأخیرة أو فی مجموع هـذه المراحل، یقول تعالی «فَتَبَارَکَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِینَ» فسـبحان العلیم الحکیم الـذی أودع القابلیـة والجدارة فی مثل هکذا موجود حقیر.

«تبارک»: من مادة (بَرْک) بمعنی صـدر الناقـة، وبما أنّ للناقـة حین تضع صدرها علی الأرض نوع من الثبات، فقد جاءت هذه المفردة بمعنی «الثبات والدوام» ولأن کل نعمة کانت دائمة إزدادت أهمیتها، فقد سمّیت هکذا نعم بالمبارکة.

إنّ استخدام هذه المفردة فی خصوص اللَّه إشارة إلی عظمة وقدسیة وخلود ذاته المطهرة.

فی الآیـة الخامسـة والأـخیرة من الآیـات المعنیـة فی بحثنا هـذا یشـیر عز وجل إلی مسألـة بقاء الروح، بتعبیره: «اللَّهُ یَتَوَفَّی الْأَنْفُسَ حِیْنَ مَوْتِهَا».

وبلحاظ أن کلمة «یتوفّی تعنی القبض والاستلام الکامل، و «الأنفس» هی الأرواح، یتضح أنّ الروح ینفصل کلیاً عن الجسم عند الموت وبأمر اللَّه، ولکن عند النوم یحصل هذا الانفصال بشکل ناقص: «وَالَّتی لَمْ تَمُتْ فِی مَنَامِهَا».

ثم أشـار إلی عـدم عودة بعض الأـرواح فی حالـة النوم وعودة البعض الآـخر حتی أجـل مسـمی وأضـاف: «إِنَّ فِی ذَلِکَ لَآیَاتٍ لِّقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ» «۱».

(۱) یقول الفخر الرازی فی تفسـیرهِ وتعقیباً علی هـذه الآیـة: إنّ اللَّه الحکیم جعل ارتباط الروح الآدمیـة بالجسم علی ثلاثـة أقسام: تارة یسطع شـعاع الروح علی جمیع الأجزاء الظاهریـة والباطنیـة للجسم، وهذه حالة الیقظة، وتارة یسـحب هذا الشـعاع من الأجزاء الظاهریة ویبقی فی الباطنیة وهذه حالة النوم، وتارة یرتفع شعاعها عن الأجزاء الظاهریة والباطنیة وتلک حالة الموت.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۹۴

یسـتفاد من هـذه الآیـة وبکل سـهولة أنّ الإنسان ترکیب من الروح والجسم، وأنّ الروح جوهر غیر مادی، وأنّ النوم درجـة ضـعیفة من الموت ودلیل علی ضعف الارتباط بین الروح والجسد.

ویستفاد أیضاً أنّ الموت لا یعنی الفناء والهلاک، بل هو نوع من البقاء واستمرار الحیاة.

والنتیجـة هی أنّ الروح الإنسانیـة بکل قواها وقـدراتها التی تجعلها من أعقد وأعجب ظواهر عالم الوجود هی إحدی آیات اللَّه الکبری کیف یمکن أن یکون خالق کل هـذا العلم والقـدرة والفکر والـذکاء والـذوق والإبتکار والإرادة والتصـمیم هی الطبیعـة الفاقدة للعقل والشعور ولکل أنواع العلم والفکر والذکاء والإبتکار؟!.

بل علی العکس، فهـذه القطرات والروافـد الصـغیرة علامـة علی وجود محیط کبیر تنبع جمیعها منه، وهذه الاشـعاعات الباهتة قبس من تلک الشمس الکبیرة.

توضیحات

۱- القوی الظاهریة والباطنیة للروح

عَدَّ القدماء خمسة قوىً ظاهرية وخمسة قوىً باطنية للروح الآدمية، أَمّا القوى الظاهرية فهى: حاسة النظر، السمع، الشم، الذوق، اللمس، وهى نوافذ روح الإنسان نحو عالم المحسوسات والروابط بين ذلك الجوهر المجرد وعالم المادة.

إنَّ كل واحدة من هذه القوى عالم واسع مليٌ بالأسرار، وكل واحدة من أدوات هذه القوى أى العين والأُذن واللسان والغدد الشَّمِّيَة والأعصاب الموزَّعة فى كافة أنحاء الجلد، آية من آيات اللَّه تتضمن فى داخلها عالماً من العلم والحكمة.

وقد عد الفلاسفة القدماء القوى الباطنية خمسة أيضاً:

۱- الحس المشترك.

۲- الخيال، والذى يعتبر ذاكرة الحس المشترك.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۹۵

۳- القوة الواهمة التى تدرك مفاهيم من قبيل المحبة والعداء.

۴- القوة الذاكرة التى تحفظ فى داخلها الإدراكات الواهمة.

۵- قوة التخيل التى تُصرّف المفاهيم والصور الجزئية الموجودة فى خزانة الخيال والذاكرة فترسم صوراً مختارة لا- وجود لها فى الخارج.

وكل واحدة من هذه القوى الخمس هى عالم مليءٌ بالأسرار بحدّ ذاتها.

لكن علماء وفلاسفة اليوم لا- يحددون القوى الظاهرية بتلك القوى الخمس المعروفة، ولا- القوى الباطنية بتلك القوى الخمس المذكورة، إنهم يضعون للنفس الإنسانية قوى كثيرة، ويعتبرون الروح الآدمية مخزناً عجيباً فيه أنواع القوى ومختلف الاذواق والقابليات والادراكات التى يختلف فيها أفراد البشر.

لقد وضع علم النفس والتحليل النفسى يده اليوم على مناطق غامضة ومبهمة من روح الإنسان واكتشف فيما اكتشف فيها عالماً جديداً وسرّياً باسم «الضمير الخفى» أو «ضمير اللاشعور» ووضع أمام أعين البشر المزيد من العجائب عن هذا الموجود المجهول.

۲- الروح .. الظاهرة الخفية فى عالم الوجود

مع أنّ القرآن الكريم يشرح الكثير من الجزئيات المتعلقة بالسماء والأرض والنباتات والحيوانات عند ذكره للآيات الإلهيّة سواء كانت آيات آفاق أو آيات أنفس، لكنه حين يصل إلى قضية الروح لا يزيد على قوله: «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمرِ رَبِّى وَمَا أُوْتِيْتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيْلًا». أو إنّه يقول: «وَنَفْسٍ وَمَا سَوّاهَا» أو يعبّر عنها بإنشاء الخلق الآخر: «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ»، أو إنّه ينسب الروح إلى نفسه فيقول: «وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُوحِى».

إنَّ كل هذه التعابير تحكى عن أن خلق الروح يختلف عن خلق بقية الموجودات، وليس هذا إلّابسبب تعقيد قضية الروح وأسرارها العظيمة.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۹۶

۳- نشاطات الروح المختلفة

للإنسان نشاطات روحية وفكرية عديدة، سواء فى الشعور أو فى اللاشعور، بحيث يمكن لكل واحد من هذه النشاطات أن يكون موضوع بحث مستقل فى كتب متعددة (وغالباً ما كان)، وقسم من هذه النشاطات على النحو التالى:

أ) «التفكير» من أجل الوصول إلى المجهولات، أو بتعبير الفلاسفة حركة الفكر نحو المبادىء، ثم حركته الأخرى من المبادىء نحو

الأهداف والمراد.

ب) «الابتكـار» من أجـل حـلّ مشاكـل الحيـاة غير المتوقعـة، ومواجهـة الحـوادث المختلفـة، ورفـع الاحتياجـات المتنوعـة والابـداعات والاكتشافات والاختراعات.

ج) «الـذاكرة» لحفـظ أنواع المعلومـات الـتى يحصـل عليهـا الإنسـان عن طريق الحس أو التفكير وتبويبهـا وخزنهـا ثم اسـتذكارها عند الحاجة.

د) «التجربـة وتحليـل القضايـا» من أجـل معرفـة علـل وجـذور الحوادث عن طريق فصـل المفاهيم الذهنيـة عن بعضـها، ثم تركيبها، ثم الوصول إلى علل ونتائج الحوادث.

ه) «التخيل» أى إيجاد صورة ذهنية قد لا تكون فى بعض الأحيان موجودة فى الخارج كمقدمة لفهم القضايا الجديدة.

و) «الإرادة والتصميم» لأجل القيام بالأعمال أو التوقف عنها أو تغييرها.

ز) «الإدراكات الفطرية والعقلية» وهى الأساس فى الاستدلالات النظرية وغير البديهية.

ح) العشق، الحب، العداوة وعشرات الظواهر الروحية الأخرى ذات التأثيرات الإيجابية أو السلبية فى أفعال الإنسان.

وبـالطبع فهـذه القضايـا ليسـت منفصـلة عن بعضـها، بـل هى متمركزة جميعهـا فى داخـل روح الإنسـان، إنّهـا أمـواج من هـذا المحيط اللامتناهى، وأنوار من هذه الشمس الساطعة، وهذا مايدل على أنّ الروح الآدمية أرفع آيات اللَّه وأهم علاماته.

وفى قول القرآن الكريم إشارة إلى هذه الحقيقة: «وَفِى الأَرضِ آياتٌ لِّلمُوقِنِينَ*

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٩٧

وَفِى أَنفُسِكُم أَفَلا تُبصِرُونَ». (الذاريات/ ٢١)

ولا نذهب بعيداً فإنَّ الذاكرة الإنسانية التى تمثل أرشيفاً للمعلومات المختلفة على درجة من الغرابة والعجب بحيث لو أننا أردنا توظيف مئات الأشخاص لحفظ وظرافة وترتيب معلومات أحد الأشخاص لاستحال عليهم القيام بنشاط الذاكرة بهذه السرعة والدقة.

ولو سـلبت منّا الـذاكرة لساعـة واحـدة لما أمكنتنا الحياة، فلا نضلُّ الطريق إلى منازلنا فحسب، بل سيصـيبنا النسـيان حتى فى أن نضع اللقمة فى فمنا عند تناول الطعام، سيكون كل شىء بالنسبة لنا مجهولًا ووحشياً وغريباً ومُحيراً.

فقـد أحـد الشـباب جزءً من ذاكرته نتيجة حادث سـير أصابه بضـربة دماغية، وعندما حملوه إلى بيته أنكر بيته! وقال: إنّ هذه هى المرة الأولى التى أضع فيها قدمى هنا! بل حتى أمه كان يتصورها امرأة غريبة، وبدت اللوحة الفنية التى رسمها بيديه مجهولة تماماً فى عينيه، وكان يقول: إنّها اول مرّة أراها.

إنّنـا نحمل فى أرشـيف ذاكراتنا صوراً لآلاف الموجودات وآلاف آلاف البشـر وآلاف آلاف المواد المختلفـة وآلاف آلاف الخواطر واللقطـات وآلاـف آلاـف المعلومـات المختلفـة الاخرى والعجيب أنّ اسـتحضار احـدى الخواطر لا يحتاج أكثر من واحـد بالألف من الثانيـة من أجل أن يسـتطيع الإنسان الانتباه إلى خاطرة معينـة من بين معلوماته المبوبة التى مضت عليها لحظة أو سـنة أو خمسون سـنة، خاصة وأنّ العلماء يشيرون إلى إحدى الأعمال المحيرة للذاكرة والتى يسمونها «معجزة الذاكرة» وهى بالترتيب الآتى:

كثيراً ما ينسى الإنسان إسم شـخص أو موضوع ثم يجهـد ويحاول أن يتـذكره ويقلّب رفوف أرشـيف ذاكرته واحداً بعد الآخر ولكن دون جدوى

حسـناً، إن كـان الإنسـان يعلـم ذلـك الاـسم أو الموضـوع، فلمـاذا يبحث عنه؟ وإن لم يكن يعلمه فكيـف يبحث عن شـىء لاـ يعلمه؟ أفيمكن أن يبحث الإنسان عن ضالة لا يعرف ما هى أو من هى؟!

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٩٨

ومع هذا فيصدق على ذاكرة الإنسان أن تبحث عند النسيان عن ضالة لا تعلم ما هى؟

وفجأة تصل إلى الرف الذى يحمل ضالتها فتعثر عليها «١».

وهنا توجد نقطة دقيقة يكمن فيها الحل المذهل للقضية، وهي: في مثل هذه المواضع لا يبحث الإنسان عن ذات ذلك الاسم أو الموضوع الذى لا- يعرف ما هو بل من أجل العثور عليه تراه يبحث عن مجموعة الحوادث التى يعلم بشكل إجمالى أنّه اختزنها فى ذهنه بمعية الاسم المطلوب (لأنّ الحوادث المختلفة تُخْتَزَنُ على شكل مجموعات مجموعات)، فمثلًا هو يعلم أنّه تعرف لأول مرّة على الشخص المعنى الذى نسى أسمه فى اليوم الفلانى والمحل الفلانى، لذلك يطلب من أرشيف الذاكرة وبشكل فورى إضبارة ذلك اليوم وذلك المحل ويتصفحها بسرعة البرق ليعثر فى طياتها على اسم ذلك الشخص.

ونختم هذا الكلام بحديث عن الإمام الصادق عليه السلام وَرَدَ فى توحيد المفضل، يقول:

«تأمل يا مفضّل هذه القوى التى فى النفس وموقعها من الإنسان، أعنى الفكر والوهم والعقل والحفظ وغير ذلك، أفرأيت لو نقص الإنسان من هذه الخلال الحفظَ وحده كيف كانت تكون حاله؟ وكم من خلل كان يدخل عليه فى اموره ومعاشه وتجارته إذا لم يحفظ ماله وما عليه وما أخذه وما أعطى وما رأى وما سمع، وما قال وما قيل له ولم يذكر من أحسن إليه ممن أساء به، وما نفعه ممّا ضره، ثم كان لا يهتدى لطريق لو سلكه ما لا يُحصى ولا يحفظ علماً ولو درسه عمره، ولا يعتقد ديناً، ولا ينتفع بتجربة ولا يستطيع أن يعتبر شيئاً على ما مضى بل كان حقيقاً أن ينسلخ من الإنسانية أصلًا».

ثم يضيف الإمام: «وأعظم من النعمة على الإنسان فى الحفظ النعمة فى النسيان، فإنّه لولا النسيان لما سلا أحد عن مصيبة ولا انقضت له حسرة، ولا مات له حقد، ولا استمتع بشيء من متاع الدنيا مع تذكر الآفات ..» «٢».

---

(١) الاقتباس من كتاب «حافظة» من سلسلة «چه مى دانم» (بالفارسية).

(٢) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٨٠ و ٨١ (بشيء من التلخيص).

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٩٩

۴- مقارنة عقل الإنسان بالعقول الألكترونية

فى بعض الأحيان يقارن البعض من عديمى الاطلاع بناء روح وفكر الإنسان وعقله ببناء العقول الالكترونية، والحال أنّ الفرق بينهما اكبر من الفرق بين الطائرة اللعبة التى يلعب بها الأطفال وطائرة عملاقة حقيقية! والسبب هو:

إنّ نشاط العقول الالكترونية محدود بحدود حافظتها فقط، وحافظتها هى تلك التى يغذيها الإنسان بالمعلومات، ولذلك ليس لها وراء حدود هذه الحافظة المحدودة أى نشاط على الاطلاق.

وفضلًا عن أنّ العقول الألكترونية تفتقر لأى نوع من أنواع الإبتكار والتفكير أزاء إحدى الحوادث الجديدة مهما كانت بسيطة، كردّ الفعل مقابل هبوب الرياح الشديدة مثلًا ناهيك عن الإبتكار والإبداع فى القضايا المهمّة والمعقدة.

ثم حتى لو افترضنا صحة المقارنة بينهما فَأى عقل يصدق أن صناعة العقل الالكترونى الذى يُعد أُعجوبة الصناعات البشرية، قد تمت على يد إنسان أمى أو أعمى أو أصم أو مجنون؟

أفيمكن للطبيعة الفاقدة للروح والعقل والتفكير والابتكار أن توجد الروح والعقل والابتكار؟ ومن هنا نقول: إنّ فى داخل روح الإنسان الآلاف من آيات الخالق وعلاماته.

۵- أصالة واستقلال الروح

مع أنّه لا یوجد بالنسبة لنا فرق فی البحوث المتعلقة بآیات اللّه بین أن تکون روح وفکر الإنسان جوهراً مستقلًا ومجرداً عن المادة، أو مرتبطاً بها ومن آثارها (وهذا هو الجدل المعروف بین الفلاسفة الإلهیین والمادیین)، ولکن لا شک أنّه متی ما ثبتت أصالة واستقلال الروح اکتسبت هذه الآیة الإلهیّة مزیداً من التأثیر والجاذبیة.

یصر المادیون علی أنّ الروح والفکر من الخواص «الفیزو کیمیائیة» للخلایا الدماغیة

نفحات القرآن، ج۲، ص: ١٠٠

والتی تزول تماماً بفناء الجسم، والحال أنّ للروح والفکر الآدمی ظواهر لا یمکن تفسیرها بالتفاسیر المادیة أبداً.

فمثلًا یجد کل شخص حقیقة فی داخله تسمی «الأنا»، وهی واحدة لیست أکثر منذ بدایة العمر حتی نهایته، «أنا» منذ الطفولة وحتی الآن شخص واحد لم أزدد ولم أتغیر، وسأبقی أنا ذلک الشخص إلی آخر العمر، بالطبع درست وتعلمت القراءة والکتابة ولهذا فقد حصلت وعلی نسبة من التکامل، لکننی لم أتحول إلی إنسانٍ آخر، بل ما أزال ذلک الشخص السابق.

فی حین إذا أخذنا الأجزاء المادیة للجسم نری أن جمیع تلک الذرات فی حال تغیّر وتبدل، وأنّ جمیع خلایا الجسم تتغیّر کل سبعة أعوام مرّة واحدة تقریباً، أی أنّ الشخص البالغ من العمر سبعین سنة أصابه تبدل فی أجزاء جسمه المادیة عشرة مرات، رغم أنّ «الأنا» (شخصیته الإنسانیة) ثابتة لم تتغیر، وهذا یدل علی أن حقیقة «الأنا» حقیقة ما وراء المادة ولا تتغیر بتغیرات المادة.

فضلًا عن أنَّ فی أذهاننا حقائق مخزونة تکون أکبر من مخنا وخلایانا المخیة آلاف الآلاف من المرات، تصور السماوات والمجرّات، الشمس والقمر وغیرها، فَمن المستحیل أن تکمن هذه الصور الکبیرة فی الجزء المادی من وجودنا، ولا سبیل إلّاأن تنعکس فی الجزء غیر المادی أی الروح، لأنّ الجزء المادی أی المخ لیس إلّاموجود صغیر.

وعلاوة علی هذا فإنّ الظواهر المادیة تقبل التجزئة والقسمة جمیعاً فی حین توجد بین مفاهیمنا الذهنیة مفاهیم لا تقبل التجزئة إطلاقاً.

إنّ خصوصیة «تصویر الواقع» والاطلاع علی العلم الخارجی بالنسبة لنا، والموجودة فی علومنا ومعارفنا، هی حقیقة لا یمکن تبریرها عن طریق الخواص «الفیزو کیمیائیة» للمخ.

وهذه البراهین الأربعة وبراهین واضحة أخری تدل بجلاء علی أنّ الروح جوهر مستقل ومجرّد من المادة «١».

---

(١) من أجل مزید من الشروح راجع، ذیل الآیة ٨۵ من سورة الإسراء من «التفسیر الأمثل».

نفحات القرآن، ج۲، ص: ١٠١

۶- خصوصیات الروح فی القرآن الکریم

یمکن استخلاص الخصوصیات والصفات التالیة للروح الإنسانیة بالاستفادة من آیات القرآن الکریم:

أ) تتمتع الروح الآدمیة بالاستقلال وتبقی بعد انفصالها عن الجسد مستقلة، والآیة «اللَّهُ یَتَوَفَّی الأَنْفُسَ ...». (الزمر/ ۴١) تشهد بهذه الحقیقة.

ب) من الممکن أن تتنعم الروح الآدمیة وبعد انفصالها عن الجسم فی عالم البرزخ بانواع النعم الإلهیّة أو أنّها تتعذب بمختلف صنوف العذاب الشدید، وفی آیة «حَیاةُ الشُّهَداء» کما ورد فی الآیة ١۶٩ من سورة آل عمران.

وآیة «عذاب آل فرعون» کما ورد فی الآیة ۴۶ من سورة غافر.

دلیل علی هذا المعنی

ج) یختلف بناء الروح إختلافاً کبیراً عن بناء الجسم کما قرأنا ذلک فی الآیات المعنیة حیث إنّ اللّه تعالی یعتبر الروح من عالم «الأمر» وخلقها من نوع «انشاء الخلق الآخر» الآیة ٨۵ من سورة الاسراء و ١۴ من سورة المؤمنون.

د) إنّ علم الإنسان عن حقيقة الروح وأسرارها قليل جدّاً، وآية «وَمَا أُوتِيْتُمْ مِّنَ الْعِلمِ إِلَّا قَلِيْلًا». (الاسراء/ ٨٥)

شاهد على هذا المدعى

ه) في حالة النوم تضعف علاقة «الروح»، ب «الجسم» وفي حالة الموت تنقطع نهائياً كما في ورد في سورة الزمر، الآية ۴٢.

و) الروح والظواهر الروحية بصورة عامة من الآيات المهمّة على عظمة اللّه ووسيلة مهمة لمعرفته تعالى «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ». (الزمر/ ۴٢)

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٠٢

٧- مسك الختام حول الروح

إنّ البحث حول الروح اكبر وأوسع من أن نستطيع تبيان جميع أبعاده في هذا الموجز السريع، وإذا أردنا أن نترك عنان القلم خرجنا من بحثنا التفسيري، لذلك يمكن الرجوع إلى الكتب الفلسفية والكلامية والروائية، من أجل المزيد من التفصيلات وقد وردت بحوث متعددة في «التفسير الأمثل» في هذا المضمار، ونلاحظ بحوثاً وشروحاً وافية في تفسير الميزان، المجلد الأول في تفسير الآية: «وَلَا تَقُوْلُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ».

(البقرة/ ١۵۴)

ذكر العلّامة المجلسي في كتابه المشهور بحارالانوار ١٧ دليلًا عقلياً ونقلياً لإثبات أنّ حقيقة الإنسان ليست مجرّد هذا الجسم «١».

وفي نفس هذا الكتاب يذكر نقلًا عن المحقق الكاشاني ١۴ قولًا حول حقيقة الروح «٢».

ونختم هذا البحث بحديث لطيف عن أميرالمؤمنين عليه السلام، حيث روى عنه أنّه قال: «الروح في الجسد كالمعنى في اللفظ» «٣».

يقول أحد العلماء واسمه الصفري: «إنني لم أر مثالًا حول الروح أجمل وأفصح من هذا المثال»، نعم الروح كالمعنى والجسم كاللفظ!

---

(١) بحارالأنوار، ج ۵٨، ص ۶ إلى ١٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٧۵.

(٣) سفينة البحار، ج ١، ص ۵٣٧، مادة (الروح).

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٠٣

۵- آياته في الهداية الفطرية والغريزية للإنسان والحيوان

تمهيد:

ليس البشر فحسب بل الكثير من الأحياء الأخرى تولد من أمهاتها ولديها حصيلة من العلوم والمعارف الفطرية والغريزية، العلوم التي لم يكن ثمّة معلم يعلمها وليست وليدة التجربة والاختبار، بل إنّ المعلم الأول هو الذي أودعها منذ البداية في عمق وجود الإنسان وسائر الحيوانات بطريقة تثير العجب والذهول.

إنّ دراسة هذه العلوم والمعارف والهداية الفطرية والغريزية تعد آيات عظيمة على عظمة اللّه وعلامة بيّنة لعلمه وقدرته.

وبهذه الإشارة القصيرة، نقرأ خاشعين للآيات الكريمة أدناه:

١- «قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى . (طه/ ۵٠)

٢- «أَلَمْ نَجْعَلْ لَّهُ عَيْنَيْنِ* وَلِسَانَاً وَشَفَتَيْنِ* وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ».

(البلد/ ٨- ١٠)

٣- «فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْوَاهَا». (الشمس/ ٨)

٤- «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّيْنِ حَنِيْفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبْدِيْلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّيْنُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ». (الروم/ ٣٠)

٥- «الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ». (العلق/ ٤- ٥)

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٠۴

٦- «الرَّحْمنُ* عَلَّمَ الْقُرآنَ* خَلَقَ الإِنْسانَ* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ». (الرحمن/ ١- ۴)

٧- «فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنْتَ مُذَكِّرٌ». (الغاشية/ ٢١)

جمع الآيات وتفسيرها

أستاذ الأزل:

الآيـة الأولى من الآيات التى اخترناها فى بحثنا هـذا تتناول حوار موسـى بن عمران عليه السـلام مع فرعون، فعنـدما سأله فرعون وأخاه هارون: من هو ربّكما هذا الذى تدعوان له؟ أجابه فوراً: «رَبُّنا الَّذى أعْطى كُلَّ شَىءٍ خَلْقَه ثُمَّ هَدى .

واضح أنّ كل موجود خلق من أجل هدف، وكل صـنف من أصناف النباتات والحيوانات والموجودات سواء كانت طيوراً أو حشرات أو حيوانات أو صـحارى أو بحاراً، كلٌ خُلِقَ لبيئة خاصة، ونرى بوضوح أنّ لها انسـجاماً كاملًا مع بيئتها وقد زوّدت بما تحتاج إليه، هذا فى المرحلة الابتدائية من خلقها.

أمّا فى مرحلـة الهدايـة التكوينيـة فنشاهـد بجلاء أن ليس هنالك موجود يترك لحاله بعد خلقه بل إنّه يُساق نحو أهدافه بتوجيه خفى، وللكثير منهـا علوم ومعـارف لم تصـلهم بلاـ شك عن طريق التجربـة الشخصـية ولا عن طريق تعليم المعلم، إنّ هـذه الهدايـة التكوينية والعلوم والمعارف من آيات الذات المقدّسة التى خلقت هذا العالم الكبير وما انفكت تهديه وتسيّره.

وبالطبع فإنّ هذا الكلام لا يخص الإنسان وحده، بل إنّ مفاد الآية هو بحث كلى وجامع وعام يشـمل أفراد البشر، وهذا أمر يختلف عن هداية الأنبياء والرسل المسماة بالهداية التشريعية والخاصة بالإنسان.

إنّ الطفل الـذى يولـد من أمّه يتّجه وبـدون أى مقدّمـة نحو ثـدى الأم بفمه ويمتص عصارة روحها، وتارة يضع يـديه الصـغيرتين على الثدى فيحرك منابع اللبن فيه، من اين تعلم هذا الدرس الذى يضمن لهُ تغذيته واستمرار حياته؟

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٠٥

من اين يعلم أنّ أفضـل سبيـل لرفع حاجاته التى لا يسـتطيع القيام بها هو «البكاء» البكاء الـذى يهز الأم فى نومها ويقظتها ويفرض عليها معونته، وكذلك العلوم والمعارف الأخرى التى يستفيد منها الإنسان فى مراحل أخرى من دون الحاجة إلى معلم.

يوجد فى آيات أخرى من القرآن ما يشبه هذا المعنى نقرأ فى قوله تعالى «وَالَّذى قَدَّرَ فَهَدى . (الأعلى/ ٣)

وفى الآيـة الثانيـة من الآيات المخصـصة لبحثنا هـذا وعند تذكير الإنسان بنعمه عليه، يقول بعد الإشارة إلى نعم العين واللسان والشـفاه: «وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ».

«نجـد»: فى اللغة بمعنى المكان المرتفع والفلاة، وهى تقابل «التهامة» التى تطلق على الأراضـى المنخفضة والواطئة والمساوية لمسـتوى سطح البحر وما شاكل، وانطلاقاً من أنّ المعرفة بأُسـس السـعادة وطرقها وسـلوك هذه الطريق يشبه إلى حدٍ ما سلوك الطرق المرتفعة بمـا فيهـا من مشـاق ومشاكـل كثيرة، فقـد اسـتعملت مفردة «نجـد» هنـا بمعنى طريق الخير، ثم جاء الاطلاع على طرق الشـر إلى جانبها

بعنوان «التغليب»، وعليه يكون معنى الآية هو: «إنّا هدينا الإنسان إلى هذين المكانين المرتفعين»، وهذان المكانان هما طرق الخير والشر.

لهذا نقرأ في حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «يا أيّها الناس! هما نجدان: نجد الخير ونجد الشر، فما جُعِلَ نجد الشر أحبَّ إليكم من نجد الخير» «١».

يحصر البعض من ذوى النظر المحدود مفهوم الآية الواسع في داخل موضوع محدود، ويقولون: إنّ المقصود من هذين المكانين المرتفعين هما ثديا الأُم! وقد ورد في الحديث أن الإمام على عليه السلام سُئِل عن معنى «وهديناه النجدين» وهل تعنى ثديى الأم كما يدعى البعض.

إنّ الهداية الإلهيّة في هذا المجال تحصل طبعاً عن طرق مختلفة، عن طريق الوجدان الأخلاقى، الفطرة، الدلائل العقلية، وتعاليم الرسل (أى أنّها تشمل أنواع الهداية التكوينية والتشريعية)، لكن سياق الآيات يناسب الهداية التكوينية أكثر.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۸۱؛ و تفسير مجمع البيان؛ وتفسير القرطبى، وقد روى نفس هذا المعنى عن الإمام الصادق عليه السلام تعقيباً على الآيات المنظورة.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٠۶

وفى الآية الثالثة بعد القسم بروح الإنسان، وخالق الروح، يشيرُ إلى مسألةٍ الهام الفجورِ والتقوى ويقول: إنَّ اللَّه تبارك وتعالى ألْهَمَ نَفْسَ الإنسانِ الفجور والتقوى «فَأَلْهَمَها فُجُوْرَهَا وَتَقْوَاهَا»، و «الالهام» مِنْ مادة (لَهْمْ) على وزن (فَهْمْ) أى (ابتلاع) أو (شرب) الشيء «١».

ثم جاءت بمعنى القاء الأمر في قلب الإنسان من قبل البارى تعالى فكأنّما يلتهمُ القلبُ ذلك الأمرَ بتمامه، وللالهام معنىً آخر أيضاً وهو «الوحى»، حيث استُخدِمَ أيضاً بهذا المعنى أحياناً.

وتعنى «الفجور» خرقَ حجابِ التقوى وارتكاب الذنوب، وهى من مادة «فَجْر» التى تعنى الانشقاق الواسع، أو انكشاف ظلمة الليل بواسطة بياض الصبح.

و «التقوى : من مادة «الوقاية»، وتعنى (الصيانة)، والمقصود هنا الأساليب التى تمنع الإنسان من التلوث بالذنوب والقبائح.

من هنا يُفهمُ بوضوح من هذه الآيةِ أنّ اللَّه تبارك وتعالى قد أوْدَعَ مسألةَ إدراكِ الحُسْنِ والقُبحِ العقليين وفَهْمِ الحَسَنِ والسيء بشكلٍ فطريٍّ داخل روح الإنسان كى يهديه الطريق نحو السعادة والتكامل.

وورد في حديثٍ للإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية أنّه قال: «بيَّنَ لها ما تأتى وما تترك» «٢»

، فالمقصود هو أنَّ اللَّه بيَّنَ للإنسان ما يجب فِعْلُهُ وما يجب تَركُه أو بتعبير آخر علَّمَهُ (الواجبات، والمحرمات).

وحول السبب في تقدُّم «الفجور» على «التقوى ؟ يقول بعض المفسِّرين: لأنَّ «التَّطهرَ من الذنوب» يُمثلُ الأرضيةَ ل «التحلى بالتقوى ، باعتبار أنّ (التخلية) تكون قبل (التحلية)، و (التطهير) قبل «اعادة البناء» دائماً «٣».

---

(١) لسان العرب مادة (لَهمْ) بناءً على ذلك فحينما تستعمل هذه المادة في باب الافعال تفيد «الابتلاع والشرب» وقال بعض إنّها تستخدم في امور الخير فقط، وإنّ المراد من الهام الفجور في الآية هو صده عن الخير أيضاً.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۸۶، ج ٧.

(٣) تفسير روح المعانى، ج ٣٠، ص ١۴٣.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٠٧

على أيّةِ حالٍ، فلو لم يكن إدراكُ حُسْنِ وقُبحِ الأفعالِ فطرياً بالنسبةِ للإنسان، أي لو كانت هناك حاجة للاستدلال من أجل فَهم قُبحِ الظلم وحُسنِ العدل والاحسان والأعمال الاخرى فمن المسلَّم إنّه سيختلُ نظام المجتمع البشرى، لأنَّ الكثير من الاختلافات العقائدية تنشأ عن الاستدلالات النظرية، حيثُ لا يوجد أساسٌ وجدانيٌ متين لهذا المعنى فيمنحُ كلُّ شخصٍ لنفسهِ حريةَ القيام بأيِّ عمل.

أجَلْ إنَّ هذه الهدايةَ الالهيةَ فى الحياة الاجتماعية للإنسان مصيريةٌ إلى أبعدِ الحدود، وهذه النعمةُ وهذه الهدايةُ مهمّةٌ إلى الحدِّ الذى لا يمكن قياسُها بسائر النِّعم الاخرى

وفى الآية الرابعةِ طُرحت مسألةُ فطرية الدين، وهو (الدين الحنيف) أى الخالى من كل أشكال الهوى والاتجاه نحو الباطل والانحراف، والطاهر من كافة أشكال الشرك والتلوث:

«فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّيْنِ حَنِيْفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَتى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا».

والاستفادة من تعبير «الدِّين» نظراً لسعة مفهومهِ، حيث يشمل جميعَ اصول الدين، والحد الأدنى من مجموع فروع الدين، بأنّه ليس معرفة اللَّه والتوحيد فقط، وإنّما اصول وفروع الدين كافة اودعَتْ منذ البداية فى روحِ الإنسان بنحوِ اجماليٍّ وبصورةٍ فطريةٍ، وهذه هى «الهدايةُ التكوينية» التى يُمكنُ أن تُوجِدَ أكثر الآثار جاذبية لدى الإنسان فيما لو تناغمت مع «الهداية التشريعية» للأنبياء عليهم السلام.

بناءً على ذلك فانَّ أصلَ كلِّ دعوةٍ موجودةٍ فى الشريعةِ له وجود فى أعماق فطرةِ الإنسان، ولا يعارضُ أيُّ دينِ الإرادات الفطرية للإنسان، بل يرشدُها وَيكْملها من خلال الطريق المشروع، ولهذا فانَّ التعبُّدَ والتَّدَيُّنَ موجودان داخل روحِ الإنسان بصفتهما هدايةً تكوينية، وإذا ما حصلَ انحرافٌ ما فانَّهُ طارىءٌ، لهذا فانَّ دور الأنبياء عليهم السلام هو ازالةُ هذه الانحرافات الطارئة كى تحصلَ إمكانية تَفَتُّح الفطرةِ الحقيقية.

وهنا نكتفى بهذا المقدار حيث سنتكلَّمُ مفصلًا بخصوص هذه الآية فى بحث التوحيد الفطرى فى المجلَّد الثالث إن شاء اللَّه.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۰۸

وقد تحدثت الآية الخامسة عن التعليم الإلهى بواسطة القلم ثم أشارت بشكل عام إلى تعليم الإنسان للمسائل التى يَجهلُها إذ يقول تعالى «الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الانْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ».

قد يكون التعليم الإلهى بواسطة القلم إشارة إلى القراءة والكتابة التى حدثت لأول مرّة على أيدى الا نبياء عليهم السلام «۱»، أو لأنَّ اللَّه تباركَ وتعالى قد أوْجَدَ هذا الذوق والقابلية لدى الإنسان هدايةً فطرية حيثُ أبْتُدِعَ بعد اتضاحِ القراءةِ والكتابةِ، فبدأت مرحلة ما بعد التاريخ مع إيجاد الخط (حيث نعلمُ أنّ الفاصل الزمنى بين مرحلتى ما قبل التاريخ وما بعد التاريخ هى مسألة اكتشاف الخط).

على أيّةِ حالٍ، فقد حصلَ التعليمُ بالقلم عن طريق الهدايةِ الإلهيّة.

ويُمكن أن تكون جملةُ «عَلَّمَ الانْسَانَ مَالَمْ يَعلَمْ» إشارة إلى العلوم الفطرية المختلفة التى أودَعَها اللَّه تعالى فكر الإنسان، المتضمنة لإدراك القُبحِ والحُسْن، والفجور والتقوى وكذلك القضايا البديهية التى تكون أساساً للقضايا النظرية فى العلوم الاستدلالية، والاطّلاع على قواعد الدين واصول الأحكام الإلهيّة أيضاً.

وفى الآية السادسة بَعْدَ أن يَنسِبَ تعليمَ القرآن إلى اللَّه الذى هو مصدرُ جميع الرحمات والكرامات، يتحدثُ عن خلقِ الإنسان ويقول: «خَلَقَ الانْسَانَ* عَلَّمَهُ الْبَيانَ».

ول «الْبَيان»: مفهومٌ عامٌ حيثُ يُطلقُ على كلِّ شىءٍ موضّح كأنواع الاستدلالات العقلية، والمنطقية التى تُبينُ المسائلَ المعقدَّة، أو الخط والكتابة، أو الكلام الذى يعد من ابرز مصاديقه.

وقد اعطى المفسرون احتمالاتٍ كثيرة فى تفسير «البيان»، فقد اعتبرها فريق منهم

---

(۱) نقل عدةٌ من المفسرين أنّ آدم عليه السلام كان أول من كتب بواسطة القلم (تفسير القرطبى، ج ۱۰، ص ۷۲۱۰؛ وتفسير روح

البيان، ج ۱۰ ص ۴۷۳).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۰۹

بمعنى بيانُ الخير والشَّر، وفريق آخر بمعنى بيانُ الحلال والحرام، وثالث اعتبرها بمعنى الاسم الأعظم، ورابع بمعنى تعليم اللغة «۱».

لكن من الواضح أنّ ظاهر (البيان) هو التكلُّم، وتبدو بقيةُ الاحتمالات ضعيفة «۲».

وهنا كيف علَّمَ اللَّه تعالى الإنسان التكلُّمَ؟ قال بعض المفسرين: إنَّ اللَّه هو الذى «وَضَعَ اللغات» ثم علَّم الأنبياء عليهم السلام عن طريق الوحى، لكن يبدو أنّه ليس هناكَ دليلٌ واضحٌ لهذا الرأى، إنّما المقصود هو الالهام الباطنى من قبل اللَّه تعالى للإنسان، حيث استطاع من خلال ايجاد الصوت عن طريق الحنجرة، ثم إيجاد الحروف عن طريق حركة اللسان والاعتماد على مخارج الحروف، ثم تركيبها مع بعضها وإيجاد الكلمات، ثم تسمية الأشياء والمفاهيم المختلفة، بحيث يعكس مقاصدهُ الباطنية والمفاهيم المادية والمعنوية، الجزئية والكلية، المستقلة وغير المستقلة كافة عن هذا الطريق السهل الذى هو فى متناول أيدى الجميع، والحقيقة أنّه لو لم تكن هذه الهِبَةُ الالهيةُ الخلّاقة ولم يعرف الإنسان التكلُّم لَما وُجِدَتِ الحضارة، ولَما ارتقى العلمُ إلى هذا الحد، ولَما تمكَّنَ الإنسانُ من بناء قواعد حياتهِ على أساسِ التعاون الجماعى، لأنَّ التعاونَ فرعٌ من علاقة التقارب مع الآخرين.

وورد فى تفسير الميزان أنّ من أقوى الأدلة على أنَّ اهتداء الإنسان إلى «البيان» قد تم بالهام الهيٍّ، هو اختلافُ اللغات باختلاف الامم والطوائف فى الخصائص الروحية والاخلاقية والنفسانية وبحسب اختلاف المناطق الطبيعية التى يعيشون فيها «۳».

وقد قدَّرَ بعض المحققين عدد اللغات الموجودة فى العالم ب «ثلاثة آلاف لغة»، وقال بعضهم أنّ العدد يفوق ذلك «۴».

وهذا الاختلاف عجيبٌ حقاً، وهو من براهين قدرةِ وعظمةِ اللَّه تبارك وتعالى

---

(۱) تفسير القرطبى، ج ۹، ص ۶۳۲۲، و تفسير روح المعانى، ج ۲۷، ص ۸۶.

(۲) إذا فُسِّرت (البيان) فى بعض الروايات على أنّها الاسم الأعظم فهو من باب ذكر المصداق الواضح.

(۳) تفسير الميزان، ج ۱۹، ص ۱۰۷.

(۴) دائرة المعارف «فريد وجدى»، ج ۸، ص ۳۶۴.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۱۰

فأَصلُ التكلم مِن آيات اللَّه العظيمة، وهذا التنوع فى اللغات آيةٌ عظيمةٌ اخرى وكلاهما يعتبر من خصائص خلقةِ البشر.

من الممكن أن تنطقَ بعضُ الطيور عن طريق التعليم المتكرر عبارات جذابة، ولكن- ممّا لا شك فيه- أنّ عَمَلَها ليس إلّاتقليد لالفاظٍ محدودةٍ صادرةٍ عن الإنسان من غير ادراكٍ لمفاهيم هذه الالفاظ، فالانسانُ وحدهُ الذى يستطيع- بنحوٍ غير محدودٍ وبادراك تام- أن يكوِّنَ جُمَلًا ويصب فيها مفاهيم مختلفةً ويعّبر عنها.

وفى (توحيد المفضل)، يلفتُ الإمام الصادق عليه السلام النظر إلى هذه الآية العظيمة، حيث يقول عليه السلام للمفضل: «... اطِلَ الفكر يا مفضل فى الصوت والكلام وتهيئة آلاته فى الإنسان، فالحنجرة كألانبوبة لخروج الصوت، واللسان والشفتان والاسنان لصياغة الحروف والنغم، الم تر أن من سقطت أسنانه لم يقم السين، ومن سقطت شفته لم يصحح الفاء، ومن ثقل لسانه لم يفصح الراء، وأشبه شىء بذلك المزمار الأحمر ....» «۱».

ثم يشرحُ الإمام عليه السلام تفاصيلَ ذلك للمفضل ويدعوه إلى التفحص بهذا الأمر.

وفى الآية السابعة والأخيرة من بحثنا، يخاطبُ تعالى الرسولَ صلى الله عليه و آله ويأمُرُهُ: «فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّر»، فقد يكون المقصود من «التذكير» إشارة إلى أن حقائق هذه العلوم والمعارف وخلاصتها موجودة فى وجدان وروح الإنسان طبقاً للهداية الإلهيّة، ثَمَّ تتفتحُ هذه العلوم فى ظل تعاليم الأنبياء والرُسل (عليهم السلام)، حيث تخرج من مرحلة «الخفاء» إلى مرحلة «الظهور»، ومن «الاجمال» إلى

«التفصيل» ومن «الباطن» إلى «الظاهر».

وقد وردت هذه الآية أربعُ مراتٍ فى القرآن الكريم فى سورة القمر عند بيانِ وقائعِ قوم «فرعون» و «عاد» و «ثمود» و «لوط» حيث يقول تعالى «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّدَّكِرٍ». (القمر/ ۱۷، ۲۲، ۳۲، ۴۰)

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۷۱.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۱۱

وهذا الكلامُ معروفٌ أيضاً عن بعض الفلاسفة اليونانيين، حيث يقولون: «ليست العلومُ والمعارف إلّاالتذكير، ولقد اودِعت جميعُ القواعد العلمية روح الإنسان دون استثناء، وقد نَسِيَها الإنسانُ إلّاأنّها تعود إلى الذاكرة بمساعدة المعلمين».

يقول الفخر الرازى فى تفسيره: «لو قال قائلٌ: هذا يقتضى وجودَ أمرٍ سابقٍ فنسىَ، ونقول: ما فى الفطرة من الانقياد للحقِّ هو كالمنسى فهل من مدَّكر يرجع إلى ما فُطِرَ عليه» «۱».

على أيّةِ حالٍ، فإنّ جميع هذه الآيات دليلٌ حىٌ على الهداية الإلهيّة الفطرية للإنسان.

توضيح

الهداية الفطرية و الغريزية فى العلم المعاصر:

مع تطور علم النفس، وعلم التحليل النفسى، وبحوث العلماء حول الحواس ذات الأسرار الغريبة للحيوانات، اكتُشِفت الكثير من أسرار الهداية الفطرية والغريزية الغريبة والمدهشة فى عالم الأحياء، ونواجه ظواهر تعجز العلوم عن تفسيرها، ولايمكن أبداً الوقوف على مصدر هذه الهدايات، إلّاأنّ نُسَلِّمَ بأنَّ مبدىء عالم الوجود الذى تَكَفَّل بهداية جميع الكائنات هو الذى وَهَبَ هذه العلوم عن طريق الالهام الفطرى الخفى للإنسان أو الحيوانات.

ولدينا فى هذا المجال قدر وافر من الشواهد بحيث لو جُمعت لشكَّلت كتاباً كبيراً، منها الحالات الدقيقة الآتية:

۱- إنّ الطفل حين ولادته يعرفُ جيداً ومن دون الحاجةِ إلى معلِّم كيفية الامساك بالثدى والرضاعة، واستخدام اليد والأصابع لهذا العمل، وعكس وايصال حاجاته إلى الأُم عن طريق البكاء ويكون حاملًا لاستعدادات خفية اكتسبها من أمُه، من بينها: ابتداع الكلمات،

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۲۹، ص ۴۲.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۱۲

قابلية التكلم وفهم اللغات بالأضافة إلى إدراك الحسن والقبح وقسم كبير ممّا يجب وما لا يجب ويحمل فى نفسه بشكل فطرى معرفة عالم الوجود بالإضافة إلى معرفة اللَّه سبحانه وتعالى.

يقول أحد العلماء: حينما تحتضنُ الامهاتُ أطفالهنَّ لتهدئتهم فهنَّ يضعنهم على الجانب الايسر من الصدر بلا علم منهنَّ بهذا الفعل، حيثُ يضعْنَ أطفالهن بجوار قلوبهن، فيهدأ الطفل بمجرد سماعه ضربات قلب الأُم لأنّه اعتاد على سماع هذا الصوتٍ عندما كان جنينا فى بطن أُمه وقلما توجد ام ملتفتة إلى هذه المسألة، ولذا فانّها تؤدّى عملَها هذا فى هذا المجال بالهام فطرىٍّ محض.

۲- إنَّ مسألةَ الهداية الفطرية والغريزية فى عالم الحيوان أوسعُ بكثير عمّا هى عليه فى الإنسان، حيث يعرض علماء العصر نماذجَ مدهشةً منها، فقد جاء فى كتاب (البحر دار العجائب) تأليف (فرد ديناندلين) مايأتى:

«إنّ تصرفات بعض الأسماك تُعدّ من أسرار الطبيعة حيث يعجز كلُّ إنسانٍ عن بيان سببها، فاسماك ال (قزل آلا) تترك مياه البحر

لتعود إلى مياه الأنهار العذبة التى بدأت حياتها فيها، وتسبح بجدٍ فى الاتجاه المعاكس لتيار الماء، وتقفز من فوق الصخور، بل وتصعدأعلى الشلالات أيضاً، وقد تملأ النهر لكثرتها أحياناً، وعندما تصل هذه الأسماك إلى المكان الذى تبحثُ عنه تضع بيوضها ثم تموت!

فكيف تهتدى هذه الأسماك إلى الأنهار المناسبة ياترى أنّها أكثرُ إثارة للعجب من اختراع المذياع والتلفاز، لأنّها لا تمتلك خارطةً، كما أنّ قابليتها على الرؤية تحت الماء ضعيفة، وليس هناك من يُدِّلُّها على الطريق «۱».

۳- وجاء فى نفس ذلك الكتاب: «إنَّ تصرفَ (الجرىّ) أكثرُ عَجَباً من هذا، فحينما يبلغ سمك الجرىّ «الانجليزى» ثمانى سنوات يهجُر الحوض أو النهر الذى يعيش فيه ويزحف ليلًا كالافعى على الاعشاب الرطبة حتى يصل إلى شاطىء البحر، ثم يطوى المحيط

---

(۱) البحر دار العجائب، ص ۱۱۶.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۱۳

الاطلسى سباحةً ويتجه نحو المياه القريبة من (مثلث برمودا) حيث تضع الاناث بيوضها تحت الماء هناك وتموت ... والمدهش أنّ صغار سمك الجرىّ تعوم على سطح الماء ثم تبدأ سَفَراً طويلًا نحو الوطن الأُم، حيث تستغرق هذه الرحلةُ سنتين أو ثلاث سنوات!

فكيف يعرف الجرىّ هدفه هذا مع أنّه لم يسلك هذا الطريق أبداً؟!

إنّ الجواب عن هذا السؤال يستوى فيه جميع الناس حتى أعلم العلماء وهو (لا أعلم) «۱».

۴- يقول (فيتوس درفيشر) مؤلفُ كتاب (الحواس الخفيّة للحيوانات): «لقد اكتشفَ العلماءُ أسراراً مذهلة عن الخفاش، منها وجود أربعةِ أنواعٍ من الخفافيش التى تصطاد الأسماك، فهى تحلق ليلًا فوق الماء وتمد أرجُلَها فيه فجأةً لتصطاد سمكةً وتأكلها، إنّه سرٌّ مدهشٌ فمن اينَ لها العلمُ بانَّ فى تلك النقطة سمكةٌ تسبح تحت الماء؟ لم يفلحُ الإنسانُ بالقيام بهذا العمل حتى الآن بالرغم من وسائله واختراعاته العلمية، فلا تستطيع أىُ طائرةٍ قاذفةٍ أن تحدِّدَ مكاناً معيناً لغواصةٍ تحتَ الماء، وإن استطاعت فعليها أن تطلق موجات خاصة على الماء كى تحدد مكان الغواصة من خلال الذبذبات التى تنبعث من الغواصّة إلى الطائرة بواسطة الأمواج اللاسلكية.

أجَلَ، فالطائرة على عكس الخفاش لم تستطع الاطّلاع مباشرةً على مكان وجود الهدف الذى تحت الماء، .. يقول البروفسور (غيرى فون) «ليس هناك توضيحٌ يمكنُ قبوله لهذا الموضوع أبداً».

ثم يضيف قائلًا: «ولم يكتشف الإنسان شيئاً حتى الآن إلّاويجد الطبيعة قد سبقته إليه».

ومن الطبيعى أن يبعث هذا الاكتشاف عند الإنسان الغرور، لكنه لا يلبث أن يجد نفسه متأخراً عن الطبيعة فى هذا المضمار.

لهذا فقد استحدثَ العلماء الاميركيون علماً جديداً باسم «البولوجيا»- علم البيئة-، وهدفه تعلم الفنون والأساليب الجديدة من الدروس التى تمنحها لنا الطبيعة من خلال الوصول إلى أسرارها.

---

(۱) البحر دار العجائب، ص ۱۱۶.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۱۴

ثم يضيف قائلًا: «لو وضعنا أحد هذه اللبائن (الخفاش) فى صندوقٍ مُقفَلٍ مُظلمٍ وابتعدنا به ثلاثمائة كيلو متر عن عُشِّهِ ثم اطلقناه، نجده يعود مباشرةً وباقصرِ وقتٍ إليه بالرغم من كونه شبه أعمى وكون ذلك المكانُ مجهولًا بالنسبة إليه» «۱».

۵- ويوضح الكاتب المعروف (غرسى موريسن) فى كتابه (سرُّ خلق الإنسان) وفىفصوله تحت عنوان (الشعور الحيوانى)، صوراً لنماذج من هذا القبيل منها:

إنّ الطيور تبنى وتوجد أعشاشها بشكلٍ غريزى (على الرغم من أنّها لم تَرَ نموذجاً من قبل)، فطيرُ السنونو الذى يبنى عُشَّهُ فى رواق

البيوت يهاجر فى فصل الشتاء إلى المناطق الدافئة، وأمّا إذا لاحت طلائع الربيع فهو يعود إلى وكره.

والكثير من الطيور تهاجر نحو الجنوب والمناطق الحارة، وأغلبها يقطع مئات الفراسخ براً وبحراً إلّاأنّها لا تضِّل الطريق إلى أوكارها أبداً.

والأسماك الحرّة تعيش سنواتٍ عديدةٍ فى البحر، ثم تعود إلى النهر الذى جاءت منه، والاكثر عجباً أنّها تقفزُ من شاطىء النهر المرتفع وتذهب إلى النهر الذى وُلدت فيه ...

فالأسماك الحرّةُ تَتبعُ شعورها الباطنى، وتذهب إلى الساحل الذى كان محلًا لنشوئها ونموها، فأىُّ شعورٍ يؤدّى إلى أن يعود هذا الحيوان إلى وطنه بهذا النحو الدقيق؟ «لا عِلم لأحد».

فلو أخرجنا فَرخَ طيرٍ من عشِّه وقمنا بتربيته فى بيئةٍ اخرى فهو يبدأ ببناء عشٍ له عند بلوغه مرحلة الرشد والتكامل وبالاسلوب الذى يتبعهُ أبواه، فهل أنَّ الأعمال المحدّدة والمختلفة التى تصدر عن جميع مخلوقات الأرض تحدث صدفةً، أم أنَّ العقل والشعورَ العام يؤدّى إلى صدورها؟ «۲».

۶- ويقول أحد العلماء الفرنسيين ويدعى «فارد» بصدد طائرٍ يسمى (اكسيكلوب) ما يأتى:

---

(۱) الحواس الخفية للحيوانات، ص ۱۷.

(۲) سرُّ خلق الإنسان، الفصل ۸، الشعور الحيوانى.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۱۵

«لقد درست أحوال هذا الطائر، فوجدت من خصائصه أنّه يموت عندما يُكملُ وَضْعَ بيوضه، أى أنّه لا يرى فراخه أبداً، ولذلك فانَّ الفراخَ سوف لن ترى وجهَ الأم الملىء بالحنان إلى الأبد، وعندما تخرج من البيضة تكون على هيئة اليرقة عديمة الريش والأجنحة ولا قدرةَ لها للدفاع عن نفسها تجاه ما يهدد حياتها، لذلك فعليها البقاء لمدة سنةٍ كاملة على هذه الحال وفى مكانٍ آمنٍ، وأن يكون غذاؤها إلى جانبها، لهذا فحينما تشعر الأُم بحلول موسم وضع البيوض تبحث عن مقطعٍ خشبى فتقوم بثقبه، ثم تشتغل بجمع الأطعمة، فتجمعُ الأوراق والاغصان التى يمكن استخدامها لتغذية فراخها لمدّة سنةٍ كاملة وتُعدُّهُ لواحدٍ من هذه الفراخ، ثم تضعه فى نهاية الثقب وتضع عليه بيضةً واحدة وتبنى فوقه سقفاً قوياً نسبياً من عجينةِ الخشب، وتبقى تشتغل بجمع الأطعمة، وبعد تأمين قوت سنةٍ كاملةٍ لفرخٍ آخر ووضعها على سقف الطبقةِ الاولى تضع بيضةً اخرى ثم تبنى طبقة ثانيةً، وهكذا تقوم ببناء عدةِ طبقاتٍ ثم تموت بعد الفراغ من العمل! (تأمّلوا جيداً .. من اين جاءت معرفةُ هذا الطائر الضعيف بأنَّ لفراخه مثل هذه الحاجات؟ ومِمَّ استلهم هذه التعاليم؟ فهل تعلَّمها من أُمه؟ فى الوقت الذى لم يَرَها أبداً، أم من خلال التجربة، علماً أنّ هذا العمل لا يقع إلّامرّةً واحدةً فى حياته ...

ألا يجب الاعتراف بأنَّ هذا الفعل يستندُ إلى الهامٍ غيبى وغريزى حيث وضعته يد القدرة الإلهيّة فى كيانه؟!).

۷- يقول العالم النفسانى الروسى المعروف (بلاتونوف) فى كتابه (علم النفس فى الاتحاد السوفيتى):

«التقيتُ أثناء الحرب العالمية العظمى صدفةً بطبيب لم يَرَ النومَ لبضعِ ليالٍ، ثم تمكَّنَ من النوم قليلًا، وأثناء ذلك جىء بعددٍ كبيرٍ من الجرحى الذين يجب علاجهم فوراً، إلّاأنَّ الطبيب المذكور لم يستيقظ، فحرّكناه وسَكَبنا الماء على وجهِه، فكان يحرِّكُ رأسه ويعود إلى النوم، فأشرتُ إلى الموجودين بالسكوت «كى اوقظَهُ»، ثم قلتُ له بهدوء وبشكلٍ واضحٍ: أيّها الطبيب جاؤوا بالجرحى وهم بحاجةٍ ماسةٍ إليك، هنا استيقظ فوراً.

ثم يضيف: كيف يمكنُ تبريرُ هذا الأمر، فهؤلاء الذين كانوا يسعونَ لايقاظه كانوا

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۱۶

يوجهون التأثيرات على القسم غير الفعال من دماغه، بينما وضعتُ «دائرة الحراسة من المخ» فى حالة انذار وترقب فهذا الجزء يبقى

مستيقظاً حتى فی أعمق حالات النوم، ومن خلال دائرة الحراسة هذه يقيم الإنسانُ علاقاته مع العالم الخارجی (ويودع المسائل التی يرغبُ بها فی هذه الدائرة بلا قصد منه).

والأُمّ التی تنام إلى جانب طفلها المريض ولا يمكن لأعلى صرخات الذين من حولها أن توقظها، تستيقظ لأقلِّ أنَّةٍ تصدر من طفلها.

والطّحان الذی ينامُ عند حدوث العواصف المصحوبةِ بالبرق والرعد يستيقظ بمجرّد توقف طاحونته عن العمل، كل ذلك بسبب ايداعهم لما يريدونه فی دائرة الحفظ فی المخ فی حالة اللاشعور» «١».

٨- ويقول (درفيشر) فی كتابه حول الحمام الزاجل وعودته المدهشة إلى عشّه:

«لو وضعنا هذا الطائر فی صندوقٍ مقفلٍ مظلم وأبعدناه مئات الكيلو مترات عن وكره، وسلكنا به الطرق الملتوية والمعقّدة أثناء رحلتنا، فانّه حال اخراجه من الصندوق يطيرُ مباشرةً نحو عشّه بعد عشرٍ أو عشرين ثانيةٍ من رؤية النور، وقد ثبتَ ذلك عن طريق الاختبارات المتكررة التی قام بها عالمٌ معروفٌ يُدعى الدكتور «غرامر» .. ويمكن توضيح اسلوب عمله بهذا المثال: فلو أنّ هذا الطائر كان فی مدينة هامبورغ فانّه يعلم أين تكون الشمس عند الساعةِ الفلانية من اليوم، فإذا أخذوه إلى مدينة «بروم» مثلًا فانّه يفهم أنَّ الشمس هناك تكون إلى الشمال من ٢٥/ ١ درجةً شرقاً بنصف درجة.

فمن أجل عودته إلى وكرهِ فی هامبورغ يجب عليه التحليق نحو الشمال الشرقی مع الأخذ بنظر الاعتبار وضع الشمس فی هامبورغ.

إلّا أنّه ليس معلوماً كيف تقوم هذه الطيور بتحديد طريقها عندما يكون الجوُّ غائماً حيث تختفی الشمس؟ لقد أثبتت التجارب أنَّ أغلبها يجد طريقه بدون الاستفادة من حركة الشمس كبوصله لتحديد اتجاهها» «٢».

---

(١) علم النفس فی الاتحاد السوفيتی، ص ١٩ «مع شیء من الاختصار».

(٢) الحواس الخفية للحيوانات، ص ١٨٣.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١١٧

ولو فرضنا أنَّ هذه الطيور تستفيد من حركة الشمس، فمن المسلَّم به عدم مقدرتها على تعيين الزوايا، وهی زوايا صغيرة جدّاً، لا يمكن قياسها الامن خلال الاستعانة بالمنقلة لتحديدها، وهذه مسائل لا يمكن تفسيرها إلّافی ظل الهداية التكوينية الإلهيّة.

إنَّ هذا الطائر ومئات مثلُهُ دليلٌ حيٌّ على أنّ وراءَ الطبيعةِ علماً وقدرةً لا متناهيةً تهدی وتقود كلَّ موجودٍ فی مسيرة حياته ... نعم كلُّ هذا دليلٌ على من لا دليل له.

٩- ونختم الحديث بكلامٍ ورد عن الإمام الصادق عليه السلام طبقاً لما جاء فی (توحيد المفضل)، حيث يقول عليه السلام: «فكّر يا مفّضل فی خلقة عجيبةٍ جعلت فی البهائم، فانّهم يوارون أنفسهم إذا ماتو كما يواری الناس موتاهم، وإلّا فأين جيف هذه الوحوش والسباع وغيرها لا يرى منها شیء؟ وليست قليلة فتخفى لقلتها؛ بل لو قال قائل: إنّها أكثر من الناس لصدق، فاعتبر ذلك بما تراه فی الصحاری والجبال من أسراب الظبا والمها والحمير والوعول والأيائل وغير ذلك من الوحوش، وأصناف السباع من الأسد والضباع والذئاب والنمور وغيرها، وضروب الهوام والحشرات ودوابّ الأرض، وكذلك أسراب الطير من الغربان والقطا والأوز والكراكی والحمام وسباع الطير جميعاً وكلها لا يرى منها شیء مات إلّا الواحد بعد الواحد يصيده قانص أو يفترسه سبع ....» «١».

---

(١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٩٩ (مع شیء من الاختصار).

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١١٩

۶- آياتُه فی حالتی النوم واليقظةِ

تمهيد:

لم يقتصر القرآن الكريم على إشارته إلى الموضوعات المهمّة جدّاً كخلق السماوات والأرض، والشمس والقمر، وروح الإنسان، بصفتها آيات وبراهين من اللَّه تعالى فحسب، بل نراه أحياناً يتعرض إلى المسائل العاديّة فى نظرنا أيضاً، لكى يوضح لنا أنْ ليس هناك شيء عادىّ فى هذا العالم، فكلُّها آياتُ حقٍ كبيرة كانت أم صغيرة، وبراهينٌ عظيمةٌ على علم وقدرة البارى تعالى

ومن بين هذه الامور التى تُعَدُّ عاديةً حسب الظاهر، هى حالتا النوم واليقظة اللتان استند اليهما القرآن الكريم على وجه الخصوص.

بهذا التمهيد نقرأ خاشعين الآيات الكريمة الآتية:

۱- «وَمِنْ آياتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ والنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إنَّ فِى ذَلِكَ لَآياتٍ لِّقَومٍ يَسْمَعُونَ». (الروم/ ۲۳)

۲- «وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ لِباساً والنَّومَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً».

(الفرقان/ ۴۷)

۳- «وَجَعَلْنَا نَومَكُمْ سُبَاتاً* وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً». (النبأ/ ۹- ۱۰)

۴- «إذْ يُغَشِّيْكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنْزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ ماءً لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ».

(الانفال/ ۱۱)

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۲۰

شرح المفردات:

حينما يتطرق بعض أرباب قواميس اللغة إلى مصطلح «النوم» يقولون إنَّ له مفهوماً معروفاً «۱».

إلّا أنَّ الراغبَ يقول فى كتاب المفردات:

النوم: فُسر على أوجه كلها صحيح بنظرات مختلفة، قيل هو استرخاء أعصاب الدماغ برطوبات البخار الصاعد إليه، وقيل هو أن يتوفى اللَّه النفس من غير موت، قال: «اللَّه يَتَوفى الانفُس» الآية، وقيل النوم موت خفيف والموت نوم ثقيل «۲».

و «النُّعاس»: «على وزن غُبار» ويعنى النوم القليل والخفيف، وفسَّره بعض على أنّه بداية النوم، وهنا حيثُ يكون النومُ خفيفاً فى بدايته فانَّ كلا المعنيين يعودان إلى حقيقةٍ واحدةٍ.

و «السبات»: مأخوذة من مادة «سَبْت» (على وزن ثَبْت) أى «القطع»، ولهذا سُمِّيَ يومُ السبت بهذا الاسم فى لغة العرب، حيث كان يوماً لتعطيل الأعمال من أجل الراحةِ، وممّا يظهر أنَّ هذه التسمية مستوحاةٌ من أفكار اليهود حيث يعتبرون يوم السبت عطلةً لهم، وهذا ما يعتقد به اليهود، إذ يقولون إنَّ اللَّه تعالى بدأ خلقَ العالم يوم الأحد وانتهى بعد ستة أيّامٍ فكان يوم السبت نهايةً لخلق البشر وللراحة إلّاأنّنا نعلمُ أنَّ هذا من الأخطاء الفاضحة لليهود، لأنَّه فى الوقت الذى لم تكن هناك سماءٌ ولا أرضٌ ولا شمسٌ ولا قمرٌ لم يكن هناك وجود لليوم والاسبوع أيضاً وحينما يقول القرآن الكريم: «خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ» فالمقصود «ست مراحل».

وكلمة «السبت» جاءت بمعنى الراحةِ أيضاً «۳».

جمع الآيات وتفسيرها

النوم من آيات اللَّه:

فى الآية الاولى من البحث يَعُدُّ القرآن الكريمُ نومَ الإنسان فى الليل والنهار أحدَ

(١) لسان العرب ج ١٢، ص ٥٩٥، مادة (نوم).

(٢) لسان العرب، مادة (نوم).

(٣) مفردات الراغب؛ مجمع البحرين؛ لسان العرب.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٢١

البراهين على علم وقدرةِ اللَّه تعالى فيقول: «وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ».

وهو في نهاية الآيةِ يؤكد هذا البرهان «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوم يَسْمَعُونَ».

وممّا لا شك فيه أنَّ الكائنات الحيّة كافة تحتاجُ إلى الراحةِ لتجديد قواها، واكتساب الطاقة اللازمة لاستمرار نشاطاتها الحياتية، الراحةُ التي تلاحقهم تلقائياً، وتجبُرُ حتى الذين يحرصون على عدم التمتع بها.

فايُّ عاملٍ أفضلُ من النومِ يمكنُ أن نفكر به من أجل تحقيق هذا الهدف حيث يلاحق الإنسانَ بشكلٍ اجباريٍّ ويضطره لايقاف جميع نشاطاته الجسمية، بل حتى بعض من نشاطاته الفكرية الأساسية، وفي النتيجة يغطُّ في راحةٍ عميقةٍ، وخلال هذه الفترة تقوم أجهزة الجسم باعادة البناء والاستعداد للسعي والحركة من جديد.

وممّا لا ـ شك فيه أنّ الإنسان لولا ـ النوم، فانّه يذبُلُ ويتْلَفُ، ويُصيبُهُ العَجَزُ والانكسار بسرعةٍ، لذلك فقد قالوا: إنَّ النومَ المعتدل والاستقرار سرُّ السلامةِ وطولِ العمر وحيوية الشباب.

واللطيفُ أنَّ الآيةَ التي نبحثها وضعت «النوم»، و «ابْتِغاء فَضْلِ اللَّهِ» في مقابل بعضهما، وحسب قول بعض المفسرين أنَّ الأولَ هو علامة الموت والثاني علامة القيامة.

إنّ تعبير «ابتغاء فضل اللَّه» يشير إلى نقطة ظريفة وهي أن سعي وجهد الإنسان في حياته من المسائل ذات الأهميّة، وكذلك الفضل الإلهي، والجمع بين الاثنين تجعل الإنسان يستفيد من مواهب هذا العالم.

وهنا توجد نقطةٌ جديرةٌ بالاهتمام أيضاً حيث ذكرت الآيةُ أعلاه النومَ بالنهار إضافة إلى النوم بالليل: «مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ»، في الوقت الذي يُعتبرُ النومُ مختصاً بالليل فقط حيث تؤكدَ آياتُ القرآن الكريم هذا المعنى إلّاأنّ بعضَ الظروف التي تطرأ في حياة الإنسان تجبُرُهُ على أنْ يَسهَرَ الليل وينامَ النهار، ويُلاحَظُ هذا الأمر كثيراً في السفر ليلًا، وفي المناطق الحارّةِ جدّاً حيث تتوقف النشاطات النهارية بسبب حرارة الجو ويكون العمل فقط أثناء الليل.

وفي عصرنا الراهن حيث تكون الكثير من المؤسسات الصناعية، ومعامل صناعة الأدوية مضطرة للعمل ليلًا ونهاراً، إذ من الصعوبة ايقاف العمل، ممّا يدفع العمال إلى تقسيم

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٢٢

أعمالهم إلى ثلاث وجبات يومياً، فتتضح الحاجةُ إلى النوم في النهار أكثر من أيِّ وقتٍ آخر.

والآن .. فلو لم يكن برنامج تنظيم النوم بيد الإنسان، ولم يتيسر النوم نهاراً بدلًا عن الليل، فمن المسلَّم به أنّ مشكلاتٍ كبيرةً ستعترضُ حياته.

وفي الآية الثانية بعد ذكر: «هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً» يشيرُ إلى مسألة النوم حيث يقول تعالى «وَالنَّوْمَ سُباتاً».

ومن الممكن أن يكون تعبير «هو الذي» إشارة إلى الجانب التوحيدي لهذه الامور، فكلٌّ منها دليلٌ على الذات المقدّسة، أو جانبِ الانعام كي يعرفَ الإنسانُ وليَّ نعمتِهِ، ومن المسلَّم به أن الإشارة إلى وليِّ النعمة ستكون مقدمةً لمعرفته أيضاً.

واللطيف أنّه يقول بعد ذلك: «وَجَعَلَ النَّهارَ نَشُوراً» «١»

.

أجَلْ ... ففي وضح النهار تنتشر الروحُ ويستيقظ الإنسانُ بشكلٍ كامل، إذ لا يخلو من شَبَهٍ بنشورِ يوم القيامة والحياة ما بعد الموت.

وهـذا الاحتمالُ ممكن أيضاً، حيث يشير إلى انتشار الناس فى ميدان الحياة وحركتهم نحو مقاصدهم المعاشيةِ المختلفة، وبهذا فانَّ أجراس النوم والراحةِ تقرع مع حلول الظلام، وتدق هذه الأجراس فى النهوض مع بزوغ الشمس.

وفى الآية الثالثة تكرَّرَ هذا المعنى باختصارٍ طفيف إذ يقول: «وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً* وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً»، فكما يصونُ اللباسُ الإنسانَ من الاخطار ويكون له دوراً فى سلامته فانَّ ظلامَ اللّيل له مثل هذا الأثر.

وفى الآية الرابعة والأخيرة فى هذا البحث، وحينما يتحدث القرآن الكريم عن وقائع غزوة بدر يشير إلى أنَّ احدى نِعَمِ اللَّه على المؤمنين فى تلك الليلة التاريخية كانت «اذْ

---

(۱) تأملوا جيداً أنَّ «النشور» معنى لمصدر، و «السُّبات» معنى لمصدرٍ أيضاً أو اسمٌ مصدريٌ، واطلاقهما على الليل والنهار يفيد المبالغة والتأكيد.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۲۳

يُغَشِّيْكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ».

لقد كانَ هذا النومُ الرغيدُ سبباً فى تجديد قواهم والاستعداد للمعركة الحاسمة فى ساحة المعركة ببدر صباحاً، وبخاصة بعد قطع تلك المسافة الطويلة إلى حدٍ ما، تلك المعركة التى انتهت بنصرٍ مبينٍ للمسلمين.

ولعلَّ تَعبير «النُّعاس» إشارة إلى عدم استحواذ النوم العميق عليهم بالرغم من تمتعهم بالراحةِ، كى لا يستغلَ العدوُّ الوضعَ السائد ويباغِتَهُم ليلًا، ولهذا كانت حقيقةُ ذلك النوم نعمةً وكيفيتُهُ نعمةً اخرى

على أيّةِ حالٍ، فانَّ الآيَة أعلاه تعتبر تأكيداً على أثر النوم على أعصاب وجسمٍ وروح الإنسان أيضاً، وتجديد الطاقات من أجل مثابرَة أكثر وجهادٍ أكثر فاعليةً فى كافة المراحل.

توضيح

ظاهرة النوم الخفيّة:

مع أنَّ «النوم» و «الرؤيا» تعتبر بالنسبة لنا أمراً عادياً، إلّاأنّ العلماء لم يتوصلوا إلى عمق هاتين الظاهرتين المهمتين بالرغم ممّا بذلوه من مساعٍ وجهود.

فائُّ فِعْلٍ وانفعالاتٍ تطرأُ على جسم الإنسان ليتوقف فجأة القسم الأعظم من نشاطاته الجسمية والروحية؟! ويحصلُ هذا التغيير فى جميع أجزاء جسمه وروحهِ كذلك، فلا يفهمُ شيئاً ولا يبدى أيَّ حركةٍ ويستلقى جانباً كالميت، ولو غرقت الدنيا بأكملها فهو نائمٌ لا يدرى.

ومع كل هذه التوضيحات والآراء والفرضيات التى قيلت فى هذا المجال، فقد حافظ النوم على صورته المدهشة!

والأكثر عجباً من ذلك مسألةُ (الرؤيا) التى تُعَدُّ من الألغاز العظيمة كروح الإنسان.

وطبعاً أنّ الحديث المفصَّلَ بصدد حقيقة وأسرار هاتين الظاهرتين خارجٌ عن موضوع بحثنا، لأنَّ الغايةَ من بحث الآيات المذكورة هى بيان المنافع الكثيرة، والفوائد التى لا تُحصى للنوم من جانب ومن جانب آخر كونه نعمة من نعم اللَّه.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۲۴

فالنوم المعتدل دائماً يعتبر دليلًا على سلامةِ روح واعصاب الإنسان، لذلك فإنّ أهمَ أسئلةِ الأطباء للمصابين بالأمراض النفسية تدور حول كيفية نومهم.

فلا تتوقف الاجهزة الأساسية فى جسم الإنسان كالقلب والرئة أثناء النوم، لكنها تعملُ بهدوءٍ أكثر، ويصبحُ دوران الدَّم فى الأعضاء

أكثرَ تناسقاً، ويتوقفُ نشاطُ الدِّماغ تقريباً، وتستقر جميعُ العضلات أيضاً، فتؤدّى كلَّ هذه الامور إلى حصول هذه الأعضاء على فرصةٍ لِتجديد بناء بنائها.

وخلالَ النومِ تُزالُ سمومُ الجسم، وتُعالجُ كثير من الأمراض.

لقد أورد «روخلين» فى كتابه (الرؤيا فى نظر بافلوف) بحثاً تحت عنوان (العلاج بالنوم العميق) قائلًا:

«بناءً على فرضية «بافلوف» فانَّ النومَ عبارةٌ عن ظاهرةِ توقُفٍ من أجل الصيانة وتجديد القوى وعليه فيمكن استغلالهُ كعاملٍ للعلاج من الأمراض المختلفة، وتؤيدُ التجاربُ اليومية دور النوم فى ذلک أيضاً».

ثم يضيف: «إنَّ النومَ العميق الطويل مؤثر على تحسُن صحة المريض، لأنَّ المرضى ينامون أكثر من المعهود بعد مرضٍ طويلٍ من أجلِ استعادةِ قواهم وسلامتهم».

ويقول: «لقد واجه العلاجُ عن طريق النوم رواجاً واسعاً فى الاتحاد السوفيتى، وقد استخدمت هذه الطريقةُ لأولِ مرّةٍ لمعالجة (جنون الشباب) «الشيزوفرينيا» الذى يعتبر من الأمراض النفسية الشائعة».

ويقول فى جانبٍ آخر من حديثه: «تمّ الحصول على نتيجةٍ مُرضيَةٍ لعلاج المصابين بارتفاع ضغط الدم عن طريق النوم العميق ... فالنوم الطويل الذى هو حالة من الراحةِ الكاملة للمخ، يُجدد قدرةَ الجهاز العصبى ويوازن تنظيم نشاط الأعضاء الداخلية، ويترک أثراً إيجابياً مساعداً للوضع العام للإنسان» «۱».

أَجَل؛ فالذى خلق الإنسان سالماً من أجل السعى والنشاط، وضع جميع وسائل ذلک تحت تصرفهِ، وأحدُها نظام النوم واليقظة، النظام الذى تبرز فيه بكل وضوح براهينُ حكمةِ البارى عز وجل.

---

(۱) النوم فى نظر بافلوف، ص ۱۱۲- ۱۱۶ (مع الاختصار).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۲۵

۷- آياته فى بسط السماوات والأرض

تمهيد:

بعد أن ذكرنا آياتِ (الانفس) نتجه صوبَ آيات الآفاق:

لقد كانَ النظر إلى السماوات والأرض على الدوام دافعاً لتفكير الإنسان، وكلَّما تطورَ علمُ الإنسان تعاظم العالم السماواتى ذو الأسرار العجيبة فى نظرِهِ، فلو قيسَتْ عظمةُ السماوات فى نظر علماء اليوم مع ما مضى لكانت «كالقطرةِ» إلى «البحر»، وليس معلوماً أن يكون «الغد» كذلک فى قياسه مع «اليوم».

فماذا يجرى فى هذه المنظومةِ والمجرّات الكبيرة، والنجوم الثابتةِ والسّيارة؟ وما هى العوالم الموجودة فيها؟

وإلى أىِّ زمانٍ يعود تاريخ ظهورها؟

وهل هناک من يسكنُ فيها؟ وإذا كان كذلک فهل أنّ حياتهم تشبه حياتنا أم يختلفون عنّا؟

هذه الأسئلة وعشراتٌ اخرى تشغلُ فكرَ كلِّ إنسانٍ باحثٍ ومتفحصٍ فى أمر السماوات.

يقول علماء العصر: إنّنا اليوم نرى نجوماً فى السماء قد اختفت من الوجود قبل آلاف السنين وربّما قبل ملايين السنين، وهذا يعود إلى الفاصلة الخارقة بينها وبيننا، وأنّ نورها قد بدأ حركته منذ آلاف أو ملايين السنين وما زال فى طريقه الينا، فإذا كان الميدان الحقيقى للسماء هكذا- وهو كذلک-، فإلى أىِّ حدٍ يختلف مع ما نراه اليوم؟ ليس هناک مَنْ يستطيع الإجابة عن هذا التساؤل!

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٢٦

هذه التساؤلات وأمثالها كثيرةٌ حيث يصعب الإجابة عنها من قبل العلماء.

لقد أصبحنا أمام مثل هذا العالم المملوء بالأسرار، فعظمتُهُ من جانبٍ، والنظام والتقنين اللذان يسودانه من جانبٍ آخر، تكشف الستار عن القدرة والعلم اللامتناهي لمن له اليد في هذا الخلق.

بعد هذا التمهيد نقرأ خاشعين الآيات الشريفة الآتية:

١- «إنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِى الْأَلْبَابِ». (آل عمران/ ١٩٠)

٢- «إنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ ... لَأَيَاتٍ لِّقَومٍ يَعْقِلُونَ». (البقرة/ ١٦٤)

٣- «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ واخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وأَلْوَانِكُمْ إنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعالِمِينَ». (الروم/ ٢٢)

٤- «إنَّ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤمِنينَ». (الجاثية/ ٣)

٥- «خَلَقَ اللَّهُ السَّمواتِ والْأَرْضَ بِالْحَقِّ إنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤمِنِيْنَ».

(العنكبوت/ ٤٤)

٦- «إنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلىَ الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيْعٍ إلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم فَاعْبُدُوْهُ أَفَلَا تَذكَّرُوْنَ».

(يونس/ ٣)

٧- «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمواتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ لَيَقُوْلُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤفَكُونَ». (العنكبوت/ ٦١)

٨- «لَخَلْقُ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ اكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ».

(غافر/ ٥٧)

٩- «قالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ». (ابراهيم/ ١٠)

١٠- «وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَانَّا لَمُوسِعُونَ* وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُوْنَ».

(الذاريات/ ٤٧- ٤٨)

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٢٧

١١- «وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظًا وهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ». (الانبياء/ ٣٢)

١٢- «اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوىَ عَلىَ الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ». (الرعد/ ٢)

شرح المفردات:

لكَلمة «الخَلْق» معنيان كما يقول صاحب «مقاييس اللغة»، أحدهما تقدير الأشياء، والآخر النَّقى والمسطَّح.

ويقول الراغب فى المفردات: «الخَلْقُ» أصله التقدير، ويستعمل فى ابداع الشىء من غير أصل ولا احتذاء، قال تعالى «خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ» أى أبدعهما بدلالة قوله:

«بَدِيْعُ السَّمواتِ وَالأَرْضَ»، ... وليس الخلق الذى هو الإبداع إلّااللّهتعالى، ولذلك قال فى الفصل بينه تعالى وبين غيره: «أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَايَخْلُقْ افَلَا تَذَكَّرونَ»، أمّا الذى يكون بالاستحالة فقد جعله اللَّه تعالى لغيره فى بعض الأحوال، وتستعمل هذه المفردة فى الكذب أيضاً (وربّما اطلق على الكذب بسبب اختلاق وايجاد موضوع ما فى فكر السامع» «١».

ويقول ابنُ منظور فى «لسان العرب»: الخلق فى كلام العرب ابتداع الشيء على مثال لم يُسبق إليه.

وعليه ... أنّ كلمة الخلق تَعنى فى الأصل التقدير والتنظيم وتنقية الأشياء، إلّاأنّها استخدمت فيما بعد بمعنى الابداع والإيجاد وتغيير هيئة

الأشياء بالنحو الذى يتبادر هذا المعنى الآن.

ومعنى «السماء» استناداً إلى ما قاله علماء اللغة، الشىء الذى يرتفع عالياً، لذلك فانَّ البعض يعتقد أنَّ لها صفة النسبية حيث يمكن أنْ تكون نسبةُ شىء إلى شىء آخر كالسماء إلى الأرض، واشتُقَ «الاسم» من هذه المادة أيضاً لأنَّ التسمية عاملٌ فى رفعةِ وسمو مقام المُسمى

---

(١) مفردات الراغب، ص ١٥٨.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٢٨

واستناداً إلى كلام مؤلف «التحقيق» فإنّ السماء قد تكون ملموسةً ومادية كما فى:

«أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً» أو معنوية كما فى: «قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ». (البقرة/ ١٤٤)

ويقول «ابن منظور» فى «لسان العرب» أيضاً: السمو: تعنى الارتفاع والعُلو «١».

وبناءً على ذلك فانَّ كلمة السماء لا تعنى هذه السَّماء فقط بل أيَّ نحوٍ من الارتفاع والعلو، ولكنها جاءت فى الآيات المُنتَخبة فى هذا البحث بشكلٍ عام بمعنى السماء.

وتُطلقُ «الأرْض» فى الأصل على الجزء الأسفل لكل شىء قبالة «السماء» التى هى الجزء الأعلى لكل شىء، قال هذا الكلام صاحب «مقاييس اللغة»، ويقول الراغب فى تعبيرٍ مشابهٍ: الأرض هى الجرمُ الذى يقابلُ السماء، ويعبَّرُ عن أسفل كل شىءٍ ب «الأرض».

وورد فى كتاب «التحقيق» أنّ الأرض لها مسمّيات متعددة بعضها أوسعُ من بعضها الآخر، فهى تُطلقُ على المسكنِ، والمحلِّ، والقريةِ، والمدينةِ، والبلد، والكرة الأرضية، وما تحت السماء، وحتى ما موجود فى عالم الجسم وتحت عالم الأرواح، حيث يقال لكلٍّ منها «أرض»، وفى هذه المفاهيم يلاحظ قيدان هما الانخفاض، ومقابلة الارتفاع.

«أرَضَة» (على وزن حَدَقة) وتعنى الحشرة التى تخرج من الأرض وتأكل الخشب.

واللطيف هو أنّ أحد معانى «الأرض» هو مرض الزكام، والآخر هو «الرِّعْدَة».

ولعلَّ السبب فى ذلك أنّ هذه الأمراض تُقعدُ الإنسان وتُخلدُهُ إلى الأرض «٢».

---

(١) فى كتاب «العين» للخليل بن أحمد ذُكرت «سماء» بمعنى الارتفاع أيضاً، ص ٣٩١.

(٢) مقاييس اللغة؛ مفردات الراغب؛ لسان العرب؛ مجمع البحرين؛ والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم، ص ٧١٢ وص ١١٣.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٢٩

جمع الآيات وتفسيرها

ارتفاعُ السماء آية حق!

الحديث فى أول آيةٍ من البحث هو عن خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار اللذين يحصلان نتيجة دوران الأرض حول نفسها مقابل الشمس إذ يقول تعالى

«إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيات لِأُولى الأَلْبَاب».

وكما أوضحنا فى بحوث المعرفة فى المجلد الأول من هذا التفسير فانَّ «الالباب» جمع «لُبّ» أى العقل الصافى والعميق، نَعمْ .. فَمَنْ لهم مثل هذه العقول والألباب يستطيعون أن يَرَوا آياتٍ وبراهين كثيرةً عن القدرة الإلهيّة فى خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل

والنهار، وليس آيةً واحدةً أو برهاناً واحداً فقط.

واللطيف مـا جاء في الروايـة المشـهورة الواردة في الكثير من التفاسـير في تفسـير هـذه الآيـة حيث ورد فيها: قال ابن عمر: قلت لعائشـة اخبريني بـأعجب مـا رأيت من رسول اللّه صـلى الله عليه و آله، فبكت وأطـالت ثم قـالت: كـل أمره عجب، أتاني في ليلتي فـدخل في لحـافي حتى الصق جلـده بجلـدي، ثم قـال لي: يـا عائشـة هـل لـك أن تأذني لي الليلـة في عبادة ربي؟ فقلت يا رسول اللّه إنّي لأحب قربـك وأحبّ مرادك قـد أذنت لـك، فقـام إلى قربـة مـاء في البيت فتوضـأ ولم يكثر من صبّ الماء، ثم قام يصـلي، فقرأ من القرآن وجعل يبكي، ثم رفع يديه فجعل يبكي حتى رأيت دموعه قد بلت الأرض، فأتاه بلال يؤذن لصلاة الغداة فرآه يبكي، فقال:

يا رسول اللّه أتبكي وقد غفر اللّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟

فقال صـلى الله عليه و آله: يا بلال أفلا أكون عبـداً شـكوراً، ثم قال: ما لي لا أبكي وقد أنزل اللّه في هذه الليلة: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ»، ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها» «١»

.

صحيحٌ أنّ كـلَّ مـن ينظر إلى السـماوات والأجرام السـماوية يهتـدي إلى آيـاتٍ مـن آيـات اللّه تعـالى إلّـاأنَّ ذوي العقـول والألبـاب يستفيدون أكثر من سواهم، فهؤلاء يَرَوْنَ آثارَ قدرةِ اللّه

---

(١) تفسـير روح الجنان؛ ج ٣، ص ٣٨٤؛ تفسـير الكبير ٩ ص ١٣٤؛ و تفسـير روح المعاني، ج ١٤٠٤؛ تفسـير القرطبي، ج ٣، ص ١٥٥٢ وتفاسير اخرى

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٣٠

تعالى في كلِّ مكان من السـماء، فهم يجدون في خلق كلِّ منظومةٍ، وكلِّ مجرَّة، وفي حركاتها المنظَّمةِ العجيبةِ أسـراراً لم يجدها سوى اولي الألباب.

وما يلفت النظر انّهُ ذُكر في الآية الثانية «قَوْمٌ يَعْقِلُوْنَ» بدلًا من «اولي الأَلْبَابِ»، وفي الآية الثالثة «عالِمين»، والرابعة والخامسة «مؤمنين».

وفي الحقيقـة، كما ورد من تفصـيل سابقٍ في بحث (مصادر ومجالات المعرفـة) في المجلد الأول من هذا التفسير فانَّ كلًا من الميزات أعلاه (الالباب، التعقل، العلم، والإيمان) تعتبر أرضيةً مناسبةً للمعرفة والاطلاع بشكل أكثر عن آيات اللّه.

وهـذه مسألـةٌ جديرةٌ بالاهتمام حيث يصف القرآنُ الكريم «اولي الألْباب» الذين تُفتَحُ أمامهم أبوابُ معرفةِ اللّه من خلال مشاهدة خلق السماوات والأرض إذ يقول تعالى

«الَّذِيْنَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا». (آل عمران/ ١٩١)

أي أنّ ذكر اللّهِ أولًا، والتفكُّر ثانياً، والتأمل في الهدف من الخلق ثالثاً، يُدّلُهمْ كل ذلك على عظمة الخالق جلّ وعلا.

وعلى هـذا الأساس فإنّ تلكؤ علماء الطبيعـة في معرفـة اللّه سـبحانه وتعالى بالرغم من معرفتهم لدقائق الأمور في هذا الوجود يعود إلى أنّهم اعتمدوا في بحوثهم على دراسة المعلول والمخلوق ولم يهتموا بدراسة علة العلل و خلق الوجود والهدف من الخلق.

وكما في الآيـة الاولى فقد وردت مسألة خلق السـماوات والأرض في الآية الثانية، إلى جانب اختلاف الليل والنّهار، أي مجيء وذهاب الليل والنهار (أو اختلافهما التـدريجي على مـدى فصول السـنة)، حيث يمثل ذلك إحـدى الظواهر البارزة في السـماوات والأرض، إذ يسود النظام الدقيق هذه الظاهرة منذ أزمنة طويلة، ويمكن تحديد لحظة شـروق الشمس وغروبها قبل حصولهما، والحدود الدقيقة لليل والنّهار في كل فصلٍ وكلَّ زمانٍ من السنة،

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٣١

ولأي بقعةٍ من بقاع الأرض، ونعلمُ جيداً بانّه أينما يوجد نظامٌ دقيق فانّه يكمنُ وراؤه علمٌ وعقلٌ ولبٌ مدبرٌ.

وفى الآيـة الثالثة ذكر مسألة اختلاف الألسن والألوان، التى هى من آيات الأنفس، إلى جانب مسألة خلق السـماوات والأرض التى هى من آيات الآفاق، حيث يقول تعالى

«وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ وأَخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوانِكُمْ».

وقـد يكون اختلاف الألسن والألوان بمعنى اختلاف اللغات التى يتكلم بها الناس، وألوان وجوههم، أو بمعنى لحن أصواتهم واسـلوب حياتهم، وتفكيرهم وأذواقهم، وقابلياتهم، أو جميعها، فهـذا التنوع العجيب الـذى يكون وسـيلة لتعرف الناس على بعضـهم، وإلى عـدم خلو أيٍّ من المناصب الاجتماعية، من خلال النظام الدقيق الذى يسودُه، لا ينفصل عن النظام العجيب السائد فى السماوات والأرض بل يرتبطان معاً، وكلٌ دليلٌ على عظمة وقدرة وتدبر الذات المقدسةِ للّهِ، عزّ وجلّ.

وتشير الآيتان الرابعة والخامسة إلى خلق السـماوات والأرض فقط، وتَعُدُّهُ من آيات اللّهِ، لأنّ ممّا لاريب فيه أنّ هذا الخلق العظيم هو من آيات اللّه البينات، غير أنَّ الآية الخامسة استندت إلى مسألة التقنيين والهدف من هذا الخلق وبيانه من خلال تعبير «بالحق».

و فى الآيـة السادسة طُرِحَ موضـوعٌ جديـدٌ ألا ـ وهو خلق السـماوات والأـرض فى سـتة أيّامٍ، إذ يقول تعـالى «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَواتِ وَالارْضَ فِى سِتَّة أَيَّامٍ».

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٣٢

وقد ورد ذكر خلق السماواتِ والأرض فى ستة أيّام فى سبع آياتٍ من القرآن الكريم «١».

وهـذا يُبرهنُ على أنّ (القرآنَ الكريم) يولى اهتماماً خاصاً لمسألـةِ الخلق التدريجى للعالم، وهو بذاته دليلٌ آخر على عظمة الخالق جلَّ وعلا.

ومع أنَّ بعضَ المـاديين غير الـواعين وبسـبب عـدم معرفتهم لمعنى «اليوم»، انتقـدوا مثـل هـذه الآيـات واسـتهزؤوا بهـا «٢» حيـث إنّهم يعتقـدون أنّ «اليوم» هنـا بمعنى بيـاض النهار أو (الأربع وعشـرين ساعـة)، إلّاأنّ الجميع يعلم أنّ اليومَ بهـذا المعنى هو ناتـج من حركةِ الأرض وضوء الشمس، وعندما لم يكن وجودٌ للسماوات والأرض لم يكن هناك مفهوم لليل والنهار بهذه الهيئة.

فقـد غَفَلَ هؤلاء عن هـذه المسألـة وهى أنّ كلمة «اليوم» وما يماثلها فى بقية اللغات لها معانٍ مختلفة من حيث المفهوم والاسـتعمالات اليوميـة، فمنها ما يعنى «المرحلة» وقد تكون هذه المرحلة قصـيرةً أو طويلةً جدّاً، كما يقول الراغب فى كتاب (المفردات) الذى هو من الكتب اللغوية المعروفة: اليومُ يُعَبّرُ به عن وقت طلوعِ الشمسِ إلى غروبها، وقَدْ يُعبر به عن مدةٍ مِنَ الزَّمانِ أيَّ مدةٍ كانت.

ونقول فى الاسـتعمالات اليوميـة، إنَّ الناس كانوا فى يوم ما يسافرون على ظهور الحيوانات، واليوم بوسائط النقل السـريعة، وكلا هذين التعبيرين (يومٌ، واليوم) إشارة إلى حقبة طويلة، ونقرأ فى الحديث المعروف عن أمير المؤمنين عليه السلام: «واعلَمْ بأنَّ الدَّهرَ يومانِ: يومٌ لكَ ويومٌ عليك» «٣».

بل إنّ الـدنيا كلها عُـدَّت يوماً واحـداً، وكـذلك كل الآخرة فى بعض العبارات، فيقول أمير المؤمنين عليه السـلام: «وإنَّ اليوم عملٌ بلا حساب، وغداً حسابٌ بلا عمل».

والبيتان المعروفان عن الشاعر كليم الكاشانى تعبير لطيفٌ فى هذا المجال، وهذه

---

(١) الفرقان، ۵٩؛ السجدة، ۴؛ ق، ٣٨؛ الحديد، ۴؛ الاعراف، ۵۴؛ هود، ٧.

(٢) المادية التاريخية، ص ٨٧.

(٣) نهج البلاغة، الرسالة ٧٢.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٣٣

ترجمتهما العربية:

إنَّ الحياة سيئة الصيت يومان ليس اكثرَ (كليم) فدَعْنى اخبرکَ كيف مضت؟ فيومٌ مرَّ بتعلّقِ القلبِ بهذا وذاکويوم آخر مضى بانقطاع القلب عن هـذا وذاک وعليه فانَّ المقصود من خلقِ السـماوات والأرض فی سـتة أيّام هو ست مراحل، وقـد تمتـد كلُّ مرحلـةٍ من هذه المراحل ملايين أو آلاف الملايين من السنين، ومن الواضح عدم توفُّرِ أىِّ دليلٍ يعارض هذا التحديد من الناحية العلمية «١».

ولكن من المحتمل أن تكون هذه المراحل الست حسب التسلسل الآتى:

١- مرحلةٌ كانَ العالمُ كلَّه فيها مجاميعَ عظيمةً جدّاً من الغازات التى تدور حول نفسها.

٢- مرحلةُ انفصال هذه الغازات عن بعضها والدوران حول محور المجموعة المركزية.

٣- المرحلة التى فيها شكَّلت بعض هذه المجاميع بسبب دورانها حول نفسها منظوماتٍ كمنظومتنا الشمسية.

٤- المرحلة التى تكونت فيها الأرض واستعدت للحياة، وظهرت عليها المياه، وتكونت البحار.

٥- مرحلةُ ظهور الأشجار والنباتات وتهيئة الأقوات والأطعمة على الأرض.

٦- مرحلة ظهور الحيوانات وبعدها الإنسان على الأرض.

والمسألة الجديرة بالاهتمام هى أنّ من بين الآيات السبع التى بَيَنَت خلق السماوات والأرض فى ستة أيّام، تمّت الإشارة فى أربع آياتٍ منها فقط إلى خلق السماوات والأرض فى ستة أيّام «٢».

وفى ثلاث آيات ورد خلق السماوات والأرض وما بينهما «٣».

وفى آية واحدة فقط اشير بشكلٍ عامٍ إلى تفصيل هذه المراحل الست، فمرحلتان لخلق

---

(١) ذُكِر أيضاً فى كتاب القاموس المقدَّس الذى هو شرحٌ لمفاهيم التوراة والانجيل، شرحٌ فيما يخص خلق السماوات والأرض فى ستة أيّام حيـث يشبه مـا ورد أعلاه فى بعض الجـوانب بـالرغم من اختلاطه ببعض الخرافـات كاستراحـةِ اللَّه فى اليـوم السـابع (القـاموس المقدس، ص ٨٤ كلمة الخلق).

(٢) الحديد، ۴؛ الاعراف، ۵۴؛ يونس، ٣؛ وهود، ٧.

(٣) الفرقان، ۵٩؛ السجدة، ۴؛ ق، ٣٨.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٣۴

الأرض، وأربعـة مراحل لإيجاد النباتات والحيوانات: «الَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ... وَقَدَّرَ فِيْهَا اقْواتَها فِى أَرْبَعَـةِ ايَّامٍ». (فصلت/ ٩- ١٠)

بناءً على ذلک، فانَّ المراحل الست أعلاه تتعلق بخلق السماوات والأرض وموجوداتهما المتنوعة «١».

وتقول الآيـة السابعـة من البحث إنّ هذا المعنى مسلمٌ به حتى لدى الوثنيين وهو: إنَّ اللَّه تعالى هو خالقُ السـماوات والأرض، ومسـخرُ الشـمس والقمر، وأنّ هؤلاء يفهمون أنَّ هذا العالم الجبار والنظام العجيب لا يمكن أن يكون مِنْ خلقِ الأصنام، بل إنّ ضميرهم يحكُمُ بانَّهُ مِنْ خلقِ اللَّه العالمِ القادر: «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَواتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُوْلُنَّ اللَّهُ».

وعليه فليس العلماء والمفكرون وحدهم الذين يصلون إلى معرفة الذات الإلهيّة المقدّسة من خلال التفكر بأسرار الخلق، وإنّما الوثنيّون الجهلاء كـذلک يعرفون بشكلٍ عام الذات المقدّسة من خلال مشاهدة هذا النظام بالرغم من أنّهم يتيهون فى وادٍ من الشرك بسبب الخرافات والجهل المحيط بهم.

ومع أنّ الآيـة الثامنـة تقصدُ مسألة المعاد والقيامة بدلالةِ الآيات التى تليها وتقول إنّ القادرَ على خلق السـماوات والأرض بهذه العظمة، قادرٌ على أن يحييَ الموتى لأنَّ خلق السماوات والأرض أصعب وأعقد من خلق الإنسان، لكنها مع ذلك دليلٌ واضحٌ على مسألة معرفةِ اللَّه أيضاً، لأنَّ وجودَ الإنسان بل وحتى عضو واحد من أعضاء جسمه كالعين والاذن،

(۱) ومن للتوضيحِ أكثَر فى هذا المجال يراجع التفسير الأَمثل ذيل الآيات ۵۴ الاعراف؛ و ۱۰ فصلت).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۳۵

بل حتى بناء خليةٍ واحدةٍ من خلايا هذه الأعضاء بكل ما فيها من التعقيد والابهام والأسرار والأنظمة يمكن أن يكون من آيات اللَّه تعالى بناءً على ذلك فانَّ (خلق السماء والأرض الذى هو أكبرُ وأعظم من خلق الإنسان أوضحُ برهانٍ على عظمة اللَّه تعالى «لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ».

ومن المؤكد أنّ خلق الإنسان إذا ما قيسَ مع كل جزء من أجزاء هذا العالم فانه يُرجح عليه، إلّاأنَّه إذا قيس بكل السماوات الواسعة والأرض، فمن المسلَّم به أنّ السماوات والأرض يرجح خلقُها على خلق الإنسان.

والطريف أنّ القرآن الكريم حينما جاء بهذا التصريح لم يكن للناس حينذاك- ولا سيما المتخلّفين فى الحجاز- معرفة بعظمة السماوات، ولعلهم كانوا يظنّون أنّ السماء سقفٌ أزرق اللون قريبٌ منهم، وقد تمّ تثبيته بواسطة مسامير فضية وهى النجوم!

أجَلْ ... إنّنا اليوم ندرك جيداً المفهوم العميق لهذه الآية، لأنَّ العلماء تفحّصوا هذه السماء الواسعة من خلال المراصد الفلكية العملاقة، وقد زودونا بأسرار وعجائب مذهلة عن عظمتها والنظام السائد فيها، ومن أين ندرى أنّ ما يشاهدونه اليوم لا يبلغ معشار عظمة هذا العالم، ولعل هذه الحقيقة تتضح غداً للملأ، لهذا يقول تعالى فى آخر الآية: «وَلكِنَّ اكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُوْنَ» «۱».

وفى الآية التاسعة تمَّ جمع دورةٍ كاملةٍ من دروس التوحيد ومعرفة اللَّه فى استفهامٍ إنكاريٍّ حيث يقول: «أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ».

والجدير بالاهتمام هنا أنّ كلمة «فاطر» تعنى المشَقِق، وجاء استخدام هذا التعبير إمّا بسبب تمزيق حجاب العدم والظلمة أثناء خلق السماوات والأرض وإشراق نور الوجود فى

(۱) ما معنى «لا- يعلمون» هنا؟ هناك احتمالات مختلفة: أولها هو: أنّ الناس يجهلون عظمتها قياساً مع الإنسان، والآخر أنّهم يجهلون القدرة الإلهيّة اللامتناهية، والثالث، أنّهم يجهلون قدرته على مسألة المعاد، أو يعلمون، وحيث إنّهم لا يفصحون عن علمهم هذا، فهم فى حكم الجهلاء (ولكن لا يُستبعد أن تجتمع كل المعانى الثلاثة الاولى فى الآية وكما قالوا بأنّ حذف المتعلق دليل على العموم).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۳۶

خلق السماوات والأرض، أو إشارةٌ إلى ما يُعرفُ اليوم لدى علماء الفلك حيث إنّ جميع هذه الأجرام والمنظومات كانت فى اليوم الأول على هيئة مجموعةٍ كبيرة مرتبطة ببعضها، وانفصلت عن المركز نتيجة لحركتها حول نفسها وبتأثير القوة الدافعة لها عن المركز، والقت بقطعٍ منها إلى الخارج وظهرت المنظومات والمجرّات الثابتة والسّيارة «۱».

على أيّة حال، سواء كان المشركون هم المخاطَبون فى هذه الآية أو منكرو وجود اللَّه تعالى أو كلاهما، فانّه يستفاد من هذه الآية الكريمة هذه الحقيقة، وهى أنّ الّتمعنَ فى خلق السماوات والأرض يكفى لأنّ يقتلع كُلُّ نوعٍ من أنواع الشك والريب فى وجود اللَّه ووحدانيته وقدرته من قلب الإنسان.

ويشير فى الآية العاشرة إلى خاصّية اخرى من خصائص السماء والأرض إذ يقول تعالى «وَالسَّمَاءَ بَنَيْناهَا بِأَيْيْدٍ».

فمن المسلَّم بِهِ أنّ خلقَ مثل هذه العوالم الجبّارة يستلزم قدرةً مناسبةً له، وهى قدرة البارى عزّ وجّل وحدها.

ويضيف فيما بعد «وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ».

وبالرغم من أنَّ بعض المفسّرين اعتبروا ذلك بمعنى توسعةِ الرزق عن طريق هطول المطر وغيره «۲» لكن يبدو أنّ للآية معان بالغة الأهمية والدقّة، حيث اتّضح ذلك لعلماء عصرنا الحاضر، وقد اميط اللثام عن معجزة من المعجزات العلمية للقرآن، وهى أنّ العالم فى

حال اتساع وبصورة مستمرة، وأنّ النجوم والمجرات والأجرام تبتعد عن بعضها بشكل سريع.

---

(١) يقول الراغب فى المفردات: «فَطْر» على وزن «سَتْر» أى الشَّقُ طولياً، ثم جاءت بمعنى الايجاد والإبداع، و «فِطْر» (على وزن مِتْر) تعنى الافطار وترك الصيام، وكأنَّ الصيام ينفطر، (والفطرة تعنى الخلقة وهى مأخوذة من هذه المادة أيضاً).

(٢) وقد فسَّر بعض المفسرين لفظة (موسعون) بمعنى (قادرون) أيضاً، لأنّه مفردة (الوسع) تأتى أحياناً بمعنى «القدرة»، أمّا مفهوم «التوسيع» فهو أوضح.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٣٧

يقول أحد العلماء المعروفين ويُدعى (جورج غاموق) فى كتابه (بداية ونهاية العالم):

«يمُر فضاءُ الكون الذى يتألف من مليارات المجرّات بحالةٍ من الامتداد السريع، والحقيقة هى أنّ عالَمنا ليس ثابتاً بل إنَّ اتساعَهُ مسلَّمٌ به، والوقوف على كون عالمنا يمرُّ بحالةٍ من الاتساعِ يهيء لنا المفتاح الحقيقى لكنوز أسرار النظرية الكونية، فلو أنّ العالَمَ يمُّر اليومَ بحالةٍ من الاتساع والامتداد فهذا يعنى أنّه كان يمرُ بحالةٍ من الانكماش الشديد فى عابر الازمان» «١».

وممّا يبعث على الدهشةِ أنَّ هذا التوسعَ يسيرُ سريعاً بالقَدرِ الذى يقول عنه (فورد هوفل) فى كتاب (حدود النجوم): «لقد تم قياس اقصى سرعةٍ لتباعد الكرات حتى الآن بما يقارب ٦٦ ألف كيلو متر فى الثانية، وتُدَللُ الصور الملتقطة عن السماء على هذا الاكتشاف المهم بوضوح، حيث إنَّ الفاصلة بين المجرّات النائية تتضاعف بسرعةٍ أكثر من المجرّات القريبة!» «٢».

فأىُّ قوةٍ عظيمة تكمنُ وراء هذه الأجرام والمنظومات الجبّارة حيث تُبعدها عن مركز العالم بهذه السرعة النادرة من دون أن تتلاشى على اثر هذه الحركة؟!

ثم يشير إلى الأرض فيقول: «وَالارْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ المَاهِدُونَ».

فالتعبير ب «الفرش» من ناحيةٍ، و «الماهد» من مادة (مهد) من ناحيةٍ اخرى إشارةٌ إلى التغييرات الكثيرة التى حصلت منذ بداية تكوين الأرض، وتهيئتها لحياة الإنسان، وجعلها كالمهد أو فراش الراحة.

كل هذه دلائل على ذلك العلم والقدرة الأزلية.

ونقرأ فى الآية الحادية عشرة تعبيراً جديداً حول خلق السماء إذ يقول: «وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظًا».

---

(١) بداية ونهاية العالم، ص ٧٧ (مع الاختصار).

(٢) حدود النجوم، ص ٣٣٨.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٣٨

فهل هناك سماءٌ فى العالم على هيئة سقف يُحفظُ من نفوذ الكائنات الخارجية؟ نعم ..

فالسماء هنا يمكن أن تكون إشارة إلى الفضاء الذى يحيط بالأرض ويبلغُ سمكُهُ مئات الكيلو مترات، فهذه الطبقة التى تتألف من الهواء المضغوط اللطيف وبقية الغازات المحيطة بجوانب الكرة الأرضية على هيئة سقفٍ دائرى، قويةٌ بالقدر الذى يصفها بعض العلماء بأنَّ لها مقاومةً بقدر سقفٍ فولاذىٍّ بسُمكِ عشرة أمتار، وهى لا تمنع نفوذ الاشعاعات المدمرة فحسب، بل تمنع سقوط الصخور الفضائية التى تنجذب نحو الأرض باستمرار، لاصطدامها بهذه الطبقة الجوية بسرعتها الخارقة، فتكون مانعاً لحركة تلك الصخور، كما ويؤدّى هذا الاصطدام إلى احتراق تلك الصخور وانصهارها.

فلو لم تكن هذه الطبقة الجوّية العظيمة لأصبح أهلُ الأرض عُرضةً للملايين من قذائف الصخور الفضائية الصغيرة والكبيرة ليلَ نهار، فماذا سيحصل؟ وهل يكون هناك وجودٌ للاستقرار فى «مهد الأرض»؟ وهل سيكون اسمُ المهد والمرقدِ لائقاً بها؟!

لا ضير أن تقرأ هذا الكلام الوارد على لسان عالم معروفٍ يُدعى (فرانک آلن) حيث يقول فی كتابه (النجوم للجميع): «إنَّ الجوَّ الذی تألَّفَ من الغازات التی تحفظ الحياة على سطح الأرض له من المقدار والسمک «بحدود ۸۰۰ کم» بحيث يستطيع أن يكون كالدرع للأرض يصونها من شر اصطدام ۲۰ مليون صخرةٍ فضائيةٍ مدمرةٍ تبلغ سرعتها ۵۰ كيلو متراً فی الثانية يومياً!» «۱».

صحيحٌ أنّ وزنَ بعض هذه الشهب التی تتقاطر نحو الأرض يعادل ۱۰۰۰ ۱ من الغرام إلّا أنَّ القوة الناتجة عن سرعتها تعادل قوة انطلاق ذرات القنبلة النووية! .. وقد يبلغ حجمُ ووزن بعض هذه الشُهُب مقداراً كبيراً بحيث تجتاز هذه الطبقة وتصيب الأرض، ومن الشهب التی اجتازت الغلاف الغازی ووصلت إلى الأرض شهاب «سيبريا» العظيم المعروف الذی أصاب الأرض عام ۱۹۰۸ م وكانَ قطرُهُ بقَدْرٍ كبيرحيث احتلَ (۴۰ کم) تقريباً من الأرض، وأدّى إلى حدوث اضرارٍ جسيمة «وكأنَّ اللَّه تعالى يُنذُرنا بهذا

---

(۱) النجوم للجميع، ص ۷۴.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۳۹

الاسلوب .. لنتصور حالنا فيما لو تعرضنا لقصف الصخور السماوية يومياً».

فلو كان الغلاف الجوی حولَ الأرض بشكل أرقُّ مّما هو عليه «لأصابت الأرضَ يومياً عدةُ ملايين من الأجرام السماوية والشُهب الثابتة، كما يقول (غرسی مورسِن) مؤلف كتاب (سرُّ الخَلْق): «ولم تَعُدِ الأرض صالحةً للحياة» «۱».

ولا ينبغی طبعاً نسيانُ الآثار المدمِّرة الناتجة عن اصطدام الأشعة فوق البنفسجية بالأرض فی حالة عدم وجود هذا الغلاف فهی أكثر بكثير من أخطار آثار هذه الصخور، ولعلَّ هذا الأمر كان السبب فی أن يقول البارى تعالى فی نهاية الآية: «وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ».

ويشير فی الآية الثانية عشرة والأخيرة إلى خاصِيةٍ اخرى من خصائص السماوات، وهی من المعجزات العلمية للقرآن الكريم إذ يقول: «اللَّهُ الَّذِی رَفَعَ السَّموَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا».

ويبرهنُ هذا التعبير على أنَّ للسمَوات عموداً إلّاأنّهُ غيرُ قابل للرؤية، فهو عمود غيرُ مرئيٍّ، فایُّ شیءٍ يمكنُ أنْ يكونَ هذا العمود سوى توازن قانون «الجذب» و «الدفع»، أی «القوة الدافعة المركزية»؟ أجَلْ إنّ تعادل الجذب والدفع هذا هو عمود قویٌّ بحيث يرفع جميعَ كُرات المنظومة الشمسية وبقية المنظومات فی مداراتها بإحكام، مع أنّه غيرُ مرئیٍّ، كما ويمنع تساقطها على بعضها، أو الابتعاد عن بعضها فيختَلُّ نظامُها.

وينبغی الانتباه إلى أنّ «عَمَدْ» (على وزن صَمَدْ) اسمُ جمع من مادة «عمود»، ولو أراد القرآن أن يقول: «إنَّ السماءَ مرفوعة بلا عمد»، لكان يكفی أن يقول: «رَفَعَ السَّموَاتِ بِغَيرِ عَمَدٍ»، إلّاأنّ اضافة عبارة «تَرَوْنَها» يُدلُ على أنّ المقصود هو نفی الاعمدة المرئية، ويستلزمُ ذلک إثبات العمود اللامرئی.

---

(۱) سرُ خلق الإنسان، ص ۳۴.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۴۰

لذلک نقرأ فی الحديث المشهور عن الإمام الرضا عليه السلام حيث كان يتحدث إلى بعض الجهلاء الذين كانوا يقولون: إنَّ السماء بلا عمود، فقال الإمام عليه السلام: «سبحان اللَّه أليسَ اللَّهُ يقول بغير عَمَدٍ تَرَونَها»، ويجيب ذلک الشخص بنعم، فيقول الإمام عليه السلام مباشرة: «ثَمَّ عَمدٌ ولكن لا تَرَوْنَها» «۱».

وقد رُوی هذا المعنى بتعبير «عمود من نور» فی حديثٍ شيِّقٍ لأمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: «هذه النجوم التی فی السماء مدائنُ مثل المدائن التی فی الأرض مربوطةٌ كلُّ مدينةٍ إلى عمودٍ من نور» «۲».

والذی يثير الانتباه هنا هو بالرغم من أنّ قانون الجذب والدفع لم يكن مذكوراً فی تفاسير القدماء والسالفين، فانَّ منهم من فسَّر الآية

كما ذكرنا آنفاً، حيث قال بوجود عمودٍ غير منظورٍ للسماء، بالرغم من أنَّ البعض عبَّر عن هذا العمود غير المنظور بقدرةِ اللَّه «٣».
على أيّةِ حال، فهـذه احـدى آيات اللَّه العظيمـة، حيث رفع السـموات بهذه الأعمدة القوية غير المنظورة، والأنظمة المهيمنة على قانون الجـذب والـدفع، بحيث لو حَصَلَ أقلُّ تغييرٍ فی هـذه المعادلـة، فسوف يختلُ توازنها أو تتصادم فيما بينها بشدة وتختفی أو تبتعد نهائياً وينفصم الارتباط بينها.

النتيجة:

مع أنّ الآيـات المتعلقـة بخلق السـموات والأـرض فی القرآن الكريم ليست محصورةً بمـا اوردنـاه آنفاً، وإذا تقررَ أنّ تُبحثَ كموضوعٍ مستقلٍ تحت عنوان: «السماء والأرض فی

(١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٢٧٨.
(٢) بحار الأنوار، ج ۵۵، ص ٩١؛ تفسير القرطبی ج ٩ ص ٢٧٩.
(٣) تفسير مجمع البيان، ج ۵، ص ٢۴٧؛ تفسير روح المعانی، ج ١٣، ص ٧٨؛ تفسير الكبير، ج ١٨ ص ٢٣٢؛ و تفسير القرطبی، ج ۵ ص ٣۵٠٨.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١۴١
القرآن الكريم» فانّهـا تؤلّف كتاباً مسـتقلًا «١»، إلّاأننا إخترنا هـذه الآيات الاثنتی عشـرة من بينها واوردناها، ومن المؤمل أن يفتَح هـذا البحث- أی بحث معرفـة اللَّه وآيـات وجوده فی هـذا العـالم الكبير- الطريق أمامنا، ويوضـح لنا بأنَّ فی هـذا الخلق العظيم دلائل وافرة للسـائرين فی طريق اللَّه، يُمكنهم من خلاـل التمعن فی هـذا الكتـاب العظيم الملیء بالأسـرار أنْ يزدادوا قُربـاً منه، وتُملأ أوعيـةُ قلوبهم وأنفسهم من حُبِّهِ أكثر فأكثر، فيرددون هذا الكلام القرآنی باستمرار: «رَبَّنا مَا خَلَقْتَ هذا باطِلًا»!.

توضيحات

١- عَظَمَةُ وِوُسَعَةُ السمَوات

لا عِلْمَ لأحدٍ بحدود سعةِ وامتدادِ السماوات، إنّ الشیء الذی نعلمه هو أنّه كلما ازداد علم وتفكير الإنسان وتطور فإنّ عظمة السماوات سوف تكون فی نظره أكبر وسوف يكتشف أبعاداً جديـدة عن عظمـة السـماوات وأسـرارها، وتقول آخر معلومات علماء الفلك بهـذا الخصوص:
«إنَّ منظومتنا الشمسـية ترتبط ب «درب التبانـة» التی هی فی الواقع احدى المجرات، وقد توصلَ العلماء فی بحوثهم إلی أنّها تتألف من مائةِ مليارد نجمـة احـداها شمسـنا هـذه والتی تُعتبر أوسـطها حجماً (لا تَنْسَی أنّ الشـمس أكبر من الأرض بأكثر من مليون مرّة)، وإذا ضَربنا هذا العدد بمائة تصبح النتيجة مائة مليون مليار، أی أنّ حجم مجموع كرات هذه المجرة يعادل الكرة الأرضية بهذا المقدار!.
وإذا أضـفنا هـذا العـدد إلی العـدد الذی اكتشـفه العلماء فی هذا العالم وفقاً لبحوثهم، وهو مليارد مجرّة علی الأقل، يقفُ العقل والعلم البشری متحيراً أمام عظمة الاله الذی خلقَ هذا العالم اللامتناهی، (تفحصوا الأرقام أعلاه وتفكَّروا فی عظمتها).
علماً أنّ هذه الأعداد والأرقام هی ضمن حدود علم واطلاع البشر فی الوقت الحاضر،

(١) فی القرآن الكريم ذُكرت «السماء» أكثر من ثلاثمائة مرّة بصيغة مفردة أو جمع (السمَوات).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۴۲

وليس واضحاً ما سيُكتَشَفُ من معالم جديدة فى المستقبل».

وهناك شهادةٌ لطيفةٌ جدّاً لمرصد (بالومار) بخصوص عظمة السماوات حيث يقول:

«فى الوقت الذى لم تتمّ صناعة عدسة مرصد (بالومار) العملاق لم تكن سعة الدنيا حسب علمنا أكثر من ۵۰۰ سنة ضوئية (والمقصود من السنة الضوئية هو مقدار المسافة التى يقطعها الضوء بسرعةٍ ثلاثمائة الف كيلو متر فى الثانية خلال سنة واحدة، وثلاثمائة الف كيلو متر فى الثانية تعنى الدوران حول الأرض سبع مرات خلال طرفة عين).

ولكن هذه العدسة ضاعفت دنيانا إلى الف مليون سنة ضوئية، وفى النتيجة تم اكتشاف الملايين من المجرّات الجديدة، حيث يبعدُ بعضها عنّا مليار سنة ضوئية، ولكن هناك فضاءً عظيماً مهيباً ومظلماً بحيث لم يُرَ شىء من خلاله أبداً ويبعد الف مليون سنة ضوئية ... إلّاأنّ ممّا لا شك فيه هو وجود مئات الملايين من المجرّات فى ذلك الفضاء المهيب المظلم حيثُ تُصانُ الدنيا من خلال جاذبية تلك المجرّات، ويُعتقد أنّ هذه الدنيا العظيمة التى نراها ليست سوى ذرةٍ صغيرةٍ متناهية من عالمٍ أعظمْ، ولسنا نقطع بعدم وجود عالمٍ آخر فى مكانٍ آخر من الدنيا!» «۱».

۲- الدِّقةُ العجيبةُ فى القوانين التى تحكمُ السماءَ والأرض

من المعروف أنّه كلما تعاظمت الموجودات فلابدّ من أنْ تتضاءل دقة القوانين السائدة فيها، بينما لا يصدقُ هذا المعنى على هذا العالم الشاسع أبداً، أى أنّه مع عظمته وسعته العجيبة وإثارته للجدل، فهو ذو انظمةٍ دقيقةٍ وظريفة، ومن أجل إدراك هذه الحقيقة يكفينا الالتفات إلى المسائل الآتية:

أ) نحن نعلم أنّ الإنسان قد أفلحَ فى نهاية المطاف أنْ يُنزلَ سفينة الفضاء بطاقمٍ يتألف من شخصين فى النقطةِ التى حدّدها العلماء فى كوكب القمر، ثم عادا إلى الأرض (تأمل

(۱) مجلة الفضاء، العدد ۵۶ فروردين ۱۳۵۱.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۴۳

جيداً ..) فعلى مدى الأيّام الثلاثة التى قضتها السفينةُ فى قطع المسافة بين الأرض والقمر، كانت الأرض تدور حول نفسها وتغيرُ مكانها فى السماء حول الشمس، وكوكبُ القمر كان يدور حول نفسه وحول الأرض أيضاً، فكم يجب أن تكون هذه الحركات مُنظمةً ودقيقةً ومحبوكة وثابتة بحيث يستطيع العلماء أن يحسبوا حسابَ هذه الحركات ويقدّروها من خلال العقول الالكترونية حتى تحط سفينةُ الفضاء فى المكان الذى حددوه على سطح كوكب القمر، ومِنْ ثَمَّ المكان الذى عيّنوهُ لعودتها إلى كوكب الأرض؟ فإذا اختلفت احدى هذه الحركات وتداخلت فيما بينها ونقصت أو ازدادت مقدار ثانيةٍ واحدةٍ فمن المسَّلم به أنّ حسابات العلماء سترتبك ويكون عملهم غير ناجح.

أجَلْ .. إنّ نظام عالم الوجود الدقيق هو الذى يمنح الإنسان فرصةَ القيام بمثل هذا العمل، أى الهبوط على سطح كوكب القمر وفى المكان الذى حددهُ.

ب) يستطيع علماء الفلك أن يَحْسُبُوا ويقدّروا أحداث المستقبل التى تتعلق ب «الخسوف» و «الكسوف» فى الكرة الأرضية قبل عشرات السنين، وعدد ساعات الليل والنهار وشروق وغروب الشمس وبزوغ وافول القمر، وهذا يعود إلى التنظيم الدقيق لحركاتها ليس إلّا.

ج) كما اشرنا سابقاً أنّ قوة الجاذبية تجذب الأجرام السماوية نحو بعضها، بيد أنَّ القوةَ الدافعة التى تحصل من حركة الدوران والتى تسمى بالقوة الطاردة تُبعدها عن بعضها.

فإذا اريد أنْ تتحرك الكرة في مدارها ملايين السنين حركةً دقيقة وفي مدارٍ معَّين فيجب أن تتوازن هاتان القوتان تماماً، وهذا ما نعرفه أيضاً حيث إنَّ الجاذبيةَ تتناسب طردياً مع حجم الموجودات، وعكسياً مع الجذر التربيعي للمسافة بينها (فلو ازداد الحجم فانَّ الجاذبية تتضاعف، وإذا تضاعفت المسافات تضعفُ الجاذبيةُ طبقاً للمعادلة أعلاه).

وبناءً على ذلك فمن أجل أن تدور الأرض حول الشمس لمدةٍ طويلةٍ جدّاً في مدارٍ ثابت، ينبغي أن يكون حجم الشمس والأرض وكذلك المسافة بينهما، وسرعة حركةِ الأرض حول الشمس وفقَ حسابٍ دقيقٍ، كي يتمّ التوازن بينهما، وهذه المسائل ليست ممكنةً دون تَدَخُلٍ من عالم ذو علمٍ غيرِ متناهٍ وعقلٍ مدبرٍ.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١۴۴

٣- السموات السبع

مايلفت النظر هو أنّ الحديث عن (السموات السبع) ورد في سبع آياتٍ من القرآن الكريم «١».

وتمّت الإشارة في احدى هذه الآيات إلى طبقات الأرض السبع أيضاً، حيث يقول تعالى «اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَواتٍ وَمِنَ الارْضِ مِثْلَهُنَّ». (الطلاق/ ١٢)

ومن بين جميع التفاسير المختلفة التي ذُكرت عن السموات السبع، يظهر أنّ التفسير الصحيح هو أنَّ المقصود من «السموات السبع» هو المعنى الحقيقي للسموات السبع، أيالسماء لا تعني الكرات، بل مجموعة النجوم والكواكب في العالم العلوي، والمقصود من العدد (سبعة) هو الرقم المعروف، وليس هو للكثرة.

إنَّه ما يظهر من الآيات الاخرى هو أنّ كل ما نراهُ من نجوم ثابتةٍ، وسيّارة، ومجرّات، وسُحُبٍ يتعلق (بالمجموعة السماوية الاولى وعليه فهناك ست مجاميع عظيمة اخرى (ست سموات) تلي هذه المجموعة العظيمة، حيث إنّ بعضها أكبر من البعض الآخر، وتلك خارجةٌ عن متناول علم الإنسان (لحد الآن على الأقل).

نقرأ في قوله تعالى «إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنيا بِزِيْنِةٍ الْكَواكِبِ». (الصافات/ ۶)

وجاء في قوله تعالى «وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيْحَ». (فصلت/ ١٢)

وورد هذا المعنى أيضاً باختلافٍ طفيفٍ في الآية الخامسة من سورة المُلك.

والجدير بالذكر أنّ المرحوم العلّامة المجلسي قد ذكر هذا الاحتمال كأحد التفاسير لهذه الآية إذ يقول: «الثالث: ما خطر بالبال القاصر، وهو أن تكون جميع الافلاك الثمانية التي أثبتوها لجميع الكواكب فلكاً واحداً مسمى بالسماء الدنيا» «٢».

---

(١) البقرة، ٢٩؛ الاسراء، ۴۴؛ المؤمنون، ٨۶؛ فصلت، ١٢؛ الطلاق، ١٢؛ الملك، ٣؛ نوح، ١۵ (واشيرَ في آيتين (المؤمنون، ١٧؛ النبأ، ١٢) إلى (سبع طرائق) وسبعاً شداداً أيضاً حيث يمكن أن يكونا إشارة إلى السموات السبع أيضاً.

(٢) بحار الأنوار، ج ۵٨، ص ٧٨.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١۴۵

صحيحٌ أنَّ معداتنا العلمية الحديثة لم تكشف الحجب عن العوالم الستة الاخرى غير أنّه ليس هنالك من دليل ينفيها من الناحية العلمية أيضاً، ويحتمل أن يكشف النقاب عن هذا السر في المستقبل.

بل يظهر من اكتشافات بعض علماء الفلك أنّ هناك الآن براهين تلوح في الافق عن وجود عوالم اخرى شبيهة لما نقلناه آنفاً عن مرصد (بالومار) الشهير فيما يتعلق بعظمة العالم، ونكرر الجملة التي تشهد على كلامنا هذا «تمّ اكتشاف الملايين من المجرّات الجديدة حيث يبعد بعضها عنّا مليارد سنةٍ ضوئية، لكن هناك فضاءً عظيماً مَهيباً ومظلماً لم يُرَ أيُّ شيء من خلاله أبداً ويبعد مسافة

مليار سنة ضوئية، إلّاأنّ ممّا لا شك فيه وجود مئات الملايين من المجرّات في ذلك الفضاء المهيب المظلم، حيثُ تصانُ الدنيا من خلال جاذبية تلك المجرّات، ويُعتقد أنّ هذه الدنيا العظيمة التي نراها ليست سوى ذرّةٍ صغيرةٍ متناهيةٍ من عالمٍ أعظمْ، ولسنا نقطعُ بعدمِ وجود عالمٍ آخر في مكان آخر من الدنيا» «١».

يقول أحدُ العلماء في مقالٍ كتبهُ حول عظمة عالم الوجود، بعد ذكر المسافات الهائلة والمذهلة للمجرّات، وبيان الأرقام المدهشة المحددة طبقاً إلى السنةِ الضوئية ما يأتي:

«لا-زال المنجمّون يعتقدون أنّهم لم يقطعوا سوى منتصف طريق ما يُمكنُ رؤيتُهُ من العالم العظيم، ولا-زال عليهم اكتشاف فضاءات أُخَر غير مكتشفة» «٢».

وعليه فإنّ العوالم التي تكشَّفت للبشر لحدّ الآن مع عظمتها ما هي إلّازاوية صغيرة من هذا العالم الكبير، وتصلح للمطابقة مع مسألة السموات السبع «٣».

٤- لِمَ لا تنظرون إلى السماء؟!

إنَّ كثرة ووفرة آيات اللَّه في عرض السموات، وجمال السماء في الليل، دَفَعَ القرآن

---

(١) مجلة الفضاء، العدد ٥٦ فروردين ١٣٥١.

(٢) مجلة (نيوز ويك) السنة ١٩٦٤ (لا ينبغي أن ننسى إنَّ هذه الشهادة تعود إلى ما قبل ٢٤ سنة).

(٣) من أجل المزيد من الايضاح حول التفاسير المختلفة التي ذكرت فيما يخص السموات السبع، يُراجع التفسير الامثل (ذيل الآية ٢٩ من سورة البقرة).

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٤٦

الكريم والأحاديث إلى دعوة الناس باسرهم وخص المؤمنين منهم إلى التفكُّر في السموات من أجل كسب المزيد من الإيمان، فيقول القرآن الكريم في الآية ۶ من سورة ق: «أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَالَها مِنْ فُرُوْجٍ»؟!.

وقد أمَرت الروايات «المستيقظين في الاسحار» خاصة، أن ينظروا إلى السماء أولًا حينَ ينهضون «لصلاة الليل»، وأن يقرأوا الآيات الاخيرة من سورة آل عمران التي تنعكس فيها جميعُ هذه الحقائق بنحوٍ عرفانيٍّ: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَواتِ وَالارْضِ ...» ثم يتوجهون نحو العبادة (حيث يمتلىء الدعاء بعطر التوحيد ومعرفة اللَّه) «١».

ورُوِيَ أنّ النبي صلى الله عليه و آله حينما كان يستيقظ لصلاة الليل يبتدىء بالمسواك ثم يلقي نظرةً على السماء، ويردد هذه الآيات «٢».

وورد في صفات أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً عن أحد أصحابه ويدعى (حبة العرنيّ) حيث قال: «بينا أنا ونوف (أحد أصحاب الإمام علي عليه السلام) نائمين في رحبة القصر إذ نحن بأمير المؤمنين عليه السلام في بقية من الليل، واضعاً يديه على الحائط شبيه الواله، وهو يقول: «انَّ في خَلْقِ السَّموات وَالارْضِ» إلى آخر الآية، قال: ثم جعل يقرأ هذه الآيات ويمّر شبه الطائر عقله، فقال لي: أراقدٌ أنت يا حبّة أم رامق؟ قال: قلت: رامقٌ هذا أنت تعمل هذا العمل فكيف نحن؟ فأرخى عينيه فبكى ثم قال لي: يا حبّة، إنّ للَّهموقفاً ولنا بين يديه موقف لا يخفى عليه شيء من أعمالنا، يا حبّة إنّ اللَّه أقرب إليَّ واليك من حبل الوريد، يا حبّة إنّه لن يحجبني ولا إياك عن اللَّه شيء ....» «٣».

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٢، ص ٥٥٤ الآيات الأخيرة من سورة آل عمران.

(٢) المصدر السابق.

(٣) بحار الأنوار، ج ۴۱، ص ٢٢.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١۴٧

٨- آياته فى خلق الشمس والقمر والنجوم

تمهيد:

مع أنَّ الشمسَ والقمر تُعدّانِ من كواكب وكرات السَّماء، وقد تمّ الحديث بشكلٍ منفصلٍ عن عظمة السموات، ولكن لقربهما من كرتنا الأرضية فانَّ لهما تأثيراتٍ جمَّةٍ على حياتنا، وقد أشار القرآن الكريم إليهما بشكل خاصٍ، ووصف كلًّا منهما بآية عظيمةٍ من آيات اللَّه، وإشار إلى الفوائد الخاصة للنجوم إذ اعتبرها من آيات اللَّه، وأنَّ التفحُص فى كلٍ منها لا سيما فى ظل اكتشافات العصر من الممكن أن يوضح لنا عظمةَ البارى تعالى من جهةٍ وعظمة تعاليم القرآن الكريم من جهة اخرى

وبعد التمهيد المختصر نتأمل خاشعين فى الآيات الشريفة الآتية:

١- «هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً والْقَمَرَ نُوراً وقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوم يَعْلَمُونَ». (يونس/ ۵)

٢- «أَلَمْ تَرَوا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَواتٍ طِباقاً* وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً». (نوح/ ١۵ و ١۶)

٣- «وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ والْقَمَرَ دَائِبَيْنِ». (ابراهيم/ ٣٣)

۴- «وَسَخَّرَ الشَّمسَ والْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمّىً». (فاطر/ ١٣)

۵- «ومِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ والنَّهارُ والشَّمسُ والْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلقَمَرِ واسْجُدُوا للَّهِ الّذِى خَلَقَهُنَّ إنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ». (فُصَلت/ ٣٧)

۶- «وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيْرُ الْعَزِيْزِ الْعَلِيْمِ* والْقَمَرَ قَدَّرنَاهُ مَنازِلَ

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١۴٨

حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيْمِ* لَاالشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَآ أنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ». (يس/ ٣٨- ۴٠)

٧- «وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيلَ والنَّهَارَ والشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ».

(الانبياء/ ٣٣)

٨- «فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ والْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ». (المعارج/ ۴٠)

٩- «كَلَّا وَالْقَمَرِ* واللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ* والصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ* إِنَّهَا لَإِحْدى الكُبَرِ».

(المدّثر/ ٣٢- ٣۵)

١٠- «وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ والبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَومٍ يَعْلَمُونَ». (الانعام/ ٩٧)

جمع الآيات وتفسيرها

القَسَمُ بالشمس والقمر والنجوم:

بالرغم من أنّ زمان نزول الآيات المتعلقة بالشمس والقمر كان فى وقت لا- يملك فيه الإنسان إلّاالقليل من المعلومات عن هذين الكوكبين العظيمين، وتقارن نزول هذه الآيات مع شيوع الخرافات الكثيرة «وبالأخص فى مهد نزول هذه الآيات» بالرغم من كل ذلك

فإنّ القرآن أشار إلى القمر والشمس والنجوم بعظمة ملفتة للنظر، وذكر الكثير من خصوصياتها وبشكل عام فإنّ القرآن اعتبرها من آيات الحق الإلهيّة والبراهين على إثبات الذات المقدّسة.

فيقول تعالى فى الآية الاولى التى نبحثها: «هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً والقَمَرَ نُوْرَاً».

يقول بعضُ أربابِ اللغة (ومنهم الطريحى فى مجمع البحرين) وعددٌ من المفسرّين: إنَّ الفَرْقَ بين «الضياء» و «النور» هو أنّ «الضياء» يُطلقُ على النور الذى ينبعث من ذات

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٤٩

الشيء، ويُطلقُ النورُ على الضوء الذى يُكسبُ من الغير، وعليهِ فانَّ الآية أعلاه إشارةٌ لطيفةٌ إلى هذه المسألةِ حيث إنّ نورَ الشمسِ ينطلقُ منها، فى الوقت الذى يحصلُ نورُ القمرِ عن طريق ضوء الشمس الذى يَشُعُ عليه، ويتحدث القرآن الكريم بهذا فى زمانٍ لم يكن للناس اطلاعٌ عليه.

وممّا لا شك فيه أنّه لا يمكنُ انكارُ أَنَّ كُلًّا من هذين المفهومين قد يُستعمل بمعنى اعمَّ من النور «الذاتى» أو «الاكتسابى»، ومشاهدة حالات استعمال هذين المفهومين فى القرآن الكريم وفى كلامِ العربِ يَشْهَد على ذلك، وقد يكون لهما معنيان مختلفان فيما إذا تزامنا معاً، كما جاء فى الآية أعلاه.

وورد هذا المعنى فى الآية الثانية بتعبيرٍ آخر، فَبعد الإشارة إلى خلق السموات السبع يضيفُ قائلًا: «وَجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُوْراً وجَعَلَ الشَّمسَ سِرَاجاً» وقد عَبَّرَ عن الشمس ب «السراج» فى آيتين اخريين من القرآن الكريم أيضاً (الفرقان/ ٦١، النبأ/ ١٣)، ونحن نعلمُ أنّ نورَ المصباح ينبعثُ من داخلِهِ وليسَ مُكتَسباً من الخارج، وقد جاء فى بعض نصوص اللُّغة أنّ الضياءَ أكثر شدةً من النور «١»، ولعلَّ هذا الاختلاف مُستَمَدٌ من الاختلاف الأول ويعود إليه «٢».

على أيّةِ حالٍ، فقد اشيرَ هنا وقبل كل شيءٍ إلى نور «الشمس» و «القمر» كآياتٍ حق من آيات اللَّه وبراهين على قدرته وآلائه جلَّ وعلا.

فالشمسُ بضوئها المشرقِ على الكون لا تقوم بتدفئة وانارة مهد الكائنات فى العالم فحسب، بل لها نصيبٌ اساسيٌ فى نمو النباتات وحياة الحيوانات.

---

(١) تفسير الكشّاف، ج ٢، ص ٣٢٩؛ و تفسير روح البيان، ج ۴، ص ١٢.

(٢) ينبغى الانتباه إلى أنّ «الضياء» يأتى بصيغة «المفرد» و «الجمع» أيضاً، ويعتقد بعض المفسرين أنّ له صيغة الجمع فى الآية أعلاه، وأنّه إشارة لطيفةٌ إلى تركيب ضوء الشمس من سبعة ألوان.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٥٠

واليوم قد ثبتت هذه الحقيقة، إذ إنَّ كلَّ حركةٍ تُشاهدُ فى الأرض هى من بركاتِ ضوء الشمس، فلو فكّرنا بامعانٍ فى حركة الرياح، والغيوم وأمواج البحار وجريان الأنهار، والشلالات، والحيوانات والناس لوجدناها تنبعُ من ضوء الشمس بدون استثناء.

ولو انطفأت الشَّمس وانقطعت هذه الاشعةُ التى تهبُ الحياة عن الأرض فسَيَعُمُّ الموتُ والسكوتُ والظلامُ كلَّ مكانٍ خلال فترةٍ قصيرةٍ جدّاً.

كما أنّ نور القمرِ الجميلِ لايعتبر مصباحاً فى ليالينا الحالكة ودليلا؛ لقاطعى الصحراء ليلًا فقط، بل إنَّ نورَهُ اللطيف والمناسب يبعثُ الطمأنينةَ والنشاط لدى البشر بأسرهم.

ويرى بعضُ المزارعين أنّ (نور القمر) له دور حساس فى نمو الفواكه والنباتات أيضاً.

وطبعاً أنّ كل ما ذكرناه يختصُ بنور الشمس والقمر فقط، وسنقوم ببحث ما يخص بقية بركاتهما بشكلٍ مستقلٍ.

ثم يشيرُ القرآن الكريم في نهايـة هـذه الآيـة إلى احـدى البركات والفوائـد المهمّة لهاتين الكرتين السـماويتين حيث يضـيف: «وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ».

فالقمرُ بسيرِهِ المنَّظم، وحركته الدقيقة يُعتبر تقويماً واضـحاً وحيّاً وطبيعياً للغاية، تَسـهُلُ قراءَتُه على العالم والجاهل، ويُنَظِّمُ برامج حياته على اساسِهِ، ولو أمعّنا التفكير لوجدنامسألة تنظيم حياة الإنسان ترتبط بقوةٍ بحساب السنين والشهور ووجودِ تقويم طبيعيٍ، حيث يتكفلُ القمرُ والشـمسُ ودوران الأرض المنَظَّم حول نفسـها وحول الشـمس بانجاز هذا الدور، وأنَّ التقويمات الحالية التي نُظِّمت اسـتناداً إلى حسابات المُنجمِّين لا تنفعُ إلّاالـذين لديهم إمكانية فهمها، والتقويم الوحيد المفهوم والمعلوم والمفيد للجميع هو التقويم الطبيعي الذي يتوفر لدينا من حركة القمر، منذ مرحلة (الهلال) وحتى وصوله إلى مرحلة (البدر الكامل)، ومن ثمَّ إلى (المحاق)، ولو تفحَّصَ الإنسان قليلًا لاسـتطاع أنّ يُحـدِّدَ ليالي الشـهر من خلال ملاحظة حجم القمر، لأنَّ القَمَر لا يسـتقر على حالٍ واحدة في السماء على مدى ليلتين أبداً، ولعلَّ تنظيم العبادات الإسلامية وفقاً للأشهر القمريةِ نابعٌ من هذا الأمر.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٥١

وكل هذه الدوافع ادّت إلى أن يقولَ القرآن الكريم في نهاية هذه الآية: «يُفَصِّلُ الآياتِ لِقَومِ يَعْلَمُونَ».

والحديث في الآية الثالثة والرابعة عن تسخير الشمس والقمر للإنسان: «وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ».

بَيْدَ أنَّهُ عبَّر في الآيـة بكلمة «دائِبَيْن» أي (الحركة وفقاً لسُـنَّةٍ ثابتةٍ) «١» وفي الاـخرى ورد تعبير «كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسـمّىً» أيْ «إنَّ كُلًّا منهما يستمر في حركته إلى حدٍ مُعيَّنٍ».

وهذه الجملةُ تشيرُ إلى أنّ حركةَ الشـمس والقمر سـتنتهي على المدى البعيد، ويتغير نظام المنظومة الشمسـية بعد ملايين السنين، وهذا بحد ذاته أحد المعجزات العلمية للقرآن الكريم.

وفي الحقيقـةِ أنّ المقصود بحركـة الشـمس هو دوران الأـرض حول الشـمس طبعاً، لأنّ ما يظهر للعيان أنّ الشـمس هي التي تتحرك، حيث إنَّ الأرض في الواقع هي التي تُوجـدُ هـذا الشـعور لـدى الإنسان، إذ إنّ الشَّمسَ تتحرك باسـتمرار مع المنظومـةِ الشمسـية داخل المجرّات، وسوف نشير إلى ذلك لاحقاً.

والمقصود بتسـخير الشـمس والقمر وبقيـة الكائنـات التي يعتبرُهـا القرآن الكريم مسـخَّرَةً للإنسـان، هو أنّهـا تتحرك في مجال مصالح الإنسان وخدمته، فكما قُلنا سابقاً أنّ لضوءِ الشـمس والقمر دوراً مهماً في حياة الإنسان وكافة الكائنات الحيّة، لا سـيما ضياء الشمس إذ تسـتحيلُ الحياةُ على سطح الأرض بدونه لحظةً واحدةً، وحتى في الليالي المُظلمة فاننا نستفيدُ من الحرارة المتبقية عن ضوء الشمس في الأرض والجو ولولاها لانجمـدت الكائنات الحيَّةُ بأسرها، إضافـةٍ إلى الفوائد الاخرى كالمدِّ والجَزرِ في المحيطات، فهو مصدرٌ للكثير من الخدمات، وسنشير إلى ذلك في بحث آياته في البحار- إن شاء اللَّه-، وكذلك وضع تقويمٍ طبيعي وخدمات اخرى

---

(١) «دائبين» من مادة «دؤوب» وتعني استـمرار العمل وفقاً لعادةٍ وسُـنَّةٍ دائمـةٍ وهو تعبيرٌ للحركـة المنظمة والمتَسّعةللشـمس والقمر، ولا يُعتقدُ بوجودِ تعبيرٍ أفضلَ من هذا التعبير.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٥٢

وبلا شك فإنّ ما نعرفه اليوم من بركاتِ الشـمس والقمر أكثر ممّا كان يعرفه السالفون والمخاطَبون بهذه الآيات عند نزولها، ولهذا فانَّ دروس التوحيد التي نقرأها على صـفحاتها أكثر ممّا كان يقرأُه السابقون، لهذا يقول في نهاية هذه الآية: إنّ ربَّكُم هو الذي سـخَّر لكم كلَّ هذه الموجودات، أمّا الذين تدعونَ من دونه فهم لا يملكون الحكمَ والمُلكَ في هذا العالم بقدَرِ قشـرةِ نواة التمر: «وَالَّذِينَ تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيْرٍ» «١»

.

وقد عبرت الآيـة الخامسـة بصـراحةٍ عن خلقِ الليل والنهار والشـمس والقمر ووصـفت هذه الظاهرة بأنَّها من آياته، إلّاأنَّهُ يأمُرُ فى نفس الوقت بضـرورة عدم الاعتقاد بانَّ هذه هى الإله كما يتصور عبدة الشـمس والقمر .. كلا ..: «لَاتَسْـجُدُوْا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُوْنَ».

وهنا نرى الدقـة التى يتحدث بها القرآن الكريم، إذ إنّ ذكر القوائد المختلفة للشـمس والقمر والليل والنهار وكافة الموجودات فى هذا العـالم من شـأنه أن يترك أثراً فى أذهـان ذوى العقول الضـيقة ويتصورون بـأنّهم مـدينون للنعم التى اسـبغتها عليهم هـذه الموجودات فيسجدون لها ويخضعون ويعظمونها، وهذا ما ابتلى به الوثنيون على مر التاريخ، لكن القرآن يقول لهؤلاء: افتحوا أعينكم جيداً وانظروا بدقّة وتبحر، وعندها سترون من وراء الحجب العلل، وسترون الذات القدسـية لعلة العلل وعندها سوف تعفرون جباهكم بالسـجود إليه وسوف لن تخدعكم أو تضلكم هذه المظاهر.

ويتحدث فى الآيتين السادسةِ والسابعةِ عن حركة الشمس والقمر ومنازلهما، ويصرَّحُ

---

(١) «القطميرُ»، بتعـبير بعض المفسِّرين هـو القشـر الخفيف الـذى يغطى نواة التمر، ويقول البعض إنّه النتوء الصـغير الموجود خلف نواة التمر، وعلى اية حالٍ فهو كنايةٌ عن موجودات متصاغره ودنيئة.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٥٣

فى نهاية هاتين الآيتين بأن كلًا من هذين الجُرمين يسبح فى فلكهِ ومداره وخطه: «وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» «١»

، وهذه التعابير من عجائب القرآن من ناحيةٍ، ومن عجائب عالم الخلقِ وعلم وقدرةِ البارى تعالى من ناحية اخرى

وتوجد هنا عدةُ تفاسير لما تَعنيه جملة «وَالشَّمْسُ تَجْرِى» ومفهوم «لِمُسْتَقَرٍ لَهَا».

اولها: إنّ المقصودَ هى الحركة الظاهرية للشـمس التى تبدأ منذ شـروق الشـمس وحتى اسـتقرارها عند الغروب، حيث يظهر للعيان أنّها تختفى (ونعلمُ جيداً إنَّ حركة الأرض حول نفسها هى التى تُجسدُ لنا مثل هذه الظاهره فى الواقع).

الثانى: إنّ المقصود هى حركات الشـمس المحوريه، حيث تنحرف نحو الجزء الشـمالى للكرة الأرضـية مع بداية فَصل الربيع، وتسـتمر هـذه الحركـة حتى بداية فصل الصـيف حيث تسـتقر (فى النصف الشـمالى للكرة الأرضـية) محاذية لمدار السـرطان ٢٣ شـمالًا وهو ما يصـطلح عليه بالميل الاعظم الشـمالى، ثم تبدأ حركتها نحو الجنوب وتصل إلى محاذاة خط الاستواء أوائل فصل الخريف، ثم تنحرف نحو جنوب الكرة الأرضـية، وتستمر هذه الحركة حتى بداية فصل الشتاء حيث تصل إلى محاذاة مدار رأس الجدى ٢٣ جنوباً ويعبّرون عن هذا الانحراف بالميل الأعظم الجنوبى، ثم تبدأ حركتها نحو الشمال وتكون بمحاذاة خط الاستواء فى فصل الربيع.

بنـاءً على ذلـك فـانَّ المقصـود من جريـان الشـمس هو هـذا الانـحراف نحو الشـمال والجنوب، والمقصود من المسـتقر هو آخر نقطةٍ للانحراف الجنوبى والشمالى أى (مدار رأس السرطان ومدار رأس الجدى).

والمعروف (طبعاً) أنّ هـذه الحركةَ ناتجةٌ عن دوران الأرض حول الشـمس ومع الأخذ بنظر الاعتبار انحراف محور الأرض بمقدار ٢٣، ولكن ما يبدو لنا هو أنّ الشمس لها مثل هذه الحركة.

الثالث: المقصود هو الحركة الموضعية للشمس حول نفسها، فقد ثبت اليوم أنّ الشمس

---

(١) «يسبحون» من مادة «سباحة» وتعنى الحركة السريعة فى الماء أو الهواء (مفردات الراغب).

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٥٤

تـدور حول مركزها أيضاً (إذ ذكَرُوا أنّ مدّة هذه الحركة فى دورة كاملةٍ تعادل ٢٥ يوماً ونصف اليوم)، وفى هذه الحالة ستَكون اللام فى «لِمُسْـتَقرٍ لَهَـا» بمعنى (فى) أى أنّ الشـمس تتحرك فى مكانهـا (وطبعـاً فقـد اشـكَلَ بعض المفسّـرين على هـذا التفسـير باعتباره لا

يتناسب مع مفهوم كلمة جريان).

الرابع: المقصود هو حركة الشمس في أبراج السماء على مدى أشهر السنة، والتي تقابل في كل شهر أحد هذه الصور الفلكية الاثنا عشر ومن هنا تظهر السنة باثنتي عشر شهراً بعدد هذه الابراج «۱»، وعليه فانَّ المقصود من المستقر هو نهاية هذه الدورة.

الخامس والسادس: الحركتان اللتان اكتشفهما العلماء مؤخراً للشمس، إحداهما مع مجموعة المنظومة الشمسية في دورتها حول مجرتنا التي تأخذها باتّجاه إحدى الصور الفلكية المعروفة ب (صورة الجاثي) الواقعة في جهة الشمال بالنسبة للشمس، إذ تقطع أثناء هذه الحركة أكثر من (۶۰۰ مليون كم سنوياً) وهذا ما يشبه تماماً جلوس مجموعةٍ في طائرةٍ وانشغالهم بالدوران حول مركزٍ واحدٍ بينما تسير الطائرة بسرعةٍ نحو اتجاهٍ ما، وقد تكون حركةُ الطائرة هادئة وخفيفة بالقدر الذي لا يحس الإنسان بهذه الحركة السريعة.

والحركة الاخرى هي دوران المنظومة الشمسية مع بقية المجرّات حول المركز الأصلي لهذه المجرّات التي ترتبط بها، وممّا يثير العجب فقد ذكروا أنّ سرعة هذه الحركة المذهلة تقدر ب ۹۰۰ الف كيلو متر في الساعة (بل أكثر من ذلك قليلًا) «۲».

وطبقاً لهذا التفسير فانَّ المقصود من المستقر هو المستقر الذي تبلغه الشمس عند نهاية العالم وحلول القيامة، حينها تصبح الشمس بلا ضياءٍ ويزول نظامها.

و (طبعاً) لا تتعارض هذه التفاسير مع بعضها، فيمكن أن تجتمع كلُ هذه التفاسير الستة

---

(۱) المقصود من «البرج» هنا مجموعة النجوم المتجمّعة والتي تكوِّنُ شكلًا خاصاً، والابراج الاثنا عشر كما يلي: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت.

(۲) راجعوا كتاب العوالم البعيدة، ص ۲۹۳؛ وتسخير النجوم، ص ۳۹۲.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۵۵

في مفهوم هذه الآية، لأنّ حركة كل من الأرض والشمس ليست نوعاً واحداً.

وتعبير «يُسبِّحون» تَعبيرٌ لطيفٌ حيث يعبّر عن حركة الشمس والقمر السريعة والرقيقة والمتوازنة في نفس الوقت.

وذكر في الآيات أعلاه منازل معينة للقمر حيث قال: «وَالقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنازِلَ».

والمقصود تلك المنازل الثمانية والعشرون التي يطويها القمر كل شهر منذ بداية مرحلة الهلال وحتى المحاق (الظلام المطلق)، وفي الليلة الثامنة والعشرين يظهر ثانيةً على هيئة هلالٍ أصفر رفيع جدّاً وقليل الاشعاع والنور ويبقى ليلتين حيث يقال له (محاق) إذ تتعذر رؤيتُه.

ويشبِّهُ القرآنُ الكريمُ هلال آخر الشهر ب «العُرجُونِ القَدَيم» «۱»

، وهذا التعبيرُ لطيفٌ وجذّاب للغاية من عدة وجوه.

ونختتم هذا البحث الذي قد طال بعض الشيء بذكر هاتين المسألتين:

أولًا: إنّ المقصود من الفلك في الآيات المذكورة هو المعنى اللغوي وليس المعنى الذي يقصده علماء الفلك في قديم الزمان، لأنّ الفلك في اللغة يعني مدار النجوم، وأحياناً يقال لكل موجود يشبه الدائرة ويكون عالياً من أطرافه.

ويعتَقد «الراغب» أنّها في الأصل من مادة «فُلْك» (على وزن قُفْل) والتي تعني «السُفن»، لأنَّ السفن لها حركات دائرية أثناء مسيرها في البحار.

ولكنَّ المنجمين القدامى سلكوا نهج بطليموس إذ كانوا يعتقدون أنّ السماء تتألف من تسعِ طبقاتٍ مركبة بعضها فوق بعض كقشرة البصل، ولأنَّ هذه الطبقات تتكون من مادةٍ شفّافةٍ كالبلّور فقد التَصَقت النجوم والكواكب في وسطها وتدور مع دوران الافلاك فيظهرُ دوران النجوم فقط، ولا يظهرُ شيءٌ من دوران الأفلاك، وقد بَطُلَ هذا الاعتقاد بنحوٍ كاملٍ اليوم، واصبح من المسلَّم به أنّ النجوم

معلقةٌ فى فضاءٍ غير محدودٍ وتتحرك تحت تأثير

---

(۱) «العرجون» من مادة «انعراج» أى الاعوجاج والانحناء، ويصفه البعض بذلك القسم من القرن المقوَّس الذىيتبقى على النخل بعد قطف التمر، و «القديم» تعنى العتيق.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۵۶

قانون الجذب والدفع فى مسيرةٍ معينةٍ، والجدير بالذكر أنّ القرآن الكريم نزلَ فى زمانٍ كانت تحكُم فيه نظريةُ بطليموس على جميع المحافل العلمية بكل قوةٍ، إلّاأنّ تعابير القرآن (كالتعبير ب «الجريان» و «السباحة» التى وردت فى الآيات أعلاه) لا تتلائم مع النظرية القديمة بايِّ نحوٍ وتتطابق مع آخر الاكتشافات العلمية فى هذا العصر.

وورد فى الآيتين الثامنة والتاسعةِ (أَيْمَانٌ) تَبعثُ على التأمل فيقول فى إحداهما: «فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ المَشَارِقِ والمَغَارِبِ»، فيمكن أن يكون هذا التعبير إشارة إلى المشارق والمغارب و «المكانية» المختلفة، لأنَّ كروية الأرض تؤدى إلى وجود مشرقٍ ومغربٍ بعدد نقاط سطح الأرض، أو أن يكون إشارة إلى المشارق والمغارب «الزمانية»، لأننا نعلم أنّ حركةَ الأرض حول الشمس تؤدى إلى استحالةِ شروق الشمس وغروبها من نقطةٍ واحدةٍ خلال يومين متتاليين.

هذا الاختلافُ فى المشارق والمغارب الذى يتمّ من خلال نظامٍ دقيقٍ ومنهجى سبّب فى حدوث «الفصول الاربعة» بما فيها من بركات من جهةٍ، ومن جهةٍ اخرى فهو يؤدّىموازنة الحرارة والبرودةِ والرطوبةِ على سطح الأرض، ويمنحُ حياةَ الإنسان والحيوانات والنباتات نظاماً وترتيباً، وكلٌّ منها آية من آيات اللَّه وبرهان من براهينه.

وفى مكانٍ آخر يُقسمُ بالقمر «كَلَّا وَالقَمَرِ* واللَّيلِ إِذْ أَدْبَرَ* وَالصُّبحِ اذَا اسْفرَ» ثم يضيف: أنّ هذه الأَيْمانُ تُنبىءُ عن تحذيرٍ فى أمر المعاد فيقول: «إنَّ أحداثَ القيامةِ وجهنَّم من عظيمات الامور «إِنَّها لِإحْدى الكُبرِ»» «۱».

واقْسَمَ فى بداية سورة الشمس بالشمس أيضاً، واشعتّها التى تُحيى الأرواح، والقمر الذى يبزغُ بعد غروب الشمس.

---

(۱) يقول الفخر الرازى: «إنَّ جهنَّم لها سبع مقاماتٍ ودركاتٍ وهى كما يلى، جهنَّم، ولظى والحطمة، والسعير، وسقر، والجحيم، والهاوية» (تفسير الكبير، ج ۳۰ ص ۲۰۹).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۵۷

وهذا ما نفهمه أيضاً بأنَّ القَسَمَ بشىء ما يدلُ على أهميته الخاصة، وإذا صدر هذا القَسَمُ عن شخصٍ عظيمٍ ستتضاعف اهميتُه، وإذا اقسِمَ بِهِ مِنْ أجل موضوعٍ مهمٍ ستزدادُ أهمية هذا الموضوع أيضاً.

والآن تأمّلوا جيداً عندما يُقسم البارى جلَّ وعلا بالشمس والقمر من أجلِ مسألةِ المعاد المهمّة، فهذا دليلٌ على العظمةِ الفائقة لهذين الكوكبين، ويشهد على هذه الحقيقة كون أن كلًّا من هذين الكوكبين ذو أهميةٍ فى نظر القرآن الكريم.

فلماذا يُقسمُ البارى تعالى بكواكب السماء واللّيلِ والنهار من أجل اثباتِ القيامة والحساب؟ وذلك لأنَّ النظام الحاكم على هذه الاشياء يبرهنُ على أنّ لجميع ذرات العالم حساباً خاصاً، بناءً على ذلك كيف يمكنُ أن تكون أعمال الإنسان الذى هو زهرةُ عالم الوجود بلا حسابٍ ولا كتابٍ، ولا وجود للمعاد والمحكمة العادلة؟.

وجاءت الآية العاشرة الأخيرة فى بحثنا هذا عن نعمةِ وجود النجوم والنظام الدقيق الذى يحكمها فيقول: «وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهتَدوُا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالبَحرِ» ثم يضيفُ: «قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَومٍ يَعْلَمُونَ».

لقد كانت النجوم دائماً وعلى مدى مراحل التاريخ من أهم وسائل ارشاد الإنسان فى الليالى المظلمة، حيث كان يهتدى بمساعدتها فى أسفاره البحرية والبرّية، حتى أنّ بعض العلماء يظنون أنّ الطيور المهاجرة، أى الطيور التى تقطع آلاف الكيلو مترات فى السنة أحياناً،

وبعضُها يستمر فى طيرانه ليلًا ونهاراً بلا توقفٍ، تحدد طريقها نهاراً عن طريق الشمس، وليلًا عن طريق نجوم السماء، ولهذا فانّها تتوقف عن مواصلة الطيران مؤقتاً إذا كان الجو غائماً تماماً حتى تنكشفَ الغيوم وتظهر السماء والنجوم!

والعجب إنّ إمكانية تحديد فصول السنة أيضاً من خلال الاستفادة من النجوم.

على أيّةِ حالٍ، فانَّ هذه الآية تُلفتُ نظرَ كلِّ المفكّرين إلى هذه المسألةِ وهى أنّ حركة

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۵۸

النجومِ فى السماء واستقرارها فى هذا الميدان العظيم تتمتع بنظامٍ وحسابٍ خاصٍ، وإلّا لما استطاعَ أيُّ أحدٍ العثور على طريقهِ فى ظلمة الليل من دونها.

وهذا النظام يدل على أنَّ الخالق المدبِّر قد خطَّطَ له بكل حكمةٍ، ولهذا فانَّ النظام السائد على نجوم السماء هو الذى يُحررنا من ظلماتِ الشرك والكفر أيضاً!.

ومع تطور علم الفَلَك، فقد نجح العلماء فى تقدير سرعة الكثير من كواكب السماء، وحجمها ومسافاتها وبقية خصائصها، وتوصلوا عن هذا الطريق إلى حقائق جديدة عن هذا النظام العظيم.

صحيحٌ قد تم اختراعُ آلاتِ ووسائلَ دقيقةٍ يستطيعُ الإنسان بمساعدتها أن يعثر على طريقه فى البر والبحر، ولكن لا ينبغى نسيانُ عدم إمكانية استخدام جميع المسافرين لهذه الوسائل العلمية المتنوعة، إضافة إلى حدوث الخلل فى هذه المعدات والآلات الدقيقة أحياناً ممّا يسبب الانحراف عن الطريق، فإذا كان الإنسان مطلعاً على مواقع ومواضع النجوم يستطيعُ من خلال ذلك إصلاح اخطاء هذه المعدات.

ورد فى بعض الروايات تفسيرٌ آخرٌ لهذه الآية عن أهل البيت (عليهم السلام) يمكنُ أن يُعدَّ جزءً من المعانى الباطنيةِ والثانويةِ لهذه الآية، وذلك أنّ المقصود من «النجوم» هم القادةُ الربانيّون والأئمّة المعصومون الذين ينجو الناسُ بهم من ظلمات الحياة كما ورد فى تفسير على بن إبراهيم فى بيان معنى الآية: «وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» حيث قال: «النجوم هم آل محمد» «(۱)»

، و طبعاً- من المستطاع الجمعُ بين هذين المعنيين، أى النجوم الماديّة والنجوم المعنوية والهداية الظاهرية والباطنية.

توضيحات

۱- هوية الشمس

لقد اتّضح لنا اليوم تقريباً أنّ الشمسَ عبارة عن كرةٍ، وأنّها أكبر من الأرض بمليون

(۱) تفسير نور الثقلين، ج ۱، ص ۷۵۰ ح ۲۰۳.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۵۹

وثلاثمائة الف مرّة، أى لو كانت الشمس مقعَّرةَ الوسط لكان من الممكن أن تستوعب مليوناً وثلاثمائة الف كرةٍ أرضيةٍ! وتتضح هذه العظمة المذهلة من خلال التأمل فى قُطر الشمس عند الوسط الذى يقرب من (مليون وأربعمائة الف كيلو متر).

وتبلغ الفاصلة بيننا وبينها ۱۵۰ مليون كيلومتراً تقريباً، وأنَّ نورها الذى يقطعُ طريقهُ بسرعةِ ۳۰۰ الف كيلومتر فى الثانية يصل إلينا خلال ۸ دقائق تقريباً.

إنّ جُرمَ الشمس العظيم يؤدّى إلى زيادة وزن الأشياء فيها، فمثلًا إنَّ الإنسان الذى يبلغُ وزنُه ۶۰ كيلوغراماً على سطح الأرض سيكون

وزنه ١٥٠٠ كغم فيما إذا كان على سطح الشمس!.

لقد قدَّر العلماء وزن الشمس بما يعادل:

٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠، ٢ طن.

وأخيراً فهُم يُقدِّرون عمر الشمس منذ تكونها بشكلها الحالى بما يقارب ٥ مليارات سنة.

إنَّ للشمس ثلاثة انواعٍ من الحركة تقريباً، حركةٌ حول نفسها (كلَّ ٢٥ يوماً مرّة واحدة تقريباً، وحركةٌ مع المنظومةِ الشمسية فى قلب المجرّات نحو الصورة الفلكية (الجاثى) حيث تبتعد عن مكانها أكثر من ٦٠٠ كم كل ساعة، وحركةٌ حول مركز المجرّات، وتدور حول هذا المركز خلال هذه الحركة مرّة واحدة كل ٢٥٠ مليون سنة.

أَما حرارةُ سطح ومركز الشمس فهى عجيبةٌ للغاية، وتُبينُ حسابات العلماء أنّ حرارة سطح الشمس تعادل ٦٠٠٠ سانتغراد تقريباً، ولا تحصل هذه الحرارة على الأرض فى أيِّ مختبرٍ أو فرنٍ أبداً، ودليلُ ذلك واضحٌ جدّاً لأنَّ جميع المواد بطيئة الذوبان التى نعرفها والتى يمكن بناء فرنٍ منها لا تذوب فى مثل هذه الحرارة فقط، بل تصبحُ بخاراً، ولهذا فانَّ جميع المواد الموجودة على سطح الشمس ذائبةٌ على هيئة بخار.

والأعجبُ من ذلك حرارةُ عمقها التى تبلغُ ٢ مليون درجة سانتِغراد! وتندلعُ من سطح الشمس ألسنةُ نيران يبلغُ ارتفاعها أحياناً ١٦٠ الف كم، ومن السهولة أن تضيع الكرةُ

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٦٠

الأرضية فيها (لأنّ قطر الأرض ليس أكثر من ١٢ ألف كيلو متر).

إنَّ هذه الحرارة لا تحصل بسبب الاحتراق، وإلّا لو كانَ جرم الشمس قد صُنِعَ من الفحم الحجرى الخالص لانتهت تماماً على مدى عدةِ آلاف من السنين كما يقول «جورج غاموف» فى كتاب «تكوُّن وموت الشمس»، ولا يبقى شىء سوى الرَّماد. فالحقيقة أنّ مفهوم الاحتراق لا يصدقُ بخصوص الشمس وما يصدقُ هو الطاقة الناتجة عن الانشطار النووى، ولكن بهذا الحال وطبقاً للحسابات العلمية فانَّ كلَّ ثانيةٍ تمرُّ على الشمس ينقصُ من وزنها ٤ ملايين طن، أى إنَّ هذا المقدار من ذراتها يتحول إلى طاقةٍ، فبالرغم من أنّ هذا الأمر ليس له تأثيرٌ على المدى القريب، إلّاأنّه من المسلَّم به سيساعدُ فى فناءِ الشمس على المدى البعيد، وهذا ما صرَّحَ به القرآن الكريم فى آياته، حيث سيأتى اليوم الذى ينطفىءُ هذا المصباح السماوى العظيم المنير «١».

٢- البركات العظيمة للشمس

مهما تحدثنا حول فوائد وجود هذا النجم السماوى وتأثيره البالغ فى حياة الإنسان وبقية موجودات الأرض، فإننا لا نستطيع أن نفى بالغرض، وفى الحقيقة يمكنُ تأليف كتابٍ كبيرٍ فى هذا المجال بالترتيب التالى:

١- إنّ جاذبيةَ الشمس تؤدى إلى دوام استمرار الأرض فى دورانها فى مدارها الثابت وإلّا لسقطت فى إِحدى زوايا هذا الفضاء اللا متناهى ككُرةٍ مضطربة.

٢- إنّ الحرارة التى تصلنا من الشمس بصورة مباشرة نهاراً والتى تخزن فى الأجسام وتنعكس علينا ليلًا، لها تأثير فى نمو النباتات وديمومة الحركة والحياة لدى الحيوانات.

٣- إنَّ الشمسَ تَضعُ فى خدمة الإنسان نوراً سليماً ومجانياً وغَير حارٍ أو مُحرقٍ ولا

---

(١) اقتباس من كتب ١- تركيبات الشمس، ٢- نجوم بلا منظار، ٣- تكوُّن وموت الشمس، ٤- تاريخ العلوم، ٥- من العوالم البعيدة، ٦- الإسلام والهيئة.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۶۱

باردٍ وخالٍ من الأثر، بشكلٍ دائم، وإذا قارنّا قيمـة الطاقـة التى نحصل عليها من الشـمس مع قيمـة مصادر الطاقة الاخرى فلابدّ أنْ تدفعَ البشـرية اموالًا عِوَضـاً عن النور والحرارة التى تسـتلمها من الشـمس مقارنـةً مع ثمن «الكهرباء» بمقـدار (ملياراً و ۷۰۰ ألف دولاـر كل ساعة).

عندئذٍ يجب أن نفكِّرَ كم ستكون هذه الميزانية على مدى سنةٍ كاملةٍ؟

وبتعبيرٍ آخر، لو أرادَ أهـلُ الأـرض تـأمين الحرارة التى تمنحُهـا إيّاهم الشـمس، عن طريق شـراء الفحم الحجرى فيجب عليهم توفير ۶۱ الف مليار طن منه سنوياً، أو بعبارة اخرى توفير ۲۰ ألف طن لكل شخص، أىّ تأمين ميزانيةٍ باهضة.

۳- نحنُ نعلمُ أنّ ضوء الشمس يتركبُ من ۷ ألوان مُزجت مع بعضـها وظهرت على هيئة هذا النور الأبيض والشعاع الحالى، وهذا النورُ يُعتَبرُ عاملًا مساعـداً للنباتـات حيثُ يمتصُ غـاز ثـانى اوكسـيد الكاربون من الجو ويطرحُ فى المقابل غاز الاوكسـجين الـذى هو عِمادُ حياتنا، فهو يساعد النباتات فى نموها بسحب ثانى اوكسيد الكاربون.

ونحنُ نميزُ الأشـياء حسب العـادةِ عن طريق ألوانهـا، وهـذه الأـلوان تحصـلُ فى شـعاع الشـمس، لأـنَّ كلَّ موجودٍ يقوم وحسب تكوينه بامتصاص جانبٍ من ألوان الشـمس فنطلقُ على اللون الذى لم يُسـحبْ لونَ الشـىء، أى أنّ الورق الأخضر للنباتات يمتص جميع ألوان الشمس عدا اللون الأخضر، إذن فنورُ الشمس هو الذى يُظهرُ جميع الألوان.

۴- إنَّ الاشـعةَ فوق البنفسجية والتى هى من اشعاعات الشمس تُفيدُ فى القضاء على ۹۰ خ من الجراثيم، وتقوم بـدورِ منعِ التعفن بنجوٍ تام، ولولاها لتبدَّلت الأرضُ إلى مستشـفىً كبيرٍ، ولعلَّ أشـعةَ الشمس اعتبرت لهذا السبب من المطهرّات فى الإسلام «مع شروط خاصةٍ طبعاً».

۵- لقد اسـتطاعَ العلماءُ من خلال اسـتخدامهم للعدسات المحدبة الفخمة من توليد حرارةٍ هائلةٍ بامكانها تشغيل المصانع المهمّة، ولعل الكثير من المؤسسات الصناعية الحسّاسة سيتم تَشغيلها فى المستقبل القريب بالاستفادة من نور الشمس، وتحلُّ الطاقةُ

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۶۲

الشمسية عندئذ محلَّ الكهرباء فى البيوت.

۶- إنَّ تكوُّنَ الغيوم نتيجـةً لسـقوط أشـعة الشـمس على سـطح المحيطات وهبوب الرياح نتيجةً لاختلاف درجات الحرارة على الأرض بسـبب أشـعة الشـمس، ثم حركـة الغيوم نحو اليابسـة وهطول الأمطار التى تبعث الحياة، هى احـدى الفوائـد المهمّة للغاية لنور وحرارة الشمس.

۷- إنّ حركـة الشــمس المنظمـة فى أبراج الســماء (الصـور الفلكيـة) وشــروقها وغروبهـا المنهجى الّذى يجرى بنظـام وتعـاقب دقيقٍ ومحسوبٍ على مدى أيام السنة، إضافةً إلى مساعدتها فى تكوين الفصول المتعددة، فهى تساعد فى إيجاد تقويمٍ وحسابٍ منظمٍ للزمان الضرورى جدّاً للحياة الاجتماعية للبشر «۱».

۳- القمر وبركاته

إنَّ القمر كوكبٌ صـغيرٌ نسبيـاً فهو اصـغر من الأرض ب (۴۹ مرَّة) وفقـاً لحسابات العلماء، لهـذا فانَّ قوة جاذبيته تعادل ۶ ۱ قوة جاذبية الأرض، ومتوسط بُعده عن الأرض أكثر من ۳۸۴ الف كيلومتر، لذلك فانَّ نور القمر يصل إلينا خلال أكثر من ثانيةٍ واحدةٍ بقليل.

وتَبلغ سرعةُ حركته فى دورته حول الأرض كيلو متراً واحداً فى الثانية، ويدور حول الأرض مرّة واحدة على مدى شهرٍ قمرىٍّ واحد أى «أكثر من ۲۹ يوماً بقليلٍ»، ويـدور حول نفسه أيضاً مرّةً واحـدةً خلال نفس هذه الفترة، وبما أنّ هاتين الحركتين متناسـقتان فإنَّ جانب القمر الـذى يقابـل الأـرض يكون ثابتاً على الـدوام، ولا عجبَ إذا قُلنا إنَّ نورَ القمر حين اكتمالِهِ ليلـة البـدر أقلُ من ضوء الشـمس ب

(۴۶۰) ألف مرّة، إلّاأنّ هذا النور الضئيل

---

(١) فكما قلنا إنَّ السبب الرئيسى لحصول هذه الامور هو فى الواقع دوران الأرض حول الشمس، ولكن بما أنّ حركة الشمس هى التى تُرى كسببٍ لهذا حسب الظاهر، فإنّ القرآن الكريم يعتبر كلا من الشمس والقمر (حسبان) أى (وسيلةً للنظام والحساب)- الأنعام، ٩۶.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١۶٣

يضىء الليالى المقمرة، ويظهر كمصباحٍ جميلٍ كثيف الشعاع ومُريح للفؤاد وبمنظرٍ شاعرىٍّ محبَّب.

ولم تكن الإشارة إلى القمر فى الآيات السابقةِ فقط، فقد تمت الإشارة إلى القمر وبركاته وفوائده فى آياتٍ كثيرةٍ من القرآن الكريم، ووردَ القَسَمُ به فى آياتٍ اخرى أيضاً، وجاء الحديث عن «القمر» فى ما مجموعه ٢٧ آية من القرآن الكريم، واشيرَ إلى تسخير القمر فى سبع آياتٍ من هذه الآيات التى تُبيِّنُ أهميّة فوائده فى حياة البشر «١».

إنَّ فوائد وبركات القمر كثيرةٌ للغاية، حيث نشير هنا إلى عددٍ منها:

١- إنّ دوران القمر حول الأرض يُشكِّلُ تقويماً طبيعياً لطيفاً، وقد مرَّ شرحُهُ فى الأبحاث السابقة.

٢- إنّ الضياء المناسب الذى يمنحه القمر بالرغم من أنّه لا يزيل ظلمةَ الليل كُليّاً (ولا ينبغى أن يزيلها لأنَّ نفس الظُلمةِ لها فلسفة مهمة)، ولكن يُمكن أن يساعد الإنسان إلى حدٍ ما فى الكثير من الليالى على اكتشاف طريقه فى المدن والصحارى والبحار، لا سيما أنّ نور القمر مناسبٌ وملائم بحيث لا يزعجُ الإنسان والموجودات الاخرى أثناء النوم والراحةِ ليلًا، بل يشعر الإنسان باطمئنان خاصٍ من خلال نور القمر.

٣- إنّ مسألةَ المدِّ والجزر فى البحار إحدى الآثار البارزة لوجود القمر، فالذين ذهبوا إلى البحار كان بامكانهم ملاحظة هذا الأمر فى الليل والنهار حيث يرتفع وينخفض منسوبُ المياه مرّتين كل يوم، ويُعبَّرُ عن ذلك بالمد والجَزر، ويستمر كلٌّ منهما لمدة ۶ ساعات تقريباً.

فأثناء المدِّ يرتفعُ منسوبُ المياه ويغطى معظم سواحل البحر، وخلال الجزر تنكشف سواحل البحار.

ولهذا المدّ والجزر فوائد مهمّة فى حياة البشر منها: تراجع مياه الأنهار التى تصب المياه العذبة فى البحار ممّا يؤدّى إلى رى الأراضى الواسعة عن طريق ذلك كما يشاهد فى بساتين

---

(١) الاعراف، ۵۴؛ الرعد، ٢؛ ابراهيم، ٣٣؛ النحل، ١٢؛ لقمان، ٢٩؛ فاطر، ١٣؛ الزمر، ۵.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١۶۴

النخيل الساحلية الواسعة فى خوزستان.

ومن الفوائد الاخرى للمد والجزر هى حركة المكائن فى المصانع ونشاط المولدات الكهربائية، وكذلك الإبحار، حيث إنّ السفن الكبيرة تستطيع خلال المد أن ترسو فى معظم السواحل حيث يتمّ تحميل وتفريغ حمولتها، وتنظيف الموانىء، وصيد الأسماك، وتحريك مياه البحر وموازنة حرارته ومركباته أيضاً وامور اخرى «١».

۴- الشمس والقمر فى كلام الأئمّة المعصومين عليهم السلام

عندما تقع عين الإمام السجّاد عليه السلام على القمر فهو يخاطبه، وهذه الكلمات درسٌ فى التوحيد ومعرفة اللَّه حيث يقول:

«أيها الخلق المطيع! الدائب السريع المتردّد فى منازل التقدير المتصرف فى فلك التدبير، آمنت بمن نوَّر بك الظلم، وأوضح بك البُهم، وجعلك آية من آيات ملكه، وعلامة من علامات سلطانه ... سبحانه ما أعجب ما دبّرَ فى أمرك، وألطف ما صنع فى شأنك

جعلك مفتاح شهر حادث لامرٍ حادث ...» «٢».

وفى توحيد المفضّل عن الإمام الصادق عليه السلام:

«فكّر يا مفضل فى طلوع الشمس وغروبها لاقامة دولتى النهار والليل، فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كلّه فلم يكن الناس يسعون فى معايشهم، ويتصرّفون فى امورهم، والدنيا مظلمة عليهم ولم يكونوا يتهنأون بالعيش مع فقدهم لذة النور وروحه، والإِرب فى طلوعها ظاهر مستغن بظهوره عن الإِطناب فى ذكره، والزيادة فى شرحه، بل تأمّل المنفعة فى غروبها، فلولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع عظم حاجتهم إلى الهدوء والراحة ...

---

(١) اعجاز القرآن فى نظر العلوم المعاصرة، ودائرة المعارف للمصاحف وكتب اخرى

(٢) بحار الأنوار، ج ٥٨، ص ١٧٨، ح ٣٦.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٦٥

ثم فكر بعد هذا فى ارتفاع الشمس وانحطاطها لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة وما فى ذلك من التدبير والمصلحة ...

فكّر الآن فى تنقل الشمس فى البروج الاثنى عشر لإقامة دور السنة ... وفى هذا المقدار من دوران الشمس تدرك الغلات والثمار، وتنتهى إلى غاياتها، ثم تعود فيستأنف النشوء والنمو ...

انظر إلى شروقها على العالم كيف دّبر أن يكون، فانّها لو كانت تبزغُ فى موضع من السماء فتقف لا تعدوه لما وصل شعاعها ومنفعتها إلى كثير من الجهات.

أفلا يرى الناس كيف أنَّ هذه الامور الجليلة؟ التى لم تكن عندهم فيها حيلة صارت تجرى على مجاريها، لا تعتل ولا تتخلف عن مواقيتها لصلاح العالم وما فيه بقاؤه؟

استدلّ بالقمر، ففيه دلالة جليلة تستعملها العامة فى معرفة الشهور، ولا يقوم عليه حساب السنة ... فكّر فى انارته فى ظلمة الليل والإرب فى ذلك، فانّه مع الحاجة إلى الظلمة لهدوء الحيوان وبرد الهواء على النبات لم يكن صلاح فى أن يكون الليل ظلمة داجية لا ضياء فيها فلا يمكن فيه شىء من العمل، لأنّه ربّما احتاج الناس إلى العمل بالليل لضيق الوقت عليهم فى تقصّى الأعمال بالنهار، أو لشدّة الحر وافراطه ... وجعل طلوعه فى بعض الليل دون بعض، ونقص مع ذلك من نور الشمس وضيائها لكيلا ينبسط الناس فى العمل انبساطهم بالنهار، ويمتنعوا من الهدوء والقرار ...) «١».

---

(١) بحار الأنوار، ج ٥٥، ص ١٧٥، ح ٣٦ «مع الاختصار».

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٦٧

٩- آياتُهُ فى خلقِ الليل والنهار

تمهيد:

بالرغم من أنّ الليل والنهار من الظواهر التى تحصل نتيجة لضوء الشمس وحركة الأرض، ويعتبران من بركاتهما، لكن نظراً لاهتمام القرآن بهما فى آيات التوحيد بشكلٍ خاص، واستناده إلى هاتين الظاهرتين فى الكثير من الآيات، لذلك من الواجب الاهتمام بهما بشكل مستقل، كى نرى فيهما آيات تلك الذات غير المعلومة، ونتعرفُ أكثر على خالقِ وإله عالم الوجود، ونزداد حباً له، ونتشرف بالنظر إلى حضرته المقدَّسة.

بعد هذا التمهيد نقرأ خاشعين الآيات الاثنتى عشرة الآتية:

١- «وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ». (الانبياء/ ٣٣)

٢- «يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِى الأَبْصَارِ». (النور/ ٤٤)

٣- «هُوَ الّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسكُنُوا فِيْهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إنَّ فِى ذَلِكَ لَآياتٍ لِّقَوم يَسْمَعُونَ». (يونس/ ٦٧)

٤- «وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ والنَّهارُ والشَّمْسُ والْقَمَرُ». (فصلت/ ٣٧)

٥- «وَجَعَلْنَا اللَّيلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّنْ رَّبِّكُمْ ولِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِيْنَ والْحِسابَ». (الاسراء/ ١٢)

٦- «وَجَعَلْنَا اللَّيلَ لِبَاساً* وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعَاشاً». (النبأ/ ١٠ و ١١)

٧- «وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أرادَ أنْ يَذَّكَّر أو أرَادَ شُكُوراً».

(الفرقان/ ٦٢)

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٦٨

٨- «وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ». (النحل/ ١٢)

٩- «إنَّ فِى اخْتِلَافِ اللَّيلِ وَالنَّهارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِى السَّمَواتِ وَالأَرضِ لَآيَاتٍ لِّقَوم يَتَّقُونَ». (يونس/ ٦)

١٠- «قُلْ ارأَيْتُمْ إنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إلى يوم القِيَامَةِ مَنْ إلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيْكُمْ بِضِياءٍ أفَلا تَسْمَعُونَ* قُلْ ارأَيْتُمْ إنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إلى يوم الْقِيَامَةِ مَنْ إلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيْكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيْهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ* وَمِنْ رَّحمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ والنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ولَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». (القصص/ ٧١- ٧٣)

١١- «وَاللَّيلِ إذا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إذَا تَجَلَّى . (الليل/ ١- ٢)

١٢- «ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُوْلِجُ اللَّيلَ فِى النَّهَارِ وَيُوْلِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وأَنَّ اللَّهَ سَمِيْعٌ بَصِيْرٌ». (الحج/ ٦١)

جمع الآيات وتفسيرها

النظام العجيب اللّيل والنّهار:

لقد تكرّرت كلمة «الليل» فى القرآن الكريم أكثر من «٧٠» مرّة، وكلمة «النّهار» أكثر من «٥٠» مرّة، والآيات السابقة تُعتبر نماذج مختلفة لهذه الآيات، حيث تمّت الإشارة فيها إلى البعد التوحيدى لخلق الليل والنهار على وجه الخصوص.

ففى الآية الاولى ذُكرَ اصلُ خلقِ اللّيل والنهار، والشمس والقمر، اللذين يرتبطان بهما بعلاقةٍ قريبةٍ كبرهانٍ لسالكى خط التوحيد ومعرفة اللَّه، حيث يقول: «هُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ».

وجاء هذا المعنى بنحوٍ آخر فى الآية الرابعة، إذ يقول: «ومِنْ آياتِهِ اللَّيلُ والنَّهَارُ وَالشَّمسُ وَالقَمَرُ».

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٦٩

فى الوقت الذى يقول فى الآية الثانية: «يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِى الأَبْصَارِ».

وقد يكون هذا التغيير فى التعبير إشارة إلى حصول اللّيل والنّهار، أو زيادة ونقصان مقداريهما، أو اختلافهما من حيث البرودة والحرارة الذى يحدث خلالهما «١»، ولكن لا مانع من شمول هذا التغيير كل هذه المعانى أبداً.

وأشار فى الآية الثالثة إلى احدى فوائد «اللّيل» و «النهار» المهمّة، حيث يقول: «هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ لِتَسْكُنُوا فِيه وَالنَّهارَ مُبصِراً».

والواضح أنّ الاطمئنان فى ظلمة الليل أحدُ أهمِ النعم الإلهيّة، كما أنّ نور النّهار الضرورى لمختلف النشاطات يُعتبر نعمةً مهمةً اخرى

والملاحظ فى هذه الآية أنَّ النّهار اعتُبرَ «مُبصـراً»، والمُبصـرُ فى الأصل تعنى البصـير، ونحنُ نعلمُ أنّ النّهار ليس بصـيراً فى نفسهِ، ولكن بما أنّه يؤدّى إلى أن يُبصرَ الآخرون، فلعلَّ هذا التعبير اطلِقَ عليه للتأكيد والمبالغة.

وفى الحقيقـة لولا بريق النّور فلا فائـدةَ لألف عينٍ مبصـرةٍ، لهـذا فهو يضـيف فى ختام الآيـة: «إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوم يَسْـمَعُونَ»، أى اولئك الذين يستمعون هذه الآيات ويتفكرون فيها.

فى حين أنّه يعتبر كلًا من الليل والنّهار فى الآية الخامسة آيةً من آيات اللَّه تعالى ويقول:

«فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهارِ مُبصَرةً»، ثم يشير إلى فائدتى ذلك حيث يقول:

---

(۱) وردت هـذه الاحتمالات الثلاثة فى تفسير روح المعانى، ج ۱۸، ص ۱۷۳، وتفسير الكبير ج ۲۴ ص ۱۵، ولكنذُكر التفسير الأول والثانى فقط فى تفسير مجمع البيان ج ۷ ص ۱۴۸.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۷۰

«لِتَبتَغُوا فَضْلًا مِّنْ رَّبِّكُمْ ولِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والْحِسَابَ».

فهـل أنّ فوائـد النهار تقتصـر على ابتغاء فضلِ اللَّه ومعرفـة حساب السـنة والشـهور من آثار الليل والنّهار معاً؟ أم أنّ كلا المنفعتين لهما علاقـةٌ وثيقـة بالليل والنهار معاً؟ لأنَّ الراحـةَ فى اللّيل لها أثرٌ واضـحٌ فى إمكانية العمل والابتغاء من فضل اللَّه نهاراً، والظاهر أنَّ المعنى الثانى أكثر تناسباً من حيث تناسقه مع الآية، بالرغم من أنّ العديد من المفسرين ذكرَ المعنى الأول.

وفى الآية السادسة إشارة إلى هذا المعنى وبنحوٍ آخر حيث يقول: «وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً- والنَّهَارَ مَعَاشاً».

وقد يكون «المعاش» اسم زمانٍ أو مكانٍ أو مصدراً ميمياً، وهو يلائم المعنى المصدرى «۱».

ووصف الليل ب «اللباس» يعتبر من التعابير اللطيفـة جـدّاً، حيث إنَّ الليل كاللباس بالنسـبة لنصف الكرة الأرضـيه، وهو كذلك بالنسـبة للإنسان، فكما أنّ اللباس يحفظ جسم الإنسان من بعض الاضـرار ويمنحه جمالًا ورونقاً، فانَّ ظلمـةَ الليل والنوم العميق أثناء اللّيل يمنح روحَ الإنسان وجسمه طراوةً ونشاطاً ويصونه من مختلف الأمراض.

والحديث فى الآية السابعة عن استخلاف الليل والنّهار لبعضهما البعض، فيقول: «وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً».

---

(۱) قـال بعض المفسـرين: إنّ التعبير ب «المعـاش» أى «الحيـاة» بخصوص النهـار هو لأجـل أنّ النوم فى الليـل يشـبه الموت كما يقول العرب فى أمثالهم «النوم أخُ الموت»، وعليه فانَّ النقطة المقابلة له اى النهار هو أساس الصحوة والحياة، (الحياة بكل أبعادها).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۷۱

و «خِلْفَـة»: على وزن (فِتنه)، وكمـا يقول الراغب فى «المفردات» فانّها تُطلقُ على شـيئين يخلف أحـدُهما الآخرَ باسـتمرار، لكن «خلفـة» تعنى «مختلف» وفقـاً لرأى الفيروز آبادى فى «قاموس اللغـة»، ففى الحالـة الاولى ينصبُّ الاهتمام على تناوب الليل والنّهار، فلو لم يكن هـذا التناوب دقيقاً ومحسوباً، فإمّا أنْ تحترق موجودات الأرض من شـدة حرارة ضوء الشـمس أو تنجمـد منْ شدةِ البرودة، وفى الحالة الثانية إشارة إلى اختلاف اللّيل والنّهار وحصول فصول السنة الأربعة التى لها آثار خاصة فى حياة الإنسان.

واختـار بعضُ المفسـرين المعنى الأـول، بينما ذهبَ البعضُ الآخر إلى المعنى الثانى، ولكن ليس هنالك من مانعٍ فى الجمع بين هـذين المعنيين.

وورد فى الروايات أنّ الإنسان يسـتطيع أن يقضـى فى النّهار ما فاته من عبادات الليل وبالعكس، واعتُبِر أنّ الآيـة تشـير إلى هـذا المعنى «۱».

ولا يتعارض هذا التفسـير مع التفاسـير السابقة أيضاً، وعلى أية حالٍ، فانَّ الآية تشـير إلى نظامٍ خاصٍ ومتناوبٍ لظاهرة لليل والنّهار حيث

تدلل على العلم والقدرة اللامتناهية للخالق جلَّ وعلا، بشكلٍ لو كانت دورة الأرض حول نفسها اسرعُ بقليلٍ أو أكثر بطءً ممّا عليه الآن لطال اللّيلُ والنّهار وتعّرضت حياة الناس بل كافة الموجودات على الأرض إلى الخطر.

والحديث في الآية الثامنة عن تسخير الليل والنّهار وخدمتهما للإنسان إذ يقول:

«وسَخَّرَ لَكُمُ اللّيْل والنّهارَ».

وبما أنّ شرحَ معنى التسخير قد مرَّ سابقاً في موارد مشابهة فلا نرى حاجةً للإعادة.

---

(١) ورد هـذا التفسير في حديث عن النبي صلى الله عليه و آله «طبقاً» لما نُقل في تفسير الفخر الرازي، وفي حديث عن الصادق عليه السلام «طبقاً» لما نُقل في تفسير نور الثقلين، ج ٣، الآية المورد البحث.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٧٢

وأشار في الآيـة التاسعة، أولًا إلى مسألة اختلاف اللّيل والنهار، ثم إلى كافة مخلوقات الأرض والسماء التي خلقها اللَّه تعالى كبرهانٍ على عظمتهِ وعلمهِ وقدرتهِ فيقول: «انَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَواتِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُوْنَ».

وهذا التعبير دليلٌ على مدى أهميّة خلقهما.

وفي القسم العاشر أشار في ثلاث آيات بتعابير جميلة إلى الفوائد المهمّة لليل والنهار فقال تعالى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيكُمُ اللَّيلَ سَرْمَداً إلى يَوم القِيَامَةِ مَنْ إلهٌ غَيرُ اللَّهِ يأتِيكم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ* قُلْ ارأَيْتُم إنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيكُم النَّهَارَ سَرمَداً إلى يَوم الْقِيَامَةِ مَنْ إلهٌ غَيرُ اللَّهِ يَأتِيكُم بِلَيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُون* وَمِنْ رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ والنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيْهِ ولِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُم تَشْكُرُوْن».

والجدير بالذكر انّه يقول في نهاية احدى الآيات: «أَفَلا تَسْمَعُونَ»، وفي نهاية آية اخرى «أَفَلا تُبْصِرُونَ».

ولعلَّ هذه التعابير إشارةٌ إلى أنّ هناك دلائل حسّيةً في هذا النظام الدقيق لليل والنّهار يجب أن تُنظَر بالعين، وكذلك هناك دلائل نقليه يجب أن تُسمَعَ، وهذا جديرٌ بالتأمُل أيضاً، يقول في مورد خلود اللّيل: «أَفَلا تَسْمَعُونَ»، وفي مورد خلود النّهار: «أَفَلا تُبْصِرُونَ»، لأنَّ الأُذنَ تستخدمُ غالباً في الليل والعينَ في النهار.

إنَّ أهميّةَ موضوع الليل والنّهار بلغت إلى الحد الذي يُقسمُ اللَّه تعالى في القرآنُ بهما في آياتٍ عديدةٍ من بينها ما يقوله في القسم الحادي عشر من هذه الآيات: «واللَّيلِ إذا يَغْشى والنَّهارِ إذا تَجَلَّى .

وورد هذا المعنى في مكانٍ ثانٍ وبتعبيرٍ آخر فيقول: «واللَّيلِ إذ أَدبَرَ والصُبْحِ إذا أسْفَرَ». (المدثر/ ٣٣)

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٧٣

ويقول في مكانٍ آخر: «وَاللَّيْلِ إذَا عَسْعَسَ* والصُّبْحِ إذَا تَنَفَّسَ». (التكوير/ ١٧)

ويضيف في مكان آخر: «وَالضُحى وَاللّيْلِ إذَا سَجَى . (الضحى ١- ٢)

وأَيْمانٌ اخرى من هذا القبيل حيث تحكي كلُّها عن الاهمية الفائقة التي يوليها القرآن الكريم للّيل والنّهار كي يتمعنَ الإنسان بهما ويرى آياتِ اللَّه في كلَّ موقعٍ منهما، لأنَّ القَسَمَ دليلٌ على أهميّة وقيمة وحقيقة التأمل دائماً.

وفي الآية الثانية عشرة والاخيرة نواجه تعبيراً جديداً في هذا المجال إذ يقول: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ».

«يُوْلِجُ»: من مادة «ايلاج» وتعني الادخال، وبما أنّها جاءت بصيغة «الفعل المضارع» وحيث اننا نعلمُ أنّ الفعل المضارع يفيد الاستمرار، فقد تكون إشارةً إلى طول وقصر اللّيل والنهار التدريجي والمنّظم على مدى فصول السنة المختلفة حيث ينقصُ احدهُما ويضاف إلى الآخر، فهذا النظام التدريجي عاملٌ مؤثرٌ في نمو النباتات وتكامل الكائنات الحيّة، فلو حدثَ فجأةً سيختلُ توازنُ هذه الموجودات فيكون مضراً، لهذا فقد جعلَهُ الباري تعالى أمراً تدريجياً.

ومن الممكن أن تكون إشارة إلى مسألة شروق وغروب الشمس، لأنَّ الشمس حينما تقتربُ من الشروق يشعُ نورُها نحو الطرف الأعلى من الجو، ويضيء الجو قليلًا، وكلما ارتفعت الشمس من وراء الافق يزداد هذا الضياء، وعلى العكس أثناء الغروب، فلا يحلُّ اللَّيلُ دفعةً واحدةً، بل تختفي أشعةُ الشمس رويداً رويداً في الطبقات السفلى من الجو، ويحلُّ الظلامُ محلَّها، فهذا الانتقال التدريجي من النور إلى الظلام وبالعكس يؤدّي إلى أنْ يتأقلمَ الإنسان معه من الناحية الجسمية والروحية، ولو حلَّ اللّيلُ أو النّهار بشكلٍ مفاجيءٍ لتركَ آثاراً سيئةً.

والجدير بالذكر أنّ ظاهرَ الآيةِ هو أنّ دخولَ اللّيل في النّهار والنهار في الليل يحدث في

آنٍ واحدٍ، والواقع هو كذلك، لأنَّ اللَّيلَ يقلُّ تدريجياً أثناء فصل الصيف في المناطق الواقعة شمال خط الاستواء ويصبح جزءً من النهار أي إنّه مصداقٌ ل «يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ»، وفي ذات الوقت يقلُّ النّهار في جنوب خط الاستواء ويصبح جزءً من اللَّيل حيث يكون مصداقاً ل «يُوْلِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ» «۱»

.

وجاء في الحديث المشهور عن المفضل، أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال:

«فكّر في دخول أحدهما- الليل والنهار- على الآخر بهذا التدريج والترسّل، فانك ترى أحدهما ينقص شيئاً بعد شيء، والآخر يزيد مثل ذلك حتى ينتهي كل واحد منهما منتهاه في الزيادة والنقصان، ولو كان دخول أحدهما على الآخر مفاجأة، لأضّر ذلك بالأبدان وأسقمها، كما أنّ أحدكم لو خرج من حمّام حار إلى موضع البرودة لضّره ذلك واسقم بدنه، فلم يجعل اللَّه عزّ وجلّ هذا الترسل في الحر والبرد إلّاللسلامة من ضرر المفاجأة؟» «۲».

توضيحان

۱- أهميّة النور والظلام وفوائد اللَّيل والّنهار

لاحظنا في الآيات الآنفة كيف أنّ اللَّه تبارك وتعالى يدعو الناس إلى دراسة هاتين الظاهرتين اللتين تبدوان عاديتين للعيان، ويعُدهما من آياته، والحقيقة أننا كلَّما امعّنا النظر في هذا المجال نتوصل إلى امورٍ جديدة:

أ) فنحنُ نعلمُ أنّ اللَّيل والّنهار في جميع أنحاء العالم يختلفان تماماً، فطول الليلِ عند خط الاستواء ۱۲ ساعة، وطول الّنهار ۱۲ ساعة أيضاً في كافة الفصول، إلّاأنَّ السَّنةَ كلَّها في المنطقة الجنوبية وعلى خط ۹۰ ليست أكثر من يومٍ واحدٍ وليلةٍ واحدة حيث تكون مدة كلٍّ منهما ستة أشهر تقريباً «ومثل هذه المناطق غير مأهولة طبعاً»، وهنالك مراحل وسط

---

(۱) لقد ذكر «الطريحي» في «مجمع البحرين» هذه النكتة في مادة (ولج).

(۲) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۱۱۸.

بين هذين الوضعين في باقي بقاع العالم.

إلّا أنَّ مايثير العجب هو بالرغم من هذا الاختلاف فانَّ جميع بقاع الأرض تستفيد من أشعة الشمس بنفس النسبة على مدار السنة وهذا نظامٌ عادلٌ للغاية!.

ب) إنّ الّنهار اكثرُ طولًا أثناء الصيف والليل أكثرُ طولًا في الشتاء، أي أنّ هذين الأمرين يسيران بشكلٍ متزامنٍ، زيادة طول الّنهار،

والاشعاع العمودى «أو شبه العمودى» للشمس، فيكمل أحدُهما أثر الآخر، ويؤدّيان إلى زيادة حرارة الجو فتثمرُ الفواكه والمحاصيل الزراعية، وفى الشتاء يؤدّى إلى زيادة البرودة وتساقط أوراق الأشجار والنباتات، واللطيف أنّه فى المناطق الاستوائية حيث يشع ضوء الشمس عمودياً لا يطول النّهار أبداً، وإلّا لداهمها خطر الحرارة الشديدة واحترقت النباتات.

ج) إنّ ضوء الشمس يسبب اليقظةَ والجد والسعى والحركة باستمرار، على العكس من اللّيل الذى يبعث على السكون والاستقرار والنوم، ويُلاحَظُ هذا الأمر على وجه الخصوص فى عالم الحيوانات، حيث تستيقظ الطيور مع سفور الصبح وتتجه نحو الصحراء، وتعود وتستريح فى أوكارها عند غياب الشمس، وفى الارياف حيث إنّ لمعظم الناس حياةً طبيعية، ويكون برنامج حياتهم كذلك أيضاً، ولكن نظراً لتطور الآلة، وصناعة النور الاصطناعى، فانَّ الكثير من الأشخاص يسهرون جزءً من اللَّيل وينامون بعض النهار، وهذا أحدُ الأسباب لبعض أنواع الأمراض، وفى الحقيقة أنّ القرآن يُحذِّرُ مثل هؤلاء الأفراد بانَّ ترك النوم ليلًا يؤدّى إلى فقدان الاطمئنان الروحى وذلك من خلال عبارة: «هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيْهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً». (يونس/ ٦٧)

٢- ظاهرة اللّيل والنّهار فى القرآن الكريم

لقد ذُكِرَتْ ظاهرة اللّيل والنّهار أكثر من ثلاثين مرّة فى القرآن الكريم كبرهانٍ على وجود اللَّه ودليلٍ على عظمته وقدرته، حيث يقول أحياناً: «إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولى

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٧٦

الأَبْصارِ». (النور/ ٤٤)

ويقول كذلك: «لَآياتٍ لِّقَومٍ يَتَّقُونَ». (يونس/ ٦)

ويقول: «لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤمِنُونَ». (النمل/ ٨٦)

وفى الواقع، أنّ العلاقة بين هذه الامور الثلاثة تتضح هنا حيث إنَّ التفكُر والتأمُّل الناضجين والعميقين كما ورد فى حق «اولُوا الألباب» يؤدّيان إلى ظهور الإيمان ورسوخه، والإيمانُ بدوره يؤدّى إلى ظهور التقوى فى القلب والروح أيضاً.

ولهذا فانَّ التمعُنَ فى آيات عظمةِ اللَّه وعلمه وقدرته فى عرض عالم الوجود، يُرسِّخ العقيدة ويُربّى الإنسان من الناحية العملية أيضاً.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٧٧

١٠- آياته فى خلق الجبال

تمهيد:

الكلُّ يعرفُ بشكل عام أنّ القُرى واغلبَ المدن المهمّة تقع فى سفوح الجبال الشامخة وتقع فيما بينها، وأنَّ الأنهار الكبيرة التى هى عمادُ ازدهار المدن تنبعُ من الجبال الشاهقة، إنَّ دورَ الجبالِ فى حياة الإنسان لا ينحصر بذلك فقط على الرغم من أهميّة هذا الدور.

فالجبالُ لها دورٌ مهمٌ جدّاً فى حياة الإنسان بل جميع الموجودات التى تعيش على الأرض، وفوائدها وبركاتُها عديدةٌ جدّاً، ولا نُبالغ إذا قلنا باستحالة الحياة على الأرض بدون وجود الجبال.

ولهذا فانَّ القرآن الكريم أشار فى آياتٍ كثيرة إلى مسألة خلقِ الجبال كاحدى آيات التوحيد وبراهينه على علم وقدرة الخالق جلَّ وعلا.

بعد هذه المقدمة نقرأ خاشعين الآيات الآتية:

١- «أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلىَ الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ* وإِلىَ السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ* وَإِلى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ». (الغاشية/ ١٧- ١٩)

٢- «أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهاداً* وَالْجِبَالَ أَوتَاداً». (النبأ/ ٦- ٧)

٣- «وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيْهَا رَواسىَ وَأَنْهَاراً». (الرعد/ ٣)

٤- «وَالْقَى فِى الأَرْضِ رَواسِىَ أنْ تَمِيْدَ بِكُمْ وَأنْهَاراً وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».

(النحل/ ١٥)

٥- «وَجَعلْنَا فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أنْ تَمِيْدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ». (الانبياء/ ٣١)

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٧٨

٦- «وَجَعَلَ فِيْهَا رَوَاسِىَ مِنْ فَوقِهَا وَبَارَكَ فِيهَآ وَقَدَّرَ فِيْهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِيْنَ». (فصلت/ ١٠)

٧- «وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ شَامِخَاتٍ وأَسْقَيْنَاكُمْ مَّآءً فُرَاتاً». (المرسلات/ ٢٧)

٨- «أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَراراً وَجَعَلَ خِلَالَها أَنْهاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنِ حَاجِزاً أ إلهٌ مَّعَ اللَّه بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَايَعْلَمُوْنَ».

(النمل/ ٦١)

٩- «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً». (النحل/ ٨١)

١٠- «وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيْضٌ وحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوانُهَا وَغَرابِيْبُ سُودٌ». (فاطر/ ٢٧)

شرح المفردات:

«جبل»: على وزن (عَسَلْ)، بالرغم من أنّ بعض أرباب اللغة فسَّرها بأنّها المفردة التى تقابل الأراضى المنبسطة، وفسَّرها بعضهم بالأجزاء المرتفعة من الأرض حيث تكون عالية وشامخة، فالظاهر أنّ جميع هذه التعابير تشير إلى معنىً واحد.

وطبعاً قد يُستعمل هذا اللفظ فى المعانى الكنائية أيضاً، فقد يُقال (جبل) للأشخاص الصامدين والعظماء، و «جِبلّى» للصفات الثابتة فى طبيعة الإنسان والتى لا تتبدل ولا تتغير «كالجبل»، وكذلك يقال (جِبِلّ) بكسر الجيم والباء وتشديد اللام، للرهط والمجموعة فى لغة العرب من باب التشبيه بالجبل فى العظمة «١».

و «الرواسى»: جمع «راسية» أى الجبال الثابتة الراسخة، وهى فى الأصل من «الرَسو» (على وزن رَسْم وغلوُ) وهى مأخوذة من الثبات والرسوخ، ويُطلقُ على الاوانى الضخمة الراسخّة والثابتة فى مكان العمل ب (الراسية) أيضاً، (كالقدور الراسية) التى وردت فى قصة سليمان عليه السلام فى القرآن الكريم، ويُطلقُ لفظ (رسىّ) على الأعمدة الثابتة فى وسط الخيمة أيضاً، ويقال لمكان رسوّ السفن ب «المرساة» حيث تثبت وتستقر السفينة فى مكانها.

---

(١) المفردات للراغب؛ ومجمع البحرين؛ ولسان العرب.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٧٩

وقد يُستخدم هذا اللفظ بمعنى ارساء السِّلم فى المجتمع أيضاً لأنَّ السّلم أساسُ ثبات كلِّ بلدٍ.

جمع الآيات وتفسيرها

البركات والأسرار العجيبة للجبال:

فى القسم الأول من هذه الآيات يدعو البارى تعالى الناسَ إلى البحث والتأمل فى آيات اللَّه فى السماء والأرض، ثم يشير إلى كيفية خلق الابل وكذلك ارتفاع السموات حيث ارتفعت بدون عَمَدٍ مع مالها من عظمة، وأشار إلى نصب الجبال فقال: «وَإِلى الجِبَالِ كَيْفَ

نُصِبَتْ».

ولعلَّ هـذا التعبير إشارة إلى ثبات واسـتقرار الجبال في أمكنتها ومنع حـدوث الزلازل التي سـيشار إليها في الآيات القادمة أو اشـيرَ إليه آنفا، أو الوقوف أمام الأعاصير والعواصف، وتوفير الملاجيء الآمنة للبشر، ومستودعات حفظ المياه على هيئة ينابيع وقنوات وأنهار.

ويمكن أن يكون هذا التعبير إشارة ظريفة إلى مسألة طبيعة تكوين الجبال ووجودها حيث كشفَ العلم المعاصـر الستار عنها، إذ يقول: إنّ الجبال تكونت نتيجة لعوامل معينة فقد يكون بسـبب تعرُّج الأرض، وأحياناً بسـبب البراكين، أو نتيجة الترسـبات الناتجة عن الأمطار التي تغمر الأرض وتجرف بعضها معها ويبقى الجزء القوي والصلب ثابتاً في مكانه.

وفي أعماق البحار تتكون الكثير من الجبال نتيجة الترسبات الحيوانية كالمرجان حيث يطلق عليها الجبال أو الجُزُر المرجانية.

ومن الممكن جمع كل هذه المعاني في عبارة «كَيْفَ نُصِبَتْ».

ويقول في القسم الثاني من الآيات كبيانٍ للنعم الإلهيّة: «أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً* وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً»؟

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٨٠

«الاوتاد»: جمع (وَتَدْ) (على وزن حَسَدْ)، وتُطلقُ على المسامير الضـخمة القوية جدّاً، وقد فسَّرها البعض بالمسامير التي تغور في الأرض وتُربط إليها حبالُ الخيمة «١».

وهنا كيف تكون الجبال بمثابـة أوتاد الأرض؟ هناك تفاسير متعـددة: أولُها وهو ما ثبت اليوم بانَّ الجبال لها جذورٌ عظيمة في أعماق الأرض، وهـذه الجـذور متشابكـة معاً وتُمسكُ بقشرة الأرض كالـدرع وتحفظها في مواجهـة الضـغوط الناشـئة عن الحرارة الداخليـة، ولولاها لما كان لسطح الأرض من قرار.

وفضـلًا عن ذلك فكما أنّ جاذبيـة القمر والشـمس تترك تأثيراتها على المحيطات، وتسبب المد والجزر، فانَّ اليابسة لها تأثيرها أيضاً، فيمنحُ درعُ الجبالِ قشرةَ الأرض قدرةَ المقاومة أمام هذا الضغط الهائل.

ومن ناحيـة ثالثـة فـانَّ الجبـال تصونُ بقـاءَ الأـرض المختلفـة من العواصف والسـيول وتقف أمامها كالسور العالي، بحيث لو كان وجه الأرض كلُّه على هيئة صحراء لتعسَّرت حياة الإنسان على سطحها أمام هذه السيول العارمة.

وأهم من كل ما مضى فإنّ الجبال تعتبر بمنزلة الأوتاد القوية لنظام حياة البشر لكونها مركزاً لذخائر المياه.

وجاء في تفسـير الميزان أنّ الأوتاد جمع وتـد وهو المسـمار إلّاأنّه أغلظ منه «٢» كمـا في المجمع ولعل عـدّ الجبال أوتاداً مبني على أنّ أكثر جبال الأرض ناتجة من البراكين التي تنطلق من أعماق الأرض فتخرج مواد ارضية مذابة تستقر على فم الشق متراكمة كهيئة الوتد المنصوب على الأرض تسكن به فورة البركان التي تحته فيرتفع به ما في الأرض من الاضطراب والتزلزل.

---

(١) تفسير المراغي، ج ٣٠، ص ۴.

(٢) تفسير الميزان، ج ٢٠، ص ٢٥٩.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٨١

وفي الآيات الثالثة والرابعة والخامسة عُبِّر عن الجبال ب «الرواسي» حيث يقول:

«وَجَعَلَ فِيْهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً».

ويقول في مكان آخر: «وَأَلْقَى فِي الأَرضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيْدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُوْنَ».

ويشاهد هذا المعنى في الآية الخامسة أيضاً.

ويستفادُ من مجموع هذه الآيات أنّ أحَد أهم فوائد الجبال هو منع الحركات غير الطبيعية والزلازل الأرضية.

و «تَميـدُ»: من مادة (مَيْـد) (على وزن صَيْدْ) أي إهتزاز الأشـياء الضـخمة، وقال البعض إنّها الحركـة المتزامنة مع التمايل يميناً وشـمالًا،

كحركة السفن الخالية بسبب أمواج البحر، ولهذا يقال «مَيْدان» أثناء المسابقات أو الحروب.

وقد تحدثنا فى شرح الآيات السابقة عن تأثير الجبال فى منع حركات قشرة الأرض أثر الضغط الداخلى، وجاذبية المد والجزر للشمس والقمر، والاضطرابات الناتجة عن السيول المستمرة، ولا حاجة إلى التكرار.

ويُفهم من هـذه الآيـات بصورة عامـة أيضـاً، أنَّ لتكوين الأنهـار علاقـةً بوجود الجبال، وهو الصـحيح، فالأنهار الكبيرة التى تجرى على مـدى السـنة وتسـقى الأراضـى اليابسة هى من بركة المياه التى تجمعت فى أعماق الجبال أو قممها على هيئة جليدٍ أو ثلج، ولهذا تُعتبر الجبـال العملاقـة فى العالم ينابيع لأنهار العالم العظيمـة. وربّما يحـدث لـدى البعض شـبهة فى كون وجود الجبال يكون حائلًا فى عزل الأراضـى عن بعضـها وسبباً فى غلق طرق العبور والمرور، لكن الآيات الواردة أعلاه صرحت بأنّ اللّه سبحانه وتعالى جعل طرقاً واودية يسلكها الناس ليهتدوا إلى بلوغ مقاصدهم ونيل مآربهم.

وهـذه نقطـة ظريفـة جـدّاً حيث توجـد على الـدوام فى أعماق الجبال العظيمة الشاهقة ممرات وطرقٌ يسـتطيع الناس من خلالها المرور والعبور، أى أنّها فى ذات الوقت الذى تشـكلُ سداً قوياً أمام العواصف والأعاصير، فهى لا تمنع عبور ومرور الناس، ونادراً ما تقوم هذه الجبال بعزلِ أجزاءٍ من الأرض بشكل كامل.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٨٢

وهناك نقطـة بالغـة الاهميـة وهى لو كان سـطح الأرض مسـتوياً، فسوف تكون درجـة الحرارة على الأرض عالية جدّاً ومحرقة وذلك بسبب حركة الأرض السريعة حول نفسها وحركة الهواء على سطح الأرض وبذلك تتعذر الحياة على سطح الأرض.

لكن البـارى تعـالى الـذى جَعَـلَ الأرض مهـداً لراحـة الإنسان، أمر الجبال أن تكون مرتفعـة فى طبقات الجو، وتـدور حول نفسـها تبعاً لدوران الأرض، كى تمنع اهتزاز الجو وحصول الحرارة.

بناءً على ذلك نلاحظ جيداً أهميّة الدور الذى يلعبُهُ وجود هذه القطع الصخرية الصمّاء فى حياة الموجودات.

بالاضافة إلى ذلك فانَّ الجبالَ تُوجدُ مساحات مسطَّحة شاسعة بسبب التعرجات والانكسارات وتؤدّى إلى مضاعفة الجزء الذى يمكن اسـتغلاله من الأرض لعـدّة مرات، وفى نفس الوقت فانَّ أغلبها يعتبر مكاناً لنمو أشـجار الغابات الكثيفة وأنواع النباتات الطبية والغذائية والمراتع.

ولعـلَّ لهـذا السـبب جـاء الحـديث فى الآيـة السادسـة عن بركـات الأرض واقواتها بعـد نصب الجبال فى الأرض إذ يقول: «وَجَعَلَ فِيْهَا رَوَاسِىَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيْهَا وقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا».

لأنَّ ممّا لا شك فيه أنّ الجبال نفسها وكذلك المياه التى تسيل من بطونها لها دورٌ حساسٌ للغاية فى انتاج المواد الغذائية.

وممّا يلفت الانتباه قوله فى نهايـة الآيـة: «سَواءً لِلسَّائِلِيْنَ»، فلعلّه إشارة إلى هـذا المعنى وهو أنّ المواد الغذائية تعادل ما يحتاجه السائلون والمحتـاجون تمامـاً، ويمكن أن يكون تعبير «السـائلين» إشـارة إلى كافـة الحيوانـات والناس والنباتات (وإذا جاء بصـيغة جمع المـذكر للعاقل فهو من باب التغليب) نعم فالكل يسأل عن «الاقوات» بلسان حاله.

و «أقوات»: جمع (قوت) وتعنى الغـذاء، وقـد فسَّرها بعض المفسـرين ب «الأمطار» فقط، والبعض الآخر فسَّرها بالمواد الغذائية المدَّخرة فى باطن الأرض، إلّاأنّ الظاهر هو أنّها

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٨٣

إشارة إلى كافـة المواد الغذائيـة التى تخرج من الأرض أو التى تنمو عليها، ولعلَّ التعبير ب «قَدَّرَ» وهى من «التقدير»، إشارة إلى أنّه قد تمّ تقدير وتخطيط كافة احتياجات الإنسان وبقية الموجودات قبل خلقها.

وقد ورد مضمون الآية السابعة فى الآيات الآنفة.

وأشـار فى الآيـة الثامنـة إلى أربـع نِعَمِ الهيـة: فالأـرضُ مسـتقرةٌ بنحـوٍ يسـتطيع الإنسـان والموجـودات الاـخرى من العيش عليهـا براحةٍ

واطمئنان، وتكوين الأنهار التى تشق سطح الأرض، وخلق الجبال العظيمة الراسخة، وتكوين البرزخ بين البحرين (من الماء العذب والمالح) كى لا يختلط احدهما بالآخر.

وهذه النعم الأربع ترتبط مع بعضها بنحوٍ مدهش، فالجبال أساسُ استقرار الأرض، ومصدر مياه الأنهار، وهذه الأنهار عندما تصبُ مياهها فى البحر فهى تبقى منفصلة بواسطةِ حاجزٍ غير منظورٍ لفترة طويلة لا تختلط مع المياه المالحة، وهذا الحاجز ليس سوى اختلاف كثافة الماء «المالح» و «العذب»، وبتعبير آخر أنّ اختلاف كثافتهما يؤدّى إلى عدم امتزاج مياه الأنهار العذبة بالمياه المالحة لمدّة طويلة، ولهذا فائدة ضرورية للزراعة فى المناطق الساحلية، لأنَّ هذه المياه العذبة تتراجع إلى الخلف عن طريق المد والجزر وتُغطى معظم الأراضى الزراعية فتغمر البساتين النَظِرة والمزارِع المزدهرة.

فليس جزافاً أن يقول فى نهاية هذه الآية: «أ إِلهٌ مَّعَ اللَّهِ»؟ «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَايَعْلَمُونَ».

أَجَلْ ... فهؤلاء يجهلون أسرار هذه النِعَم والبركات، النِعَمُ الموجودة فى كل زوايا وبقاع العالم، وكلٌ منها برهانٌ على تلك الذات المقدّسة، إلّاأنّ هؤلاء الجهلةَ محجوبون عنها.

وفى الآيتين التّاسعة والعاشرة أشار إلى مجموعةٍ اخرى من خصائص ومنافع الجبال، فبعد أنْ ذكرَ خلقَ الجبال التى تقى الإنسان حرارة الشمس المحرقة، يشير إلى الملاجىء

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۸۴

الموجودة فيها حيث يقول: «وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً».

و «الاكنان»: جمع (كِنّ) على وزن (جِنّ) وكما قال صاحب مجمع البيان هو المكان الذى يضم الإنسان بداخله، إلّاأنّ البعض ذكر ذلك بمعنى كلّ نوعٍ من اللباس، حتى أنّهم اعتبروا «الرداء» «كنّاً» للإنسان، والمقصود ب «اكنان الجبال» المغارات والكهوف التى يستطيع الإنسان أن يستخدمها كملجأ له، قد تكون أهميّة الملاجىء الجبلية والمغارات مجهولة بالنسبة لسكنة المدن، غير أنّها ذات أهميّة حسّاسة جدّاً للمسافرين العُزّل، وقاطعى الصحراء، والرعاة، والسائرين ليلًا، وغالباً ما تنقذهم من الموت المحتوم، لا سيما وإنَّ هذه الملاجىء دافئة فى الشتاء وباردةٌ فى الصيف.

فضلًا عن ذلك فإنّ بعض الناس منذ غابر الأزمان وحتى يومنا هذا ينحتون بيوتهم فى وسط الجبال، وهى مُحكَمَةٌ جدّاً وآمنة تماماً فى مواجهة الحوادث الطبيعية، كما ورد فى القرآن الكريم حول «أصحاب الحجر» (قوم ثمود): «وَكَانُوا يَنْحِتُوْنَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِيْنَ». (الحجر / ۸۲)

وهذه فائدة اخرى للجبال.

وفى قسمٍ آخر من هذه الآيات إشارة إلى الطرق التى صنعها البارى تعالى بالوانٍ مختلفة بيضاء وحمراء وأحياناً سوداء بكاملها: «وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وحُمْرٌ مُختَلِفٌ أَلوانُهَا وغَرابِيبُ سُودٌ».

و «جُـدَدٌ»: جمع (جُدّة) (كغُدَدٌ وغُدَّة) بمعنى الطريق والجادّة، و «بِيضٌ» جمع «أبيض»، و «حُمر» جمع «أحمر»، و «غرابيب» جمع «غربيب» وتعنى شديد السواد، ولهذا يقال «غراب»، و «سود» جمع «أسود» ووردت هنا بعد كلمة «غرابيب» للتأكيد.

فطرقُ الجبال المختلفة، بألوانها المتباينة تماماً، لها أهميّة كبيرة حيث تساعد المسافرين فى العثور على مقاصدهم، وتنقذهم من التيه، إضافة إلى أن تعدُّد الألوان يدلُّ على اختلاف مركبات الصخور، وقد تكون دليلًا على وجود المعادن المختلفة التى تختفى فيها.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۸۵

يستفاد جيداً من تسلسل هذه الآيات أنّ خلق الجبال بفوائدها الحياتية والضرورية جدّاً والمصيرية، من البراهين المهمّة على علم وقدرة البارى تعالى وآيات حكمته ورأفته بالإنسان، ويوضح جيداً أن خلقَ هذا العالم وذرات موجوداته، مليءٌ بالمعنى والمحتوى إلى حدٍ كلمّا تم التمعُن به تنكشفُ للإنسان أسرارٌ جديدة ويتولد على أثرها حبٌ وارتباطٌ بالخالق جلَّ وعلا.

توضيحات

١- الجبال والاعجاز العلمي للقرآن

١- لعلَّ إلى ما قبل قرنٍ من الزمان كانت نظريـة العلماء تنصُ على سـطحية الجبال، وكان الاعتقاد السائـد هو أنَّ كل الجبال عبارة عن قطع صـخرية كبيرة تستقر على سـطح الأرض، ولكن مع مرور الزمان ازيلَ الحجابُ عن سرٍّ مهم، وتوصلَ العلماء إلى هـذه الحقيقـة، وهي أنّ الجزءَ الأعظم من كل جبلٍ يقع تحت الأرض!

وكمـا يقول «جورج غاموف» في كتاب «قصـة الأرض»: «طبقاً للنظريات المعاصـرة فانّ جبال الأرض لها أوضاع تشـبه الجبال الجليـدية التي تتكون تحت تأثير ضـغط الثلوج في المناطق القطبيـة، فكلُ من زار المناطق القطبيـة يعرف جيـداً أنّ القطع الثلجيـة الضـخمة حينما تتكسـر تحت تأثير الضـغط تتراكم على بعضـها، وتنـدفع نحو البحار- وأثناء ذلك- تنهار اغلب كميات الثلج في المياه، (ولعلَّ عُشرُها فقط خارج المياه وتسـعةُ اعشارها تحت الماء)، ولهذا ففي مقابل كلِّ جبلٍ يرتفع على سطح الأرض هنالك جبلٌ تحت سطح الأرض، متكون من مادة حجر الغرانيت يَغوص في ثنايا طبقة من الصخور التحتية الناعمة» «١».

وهنا نصل إلى هـذه المسألـة الاعجازية في القرآن حيث يطلق على الجبال «اوتاد» ومسامير الأرض، وذلك لأننا نعلم أنّ القِسمَ الأعظم من المسمار يغور في الجدار أو الأشياء الاخرى دائماً.

---

(١) قصة الأرض، تأليف جورج غاموف، ص ١٢٦ مع شيء من الاختصار.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٨٦

وهنـا حيث تسـتخدم المسـامير في تثبيت شـيءٍ ما، أو ربط القطع المختلفـة مع بعضـها أيضاً، فهـذا التعبير يعتبر إشارة لطيفـة إلى التأثير المهم للجبال في منع تبعثر قطع الأرض أثر الضغط الداخلي للكرة الأرضية والضغط الناتج عن حالات المد والجزر.

٢- لايقتصـر دور الجبال على حفظ اسـتقرار وثبات الأرض فحسب، بل تساعـد في اسـتقرار المناخ المحيط بالأرض أيضاً، والكل يعلم مـدى صـعوبة العيش في الصـحراء الشاسـعة لأنّ الهواء دائماً في حالـة من السـرعة المقرونة بالغبار والرمال، فيصـبح الاسـتقرار في هذه المناطق عسيراً والتنفس صعباً مقرونا بعدم الراحة.

نعم .. فهذه القمم الشاهقة للجبال هي التي تقف أمام هذه العواصف الهوجاء، وتصدُّها، أو تُرسلها إلى طبقات الجو العليا.

٣- إضافـة إلى ذلك فإنّ للجبال تأثيراً بالغاً في نزول الثلوج وهطول الأمطار، لأنّها تقف في طريق الغيوم والرطوبـة الصاعدة من البحر، فتوقفها وتدفعها إلى الهطول فينحدر بعض هذه الأمطار من سـفوحها، وتحتفظ بالقسم الآخر في هذه السـفوح، أو تحتفظ بها على هيئة ثلج وجليد في قمتها.

٤- وكـذلك فانَّ للجبال دوراً مهماً في تعديل حرارة الجو لا سـيما في المناطق الاسـتوائية، لأنَّ ارتفاع الجبال يؤدّي إلى ابتعاد المناطق المجاورة لها عن سطح الأرض ونحن نعلم أننا كلّما ابتعدنا عن سطح الأرض تزداد برودة الجو.

٥- إنّ الجبـالَ مصـدرٌ مهمٌ لـانواع المعـادن والـثروات الهائلـة التي تختفي في أعماقهـا، ومن أجـل أن يظفر النـاس بهـذه الثروات فهم يتجهون إلى الجبال دائماً للبحث عنها.

٦- للجبـال دورٌ مهمٌ آخر في ايقـاف حركـة الكثبـان الرمليـة، فنحن نعلم أنّ الكثبـان الرمليـة تتحرك أثناء هبوب الرياح في الصـحراء القاحلـة، وقـد تـدفُنُ تحتها الأشـجار والناس والقوافل وحتى القرى وتصـبح سـبباً في هلاك النباتات والحيوانات، فإذا لم تتم السـيطرة عليها فسوف تأتي على جميع أنحاء الأرض، فأيُّ عاملٍ أفضلُ من الجبال يُمكنُه السيطرة عليها؟!

إنَّ هذه الفوائد العظيمة إضافةً إلى فوائد اخرى كثيرة ذكرناها في تفسير الآيات السابقة

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۸۷

توضح لنا الدور المهم للجبال من جهةٍ، وعظمة آيات القرآن الكريم فى هذا المجال من جهة اخرى

۲- حديث للإمام الصادق عليه السلام حول الجبال

وفى حديث توحيد المفضّل وهو حديث ملىءٌ بالمعانى، وكاشفٌ لأسرار الخلق فى مختلف الجوانب لمعرفة اللَّه، جاء ما يلى:

«انظر يا مفضّل إلى هذه الجبال المركومة من الطين والحجارة التى يحسبها الغافلون فضلا لا حاجة إليها، والمنافع فيها كثيرة: فمن ذلك أن تسقط عليها الثلوج فيبقى فى قلالها لمن يحتاج إليه، ويذوب ما ذاب منه فتجرى منه العيون الغزيرة التى تجتمع منها الأنهار العظام، وينبت فيها ضروب من النبات والعقاقير التى لا ينبت مثلها فى السهل، ويكون فيها كهوف ومقايل للوحوش من السباع العادية. ويتخذ منها الحصون والقلاع المنيعة للتحرز من الأعداء، وينحت منها الحجارة للبناء والأرحاء، ويوجد فيها معادن لضروب من الجواهر، وفيها خلال اخرى لا يعرفها إلّاالمقدّر لها فى سابق علمه» «۱».

وقد تكون العبارة التى جاءت فى ختام حديث الإمام عليه السلام إشارة إلى الفوائد المهمّة الاخرى التى اكتُشفت تدريجياً مع تطور العلوم وتمّت الإشارة إليها فى البحوث الماضية، المنافع التى لا زالت خافيةً عن أنظار العلم البشرى.

۳- كلامٌ لعالم كبير

عندما يتعرض العلّامة المرحوم المجلسى رحمه الله إلى البحث حول الجبال فى كتابه بحار الأنوار، يذكر فى تفسير الآية: «والجِبَالَ أَوْتَاداً» سبعة آراء، نذكر ثالثها:

«ما يخطر بالبال وهو أن يكون مدخلية الجبال لعدم اضطراب الأرض بسبب اشتباكها

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۱۲۷.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۸۸

واتصال بعضها ببعض فى أعماق الأرض بحيث تمنعها عن تفتّت أجزائها وتفرّقها، فهى بمنزلة الأوتاد المغروزة المثبتة فى الأبواب المركبة من قطع الخشب الكثيرة بحيث تصير سببا لالتصاق بعضها ببعض وعدم تفرّقها وهذا معلوم ظاهر لمن حفر الآبار فى الأرض فانّها تنتهى عند المبالغة فى حفرها إلى الأحجار الصلبة، وأنت ترى أكثر قطع الأرض واقعةً بين جبال محيطة بها، فكأنّها مع ما يتصل بها من القطعة الحجرية المتصلة بها من تحت تلك القطعات كالظرف لها تمنعها عن التفتّت والتفرق والاضطراب عن عروض الأسباب الداعية الى ذلك» «۱».

إنَّ هذا الحديث واستناداً إلى التصريح الذى أوردناه آنفاً لاحد العلماء المتأخرين، والذى هو من اكتشافات القرن الأخير، يعتبر أمراً مثيراً جدّاً حيث يشير هذا العالم الإسلامى الكبير إلى ذلك قبل أكثر من ۳۰۰ سنة.

۴- حديثٌ اعجازىٌ حول تكوين الجبال

وهذه نقطة جديرةٌ بالاهتمام أيضاً حيث ورد فى روايةٍ أنّ شخصاً سألَ أميرَالمؤمنين عليه السلام قائلًا: مِمّ خُلقتِ الجبالُ؟ فقال الإمام عليه السلام فى جوابه: «من الأمواج» «۲».

وهذا الحديث يتطابق تماماً مع النظرية المشهورة للعلماء المعاصرين إذ يعتقدون بأنَّ أغلبَ الجبال تكونت نتيجةً لتعرُّج قشرة الأرض

بسبب انجمادها كالتجعدات التى تظهر على قشرة التفاح عند جفافها وهذه التعرّجات تشبه الأمواج التى تحدث على سطح الماء، وقد يكون تعبير: «وَأَلْقَى فِى الأَرْضِ رَوَاسِيَ». (النحل/ ١٥)
إشارة إلى خلق الجبال بعد خلق الأرض أيضاً.

---

(١) بحار الانوار، ج ٣، ص ١٢٧.

(٢) بحارالانوار، ج ٥٧، ص ٧٣ و ج ۶٠، ص ١٢٠.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٨٩

١١- آياته فى تكوين الغيوم والرياح والأمطار

تمهيد:

إنَّ دورَ الغيوم، والرياح والأمطار، فى حياة الإنسان وكافة الكائنات الحيّة واضحٌ إلى حدٍ لا يحتاج معه إلى شرح أو تفصيل، صحيحٌ أنّ الماء يغمُر ثلاثة أرباع الكرة الأرضية، ولكن أولًا: أنّ المياه المالحة لا تصلح للرى، ولا لشرب الإنسان والحيوانات، وثانياً: لو فرضنا أنَّ كلَّ مياه البحار كانت عذبةً فبأى طريقةٍ يُمكن نقلها إلى المناطق والأراضى التى قد ترتفع عن مستوى سطح البحر عدة آلاف من الأمتار؟

هنا نرى بجَلاء القدرة العظيمة لمُبدىء الخلق، حيث القى هذا التكليف المهم على عاتق أشعة الشمس لتشرق على المحيطات وتَقوم بتبخير وتصفية مياهها، فيظهر على هيئة قطعٍ من الغيوم، ثم تتجه به نحو المناطق الجافة بمساعدة الرياح، وتُنزله عليها بصورة قطرات مطر لطيفةٍ وصغيرة وبهدوء، حيث تدُب الحياة فى جميع أرجاء المعمورة، فينتشر الإزدهار والإعمار والخُضرة فى كُل مكان، وهذا يأتى من خلال نظامٍ دقيقٍ ومحسوب مقرون بظرافة بالغة.

وبعد هذا التمهيد القصير نتجه نحو آيات القرآن الكريم بهذا الخصوص فنقرأ خاشعين الآيات الآتية:

١- «اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِى السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٩٠

فَتَرى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ».
(الروم/ ۴٨)

٢- «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّنْ رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِىَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ولَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». (الروم/ ۴۶)

٣- «وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ». (الاعراف/ ۵٧)

۴- «وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا. (فاطر/ ٩)

۵- «انَّ فِى خَلْقِ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَاختَلفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالفُلكِ الَّتِى تَجرى فِى البَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وتَصْرِيْفِ الرِّياحِ وَالسَّحابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالارْضِ لَآياتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». (البقرة/ ١۶۴)

۶- «أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ* أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ* لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ اجاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ». (الواقعة/ ۶٨- ٧٠)

٧- «أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِ والْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّه تَعالىَ اللَّهُ عَمَّا يُشرِكُونَ». (النمل/ ۶٣)

٨- «وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ». (الحجر / ٢٢)

٩- «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعَاً مُّخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ... إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِى الأَلْبَابِ». (الزمر / ٢١)

١٠- «وَأَنْزَلنا مِنَ المُعْصِرَاتِ ماءً ثَجّاجاً* لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً* وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً».

(النبأ/ ١٤- ١٦)

١١- «وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٩١

طَهُوراً». (الفرقان/ ٤٨)

١٢- «أَوَلَمْ يَرَوا أَنَّا نَسُوقُ المَاءَ إِلى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ». «١»

(السجدة/ ٢٧)

شرح المفردات:

«الرياح»: تكررَ هذا اللفظُ عشرَ مراتٍ فى القرآن الكريم، تسعٌ منها إشارة إلى الرياح التى تُحركُ الغيوم وتُعِدُّها لتنزل الأمطار.

و «الرياح»: فى الأصل جمع (ريح) وتعنى الهواء المتحرك، وأصلُها «رَوْحْ»، وغالباً ما تعتبر مؤنثاً لفظياً، والجدير بالذكر أنّها تستخدم بصيغة الجمع دائماً فى الآيات التى تتعلق بحركة الغيوم ونزول الأمطار فى القرآن الكريم، وذكر البعض دليلًا على ذلك بأنَّ الرياح إذا تحركت بشكلٍ جماعى فانّها تنشر الغيوم وتُكوِّنُ أمطاراً غزيرة ومليئة بالبركة، وإذا تحركت على هيئة أجزاءٍ متفرقة فانّها تكون عقيمة وغير مفيدة، بل مضرّةً عندئذ، لذلك ورد فى الدعاء: «اللّهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً» «٢»

.

ويقول «الراغب فى المفردات»: فى جميع الموارد التى ذكر اللَّه تعالى لفظة «الريح» بصورةٍ مفردة (فى القرآن) فهى تحكى عن «العذاب»، وأينما ذكرت بصيغة الجمع فهى تحكى عن الرحمة.

وقول الراغب صائبٌ فى ما يَخص «الرياح» فى صيغة الجمع، ولكن ليس هناك تعميمٌ فى مورد «الريح» بصيغة المفرد، لأنَّ «الريح» استخدمت فى القرآن بصيغة المفرد فى مورد

---

(١) توجد فى القرآن الكريم آياتٌ كثيرةٌ فى هذا المجال، وما ورد أعلاه مقتطفات من هذه الآيات بامكانها تبيان ابعاد هذه الامور الثلاثة المهمّة وهى كما يلى: الانعام، ٩٩؛ ابراهيم، ٣٢؛ النحل، ٦٥؛ طه، ٥٣؛ الحج، ٦٣؛ النمل، ٦٠؛ العنكبوت، ٦٣؛ لقمان، ١٠ و ١١؛ فاطر، ٢٧؛ فصلت، ٣٩؛ الرعد، ١٧؛ الأعراف، ٥٧؛ الحجر، ٢٢؛ النمل، ٦٣.

(٢) مجمع البحرين- مادة (ريح).

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٩٢

النعمة أيضاً، كما فى قوله تعالى: «حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وفَرِحُوا بِهَا». (يونس/ ٢٢)

ونقرأ أيضاً بخصوص سليمان عليه السلام: «وَلِسُلَيمانَ الرِّيْحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ». (سبأ/ ١٢)

و «تَصْرِيفِ الرِّيَاحِ» تعنى نقل الرياح من حالٍ إلى حال (من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال)، وهى من مادة (صرف) (على وزن حرف) أى تحويل الشيء من حالةٍ إلى حالةٍ اخرى أو إبداله بشيءٍ آخر «١».

وقد يكون هذا التعبير إشارة إلى أنّ الرياح لو سارت باتجاهٍ واحدٍ باستمرار فمن الممكن أن تدفعَ بالرطوبة والغيوم المتصاعدة من

البحار نحو جهة واحدة فقط أما تغيُّر الرياح فانّه يؤدّى إلى أن تتحرك الغيوم من مكانٍ إلى مكانٍ آخر، وتَستفيد أغلبُ المناطق الجافة من الأمطار إلى اقصى حد.

فضلًا عن ذلك وكما سيأتى فإنّ فائدة الرياح لا تنحصر بحركة الغيوم، بل لها منافع كثيرة اخرى سنشير إليها فى تفسير الآيات- إن شاء اللَّه- «٢».

و «السَّحاب»: من مادة «سَحْب» (على وزن مَحْو)، وتعنى فى الأصل الجرَّ، حيثُ تُسحبُ الغيوم بواسطة الرياح، أو أنّ الغيوم تسحبُ المياهَ نحو أيِّ اتجاهٍ، فيُطلقُ اسم «السحاب» عليها، وقد يُستخدم هذا المفهوم بمعنى الظِّل أو الظلام من باب التشبيه.

واللطيف إنَّه قد تمَّ التعبير فى الآيات أعلاه ب «سُقناه» من مادة «سوق» أى «الدفع» وقد استُعمِلَ هذا التعبير لأنَّ اللَّه تبارك وتعالى يدفعها نحو اتجاه معيَّن (بالرغم من أنّ السحاب يتحرك طبيعياً).

و «مُزن»: على وزن «حُزن» وتعنى «الغيوم الواضحة»، وفسَّرها البعض ب (الغيوم الممطرة) «٣».

---

(١) مجمع البحرين، ومفردات الراغب.

(٢) يُقسِّمُ العربُ الرياحَ إلى اربعة اقسام: «الشمالية» التى تهب من الشمال، و «الجنوبية» التى تهبُّ من الجنوب، و «الصبا» التى تهبُّ من الشرق، و «الدبور» التى تهبُّ من الغرب.

(٣) مفردات الراغب ولسان العرب، مادة (مُزن).

ولهذا يُطلقُ على الهلال الذى يبرز من بين الغيوم ب (ابن مُزنة)، و (مازن) تعبيرٌ يطلق على بيض النمل.

و «بُشْر»: (على وزن عُشْر)، وحسب ما جاء فى (مصباح اللغة) فهى مأخوذة من (بَشَرْ) (على وزن سَقَرْ) أى السرور والفرح «١».

والسببُ فى تسمية القرآن الكريم للغيوم ب «بُشْر» و «مُبَشِّرات» لأنّها غالباً ما تكون مبشِّرات بهطول المطر الذى يَهَبُ الحياة.

جمع الآيات وتفسيرها

ظاهرة الريح والأمطار والأسرار الكامنة فيها:

أشارت الآية الاولى من البحث وكتعريفٍ بالذات الإلهيّة المقدّسة إلى مسألة هبوب الرياح وحركة الغيوم بواسطتها حيث يقول: «اللَّهُ الَّذى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً».

ثمَّ تعرضت إلى بسط الغيوم فى كبد السماء، وتراكمها فوق بعضها، وفى الختام أشارت إلى خروج قطرات الأمطار من وسطها، فيقول: «فَيَبْسُطُهُ فِى السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ ويَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ».

و «الكِسَفْ»: على وزن (قِمَم) تعنى هنا تراكم قطعِ الغيوم حيث تستعد لنزول المطر، و «الودق» (على وزن خَلْقْ) تُطلقُ على الرذاذ الذى يشبه الماء، وفسَّرها البعض بأنّها قطرات المطر.

وفى نهاية الآية أُشير إلى استبشار عباد اللَّه أثر نزول المطر فيقول: «فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ».

وعليه فانَّ الرياح لا تُحرِّكُ الغيومَ فقط، بل تبسطها فى السماء ثم تضعها على بعضها

---

(١) «بُشْر» اسم مصدر وتأتى بمعنى اسم فاعل (مُبَشِّر) أيضاً.

وتقوم بتبريد أطراف الغيوم وإعدادها لإنزال المطر.

فالرياح شأنها شأن الرعاة ذوى الخبرة والتجربة حين يقومون بجمع قطيع الماشية فى وقتٍ محدَّدٍ من أطراف الصحراء ويسوقونها فى طريقٍ معينٍ، ثم يحضّرونها للحلب.

فلا سُمكُ الغيوم يكون بحد بحيث يمنع خروج قطرات المطر، ولا شدّة الرياح بالقدر الذى تمنع نزول هذه القطرات إلى الأرض. ولا تكون قطرات الأمطار صغيرة بالقَدْرِ الذى يجعلها تبقى معلقةً فى السماء، ولا كبيرة حيث تؤدّى إلى تدمير المزارع والبيوت، ولا يقتصر نزول المطر على بشارة الناس بالإعمار والازدهار فقط، بل إنَّه يُصَفّى ويُلطِّفُ الجو ويبعثُ على النشاط.

والملفت للنظر أنّ الآيات التى تلى هذه الآية من سورة الروم تُذكِّر بالرحمة الإلهيّة فى إحياء الأرض بعد موتها: «فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا». (الروم/ ۵۰)

ومن أجل إدراك مفهوم هذه الآية يكفينا مشاهدة صورٍ من بعض الصحارى والمزارع فى بعض المناطق فى أفريقيا كيف خيَّم عليها شبحُ الموت أثر الجفاف المستمر، ورحلت عنها ملائكة الرحمة والحياة.

وفى المقابل فإنّ هذه الأمواج اللطيفة للرياح التى تَخترقها قطراتُ الأمطار بسهولةٍ، تقوم أحياناً باقتلاع الأشجار الضخمة، وتُدمِّرُ المبَانى، وتختطفُ الإنسان معها إلى السماء ثم تقذفه إلى مكانٍ آخر إذا ما أمرت بذلك.

وتتعقبُ الآية الثانية هذا الموضوع أيضاً بشىءٍ من الاختلاف، فهى تصفُ الرياحَ بالمبشِّرات، وبالإضافة إلى مسألة نزول الأمطار فهى تشير إلى حركة السفن بواسطة الهبوب المنظَّم للرياح أيضاً، فجاء فى النهاية: «وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ولَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

ومن الممكن أن تكون عبارة «وَلِيُذِيْقَكُمْ مِّنْ رَّحْمَتِهِ» إشارة إلى بقية فوائد الرياح، كتلقيح الأشجار، ودفع العفونات وتصفية الأجواء وغيرها كما تمّ توضيحه فى تفسير الميزان «۱».

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۱۶، ص ۲۰۹.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۹۵

والحقيقة أنّ الإنسان لا يعرف قَدْرَ النعمةِ إلّاإذا سُلبت منه، فلو توقفت هذه الرياح والنسمات يوماً واحداً لأصبح العيش فى أجملِ البساتين والمزارع اسوأ من العيش فى مطامير السجون المظلمة، ولو هبَّت نسمةٌ على طامورةٍ انفراديةٍ فهى تضفى عليها صبغة الفضاء الطلق. ولو توقَّفَت الرياح فوق سطح المحيطات، وتوقّفت الامواج، فانَّ حياة الكثير من الاحياء المائية تتعرض إلى الخطر بسبب نقص الاوكسجين، وتتبدَّل البحارُ إلى مستنقعات متعفنة رهيبة.

واهتَّم فى الآية الثالثة بهذا الأمر أيضاً مع هذا التفاوت وهو اعتبار الرياحَ مقدمة لرحمته، ووصفَ الغيوم ب «الثِّقال» أى (الأحمال الثقيلة، جمع ثقيل) لانَّ الغيوم الممطرة اثقل من بقية الغيوم، وتكون قَريبة من الأرض، لذلك عبَّر عنها القرآن الكريم ب «الثِّقال».

و «اقلّت»: من مادة «إقْلالْ» وتعنى حملُ شىءٍ يكون خفيفاً بالنسبة لقدرة الحامل، فهو يعتبره قليلًا ولا قيمة له، إنّ وجود هذا التعبير فى الآية أعلاه يبرهنُ على أنّ الغيوم الثقيلة التى قد تحملُ معها ملايين الاطنان من المياه لا تُحمّلُ الرياح ثقلًا كبيراً، وهذا عرضٌ لقدرة اللَّه تعالى

وقد أشارت الآية الرابعة إلى أنّ ارسالَ الرياحِ لأداء هذا الدور العظيم هو أحد آثار عظمة الذات الإلهيّة المقدَّسة، إذ يُحيى الأراضى الميتة بواسطة هذه الرياح.

والجدير بالذكر هنا هو أنّ الآية استعملت كلمة «تثير» أى أنّ الرياح تُثير السُحبَ، وقد يكون هذا التعبير إشارة إلى تكوُّنِ الغيوم بسبب هبوب رياح المناطق الحارّة على سطح المحيطات حيث تؤدّى إلى تكاثف الغيوم، لأنَّ مسألة حركة الغيوم اخِذَتْ بالاعتبار فى

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۹۶

عبارة «فسقناه»، وعليه فانَّ الرياح لها أثرٌ مهمٌ فى حصول الغيوم، وكذلك فى تحريكها نحو المناطق الجافة، ورفعها إلى اعالى الجو وتهيئة الظروف لهطول الأمطار.

وذِكْرُ هذه العبارة بصيغة الفعل المضارع «تثير» إشارة إلى عمل السُحبِ الدائم والمستمر أيضاً.

على أيّةِ حال فانَّ هذه المسألة تُعتبر برهاناً على علم وقدرة الخالق جلَّ وعلا وكذلك دليلٌ على قدرته فى المعاد، ولهذا تمت الإشارة إلى مسألة المعاد فى ختام بعض هذه الآيات.

واستند فى الآية الخامسة من بحثنا إلى خلقِ سبعةِ أشياءٍ مختلفةٍ كآياتٍ ودلائل على علم وقدرة اللَّه تعالى ليستفيد منها المفكرون والعقلاء وهى: خلق السماء، والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفُلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس، والأمطار، وهبوب الرياح واختلافها، والسحب المعلقة بين الأرض والسماء.

واستند فى هذه الآية على مسألة الحركات المختلفة للرياح: «وَتَصْرِيْفِ الرِّياحِ»، وكذلك الغيوم المعلقة بين الأرض والسماء: «وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»، السحبُ التى تحمل ماء البحار فى أوساطها، وهى فى ذات الوقت معلقة بين الأرض والسماء، فهى تمثل فى الواقع أعظم آيات اللَّه، «فتحيى الأرضَ بنزول المطر وتبثُ أنواعاً مختلفةً من الدّواب على وجه الأرض»: «فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيْهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ».

وعندما نشاهد أنّ الرياح والغيوم قد ذكرت فى هذه الآية بعد نزول الأمطار فلعلّها من أجل الإشارة إلى هذه النقطة، وهى أنّ فائدة الرياح لا تنحصر بتحريك الغيوم وانزال المطر فحسب، بل لها فوائد جمّة اخرى تمّت الإشارة إليها سابقاً، وسيشار إليها فى نهاية الموضوع أيضاً.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٩٧

وبغض النظر عن كون الغيوم هى السبب فى هطول الأمطار، فإنّ الغيوم لوحدها تعتبر ظاهرة عجيبة أيضاً، لأنّها تحتفظ ببحارٍ من المياه وهى معلقةٌ بين الأرض والسماء «١».

وتستَند الآية السادسة إلى مسألة مياه شرب الإنسان، وتذكر موضوعاً جديداً حيث تقول: «أَفَرَأَيْتُم المَاءَ الَّذِى تَشْرَبُون* أَأَنْتُمْ أنزَلْتُمُوهُ مِنَ المُزْنِ أَمْ نَحنُ المُنْزِلُونَ»؟ ثم يضيف تعالى «لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ» فلو أنَّ ماء البحر يصطحبُ أثناء تبخره إلى السماء ذرّات الأملاح الصغيرة، وتنزلُ المياه المالحة والمرَّة من الغيوم لتحولّت الأرضُ إلى مملحةٍ، فلا ينمو نباتٌ، أو شجر، وإذا أراد الإنسان أن يدفع الموت عنه أثر العطش لم يستطع أن يتجرع شربةً من هذا الماء أبداً.

إنّ القدرة التى جعلت الماء يتبخر والأملاح الموجودة فى مياه البحار تبقى فى مكانها، هذه العملية التى أثرت على حياة الإنسان وغيرت مجراها بل أثرت على أوضاع كل المخلوقات على وجه الكرة الأرضية، هل يستطيع الإنسان أن يشكر هذه النعمة طيلة بقائه حياً فى هذه الدنيا؟

وكما قلنا فإنّ «المُزْن» تعنى الغيوم الممطرة و «الأجاج» تعنى الماء الشديد الملوحة أو المرارة.

وأشار فى الآية السابعة إلى هِبَتَين عظيمتين اخريين من هِبات اللَّه إلى عباده وهما: هبةُ الهداية فى ظلمات البر والبحر «بواسطة النجوم»، وهبةُ ارسال الرياح كمبشِّراتٍ قبل نزول أمطار رحمته، فحيثما تنزلُ الأمطار تصدحُ الحياة بنغماتها وتكون أساساً لأنواع الخير والبركة.

---

(١) يجب الانتباه إلى أنّ السحاب: البخار المتراكم وتسميه العرب (ضباباً)- بالفتح- مالم ينفصل من الأرض فإذا انفصل وعلا سُمّى (سحاباً وغيما وغماماً)، (تفسير الميزان ج ١، ص ٤١١).

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٩٨

ويستند فى نهاية الآية على هذين الموضوعين كوثيقةٍ لإثبات وحدانية اللَّه تعالى ويخاطب المشركين: «أَ إِلهٌ مَعَ اللَّه تَعَالى اللَّهُ عَمَّا

يُشْرِكُونَ»، ولعلَّ ذكرُ هاتين الهيَتين معاً إشارةٌ إلى هذا المعنى وهو عندما يكون الجو صافياً يمكن الاستفادة من النجوم ليلًا في الإهتداء إلى الطريق للوصول إلى الهدف، وإذا كان الجو غائماً فثمة رحمة أخرى وهي المطر ينالها الإنسان، إذنْ ففي كلا الحالتين هناك موهبة ورحمةٌ، وهو برهانٌ لمعرفة الذات الإلهيّة المقدّسة.

وفي الآية الثامنة إشارة إلى مسألة الرياح ونزول الأمطار بتعبيرٍ جديد، فيقول:

«وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ».

هل أنّ المقصود من الآية الكريمة هو حمل حبوب اللقاح بواسطة الرياح لتلقيح النباتات التي ستحمل الفواكه والثمار من بعد ذلك، أم المقصود هو تلقيح السحاب لكي يحمل المطر؟

وبالنظر لقوله في تكملة الآية: «فَأَنْزَلنَا مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ»، فيظهر أنّ المعنى الثاني أكثر تناسباً، بالرغم من إمكانية الاستفادة من المعنيين معاً.

على أيّة حال، فانَّ التعبير أعلاه تعبيرٌ لطيفٌ جداً حيث شَبَّه قِطعَ الغيوم بالامهات والآباء، فتتلاقح هذه الغيوم عن طريق الرياح ثم تحملُ، وتضعُ جنينها أي قطرات الأمطار على الأرض!

ويشيرُ في ختام الآية إلى المياه الجوفية المخزونة تحت الأرض، والتي هي من الذخائر الإلهيّة للناس، فيقول: «وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ».

فنحن الذين أمرنا طبقات الأرض أن تحتفظ بمياه الأمطار الصافية في داخلها، وقد تكون الآبار والقنوات التي تستخدمونها اليوم هي من احتياطي المياه التي ذُخرت لكم منذ ملايين السنين في باطن الأرض، من غير أنْ تَتلوث أو تتعفن.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۹۹

وقد نقوم بخزنها عن طريق تجميدها في قمم الجبال على هيئة جليد وثلج كي تصبح ماءً بشكلٍ تدريجيٍ، ونسقيكم أنتم وحيواناتكم ومزارعكم، وربّما تكون المياه التي تنحدر من القمَّة الفلانية اليوم مخزونةً منذ ملايين السنين.

وفي الآية التاسعة، فبالاضافة إلى إشارته إلى نزول الأمطار من السماء، فهو يشير إلى مسألة تكوُّنِ الينابيع، فيقول: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ انْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيْعَ».

و «ينابيع»: جمع «ينبوع» وتعني العَيْن، وهي في الأصل مأخوذة من مادة (نَبْعْ) وتعني انبثاق الماء من الأرض، ومن الطبيعي إنَّ تكوُّنَ الينابيع في الأرض الذي يجعل الإنسان يستفيد من الماء الجاري بدون الحاجة إلى قوة اخرى يتبع ظروفاً خاصةً أولُها: أن تكون طبقة الأرض قابلة للاختراق كي يتغلغل الماء خلالها، ثم يجب أن يكون ما تحت هذه الطبقة صلداً كي يتوقف الماء ويُخزنَ هناك، وأن يكون هناك فارقٌ في المستوى بين خزانات المياه والمناطق الاخرى حتى ينسابَ الماء من هناك إلى بقية النقاط، ومن المسلَّم به استحالةُ تناسق هذه الأمور لولا تخطيط مُبدىء العلم والقدرة.

ويضيف في سياق الآية: «ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعَاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ».

فيمكنُ أنْ يكون اختلاف الألوان هذا إشارة إلى ألوان النباتات المختلفة تماماً، أو إشارة إلى أنواع النباتات وأزهار الزينة والاعشاب الطبية والصناعية والخضروات التي يأكلها الإنسان والتي لها أنواع لا تحصى في الواقع.

أَجَل .. إنّ اللَّه تعالى يستخرج من هذا الماء الذي لا لون له مئات الآلاف من ألوان الورود والنباتات المنتشرة في هذه الرياض الكثيرة، وكما يقول الشاعر نقلًا عن اللغة الفارسية:

فإذا توصَّلت إلى أسرارها ستعرف أنّ هذا هو سر الأسرار حيث هناك واحدٌ ولا يوجد غيره «وحده لا اله إلّاهو» لهذا فهو يقول في نهاية الآية: «إِنَّ في ذلِكَ لَذِكْرى لأُولي الأَلْبَاب».

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۰۰

وقد أُشير في الآية العاشرة إلى نكتةٍ جديدة اخرى فيقول: «وَأَنْزَلْنا مِنَ المُعْصِراتِ مَاءً ثَجَّاجاً».

و «مُعْصِرات»: جمعُ (مُعْصِر) من مادة «عَصْر» وتعنى الضغط، والمُعصرات تعنى الضاغطات، وما هو المقصود هنا بهذا التعبير؟ لقد ذكروا تفاسير متعددة: فالبعض اتخذها صفةً للغيوم، إذ اعتبرها إشارة إلى نظام خاص يتحكم بها عندما تتراكم على بعضها، فكأنّما تعصِر نفسها كى تجرى الأمطار منها، واعتبر هذا التعبير من المعاجز العلمية للقرآن الكريم «١».

إلّا أنّ البعض الآخر اتخذها صفةً للرياح، واعتبرها إشارة إلى العواصف الرملية والأعاصير الشديدة والزوابع الترابية، حيث لها تأثيرٌ عميق فى تكوين الأمطار والرعد والبرق (علماً أنّ «الإعصار» يعنى ريح ترتفع بالتراب أو بمياه البحار).

فيقول هؤلاء .. أثناء هبوب العواصف الرملية الشديدة على سطح البحار والمحيطات فانّها تحمل معها البخار من على سطح المحيط، وحينما تصل به إلى نقاط الجو العليا الباردة جدّاً، وحيث تكون قدرة إشباع البخار هناك ضعيفة، يحصل الرعد والبرق الشديد، وبما أنّ «ثجّاجاً» صيغة للمبالغة، وهى من مادة «ثَجّ» على وزن (حَجّ) وتعنى سكب الماء تتابعاً وبكثرة فهى تتناسب كثيراً مع مثل هذا الرعد والبرق «٢».

واعتبرها البعض إشارة إلى الغيوم التى تتزامن مع العواصف الرملية والأعاصير «٣»، فهذه العواصف تسوق الغيوم نحو الأعلى وتأخذها نحو مناطق الجو الباردة حيث تتبدّل هناك إلى قطرات من الماء، وبما أنّ هذا العمل يتمّ سريعاً فهو يولد زوابع رعدية شديدةٍ و «الماء الثجّاج»، ونلاحظ كثرة مثل هذه الزوابع الرعدية فى فصل الربيع ولعله بسبب كثرة حالات الزوابع الرعدية والعواصف فى هذا الفصل.

---

(١) راجع كتاب الريح والمطر، ص ١٢۶.

(٢) اعجاز القرآن فى نظر العلوم المعاصرة، ص ۶٧.

(٣) التفسير الكبير، ج ٣١، ص ٨ إذ ذكر هذا المعنى كأحدِ التفاسير لهذه الآية.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٠١

ويضيف فى سياق هذه الآيات: «لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً* وَجَنَّاتٍ الْفَافاً»، ويشمل هذا التعبير جميع أنواع النباتات والحبوب وأشجار الفاكهة.

وفى الآية الحادية عشرة، وبعد بيان ما جاء فى الآيات السابقة: «وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ»، يَرِدُ ما يلى: «وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّماءِ مَاءً طَهُوْراً».

وهذا موضوع جديدٍ حيث يستند إليه فى هذه الآية.

و «الطّهور»: صيغة مبالغة من «الطهارة» والنقاوة حيث تفيد طهارةَ الماء وكذلك كونه مطهّراً، ولو لم تكن للماء صفة التطهير لتلوثت كلُّ مقومات حياتنا واجسامنا وأرواحنا خلال يومٍ واحد، ويمكن أن نلمسَ حقيقة هذا الكلام إذا ما ابتُلينا تارة بفقدان ماء للتنظيف، حينها يصعبُ توفير الغذاء، وسنفقد نظافة الجسم والنشاط والطراوة والصحة والسلامة.

صحيحٌ أنّ الماء لا يقتل الجراثيم ولكنّه (مُذيب) جيد فهو يقوم بتحليل أنواع الجراثيم وإزالتها، ولهذا فهو عاملٌ مؤثرٌ فى تأمين السلامة، ويطهِّرُ روحَ الإنسان من الأدران عن طريق الوضوء والغُسل أيضاً.

وليس عبثاً أن يأتى فى الآية: «لِنُحْىَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً».

ثم نواجه فى الآية الثانية عشرة والأخيرة مسألةً جديدةً وهى أنّ اللّه تعالى يسوق المياه إلى الأرض «الجُرُز» أى الجافة اليابسة الخالية من الكلأ، فيقول: «أَوَلَمْ يَرَوا انَّا نَسُوقُ المَاءَ إِلَى الأَرْضِ الجُرُزِ»؟! «فَنُخرِجُ بِه زَرَعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وأَنْفُسُهُمْ»، فيأكلون الحبوب وتأكل بهائمهم السوق والأوراد والجذور.

ويستفاد من كلام أرباب اللغة أنّ «الجُرُز» ماخوذة فى الأصل من مادة (جَرَز) على وزن (مَرَضْ) وتعنى (الانقطاع) أى انقطاع الماء، والنبات، والإعمار والطراوة، ولذا يقال

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۰۲

للناقة التى تأكل وتقطع كل شىء ب «ناقة جروز»، ولمن يأكل كل ما موجود على خوان الطعام ويفرغها تماماً ب «رجل جروز» «۱»

.

ويقول فى نهاية الآية داعياً إلى التفحص فى هذه النِعَم الإلهيّة العظيمة وآيات التوحيد:

«أَفَلا يُبْصِرُوْنَ».

ولكن لماذا تقدمت «الانعام» على الإنسان فى الآية المذكورة؟ يقول بعض المفسِّرين:

لأنَّ الزرعَ أول ما ينبت يصلح للدواب ولا يصلح للإنسان بالإضافة إلى أنّ الزرعَ غذاء الدَّواب وهو لابدَّ منه، فى حين أنّ للإنسان اغذية اخرى «۲».

النتيجة:

يستفادُ جيداً من الآيات الآنفة وبالانتباه إلى المسائل الدقيقة والظريفة التى انعكست فيها، أنّ هناك نظاماً دقيقاً جدّاً ومضبوطاً يسود وجود الرياح والغيوم والأمطار، حيث كلّما أطالَ الإنسان التمعُن فيها تزداد معرفته بالظرافة والمنافع والبركات الكامنه فيها.

فقد اعتُبر الماء فى بعض هذه الآيات أساساً للحياة، وفى بعضها وسيلةً للنظافة، وفى بعضها كموجودٍ مباركٍ (سورة ق، ۹)، وفى البعض الآخر كمشروبٍ سائغ «مَاءً فُراتاً».

(المرسلات/ ۲۷)

ومن مجموع ذلك فاننا أينما وجهنا النظر وحدقنا نعثر على آثار حكمة اللَّه البالغة، وأينما يقع بصرُنا تتجلى لنا صورة من العظمة الإلهيّة.

توضيحات

۱- تكوين الرياح وفوائدها

إنَّ مصدرَ حصول الريح هو الاختلاف فى درجة الحرارة بين منطقتين مختلفتين من

(۱) التحقيق فى كلمات القرآن الكريم، و مصباح اللغة.

(۲) تفسير الكبير، ج ۲۵، ص ۱۸۷.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۰۳

الأرض، ويمكن تجربة هذا أثناء فصل الشتاء حيث يكون هواء الغرفة حاراً وفى خارجها بارداً، فلو وضعنا شمعتى إضاءة عند طرفى الباب العلوى والسفلى وفتحنا الباب قليلًا سيتضح هذا الأمر جيداً إذ إنَّ الهواء البارد وبسبب ثقله يدخلُ من الاسفل والهواء الحار يخرج من الأعلى لخفّته فيحرك شعلةَ الشمعة باتجاهه (إنَّ الهواء الحار يكون ممدداً وخفيفاً والهواء البارد مضغوطاً ثقيلًا) ولو لم تكن هذه الصفة وتتوقف الرياح عن الحركة فاىُّ بلاءٍ عظيمٍ سينزل على الإنسان؟!).

كما نعرفُ أيضاً أنّ للكرة الأرضية ثلاث مناطق، فالمنطقة الباردة (الأطراف القطبية)، والحارّة جدّاً (المناطق الاستوائية)، والمعتدلة (المناطق التى تتوسط هاتين المنطقتين).

وهذا الاختلاف فى درجات الحرارة على الأرض يكون سبباً فى انتقال الهواء من جهةٍ إلى اخرى وأهمّه الرياح التى تُسمى «الرياح

القطبيـة» (وهى الرياح التى تهبُّ من القطب نحو المنطقة الاسـتوائية ولأنّها تكونُ باردةً فهى تسـير بالقرب من سـطح الأرض)، والرياح «الاستوائية» (وهى الرياح التى تهبُّ من المنطقة الاستوائية نحو القطب وبما أنّها تكون حارَّة فهى تتحرك فى طبقات الجو العليا) «۱».

فضـلًا عن أنّ ماء المحيطات لا يكون حاراً كحرارة السواحل أثناء شـروق الشـمس، إضافة إلى أنّ ماء البحر يفقد حرارته ليلًا اسرعُ ممّا يفقده الساحل، فهذا الاختلاف فى درجات الحرارة بين ماء البحر والساحل يتسـبب أيضاً فى هبوب الرياح باسـتمرار من البرّ إلى البحر ومن البحر إلى البّر أيضاً.

وإضافة إلى كل هذا فانَّ كروية الأرض تؤدّى إلى أن تقع بعضُ المناطق فى مواجهة الشـمس مباشـرة (أثناء الظهر)، وأن تَشَّعَ الشمسُ على المنـاطق الاـخرى بشـكلٍ مائلٍ (أثنـاء الشـروق والغروب)، فهـذا الاختلاـف فى درجات الحرارة أحـد أسـباب حصول الرياح فى مختلف المناطق أيضاً (وكذلك هناك عوامل معقّدة اخرى .

وتتظافر هذه الأسباب فى تحريك الرياح فى سائر انحاء الكرة الأرضية وتتزامن معها

---

(۱) اعجاز القرآن فى نظر العلوم المعاصرة، ص ۶۵.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۰۴

الفوائد الجمَّة التالية التى تمَّت الإشارة إليها فى الآيات السابقة:

۱- للرياح نصيبٌ مهمٌ فى تكوين الغيوم بسبب هبوبها على المحيطات.

۲- إنّ الرياحَ تصطحبُ معها الغيوم إلى المناطق الجافة واليابسة ولولاها لاحترقَ جانبٌ كبير من الكرة الأرضية بسبب الجفاف.

۳- إنّ الرياحَ تلطِّفُ الجوَّ وتجلبُ الاوكسجين الضرورى من المناطق البعيدة.

۴- إنّ الرياحَ تأخذ معها التلوث حيث تساعد فى تنقية الجو عن هذا الطريق.

۵- إنّ الرياحَ تُقللُ من شدّة حرارة الشـمس على أوراق النباتات، وتمنع احتراقها بهذه الأشـعة، وبصورة عامة فانّها وسيلةٌ مهمةٌ لاعتدال الجو فى بقاع الأرض.

۶- إنّ الرياح- وكما قلنا فى تفسير الآيات- تعصُر الغيوم وتُعدُّها لإنزالِ المطر.

۷- إنّ الرياح تسوقُ الغيوم نحو طبقات الجو العليا، وبسبب البرودة وفقدان قدرة تحمل الاشباع تتحول إلى قطرات مطرٍ تهبُ الحياة.

۸- إنّ الرياح تُحرِّك السفن الشراعية فى المحيطات، كما أنّها تُعتبر أحد المصادر المهمّة للطاقة.

۹- تُستخدم الرياح لتشغيل الطاحونات الهوائية.

۱۰- إنّ الرياح تُعتبرُ وسيلة مهمة جدّاً للمزارعين فى تصفية الحنطة وغيرها وعزلها عن التبن.

۱۱- إنّ الرياح تعملُ على تحريك مياه البحر فتحصل الأمواج وهذه الأمواج تؤدّى بدورها إلى اختلاط الهواء مع الماء، فيكون أساساً لحياة الموجودات فى البحر، ولولا الرياح والأمواج لتبدَّل البحر إلى مستنقعٍ آسن لا حياة فيه.

۱۲- وختاماً فـانَّ الريـاح تساهم فى تلقيـح النباتات، إذ تحمل حبوب اللقاح إلى الأجزاء الانثويـة، ولو تقاعست عاماً واحـداً لتناقصـت كمية الفاكهة المنتجة لدينا!

هـذا جانبٌ من بركات هبوب الرياح الـذى توصَّلَ إليه العلمُ البشـرى حتى الآن ومن المسـلَّم به أنّ بركاتها لا تنحصـر بما قلناه، وينبغى الانتظار حتى يرفعَ العلمُ الحجابَ عن

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۰۵

أسـرار جديـدة، ولكن كُلًا من الامـور المـذكورة أعلاـه يكفى لوحـده أن يبرهنَ لنـا على علم وقـدرة الخـالق جـلَّ وعلا، ناهيك عن مجموعها، فكم هو رحيم ورؤوف ذلك الإله الـذى يُكُنُّ لعباده كلَّ هـذا العطف والمحبّة، وكَمْ مليئة ب (البركة) تلك «الحركة» التى

تترك كل هذه الآثار الايجابية المهمّة أثناء هبوب ذرات الهواء؟.

٢- أسرار تكوين الغيوم وهطول الأمطار

لا يخفى أنّ الغيوم هى ذرّات بخار الماء، أو بتعبير أكثر دقّة هى ذرات الماء التى انفصلت جزئياتها عن بعضها وتحولت إلى بخار.

إنَّ التمعنَ فى ما يخص تكوّن الرياح والأمطار يكشف لنا أسراراً لطيفةً عن هاتين الظاهرتين العجيبتين، منها:

١- إنّ أغلبَ السوائل لا تتبخر إذا لم تصل إلى درجة الغليان، إلّاأنَّ الماء من السوائل المستثناة حيث يتبخر فى أى درجة من الحرارة، ولولا هذه الميزة فى الماء لما تبخرت قطرة واحدة من ماء البحر، ولما تكوّنت الغيوم، ولما نزلت المطر ولاحترقت اليابسة من الجفاف.

٢- وهذا ما يجدر بالاهتمام أيضاً، فأثناء عملية التبخر يتبخر الماء الصافى فقط، وتبقى الأملاح والذّرات الاخرى التى فيه فى مكانها، أى أنّ هناك عملية تصفيةٍ طبيعية كى ينالَ البشرُ المياهَ الصالحة.

٣- لو لم تكن الطبقات العليا من الجو أكثر برودة من الطبقات السفلى لما امطرت الغيوم المضطربة فى الجو أبداً، ولكن هذا الاختلاف فى درجات الحرارة هو الذى يؤدّى إلى نزول الأمطار، وكذلك لو كانت قدرة إشباع ذرات البخار متساوية فى الهواء البارد والحار لما نزلت الأمطار، ولكن بما أنّ الهواء البارد له قدرةُ إشباعٍ ضعيفة فانّه يُنزلُ البخار الذى تحول إلى ماءٍ.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٠٦

٤- إنّ الأمطار إضافة إلى توفيرها للماء الضرورى لنمو النباتات، تقوم بغسل الأرض وتحمل الأوساخ معها نحو البحار.

٥- إنّ الأمطار تُنّظفُ الجوَّ أيضاً، وتقوم بإنزال التراب والغبار والذّرات المعلَّقة فى الجو التى تذوب فيها إلى الأرض، ولولا هطول الأمطار لتلوَّثَ الجو بعد مدةٍ قصيرة واستحالَ التنفُس على الإنسان.

٦- إنّ الأمطار تغسلُ صخور الجبال شيئاً فشيئاً، ليخرجَ منها التراب الذى يمكن استثماره، فتمتد السهول الواسعة على سطح الأرض.

٧- إنّ الأمطار تحمل معها الاتربة الغنيّة من المناطق البعيدة وتنشرها فى المزارع لتقويتها، كما يجلب جريان الماء معه أفضل الاسمدة الطبيعية للنباتات إلى بعض المناطق (كسواحل النيل).

٨- إنّ الأمطار لا تهبُ الحياة فى المناطق الجافة فحسب، بل إنَّ هطول الأمطار على البحار يُعتبر مؤثراً للغاية أيضاً، وليس أقل من تأثيره فى المناطق اليابسة كما يقول بعض العلماء، لأنَّ سقوط الأمطار فى البحر يساعد على نمو النباتات الصغيرة فى وسط أمواج المياه، حيث تكون طعاماً مناسباً جدّاً للاسماك والاحياء البحرية، وفى السنة التى يقلُّ فيها نزول الأمطار يسوء فيها وضع الصيد.

٩- إنّ ارتفاعَ الغيوم عن سطح الأرض أكثر من ارتفاع اعلى نقاط الأرض ولهذا فلا تُحرم أيةُ بقعةٍ من الاستفادة من ماء المطر.

١٠- إنّ العديد من أشجار الغابات والأعشاب الطبية والغذائية تنمو على سفوح الجبال الشاهقة، وهذا يدل على أنّ الأمطار تقوم بإيصال الكمية اللازمة من الماء إليها، ولولا الأمطار لاصبحت هشيماً يابساً.

١١- لو تأملنا جيداً بالسدود الضخمة التى أنشِئَتْ فى عصرنا هذا والتى تُؤمِّنُ جانباً مهماً من الطاقة الكهربائية فى العالم، وتقوم بتشغيل المعامل العملاقة لوجدناها من بركات هطول الأمطار على المناطق الجبلية.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٠٧

١٢- إنّ بعض ترشحات الغيوم تنزلُ إلى الأرض على هيئةِ جليدٍ فتتراكم على قمم الجبال كمصادر للمياه، وتقوم بتغذية خزانات المياه الموجودة تحت الأرض أيضاً لأنّها تذوب تدريجياً وتَنْفُذُ داخل الأرض، ولكن لو تساقط الجليد باستمرار بدلًا من المطر تنعدم عندئذٍ الكثير من المنافع التى ذُكرت.

١٣- الغيوم بحار معلقة فى السماء، وما أعظمَ الإله الذى يُرسلُ كلَّ هذا الماء إلى السماء خلافاً لقانون الجاذبية، ويقوم بنقله بسهولةٍ من نقطةٍ إلى اخرى

۱۴- بالاضافة إلى كل هذا فانَّ للغيوم تأثيراً ملموساً فى خفض درجة الحرارة شتاءً وخفض درجة الحرارة صيفاً.

۱۵- إنّ الغيوم تحمل الشحنات الكهربائية المختلفة حيث تؤدّى إلى وقوع الرعد والبرق، وسوف نتحدث عن هاتين الظاهرتين فى البحث الذى يتعلق بالرعد والبرق إن شاء اللَّه.

وعلى العموم فانَّ هاتين الظاهرتين اللّتين نعتبرهما من الامور العادية جدّاً نتيجة لأُنْسِنا بهما، مدهشتان ومليئتان بالأسرار، ويمكن مشاهدة آيات التوحيد العظيمة فى أعماق أسرارهما، والوصول إلى عظمة تلك الذات المقدّسة من خلال هذه الآيات العظيمة.

۳- الرياح والأمطار فى الروايات

نقرأ فى الحديث المعروف بتوحيد المفضّل عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«وانبهك يا مفضل على الريح وما فيها، ألست ترى ركودها إذا ركدت كيف يحدث الكرب الذى يكاد أن يأتى على النفوس، ويمرّض الأصحاء وينهك المرضى ويفسد الثمار، ويعفّن البقول، ويعقّب الوباء فى الأبدان، والآفة فى الغلات ففى هذا بيان أنّ هبوب الريح من تدبير الحكيم فى صلاح الخلق.

ولو أنّ ملكاً من الملوك قسّم فى اهل مملكته قناطير من ذهب وفضة ألم يكن سيعظم

عندهم ويذهب له به الصوت؟ فأين هذا من مطرة رواء؟ إذ يعمر به البلاد ويزيد فى الغلّات أكثر من قناطير الذهب والفضة فى أقاليم الأرض كلها.

تأمل نزوله على الأرض والتدبير فى ذلك فانّه جعل ينحدر عليها من علو ليتفشّى ما غلظ وارتفع منها فيروّيه ولو كان إنّما يأتيها من بعض نواحيها لما علا على المواضع المشرفة منها ويقل ما يزرع فى الأرض وبها يسقط عن الناس فى كثير من البلدان مؤونة سياق الماء من موضع إلى موضع، وما يجرى فى ذلك بينهم من التشاجر والتظالم حتى يستأثر بالماء ذوو العزة والقوة ويحرمه الضعفاء. ثم إنّه حين قدّر أن ينحدر على الأرض انحداراً جعل ذلك قطراً شبيهاً بالرش ليغور فى قطر الأرض فيرويها ولو كان يسكبه انسكابا كان ينزل على وجه الأرض فلا يغوُر فيها ثم كان يحطم الزرع القائمة إذا اندفق عليها فصار ينزل نزولا رقيقاً فينبت الحب المزروع وفى نزوله أيضاً مصالح اخرى فانّه يلين الأبدان ويجلو كدر الهواء فيرتفع الوباء الحادث من ذلك ويغسل ما يسقط على الشجر والزرع من الداء».

ويقول فى جانب آخر من الرواية:

«فكّر يا مفضل فى الصحو والمطر كيف يعتقبان على هذا العالم لما فيه صلاحه، ولو دام واحد منهما عليه كان فى ذلك فساده، ألا ترى أنّ الأمطار إذا توالت عفنت البقول والخضر واسترخت أبدان الحيوان وخصر الهواء فأحدث ضروباً من الأمراض وفسدت الطرق والمسالك وأنّ الصحو إذا دام جفّت الأرض واحترق النبات وغيض ماء العيون والأودية فأضرّ ذلك بالناس وغلب اليبس على الهواء فأحدث ضروبا اخرى من الأمراض فإذا تعاقبا على العالم هذا التعاقب اعتدل الهواء ودفع كل واحد منهما عادية الآخر فصلحت الأشياء واستقامت» «۱».

ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام السجاد عليه السلام:

«أنزل من السماء ماءً يعنى المطر ينزله من أعلى ليبلغ قلل جبالكم وتلالكم وهضابكم

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۱۱۹- ۱۲۶ (مع الاختصار).

واوهادكم ثم فرقه رذاذاً ووابلًا وهطلًا لتنشفه ارضوكم، ولم يجعل ذلك المطر نازلًا عليكم قطعة واحدة فيفسد أرضيكم وأشجاركم وزرووعكم وثماركم» «١».

۴- لقد كشفت البحوث الحديثة للعلماء النقاب عن أسرار جديدة وبيَّنَتْ التأثيرات المهمّة للرياح فى نزول الأمطار بكيفية جديدة حيث يُعتبر التوضيح الآتى نموذجاً منه (يجب توفر شرطين لتكوين الغيوم وهطول الأمطار) وهما:

١- وجود بخار الماء فى الهواء.

٢- تشَبُّع الهواء بالبخار وتقطيره.

أمّا فيما يتعلق بالشرط الأول فبالرغم من أنّ الهواء لا يخلو على الاطلاق من بخار الماء وتبلغ ادنى نسبة له نحو ۵٠ غراماً فى المتر المكعب، إلّاأنّ هذا المقدار من الرطوبة لا يكفى لتكوين الغيوم ونزول الأمطار، بل يجب امدادها باستمرار، أى يجب أن يصل هواءٌ جديدٌ مُحمَّلٌ ببخار الماء بعد تكوين الغيوم ونزول الأمطار تباعاً، ويستمر هبوب الرياح، ويكون انطلاقها أو مسيرتها من البحر أو الغابات الكثيفة كى تتزود من الرطوبة بالمقدار اللازم.

وأمّا الشرط الثانى أى الوصول إلى حالة الاشباع وحصول ظاهرة التقطير (تعرُّق الهواء وتحول البخار إلى سائل) فهذا يستلزم برودة الهواء، كما يحدث فى الشتاء إذ يَتعرق زجاج شبابيك الغرف التى تحتوى على ما يكوّن البخار كالسماور والقدر ....

والعامل الوحيد المؤثر فى برودة الهواء والذى يوصله إلى مرحلة تكوين الغيوم والتقطير هو ارتفاع الهواء وعلوه، ويحدث ارتفاع الهواء على ثلاثة أشكال أو فى ثلاث حالات، وينزل فى كل حالةٍ منها مطرٌ خاصٌ وهى:

أ) اصطدام الهواء بالأجزاء البارزة من الأرض والصعود من وسط الجبال حيث تنتج عنه الأمطار الجبلية.

ب) حرارة وخفَّةُ الهواء وصعوده السريع اثر اشعة الشمس وملامسة المناطق الحارة وتنتج عنه (أمطار العواصف).

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ۴١؛ بحار الأنوار، ج ۵۶، ص ٣۴۴- ٣٧۴ أيضاً وردت روايةٌ أشارت إلى أسرار تكوُّنِ الغيوم والمطر.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢١٠

ج) اصطدام جناحى الهواء الحار والبارد وتقلبهما وتنتج عنه (الأمطار الغزيرة)، وأنَّ الغيوم والأمطار كافة تنشأ عن أحد هذه الحالات الثلاث واهمها النوع الأخير.

اذن فالهواء يرتبط بالغيوم والأمطار فى كل المراحل فهو يتدخل ابتداءً من حمل البخار وايصاله إلى المناطق الجافة، مروراً وانتهاءً بهزّ الغيوم وانزال المطر، وليس من الممكن حصول الغيوم والأمطار بدون الهواء، والمعروف أنّ الغيوم ليست سوى الهواء (أى الهواء المحمَّل بالماء).

وورد فى قسمٍ آخر من هذا البحث: «إنَّ قطرات الأمطار تهطل من الغيوم المتكونة من عدّة طبقات والتى ترتفع أكثر من عشرة كيلو مترات، وهذه الغيوم العارية الصاخبة تظهر على هيئة جبالٍ حيث يُغطى القسم الأعلى منها بقضبان الثلج وقطع الجليد وقد تكون ممتلئة بالبرَدِ».

وحتى قبل الحرب العالمية الاولى حيث تمكنت الطائرات حينذاك من الارتفاع فوق الغيوم وشاهد الطيارون الستائر المتكونة من الجليد والناشئة من الغيوم المتصاعدة، لم يكن لأى شخصٍ علمٌ بوجود الجليد والبَرَدِ فى غيوم السماء.

«فالصعود المتقلِّب الاطبقى للرياح الرطبة والحارة يؤدّى إلى تكوين جبالٍ عاليةٍ من الغيوم المتجمدة التى تتزامن مع الزوابع الشديدة وسط الرعد والبرق المتتابعين» «١».

ويمكن أن يعطى هذا التوضيح تفسيراً جديداً للآية ۴٣ من سورة النور ويرفع الحجاب عن معجزة علمية لطيفة للقرآن الكريم، حيث يقول: «وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيصْرِفُهُ عَن مَّنْ يَشاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ» فأىُّ جبلٍ فى

السماء توجدُ فيه قطع البَرَدِ؟ هذا السؤال الذى كان صعباً ومعقداً بالنسبة للكثيرين، ولهذا فقد ذكروا له عدة تفاسير.
ولكن من خلال الاكتشافات أعلاه يتضح عدم الحاجة إلى التبرير والتقدير والمجاز وامثال ذلك لتفسير الآية المذكورة، ويتبينُ معنى الآية فى ظل هذا الأمر «٢».

---

(١) الهواء والمطر، ص ٥٧- ٦٥ (مع الاختصار).

(٢) من أجل المزيد من الايضاح يراجع التفسير الأمثل، ذيل الآيه ۴٣ من سورة النور.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢١١

١٢- آياته فى حدوث الرعد والبرق

التمهيد:

هنالك القليل ممن يولى ادنى اهتمام لهاتين الظاهرتين السماويتين قبل دراسة أسرار الرعد والبرق، وعادةً ما يمرُّ الجميعُ عليها مرور الكرام، ولعلَّ بعضهم ينظرُ إليها وكأنَّها مزاحُ الطبيعة، كما يتحدث بعض آخر حولها بقصصٍ خرافية، إلّاأنّ الحقيقة هى أنّ هاتين الظاهرتين تحدثان من خلال نظامٍ خاصٍ، ولهما آثارٌ وبركاتٌ جديرةٌ باهتمام الإنسان حيث سيأتى شرحها فى تفسير الآيات الآتية.
بعد هذا التمهيد نقرأ خاشعين بعضَ آيات القرآن الكريم فى هذا المجال:
١- «وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيْكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا انَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِّقَومٍ يَعْقِلُونَ». (الروم/ ٢۴)
٢- «هُوَ الَّذِى يُرِيْكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ». (الرعد/ ١٢)
٣- «وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيْفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيْبُ بِهَا مَنْ يَشَآءُ». (الرعد/ ١٣)

شرحُ المفردات:

«البرق»: كما يقول الراغبُ فى المفردات تعنى فى الأصل النورَ الذى يظهر من الغيوم، ثم استُعملت للتعبير عن كل شيءٍ ساطعٍ، فمثلًا يقال للسيفِ اللامعِ: (السيفُ البارق).
نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢١٢
إضافة إلى ذلك، يستفاد من «مقاييس اللغة» أنّ «البرق» له معنى آخر، وهو اجتماع السواد والبياض فى شيءٍ واحدٍ، ولكنَّ الظاهر أنَّ المعنى الثانى يعود إلى المعنى الأول، السواد عندما يكون إلى جانب البياض يُبدى بريقاً أكثر، كما اعتبر بعضٌ مفهومَ الشِّدةِ والضغط جزءاً من معنى البرقِ أيضاً فيقولون: إنّ البرقَ واللمعان يحدثان بشكل خاص من خلال الشدَّة والضغط «١».
ويقول «الراغب» إنّ «الرعد» هو صوت الغيوم، ويستعمل كناية أيضاً عن تحطُّم وسقوط الشىء الثقيل المتزامن مع الصوت، إلّاأنَّ صاحب «مقاييس اللغة» ذكرَ أنَّ معناه الحقيقى هو الحركة والاضطراب، ولكن بصورة عامة، يستفاد جيداً من كتب اللغة أنّ المعنى الحقيقى هو الصوت الذى ينطلق من الغيوم، وبقية المعانى لها صبغةٌ كنائية.
و «الصواعق»: جمع «صاعقة»، وتعنى فى الأصل الصوت الشديد المهيب الذى ينطلقُ من الجو مصحوباً ببريقٍ ناريٍّ عظيم، وجاءت هذه المادة أيضاً بمعنى الذهول بسبب سماع الاصوات القوية، وقد تستعمل بمعنى الهلاك أيضاً.
وقال بعض أرباب اللغة: إنَّ موارد استعمال الصاعقة ثلاثة وهى: «الموت» و «العذاب» و «النار» «٢»

إلّاأنّ الظاهر أنّ جميعها من لوازم المعنى الحقيقى.

جمع الآيات وتفسيرها

أسرار خلق الرعد والبرق:

تعتبرُ الآيةُ الاولى من البحث بشكل صريح، أنّ برقَ السماء من آيات اللَّه فتقول: «وَمِنْ آياتِهِ يُرِيْكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً». هذه الآيةُ تارةً تذكر الخوف وأحياناً الأمل والرجاء.

الخوف الناتج عن الصوت المهيب الذى يرافق الرعد، واحتمال تزامنه مع صاعقةٍ

---

(١) التحقيق فى كلمات القرآن الكريم، مادة (برق).

(٢) مفردات الراغب، ولسان العرب؛ والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢١٣

مميتة، والأمل والطمع بسبب احتمال نزول المطر، لأنّه فى كثير من الحالات يعقبُ الرعدَ والبرقَ زوابع مليئةٌ بالبركة.

ولعلَّه لهذا السبب يضيف فى سياق هذه الآية: «وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا».

فالأرضُ اليابسة والمحترقة تحيى بقليلٍ من المطر والغيث الذى يهب الحياة، بحيث تنتعش الأزهار والنباتات فيها وكأنها ليست تلك الأرض السابقة.

ولهذا يضيف فى نهاية الآية للتأكيد فيقول: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقومٍ يَعْقِلُوْن».

فهُمْ يفهمون أنّ هذه الظواهر ليست ظواهر عاديّة تحدث صدفةً، فيتفكّرون فيها ويتعرفون على أسرارها.

وورد هذا المعنى فى الآية الثانية من بحثنا بتعبيرٍ آخر تعريفاً بالذات الإلهيّة المقدّسة عن طريق آثاره فيقول تعالى «هُوَ الَّذِى يُرِيَكُمُ البَرْقَ خَوْفاً وطَمَعاً».

الخوفُ من الصواعق والتفاؤل بنزول المطر، أو خوف المسافرين، وتفاؤل المقيمين فى المدن والارياف.

واللطيف أنّه يقول بعد ذلك مباشرة: «ويُنْشِيءُ السَّحَابَ الثِّقَال».

وقيل فى بيان هذه الجملة (تتزامن مع العواصف القويّة كُتلٌ من الغيوم، فتغطى اعالى الجو القريبة من الأرض، فيصبح الجو مظلماً، وتتولد شحنات كهربائية نتيجة تلاطم الرياح، وتهتز الأرض والجو بسبب صوت الرعد المتتابع، وأخيراً فانَّ الغيوم المتراكمة فى طبقات الجو السفلى كثيفة ومحملة بكثير من قطرات الماء الكبيرة لذلك تكون ثقيلة للغاية على الرياح المحركة «١».

---

(١) الريح والمطر، ص ١٣٨.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢١٤

ويشير فى الآية الثالثة والأخيرة من بحثنا إلى ظاهرة «الرعد» فيقول: «ويُسَبِّحُ الرَعْدُ بِحَمْدِهِ».

ويُبَيِّنُ هذا التعبير أنّ هذه الظاهرة السماوية ليست مسألة عاديةً، بل تُنبيءُ عن علم وقدرة اللَّه تعالى لأنَّ «التسبيح» يَعنى التنزيه عن كل عيبٍ ونقص، و «الحمد» تعنى شكره مقابل الكمالات، وعليه فانَّ صوت الرعد يتحدث عن الأوصاف الجمالية والجلالية للَّه تعالى

ويمكن أن يكون هذا الكلام بلسان الحال، كما يتحدثُ اختراعٌ مهمٌ عن علم ووعى المخترع، أو لوحةٌ جميلةٌ جدّاً عن الذوق الحاد للرسام، أو قطعة شعرية عن الذوق الأدبى للشاعر، فتمدحه وتشكره، فتكون لسان حالٍ، كما قالَ بعض المفسرين بأنَّ لدى ذرات هذا

العالم كافة عقلًا وشعوراً، كل حسب حظه، وتسبيحها وحمدها ينبع من العقل والشعور والإدراك.

يقول الفخر الرازى فى تفسيره:

«فلا يبعد من اللَّه تعالى أن يخلق الحياة والعلم والقدرة والنطق فى أجزاء السحاب فيكون هذا الصوت المسموع من الأفعال الاختيارية لله سبحانه وتعالى.

وكما هو تسبيح الجبال فى زمن داود عليه السلام وتسبيح الحصى فى زمان محمد صلى الله عليه و آله» «١».

فليكن أيُّ الاحتمالين، فليس هنالك اختلافٌ فى بحثنا، وعلى كل حال فإنّ هناك أسراراً خفيّةً فى هذه الظاهرة السماوية حيث تكشفُ عن عظمة الخالقِ وتمثل آيةً من آياته.

والمعروف أنّ الماء والبخار، والغيوم الناتجة منهما عناصر لا تنسجم مع النار، ولكن بقدرة الخالق تنطلقُ منها نارٌ هائلة أكثر احراقاً من أنواع النيران الموجودة على الأرض كافة، وكذلك البخار، الجسم اللطيف جدّاً، ولكن ينطلقُ منه صوتٌ لا ينطلقُ من سقوط أثقل وأقوى الأجسام.

---

(١) التفسير الكبير، ج ١٩، ص ٢٥.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢١٥

ويستفاد من مجموع هذه الآيات أنّ كلًا من «الرعد» و «البرق» من ظواهر عالم الوجود الجديرة بالاهتمام ويجب دراستها بجديّة، للتوصل إلى أسرارها، والتعرف على عظمة الخالق عن طريقها، وسيأتى هذا الأمر فى قسم التوضيحات إن شاء اللَّه تعالى

توضيحات

١- الرعد والبرق فى نظر العلم المعاصر

يعتقد العلماء المعاصرون أنَّ بريق السماء يحدث من خلال تقارب كتلتين من الغيوم المحملة بالشحنات الكهربائية المختلفة واحدة موجبة والاخرى سالبة، فتُحدِثان بريقاً كما يحصل من اقتراب قُطبَىْ المُوصِّل الكهربائى تماماً.

وحيث تتحمَّل قطع الغيوم بالشحنات الكهربائية العظيمة يكون بريقها عظيماً أيضاً، ونحن نعلمُ أنّ لكلِّ بريقٍ صوتاً، وكلّما اشتد البرقُ كلما تعاظم صوته، ولهذا قد يكون الصوت المهيب لهذا البرق من الشدّةِ بحيث يهزُّ جميع المبانى ويُحدثُ صوتاً كالقنابل الشديدة الانفجار.

ولكن البرق لا ينتج نتيجة اقتراب كتلتين من الغيوم دائماً لتكون بعيدة عن متناول الإنسان ولا تُسبب أيَّ خطر، بل قد تقترب الغيوم الحاوية على الشحنات الموجبة من الأرض، وبما أنّ الأرض تحتوى على الشحنات السالبة لذلك يحدث البرق بين «الأرض» و «الغيوم»، وهذا البرق العظيم الذى يسمى بالصاعقة خطيرٌ للغاية، فهو يُحدثُ هزَّةً شديدةً فى المنطقة التى يقع فيها، وكذلك يولد حرارة عالية جدّاً بحيث إذا أصابت أيَّ شيءٍ تجعلُهُ رماداً «١».

---

(١) مع أنّ مدة الصاعقة لا تتجاوز عُشرَ الثانية وقد تكون ١٠٠ ١ من الثانية، ولكن الحرارة التى تنتج منها تصل إلى ١٥٠٠٠ (سانتيغراد) بامكانها التسبب فى حدوث اخطارٍ بالغة الشدّة (حرارة سطح الشمس ٨٠٠٠ فقط) (اعجاز القرآن، ص ٧٨).

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢١٦

ونظراً لتجمع الشحنات على الأجزاء المدببة للأجسام ففى الصحارى التى تحدث فيها الصواعق، يظهر البرق فى النقاط المرتفعة

كرؤوس الأشجار، وحتى رأس الإنسان المار عبرها، لذلك يعتبر التوقف فى الصحارى أثناء الجو العاصف المليء بالرعد والبرق خطيراً للغاية، وفى مثل هذه الحالات يمكن أن يزيلَ اللجوءُ إلى الوديان أو الاقتراب من الأشجار واسفل الجبال والتلال الخطر إلى حدٍ ما (إنّ الاتكاء على الأشجار والشبابيك الحديدية لا يخلو من خطورة أيضاً).

ويتضح جيداً من خلال الإشارة أعلاه اخطارُ البرقِ وعامل الخوف الذى اشيرَ إليه فى الآيات الآنفة.

٢- فوائد وبركات الرعد والبرق

بالرغم من الاخطار التى تصحب الرعد والبرق أحياناً إلّاأنّ لهذه الظاهرة فوائد جمّة سنشير إلى بعضها هنا:

أ) الري- من المعروف أنّ البرق يولِّدُ حرارة عاليةً جدّاً، قد تبلغ ١٥ ألف درجة سانتيغراد، وهذه الحرارة كافية لاحراق مقدارٍ كبيرٍ من الهواء المحيط ممّا يؤدّى إلى هبوط الضغط الجوى مباشرة، ونحن نعلمُ أنّ الغيومَ تُمطرُ أثناء هبوط الضغط، ولهذا فغالباً ما يبدأ نزول المطر عقبَ حدوث البرق وتنزل قطرات الأمطار الكبيرة، وفى الواقع يعتبر الرى من هذا الجانب أحد بركات البرق.

ب) رش السموم- عندما يظهر البرق بتلك الحرارة، تتزود قطرات المطر بكمياتٍ إضافية من الاوكسجين، فيحصل الماء الثقيل أى الماء المؤكسد (O ٢ H ٢)، ونحن نعلم أنّ من آثار هذا الماء هو القضاء على الجراثيم، ولهذا يستعمل طبياً فى تنظيف الجروح، فهذه القطرات تقضى على بيوض الآفات المسببة لأمراض النباتات عندما تنزل إلى الأرض، وتقوم برش السموم على أحسن وجهٍ، لذلك فقد قالوا: فى كل سنةٍ يَقلُّ فيها الرعد والبرق تزداد الآفات النباتية.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢١٧

ج) التغذية والتسميد- إنّ قطرات المطر وأثر حدوث البرق وحصول الحرارة الشديدة الناتجة عنه وتركيبها الخاص، تحصل على حالةٍ من حامض الكاربونيك، فتقوم بتكوين سمادٍ نباتيٍ مؤثرٍ أثناء تناثرها على الأرض وتخلُّلها فيها، فتتغذى النباتات عن هذا الطريق.

ويقول بعض العلماء: إنَّ كمية السماد الحاصل من حالات البرق فى السماء خلال سنةٍ واحدة يبلغ عشرات الملايين من الاطنان، وهذا رقم مرتفعٌ للغاية.

بناءً على ذلك نرى أنّ هذه الظاهرة الطبيعية العاديّة وغير المهمّة إلى أيِّ حدٍّ مفيدةٍ ومليئةٍ بالبركة؟ فهى تسقى، وترش السموم أيضاً، وتقوم بالتغذية، وهذا نموذج صغيرٌ من الأسرار العجيبة لعالَم الوجود حيث يصلح أنْ يكون دليلًا فى الطريق لمعرفة اللَّه.

كل هذا من بركات البرق، ولكن الحرائق التى تنتج عن نوعٍ منه وهى الصواعق من جانبٍ آخر قد تحرق الإنسان أو الحيوان والمزارع والأشجار، بالرغم من أنّ هذا الأمر قليلٌ ونادر الوقوع ويُمكن اجتنابه، إلّاأنّه بإمكانه أن يصبح عامل خوفٍ وهَلَعٍ، وعليه فانَّ ما قرأناه فى الآية السالفة بانَّ البرق أساسٌ للخوف وأساسٌ للأمل أيضاً قد يكون إشارة إلى مجمل هذه الامور.

ومن الممكن أن تكون عبارة «وَيُنْشِىءُ السَّحَابَ الثِّقالَ» الواردة فى نهاية الآية لها ارتباط بميزة البرق هذه التى تؤدى إلى تحمُّلِ الغيوم بقطرات الأمطار.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢١٩

١٣- آياته فى خلقِ البحار والفُلك

تمهيد:

نحنُ نعلمُ أنّ الماءَ يغطى ثلاثة ارباع سطح الكرة الأرضية، وأنّ المحيطات والبحار ترتبط مع بعضها، كما نعلم أنّ الإنسان قد استثمر البحار للحمل والنقل منذ غابر الأيّام على افضل وجه، بالإضافة إلى استغلاله لجانبٍ مهمٍ من المواد الغذائية الكامنة فى البحر، وكذلك

فانَّ القسم الأعظم من مختلف المواد التى تُستعمل فى الصناعات تُستخرج من البحار.

والأهم من كل ذلك، أنّه لا يخفى على أى شخص دور البحار فى تكوّن الغيوم وسقى الاراضى اليابسة كافة، وواضحٌ للجميع تقريباً وضعُ حيوانات البحار وتنوعها وعجائبها.

لهذه الأسباب اعتبرَ القرآنُ الكريم البحارَ والفلك من آيات اللَّه، ودعا الناس إلى التمعنِ فى أسرارها.

بعد هذا التمهيد نيَمّمُ وجوهنا صوب القرآن الكريم ونقرأ خاشعين الآيات الآتية:

١- «وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيْهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ولَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». (النحل/ ١۴)

٢- «وَمَا يَسْتَوِى الْبَحرانِ هَذَا عَذْبٌ فُراتٌ سَائِغٌ شَرابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ اجاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرى الْفُلْكَ فِيْهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوْا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». (فاطر/ ١٢)

٣- «اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيْهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». (الجاثية/ ١٢)

۴- «وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ* إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيْحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ». (الشورى ٣٢- ٣٣)

۵- «أَلَمْ تَرَ انَّ الْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ انَّ فِى ذَلِكَ لَآياتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ». (لقمان/ ٣١)

۶- «إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمواتِ وَالأَرْضِ ... والْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ... لَآياتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». (البقرة/ ١۶۴)

٧- «رَبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى لَكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَّ بِكُمْ رَحِيْماً». (الاسراء/ ۶۶)

شرح المفردات:

«البَحْر»: حسب قول الراغب فى «المفردات»، هو المكان الواسع الذى يتجمع فيه ماءٌ كثير، كما يطلقُ على كلِّ شىءٍ واسع، و «متبحر» أو «مستبحر»: يقال للشخص الذى يمتلك علماً واسعاً، ويقال للتغيُّر الذى يحدث للعليل فجأة ب «بُحران» (ثم اطلقَ لفظ «بُحران» على الحوادث الحادة) واعتبر بعضٌ أنّ الملوحةَ تدخل فى مفهوم «البحر» علماً أنّ البَحر يُطلقُ على الماء العذب أيضاً «١»، و «الفُلْك» (على وزن قُفْل) وتعنى السُفن، ويستوى فيها المفرد والجمع والمذكَّر والمؤنث، ولفظ «فلَكْ» (على وزن فَدَك) يعنى مسير ومدار النجوم تفرَّعَ من هذا الأصل.

و «الجوارى»: جمع «جارية» وهى مأخوذة فى الأصل من «الجرى» أى العبور السريع، ويقالُ «جارية» للسفن التى تجرى وتتحرك فى البحار، ويقالُ للشابّةِ فى لغة العرب «جارية» أيضاً وذلك لنشاط الشباب الذى يملأُ كل وجودها، وجاء فى «المصباح المنير» أنّ اطلاق لفظ «الجارية» على الخادمة لِكونها مسخَّرةً لأوامر مولاها وتجرى لانجاز الأعمال باستمرار.

---

(١) صحاح اللغة، والمقاييس؛ ومفردات الراغب؛ ومجمع البحرين؛ ولسان العرب.

و «مواخر»: جمع «ماخرة» وتعنى السفينة وهى من مادة «مَخْر» (على وزن فَخْر) كما تطلق على جريان الماء فى الأرض وانفطارها، وكذلك تطاير الماء من على جانبى السفينة، كما تستعمل هذه المفردة لأصوات هبوب الرياح، والظاهر أنّها من لوازم المعنى الأول «١».

جمع الآيات وتفسيرها

عجائب البحار!

تقول الآية الاولى معرّفة بالذات الإلهيّة المقدّسة: «وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ».

ويـدلِّلُ هـذا التعبير على أنّ البحر بكل وجوده فى خدمـة الإنسان، والحق كـذلك، فاولُ براعم الحياة تتفتحُ فى البحار، وقد كان البحر فيما مضى وحاضراً مصدراً مهماً لانواع حاجات الإنسان وديمومة حياته.

ونلاحظ من سياق هذه الآية أنّها أكدت على ثلاثة مواضع:

أولها: يستطيع الإنسان أنْ يستخرج من البحر لحماً طرياً إذ يقول: «لِتَأكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً».

لحمٌ كثيرٌ لم يتحمل الإنسان عناءَ تربية مصدره أبداً، ويكون طريّاً بشكلٍ كامل وفى متناول يده فى أغلب نقاط الأرض.

إنَّ التأكيد على طراوة وطزاجة هذا اللحم، إضافة إلى إشارته إلى لذة لحم الأسماك، فهو تذكيرٌ بهذه النكتة، وهى أنّ الناس فى تلك العصور والازمان كانوا يستفيدون من اللحوم المجفّفة بسبب المشكلات التى تواجههم فى الحصول على اللحوم الطريّة، وهذه النعمة ذات أهميّة خاصة، وفى عصرنا وزماننا حيث تتوفر اللحوم القديمة والمجَمَّدة لأسباب مختلفة تتضح أهميّة هذا التعبير.

ويقول بعض المفسرين: هذا التعبير إشارة إلى عظمة اللّه عز وجل وقدرته فى خلق اللحوم الطرية اللذيذة فى المياه المالحة «٢».

---

(١) مفردات الراغب، والمصباح المنير. التحقيق فى كلمات القرآن، ولسان العرب.

(٢) تفسير روح المعانى، ج ١۴، ص ١٠٢.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٢٢

ويُمكنُ أن يكون التعبير ب «اللحم» إشارة إلى أنّ القسم الأعظم من جسم السمك يتكون من اللَحم وفيه قليلٌ من العظام، على العكس من بقية الحيوانات.

وتتضح أهميّة هذه النعمة الإلهيّة أكثر من خلال الالتفات إلى أنّ استغلال لحوم الأسماك لتغذية البشر أصبحت تحظى باهتمامٍ بالغٍ بسبب ندرة المواد الغذائية.

وثانيها: يذكر فائدة البحر فى استخراج وسائل الزينة لا سيما الجواهر «وتَسْتَخرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا».

فكأنّه يقول: يخرجُ من البحر المواد الغذائية الضرورية جدّاً وحتى الحاجات غير الضرورية والكمالية، «وكلّها مُسخَّرة لكم».

وثالثهما: يخاطب النبى صلى الله عليه و آله قائلًا: «وَتَرَىَ الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيْهِ».

«إنَّ اللّه قد منحكُم هذه النِعَم كى تبتغوا من فضله، لعلكم تؤدون شكرَ نعمائه» «وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

ومن أجل أن تتمكن السُفنُ من الإبحار فى المحيطات والبحار واستخدامها كأفضل وسيلة لحمل ونقل السلع التجارية وتنقل البشر لابدّ من تظافر عدَّة عوامل:

نوعيـة القـوانين الـتى تسودُ المواد الثقيلـة والخفيفـة الـتى تصونهـا على سـطح المـاء، وتموّج المـاء، وهبوب الريـاح المنظّم على سـطح المحيطات، والعمق اللازم للبحار، فتتظافر كلها كى تتحرك السـفن العملاقـة على سـطح المحيطات، أمّا السـفنُ التى تعملُ بقوة البخار فهى أعظم ما صـنَعهُ الإنسان، وقد يكون حجم أحدها بقدر مدينةٍ وتسـتطيع انجاز ما يعادل عمل عشرات الآلاف من السيارات لوحدها (إنَّ السفن التى تستوعب خمسمائة الف طن تحمل ما يعادل حمولة ١۵٠ ألف سيارةٍ ذات حمولة ١٠ أطنان!).

إنَّ هـذه المسألـة بالاضافة إلى مسألة اسـتخراج أنواع المواد الغذائية وغير الغذائية ومواد الزينة، تعتبرُ دليلًا على علم وقدرةِ خالق الكون الذى وضع كل هذه النِعَم فى متناول يد الإنسان مجاناً.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٢٣

وفى الآيـة الثانيـة تكررت ذاتُ النِّعم الثلاث التى اشـيرَ إليها فى الآيةِ السابقة (اللَّحم الطرى، والحُلى، وحركة السـفن فى عرض البحار) أيضاً، واسـتند إليها، مع هذا الاختلاف حيث يشـير فى مطلع الآية إلى بحار الماء العذب والماء المالح فيقول: «وَمَا يَسْتَوى الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرابُهُ وهَذَا مِلْحٌ اجَاجٌ».

ومع أنّ أكثر مياه البحار على سطح الأرض مالحة إلّاأنَّ بحار وبحيرات المياه العذبة ليست قليلة أيضاً، حيث تُشاهَد نماذجُ عديدة منها فى الولايات المتحدة، وكثيراً ما يستفاد منها، اضافة إلى الأنهار الكبيرة التى تصب فى البحار المالحة وتتوغل فيها، فتدفع المياه المالحة إلى الخلف ولا تختلط معها لفترةٍ طويلـةٍ فتُشـكِّلُ بحراً من الماء العـذب حيث يسـقى كثيراً من السواحل أثناء المـد والجزر، ممّا يؤدّى إلى ازدهار البساتين والمزارع الواسعة.

ويعتبر الفخر الرازى فى تفسيره هـذين البحرين إشـارة إلى المؤمنين والكافرين، إلّاأنّ التمعنَ فى لحن الآيات يـدللُ على أنّه لا يقصـد هذا المعنى بل إنَّ الهدف هو بيانُ آيات وآلاء اللَّه فى عَرْض الخلق.

وجاء الحديث فى الآية الثالثة عن تسخير البحار للإنسان: «اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ».

ولكن استند إلى مسألة الإبحار فقط من بين مختلف بركات البحر، والتى تمت الإشارة إليها فى الآيات السابقة.

وفى الآية الرابعة اعتبر السُفنَ العملاقة التى تشبه الجبال المتحركة والتى تظهر على سطح البحر من آيات وآلاء اللَّه، فيقول: «وَمِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِى الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ».

حقاً .. مَنْ خلقَ المحيطات بهذه السَعَةِ والعمقِ والخصائص؟ ومنْ الذى مَنَحَ الخشبَ

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٢٤

والحديد هذه الميزةَ بحيث يطفو على وجه الماء؟ ومَنِ الذى أَمَرَ الرياحَ أنْ تَهُبَّ بشـكلٍ منظَّمٍ على سـطح البحار وتمنح الإنسان فرصـة الانتقال من نقطةٍ إلى اخرى ويستخرج ملايين الثروات عن طريق البحر؟

أليسَ هذا نظام مُتقن ومُحكَم، وكذلك النظام السائد على قوة البخار والبرق دليل جلى على علم وحكمة الخالق جلَّ وعلا؟

هنا يشـبِّهُ القرآن الكريم السُـفنَ الضخمة ب «الأعلام» و «الأعلام» جمع «عَلَمْ» (على وزن قَلَمْ) وتعنى فى الأصل (كما يقول الراغب فى المفردات) الاثر الـذى يحصلُ منه علمٌ بوجود شـىءٍ، كالعلامات التى توضع على الطرق، وعلم العسـكر، ولهـذا اطلق على الجبل اسـم «عَلَم» حيث يعتبر دليلًا واضحاً يبرزُ من بعيد، ولهذا السبب شُبِّهت السُفنُ العملاقة بالجبال حيث تتضح من بعيد كالجبال.

واللطيف أنّ القرآن يقول عقب هذه الآية: «إن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيْحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ».

ولو شاء جعلَ الرياح مضـطربةً وغير منظمةٍ بحيث لا تسـتطيع أيّة سـفينةِ بلوغ هدفها، بل يغرقها فى البحر، لذلك يكرر التأكيد فى نهاية الآية: «إنَّ فِى ذَلِكَ لَآياتٍ لِّكُلِّ صَبّارٍ شَكُوْرٍ».

اولئك الـذين اسـتوعبوا آيات الآفاق من خلال الصبر والتحمل، ويؤدّون شـكر هـذه النعمة بعد إدراك الحقيقة، ويركعون على اعتاب ساحة القدس الإلهيّة العظيمة.

وأشار فى الآيـة الخامسـة إلى هذا الموضوع أى حركة السـفن فى البحار كأحد النعم الإلهيّة العظيمة أيضاً، مع هذا الفارق حيث يقول: «لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ».

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٢٥

وفى الآيـة السادسـة أيضاً حيث يأتى البحث عن سبع آياتٍ من آيات اللَّه، فهو يذكر الفلك كآية ثالثة حيث تجرى فى البحر بما ينفع النـاس: «وَالْفُلْكَ تَجْرى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ»، ويؤكـد فى ختام هـذه الآيـة أنّ فى هـذه الامور آياتٍ من الـذات الإلهيّـة المقدّسـة وآياتٍ عن وحدانية اللَّه لقوم يعقلون: «لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ».

وفى الآية السابعة يستند إلى ربوبيته تعالى فيقول: «رَبُّكَمُ الَّذِى يُزجى لَكَمُ الْفُلْكَ فى الْبَحْرِ» فلا تتبعوا الأوثان لأنّها ليست بربكم.

وهنا نواجه تعبيراً جديداً «يُزجى» وهو من مادة «إزجاء» التى تعنى «تسيير الشىء بمداراةٍ وَرِقّة» بالنحو الذى ورد فى «مصباح اللغة»، ويُستفاد من «مقاييس اللغة» بأنّها تعنى «التسيير الدائم والمستمر»، وهاتان المسألتان فى حركة السُفنِ على سطح المحيطات جديرتان بالاهتمام، لا سيما فى السفن الشراعية، فالمعروف أنَّ الرياح تسوق السُفُنَ برفقٍ واستمرارٍ.

فلو كان للرياح هبوبٌ شديدٌ، أوتكون متقطعةً فانّها تجعلُ السفن تواجه حركاتٍ واضطرابات قوية، وقد تتوقف وتضيع فى وسط البحر أيضاً، إنَّ هذا التعبير يبينُ أسراراً جديدة عن هذه الآية الإلهيّة.

ولهذا يستفاد من مجموع الآيات السالفة أنّ لخلق البحار فوائد مختلفة حيث تعتبر كل منها آيةً من آياته تعالى لا سيما حركة السفن الدقيقة على سطح المحيطات.

وتُعرفُ النّعمةُ دائماً بعد فقدانها، فلولا البحار لم يتكدَّس القسم الأعظم من السلع التجارية التى تُنقلُ عبر المياه فحسب، بل تختفى كميات كبيرة من المواد الغذائية والحُلى أيضاً، وأهم من ذلك، تنعدم الغيوم ولا- تهطل الأمطار، ويجر الهواء الجاف والحار جميعَ الكائنات الحيّة إلى الفَناء.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٢٦

توضيحات

١- البحرُ مركز لأنواع النِعَم

لم يكن هنالك أحدٌ عندما تكونت البحار، كى يرى طريقة تكوينها، إلّاأنَّ العلماء يعتقدون أنَّ كُرَتَنا الأرضية بعد انفصالها عن الشمس كانت حارةً وساخنة، وبَرَدَت رويداً رويداً، كالتفاحةِ الناضجة تعرَّج قشرُها وتجّعدَ وحصل الانخفاض والارتفاع، برزت الجبال والوديان والبحار.

ومن الممكن أن يرد هذا التساؤل وهو: من أَين جاءت مياه البحار؟ هنالك رأيان: يعتقد بعضٌ أنّها تكونت نتيجة لتفاعل الاوكسجين والهيدروجين الموجودين فى أعماق الأرض وانبثقت كالينابيع التى تتدفق حالياً، وملأت منخفضات الأرض تدريجاً.

إلّا أنَّ اشهرَ الآراء هو أنّ السماء غطَّت جوانب الكرة الأرضية بالغيوم المتراكمة، وحينما انخفضت حرارتها سالت على هيئة أمطارٍ غزيرة، وهطل المطر لآلاف السنين، وغمرت السيولُ كافة أنحاء الكرة الأرضية بنحوٍ لا يمكن تصوره، وحصلت البحار، وحتى أمدٍ طويل كانت أمواجُه تغسل أعماقه وكذلك الصخور والسواحل، ثم هدأت تدريجاً، واستقر على هيئته الحالية.

على أيّةِ حال فإنّ البحر له تاريخٌ قديمٌ جدّاً ومليءٌ بالأسرار، ولكن الأهمُ من ذلك هىالبركات والمنافع التى ينالها الإنسان اليوم من البحار حيث بإمكاننا أن ندرج قسماً منها، ولا يتسع هذا البحث المختصر لبيانها كلها:

١- إنَّ البَحر له اهميةٌ بالغةٌ فى الإبحار وحمل ونقل الناس والسلع التجارية، وكما اشرنا فانّ البحار تعتبر اهم وسائل البشر للحمل والنقل. لا سيما الخطوط البحرية التى تمتد بشكلٍ طبيعيٍّ إلى بقاع الأرض كافة، ويكفينا الالتفات إلى هذه الحقيقة وهى صناعة البواخر العملاقة التى تستطيع أن تستوعب (خمسمائة الف طن) من النفط وتنقله إلى أيِّ نقطةٍ فى العالم.

وهذا يلزم توفر (خمس وعشرين الف سيارة ذات حمولة ٢٠ طناً) لحمل هذه البضاعة.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٢٧

٢- المواد الغذائية- ومن أهم الفوائد الاخرى للبحار هى المواد الغذائية التى يحصل عليها الإنسان منها.

فمن أجل معرفة أهميّة هذا الأمر يكفينا العلم بانَّه يتم صيدُ ست وعشرين مليون طن من الأسماك سنوياً، علماً أنّ هذا الاحصاء يتعلق

بثلاثين عاماً مضت، ومن المسلَّم به أنَّ هذا الرقم قد تضاعف كثيراً في الوقت الحاضر.

وليس الإنسان وحده بل إنَّ الكثير من الطيور تحصل على طعامها من البحار أيضاً، وهذا بحدِّ ذاته اقتصادٌ في استهلاك المواد الغذائية الجافة.

فيقول بعض العلماء من خلال الاحصاءات التي قاموا بها: إنَّ الطيور البحرية التي تعيش على الجبال الساحلية والجزر الصخرية تستهلك لوحدها مليونين وخمسمائة الف طن من الأسماك سنوياً!.

ونعلمُ أيضاً أنَّ جانباً مهماً من علف الدواجن يتم تأمينه من عظام أسماك البحر، (نفس هذه الأسماك المصطادة)، أي أنّها تتدخل بصورةٍ غير مباشرة في تغذية الإنسان.

٣- الاعشاب والادوية- يحصل من كل هكتارٍ من البحر خمسمائةُ طنٍ من العلف الاخضر، في حين أنّ أفضل مزارعنا لا تنتجُ أكثر من أربعة أطنان وفي بعض البلدان يُستَغلُ هذا العلف لتغذية المواشي، ويُستَعملُ رماده سماداً للمزارع أيضاً.

ويستخرجون من الاعلاف البحرية مختلف المواد، كالكحول الجامد والسلولوز والنشاء والمواد الجلاتينية، حيث تُستثمر في الصناعات الكيميائية واعداد الطعام (وبعض الادوية).

٤- المعدن والنفط- إنّ البحارَ غنيّةٌ بالمعادن، ويكمنُ جانبٌ من هذه المعادن في أعماقها، ويعومُ الجزء الاعظم منها على سطحها، ومنها الفلزات التي يمكن استخلاصها من ماء البحر «كالمغنيسيوم» الذي يُستعملُ في الصناعات، وكذلك «البوتاسيوم» و «البروم» و «سلفات الصوديوم» وغيرها.

يقول العلماء إنَّ أكثر من أربعين عنصراً (عدا ما ذُكر) موجودٌ في ماء البحر، لها قيمةٌ

صناعية جديرة بالاهتمام، كما ويعثر على الذهب في ماء البحر أيضاً، غير أنَّ استخراج الكثير من الغازات ما زال يحتاج إلى ميزانيةٍ هائلةٍ لا يمكن مقارنتها بالاستهلاك، وقد يأتي اليوم الذي يتمكن فيه الإنسان من أن ينالها من خلال طرقٍ أكثرَ يُسراً.

وتقوم بعض الشركات العملاقة بتصنيع أكثر من خمسمائة مادةٍ مختلفةٍ من معادن البحر، حيث هنالك مليارات الأطنان من المعادن.

ويعتبر النفط- وهو من أثمن المستخلصات- من هدايا البحر، لأنَّ المليارات من الموجودات البحرية توجد في أعماق البحار العظيمة، وبما أنّ القارات ارتفعت فيما بعد فقد دُفنت هذه الموجودات تحت الرمال التي تحوَّلت إلى صخورٍ بعد ذلك، وبقى النفط الناتج عنها في أعماق الأرض.

والملحُ هو أحد اهم المواد المعدنية التي تُستخرج من البحر، له دورٌ مهمٌ في حياة الإنسان، وقد ذكروا في السابق أنّ الملح بلغ من الأهميّة بحيث إنَّ جنود الروم كانوا يتقاضون رواتبهم على هيئة ملح، وحتى في روسيا فقد اندلعت «ثورة الملح»! بسبب ارتفاع سعره.

إنَّ أهم مصادر استخراج الملح هو البحر، وحتى أنّ بعض المناطق الملحية الموجودة على اليابسة والتي يبلغ قطرها ٨٠٠ م هي من آثار البحار عندما كانت تغمر جميع بقاع الأرض.

لقد قدَّروا الاستهلاك العالمي للملح ب ٢٢ مليون طن سنوياً، بحيث لو أراد الإنسان استهلاك مخزون الملح الموجود على اليابسة لَنفدَ عاجلًا أو آجلًا في حين أنّ البحر مصدرٌ لا ينفدُ للملح، فيمكن أن تؤمِّنَ أملاحُ البحر ما يحتاجه البشر لمدة مليون وسبعمائة الف سنة.

٥- افضلُ منتجٍ للطاقة- لقد انتبه الإنسان منذ القِدَم إلى هذا الأمر، وهو إمكانية انتاج الطاقة من خلال السيطرة على المياه المتراكمة بسبب المد، وتنسحب أثناء حدوث الجزر، فتستغل لتحريك المطاحن وغيرها.

وتفيد بحوث العلماء المعاصرين أنَّهُ يُمكنُ انتاج الكهرباء بكمية كبيرة من هذه البحار، وأنْ يستعانَ بها بصفتها أهم مصدرٍ لانتاج

الطاقة، فالجَزر والمد اللذان يحدثان مرّتين ليلًا ونهاراً بتأثير جاذبية القمر يقومان برفع وخفض ماء البحار بمقدارٍ كبير، وهذا الأمر إضافة إلى مسألة الطاقة التى اشير إليها فهو يؤثر فى سقى المناطق الساحلية، لأنَّ مصبات الانهار التى تصب فى البحار تمثلُ بحراً من الماء العذب، فيندفع ماء الساحل العذب إلى الخلف ويُغطى كثيراً من الأراضى، لذلك سَخر البشرُ منذ القِدَمِ أراضِيَ واسعةً للزراعة من خلال شق الأنهار فى مثل هذه المناطق.

ولعلَّ هنالك الملايين من أشجار النخيل فى سواحل الخليج الفارسى حيث تُسقى بنفس هذه الطريقة فقط، لأنَّ الماء يتراجع إلى مسافات بعيدة عن الساحل، فهذا الماء العذب الفرات الذى يجاور الماء المالح الاجاج ولا يختلط معه يعتبر ثروةً عظيمةً لسكان السواحل.

۶- وسائل الزينة المختلفة- من المنافع الاخرى للبحار التى ذُكُرت بشكل خاص فى الآيات المذكورة هى وسائل الزينة التى تُستخرج من البحر، كاللؤلؤ الذى ينمو فى نوعٍ خاصٍ من الصدف، والمرجان الذى هو نوع من الاحياء البحرية، ولكن على هيئة اغصان أشجار لها منظر جميل ومرغوب، اضافة إلى صفةِ الزينة فهو يُستعملُ فى الطب أيضاً.

۷- تلطيف الجو عن طريق البحار- ليست الرياح التى تهبُّ من البحار نحو اليابسةِ هى التى تُرطبُ وتُلَطفُ الجَّو فقط، بل هنالك أنهارٌ عظيمةٌ متحركة فى قلب محيطات العالم تتحرك من المناطق الحارة إلى المناطق الباردة وبالعكس، وبصورة عامة لها أثرٌ بالغٌ فى تلطيف الهواء على الكرة الأرضية.

وواحدٌ من أعظمها هو «غولف ستريم»، هذا النهر العظيم الذى يتحرك من سواحل أمريكا الوسطى ويطوى المحيط الأطلسى، ثم يصل إلى سواحل شمال اوربا، وهذه المياه تكون حارةً حينما تتحرك من المناطق القريبة من خط الاستواء، حتى أنّ لونها يختلف أحياناً عن لون المياه المجاورة لها، واللطيف أنّ عُرضَ هذا النهر البحرى العظيم أى «غولف

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۳۰

ستريم» نحو مائة وخمسين كيلو متراً، وعمقه عدة مئات من الأمتار «۱»، وتبلغ سرعته فى بعض المناطق حداً بحيث يقطع مائة وستين كيلو متراً فى اليوم، وتختلف درجة حرارته عن حرارة المياه المجاورة ب ۱۰- ۱۵ درجة.

إنَّ «غولف ستريم» يتسبب فى حصول رياحٍ حارةٍ، ويعطى نسبةً كبيرة من حرارته إلى البلدان الواقعة شمال اوربا، فيعمل على تحسين جوّها، ولولا هذا الجريان لتعسرت الحياة كثيراً فى هذه البلدان واستحالت فى بعضها.

والعجيب أنّ هذه الأنهار البحرية العظيمة والتى يكمن السبب الرئيس وراء ظهورها فى التفاوت فى درجة حرارة المناطق الاستوائية والمناطق القطبية قليل ما تمتزج بالمياه المحيطة بها، وتطوى آلاف الكيلو مترات بهذا الشكل، فهى مصداقٌ لطيفٌ ل «مَرَجَ البَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ* بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّايَبْغِيَانِ». «۲» (الرحمن/ ۱۹ و ۲۰)

۸- استثمار ماء البحر طبياً- لا حاجة لتوضيح أنّ ماء البحر له آثارٌ مفيدة لجسم واعصاب الإنسان، ولهذا ينتشر اليوم وفى معظم مناطق العالم استثمار ماء البحر لعلاج بعض الأمراض الجلدية والعصبية، أو لحفظ الصحة والسلامةِ، ولو تمَّ القضاء على التلوث الأخلاقى فى هذا المجال لأصبح استثمار ماء البحر مصدراً لسلامة ونشاط الناس.

۹- المصدر الرئيس للمياه الجوفية- إنّ أهمَّ وأعظمَ وأكثر فوائد البحر هى الابخرة التى تتصاعد منه، ثم تؤلفُ الغيوم، وتساقُ هذه الغيوم نحو المناطق اليابسة والجافة، فتُحييها، حيث ذُكرَ ذلك فى فصل الريح والأمطار بشكلٍ مُفصَّلٍ.

۱۰- توفير الماء العذب- يتمُّ فى الكثير من المناطق التى يصعب الحصول على الماء العذب، تأمين هذه المادة الحياتية من خلال تقطير ماء البحر فتصبح المناطق المهجورةُ مسكونة بسبب ذلك.

هذا جانبٌ من منافع وبركات البحار التى وقف عليها الإنسان حتى هذا اليوم، وليس

(١) وقد ذُكر فى بعض الكتب أنّ عمقَهُ يصل فى بعض المناطق إلى (٨٠٠ م) (البحر والعجائب، ص ۴۶).

(٢) لمزيد من التوضيح فى هذا المجال يراجع التفسير الامثل، ذيل الآيهٔ ١٩ و ٢٠ من سورهٔ الرحمن.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٣١

معلوماً ما حجم المنافع التى سينالُها الإنسان فى المستقبل، وهنا نقف على عظمهٔ هذا التعبير القرآنى: «وَسَخَّرَ لَكُمُ البَحْرَ» «١»
.

٢- البحر عالم العجائب

لو فكرنـا جيـداً فانَّ جميع الموجودات فى العالم تبعث على الدهشـةِ، ولكن لا يشـبهُ أىٌّ منها الاحياءَ التى فى أعماق البحار، وقـد ذكر بعض العلماء أنّ عدد أنواع الاحياء البحريهٔ التى تمت معرفتها مائهٔ وأربعون الف نوعٍ، علماً أنّ عدد هذه الأنواع كثيرٌ للغايهٔ على سـطح المحيطات، ولكن كلَّما نفذنا فى الأعماق فانّها تقلُّ، أو على الأقل تقلُّ معلوماتنا عنهاً.

والمسألـهٔ المهّمـهٔ التى تخص البحار هى أنّ التصوُرَ كان ينصبُ على عـدم وجود أىِّ كائن حيٍّ فى أعماق البحار، لأنَّ أشـعهٔ الشـمس تنفذ إلى عمق «۶٠٠» متر فى الماء فقط، و تختفى نهايهٔ الأشعهٔ فى مثل هذا العمق، فيغُطُ كلُّ شىءٍ فى «ظلام دامس».

بالاضافهٔ إلى أنّ ماءَ البحر يكون بارداً جدّاً فى هذه المنطقهٔ، والأهمُ من ذلك الضغطُ الذى يولده الماء على موجودات تلك المنطقهٔ، لأنَّ ضـغط الماء فى عمق كيلو مترٍ واحـد يكون فى نحو من مائـهٔ كيلو غرام لكل سـنتمتر مربعٍ واحـدٍ، ومن المسـلم به لو كان الإنسان هناك مجرّداً من ملابس الوقايهٔ لتحطمت وسُحقت عظامُهُ «٢»، ولهذا لا يمكن النزول فى البحار بعمق عشرهٔ أمتار فأكثر بدون ملابس واقيهٔ، ولابدَّ من اسـتخدام الواقيات الفولاذيهٔ السـميكهٔ أثناءَ الغوص فى الاعماق، وإلّا لدَمَّر ضـغطُ البحر كلَّ شـىء، ولا يمكن الذهاب بكل وسيلهٔ إلى الأعماق فى بعض المراحل بسبب عدم وجود شىءٍ يقاوم الضغط.

---

(١) تُراجع كتب: البحر دار العجائب؛ وأسـرار البحر؛ وعجائب البحر؛ ونشـرهٔ الميناء والبحر؛ رسالهٔ الثقافهٔ، ج ١٢؛ وأفضل الطرق لمعرفهٔ اللَّه.

(٢) إنَّ الغواصين يغوصون إلى عمق ٣٠ متراً فقط بدون ملابس الغوص وإلى عمق ١۵٠ متراً بملابس الغوص، فى‌حين أنّ ضغط الماء يبلغ ٧ أطنان لكل انج مربعٍ فى أعمق نقاط البحر (البحر دار العجائب، ص ٨٩).

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٣٢

على أيّـهٔ حال فقـد اثبتت بحوث العلماء فيما بعـد أنّ هنالك فى أعماق البحر موجوداتٍ حيَّهً كثيرهٔ وعجيبهٔ، حيث تقوم بإبطال مفعول الضغط العجيب للماء من خلال الضغط الداخلى الموجود فيها.

ولا تنمو الحشائش هناك كى تسـتفيد منها الاحياء الموجودهٔ فى قاع البحر، لكن يد القدرهٔ الإلهيّهٔ تقوم بتهيئهٔ الغذاء اللازم لها والذى هو عبارهٔ عن المواد النباتيـهٔ المختلفـهٔ على سـطح المحيط وتحت ضوء الشـمس، وبعد إعداده ينزل إلى سُـكان أعماق البحر على هيئهٔ مائدهٍ سـماويهٔ، وتترسب هناك، بالاضافهٔ إلى الاحياء الموجودهٔ على سـطح الماء التى تموت حيث تُعَدّ جثثها طعاماً لذيذاً للموجودات الحيّهٔ فى قاع البحر.

ولكن لنرَ كيف تُحلُّ مشـكلهٔ الظلام الـدامس؟ فقـد وفَّرت القـدرهٔ التى خلقت هـذه الموجودات للعيش فى هذه المنطقهٔ والنور اللازم لها، لأنَّ اغلبَ هذه الاحياء تقوم باشعاع النور منها، نورٌ كنور ليلهٔ مقمرهٔ من ليالى الصيف فتضىء ذلك المحيط.

وينطلقُ نـورٌ احمر من رأس نـوعٍ من الأسـماك، ومن ذيـل اخرى نـورٌ ازرقٌ، وينشـر بعضُ الأسـماك نـوراً بـاللون الاـحمر والاـبيض والازرق.

يقول أحد العلماء: إنَّ أكثر المناطق عجباً في البحر ليست قرب سطح الماء ولا قاع المحيط، بل هي المنطقة التي تتوسطهما، فليس لها سماءٌ فوقها ولا أرضٌ تحتها، وانما يحيط الماء بكل شيء، ولا مأوى للموجوداتِ التي تحيى هناك، فهي في حركةٍ مستمرة، وهنالك الأسماك التي تُحيّرُ العقول، فاسنانُ بعضها طويلٌ بالقدر الذي لا تتمكن من أن تغلقَ فمها أبداً ونوعٌ من الأسماك يتسع بطنهُ بحيث يتمكن من ابتلاعِ سمكةٍ تعادلُ حجمه ثلاث مرات، وقد اطلق على هذه الأسماك أسماءً عجيبةً وغريبةً مثل «البالع الأسود» و «الأفعى البحرية» و «ثعبان السمك»!

لنترك قعر المحيط ونأت إلى سطح الماء فهناك عجائب أيضاً، وهنالك أسماك كلٌّ منها اعجبُ من الآخر، منها الأسماك ذوات الشحنة الكهربائية حيث تستطيع انتاج كميات كبيرة من الكهرباء بايعاز من الدماغ، إذ تصيب العدو أو الفريسة بالشلل، تلك الشحنات الخطيرة حتى على الإنسان أيضاً.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۳۳

و «الأسماك الطائرة» التي تخرج من الماء وتطير إلى مسافة ستين متراً، وتقفز أحياناً أعلى من الأشجار.

و «السمك ذو الدواة» الذي يفرز مادةً سوداء اللون في ماء البحر للاختفاء عن العدو والافلات منه، كما يُصنع اليوم في الحروب التقليدية، حيث يُملأ ميدان المعركة بالدخان كي يتوارى الأشخاص عن العدو.

و «السمك المائدة» أحد الأنواع العجيبة للسمك، حيث تكون عريضةً وكبيرة جدّاً، إذ تبسط نفسها على سطح المحيط فتشكل مائدة، وبمجرّد وقوع الفريسة على هذه المائدة تجمع أطرافها المبسوطة عليها وتنشغل بأكلها.

يعيش في البحر أصغر الاحياء، وأكبرها أيضاً، إذ يبلغ طول الحيتان الموجودة في البحر ثلاثين متراً، وقطرها أكثر من أربعة عشر متراً، ويبلغ طول فكِّها أكثر من سبعة أمتار، ووزنُ لسانها ثلاثة أطنان، ووزن قلبها نصف طن، ووزن كبدها طناً واحداً، ويبلغ طول وليدها سبعة أمتار أحياناً «۱».

وكان طول احدى الحيتان التي تمّ اصطيادها في جزائر «نيو جورجيا» ثلاثاً وثلاثين متراً، ووزنها مائة وخمسة وعشرين الف كيلو غرام «۲».

وكذلك هناك نباتاتٌ مجهريةٌ، ونباتات يبلغ طولها خمسين متراً تعيش في البحار أيضاً.

۳- البحر في كلام المعصومين عليهم السلام

وهنا نترَنَمُ بهذه الجملة المشهورة في دعاء الجوشن من خلال عالَمٍ من الخشوع والإخلاص ولْنَقُل: «يا مَنْ في البحار عجائِبُهُ» «۳».

---

(۱) عجائب البحر، ورسالة الثقافة.

(۲) البحر دار العجائب، ص ۱۲۱.

(۳) دعاء الجوشن الكبير، الفقرة ۵۸.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۳۴

في ذلك اليوم حيث رُويت هذه العبارة في دعاء الجوشن عن النبي صلى الله عليه و آله لم تزل أسرار البحار غير مكشوفة لأحد، واليوم تتجلّىَ لنا عظمة هذه العبارة أكثر من أيِّ وقت.

وورد في دعاءٍ ومناجاةٍ اخرى لأمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول:

«أَنتَ الذي في السماء عَظَمَتُكَ، وفي الأرضِ قُدْرَتُكَ، وفي البحار عَجائبُكَ» «۱».

ونواصل هذا البحث بحديثٍ آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول:

«سَخَّرَ لكَمُ الماءَ يَغدو عَلَيكَمْ وَيَروُحُ صَلاحاً لمعايشكَمْ والبَحْرَ سَبَباً لكَثْرَةِ أمْوالِكَم» «٢».

ونختم هذا البحث بمقطعٍ من الحديث المشهور ب «توحيد المفضّل» عن الصادق عليه السلام، إذ يقول عليه السلام:

«فإذا أردت أن تعرف سعة حكمة الخالق وقصر علم المخلوقين، فانظر إلى ما في البحار من ضروب السمك ودواب الماء، والاصداف والاصناف التي لا تحصى ولا تعرف منافعها إلّاالشيء بعد الشيء يدركه الناس بأسباب تحدث؛ مثل القرمز فانّه إنّما عرف الناس صبغه بأنّ كلبة تجول على شاطيء البحر فوجدت شيئاً من الصدف الذي يسمى «الحلزون» فاكلته فاختضب خطمها بدمه فنظر الناس إلى حسنه فاتخذوه صبغاً ...» «٣».

نعم .. ففي البحر وموجوداته ونباتاته وغيرها منافع وبركاتٌ تتكشفُ عنها المزيد من الأسرار في كل يومٍ يَمُرُّ من حياة البشر، وتظهر لهُ فوائد جديدة بحيث تجبر الإنسان على الخضوع إلى خالق هذه النِعَم.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٩٧، ص ٢٠٢.

(٢) المصدر السابق، ج ٦٠، ص ٣٩، ح ٣ (باب الماء وانواعه والبحار).

(٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٠٩ (حديث المفضل).

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٣٥

١٤- آياتُهُ في خلقِ الظِّلال

تمهيد:

هل أنّ الظِّلَّ شيءٌ يمكنُ من خلاله أن تستدل على خالق العالَم؟ نعم .. فقد تمّت الإشارة في آيات القرآن الكريم إلى هذه المسألة التي تبدو عاديةً أثناء وصف نِعَم الخالق جلَّ وعلا والتعريف بالذات الإلهيّة المقدّسة، فهو تعالى يريدُ بيانَ هذه الحقيقة، وهي أينما يقع بصرُكَ في هذا العالم المليء بالعجائب والأسرار فانَّ عظمَتهُ تتجلى فيه، وبراهينُ حكمته وقدرته مكتوبةٌ في جبين كل الموجودات صغيرها وكبيرها.

بعد هذا التمهيد نتأمل خاشعين في الآيات الآتية:

١- «أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيْلًا* ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسيْراً». (الفرقان/ ٤٥- ٤٦)

٢- «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الجِبَالِ أَكْنَاناً وجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيْلَ تَقيْكُمُ الحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بأْسَكُمْ كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ».

(النحل/ ٨١)

٣- «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلىَ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيمِيْنِ وَالشَّمائِلِ سُجَّداً لِّلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ». (النحل/ ٤٨)

٤- «وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّموَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُمْ بِالْغدُوِّ وَالآصَالِ». (الرعد/ ١٥)

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٣٦

شرح المفردات:

«ظِلال»: جمع «ظِلّ» إلّاأنّ العالِم والمفسرَ المعروف «الراغب» يقول في كتاب «المفردات»: أيُّ مكانٍ لا تشرق فيه الشمس يُعتبر ظِلًا

سواء أشرقت عليه سابقاً أم لا، ولكن «الفيء» على وزن (شيء)، يقالُ للمكان الذى أشرقت عليه الشمس سابقاً ثم غطّاه الظل.

فى حين أنّ بعض أرباب اللغة اتخذَ الاثنين بمعنىً واحد، وقال البعض إنَّ «الظل» هى الظلال التى تنزل أثناء الصباح، و «الفيء» يُطلقُ على الظلال التى تنزلُ عصراً، إلّاأنّ المعنى الأول يتناسب كثيراً مع حالات استعمال هذين اللفظين.

ويطلق لفظ «الظل» كنايةً فى مورد العزّةِ والمَنعةِ والرفاه والراحة لأنَّ من المعروف أنَّ هذه الأحوال تحصل فى الظل «١».

جمع الآيات وتفسيرها

هل إنَّ الظِّلَّ نعمةٌ عظيمةٌ؟

هل إنَّ الظِّلَّ نعمةٌ عظيمةٌ؟

إنَّ الحديث فى هذه الآيات عن الظلال، والمسألة تبدو وكأنّها عاديَة لكنَّ التفحُص فيها يمكنُ أن يُقربَنا ويُعرفَنا أكثر بخالقِ هذا العالم.

ففى الآيَة الاولى يخاطبُ النبيَّ صلى الله عليه و آله قائلًا: «أَلَمْ تَرَ الىَ ربِّكَ كَيْفَ مَدَّ الْظِّلَّ وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً».

ويضيف فى نهايةَ الآيةَ قائلًا: «ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيْلًا»، ويضيف فى الآيةَ التى تليها: «ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنا قَبْضَاً يَسيراً».

وهنا ما المقصود بهذا الظِّل الذى يمُدهُ البارى تعالى ثم يجمعه تدريجياً؟ قال بعض المفسرين: المقصود هو ظلُّ الليل حيث ينبسطُ على جميع سطح الأرض وينقبض بنحوٍ متناوب، ويعتبر وجود الشمس دليلًا وإشارة عليه، إذ «تُعرفُ الاشيَاءُ بِاضدَادِهَا».

ويعتبره البعض إشارةً إلى الظلِّ الذى يمتدُّ بين الطلوعين (بين طلوع الصبح وطلوع

---

(١) لسان العرب؛ ومفردات الراغب.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٣٧

الشمس)، فيغطى وجه الأرض وهو افضل الظلال والساعات.

واعتبره البعض بمعنى الظلال التى تحصل أثناء النهار بسبب اصطدام ضوء الشمس بالجبال والأشجار وبقية الاجسام، ثم ينتقل تدريجياً.

من هنا حيث لا تتعارض هذه التفاسير الثلاثة، وبما أنّ تعبير الآيةَ مُطلق وجامع، فيمكن أن يكون إشارة إليها كلها إذ إنَّ كلًّا منها نعمةٌ ثمينة.

إننا نعلمُ أنّ اللَّيلَ فى الواقع هو ظل نصف الكرة الأرضية الذى يقع أزاء الشمس، الظلُّ المخروطى الشكل الذى يمتد فى الفضاء فى الجهة المقابلة ويتحرك باستمرار، ولولا ظلُّ اللَّيل لاحترقت كافة الكائنات الحية بفعل ضوء الشمس والحرارة الناتجة عنه، وهلكَ النسل البشرى بسرعة.

وكذلك لولا وجود سائر أنواع الظلال، ولو كان الإنسان مجبوراً على قضاء النَّهار تحت الشمس لوقَعَ فى حَرَجٍ بالغٍ، ولأصبحت الحياةُ شاقةً بالنسبة له لاسيما فى فصل الصيف، إنَّ اللَّهَ تعالى فتحَ الظل للإنسان كى ينالَ الراحة والاستقرار هو ومن يتعلق به.

وبتعبيرٍ آخر فانَّ بعض الأشياء خُلقت «معتمة»، والبعض خُلق «شفافاً» بحيث يعبرُ النور من خلاله، فلو كانت كل الأشياء شفافةً فلا وجود للظلِّ اطلاقاً وستتبدلُ حياةُ الإنسان مقابل ضوء الشمس المستمر إلى جهنم محرقة، وإذا تفكَّرَ الإنسان قليلًا فى هذا المجال فسيتعرف على عظمة وأهميّة هذه النعمة ويتمكن من خلال ذلك الوصول إلى الخالق الحكيم.

ولعلَّ التصريح ب «النظام التدريجى للظِّل» فى الآيةِ أعلاه إشارة إلى هذه الحقيقة وهى لوأنَّ الظِّلال تحصل أو تزول فجأة لأدّت إلى اضرار جسيمة، إذ لا- يخفى على أحد الاضرار الناتجة عن الانتقال المفاجىء من النور إلى الظلام وبالعكس، أو من الحر إلى البرد

وبالعكس.

ولكنّ «الظِّل» بما له من بركاتٍ ولطفٍ، مضرٌ أيضاً فيما إذا دام وخَلُدَ لأنَّه يحرم الإنسان من نعمة النور، لهذا يقول في الآية أعلاه: «وَلَو شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً»، (ولكنه للطفه وكرمه لم يفعل ذلك كي يَنَعُمَ العباد بنعمة النور والظّل على السواء).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۳۸

ويقول في الآيـة الثانية التي تمَّ بيانها ضـمن آيات التوحيد في سورة النحل، بعد تعداد بعض آيات الآفاق ونِعَم الخالق جلَّ وعلا: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّمَّا خَلَق ظِلَالًا».

قال بعض المفسّري إنَّ المقصود هنا الأشياء التي تتسبب في ايجاد الظّلال، كالجبال والأشجار، والغيوم، والسقوف والجدران «۱».

وممّا لا شكَّ فيه لو كـانت جميع الاشـياء- كمـا المحنـا سابقاً- شـفافةً ومضـيئة كالبلور، ولا وجود للظلّ في العالم لكانت الحياة غير ممكنة بالنسبة للإنسان.

ويشير سياق الآيـة إلى سـائر النِّعم الـتي هي في الواقع مكملـةً لوجود الظـلِّ، كالملاجيء المسـتحدثة في الجبال على هيئةِ مغاراتٍ وكهوف، والتي تقي الإنسان من حرارةِ الشـمس المحرقـة، كالدرع حينَ يَصُدُّ طعنات العدو في ساحة الحرب: «وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الجِبَالِ أَكنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيْلَ تَقِيْكُمْ بَأسَكُمْ» «۲».

وهنا لماذا أشار في الآية الآنفة إلى اللباس كوقاءٍ للحفظ من الحَرِّ فقط، من دون الإشارة إلى البرد؟ يقول بعض المفسِّرين: لأنَّ المناطق التي نزلت فيها هذه الآيات، المتداول فيها مسألة الحر بكثرة، أو لكثرة وزياده اخطار الحرارة والاحتراق عند مواجهة الشـمس، في حين تتزايد طرق وقاية الإنسان لمواجهة البرد.

ولكن لا يجب نسيان أنّ في آداب العرب حينما يريدون التلميح إلى ضدّين فهم يحذفون أحدَهُما في أغلب الموارد ويذكرون واحداً فقط، وهذا الأثر له قرائن كثيرة.

والجـدير بالاهتمام أنّه يقول في نهاية هذه الآية بعد ذكر هذه النِّعم الثلاث (الظلال، والمساكن، والملابس): «كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيكُم لَعَلَكُمْ تُسْلِمُونَ».

نعم .. فالتأمل بهـذه النِّعَم وأسـرارها المختلفـة يعرِّفُ الإنسان بعلمِ وقدرة اللَّه تعالى من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ اخرى يدفعُ إلى التسـليم إلى أوامر الخالق جلَّ وعلا ذي اللطف والرحمة، من خلال تحريك الشعور بالشُّكر له.

---

(۱) تفسير روح المعاني، ج ۱۴، ص ۱۸۶؛ و تفسير القرطبي، ج ۶، ص ۳۷۷۵.

(۲) «سـرابيل» جمع «سربال» (على وزن مثقـال) وقـد فسَّرها البعض بكل أنواع الملابس، واعتبرها البعض بمعنى الرداء (حيث يرتـدون الدرع كالرداء) إلّاأنّ المعنى الأول اكثرُ تناسباً هنا.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۳۹

وفي الآية الثالثة يوجه اللوم والتوبيخ للمشركين في آيات التوحيد فيقول:

«أَوَلَمْ يَرَوْا الىَ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيءٍ يَتَفَيَّؤا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِيْنِ وَالشَّمائِلِ سُجَّداً لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ» «۱».

أيّ تعبيرٍ لطيفٍ هذا؟ فقد خضـعت الظلالُ بأسـرها وسجدت أمام ذاته المقدّسة، لأنّها مُسَلِّمةٌ لأمرِهِ وهذا التسليم والخضوع أمام قوانين الخالق هو سجودها لحضرته تعالى

فكيف يتضاءل الإنسان أمام الظلال، ويسجدُ للأصنام، ولا يسجدُ للخالق جلَّ وعلا؟!

إنَّ سـجودَ الظِّلالِ جزءٌ من سجود كافة الكائنات في السماء والأرض، ولهذا فقد أشار في سياق هذه الآية إلى هذا السجودِ العام، فقال: «وللَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمواتِ ومَا فِي الأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ».

وهنا سـيُطرحُ بحوثٌ مفصلّة خلال بحث السجود العام لموجودات العالم أمام البارى عزّوجل، على أيّةِ حالٍ ففى هذه الآيةِ إشارة لطيفة إلى أهميّة الظلال وآثارها حيث تصلح كمصدرٍ لإلهام التوحيد.

وفى الآية الرابعة يضع الظّلال فى جُملة موجودات السماء والأرض التى تخضع وتسجدُ للّهتعالى فيقول: «وَللَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ والآصَالِ».

وربّما يكون التعبير ب «طَوْعاً وَكَرْهاً» إشارة إلى تسليم الموجودات العاقلة وذات الاحساس رغبةً وطوعاً، وإلى تسليم الموجودات غير العاقلة كالظلال للأوامر الإلهيّة فتسجد قوانين الخلق الاجبارية.

---

(١) «يَتَفَيَؤا» من مادة «فىء» وتعنى العودة والرجوع، ويحصرها بعض أرباب اللغة بمعنى ظلال الأشياء حين عودة الشمس عصراً، واطلاقها على غنائم الحرب يعود إمّا بسبب رجوع المسلمين بها، أو زوالها أو فنائها النهائى كالظلال، و «داخر» تعنى المتواضع.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢۴٠

أو إلى أنّ المؤمنين يسجدون رغبةً وطوعاً، وغيرُ المؤمنين الذين ليس لديهم الاستعداد للسجود طوعاً فإنّ جميعَ ذرات وجودهم مسلّمة للّهتعالى بحكم قوانين الخلق الاجبارية، وقد جبلوا على السجود التكوينى أمام ذاته المقدّسة.

أو أنّ المؤمنين يُمَرِّغون جباهَهُمْ بالتراب أزاءه فى كل الأحوال (فى الراحة وعند حلول المشكلات، مطمئنين كانوا أم مضطربين)، إلّاأنّ الكافرين لا يتوجهون نحوه إلّاحينما تباغتهم المشاكل.

وممّا لا شك فيه أنّه ليس هنالك تعارضٌ بين هذه التفاسير الثلاثة، ويمكنُ جمعُها فى مفهومٍ واحدٍ.

والتعبير ب «مَنْ» فى الآية أعلاه مع أنّه يختص باصحاب العقول حسب الظاهر، إلّاأنَّ من المحتمل أن يكون له مفهومٌ عامٌّ فيشمل كافة الموجودات العاقلة وغير العاقلة، فيصبح التعبير ب «مَنْ» من باب التغليب.

وأمّا تعبير «الغدو» و «الآصال» (الصباح والمساء) فلعلّه كان بسبب إمكانية زوال الظلال وسط النهار، أو كونها ضئيلة جدّاً ومحدودة، فى حين أنّها ليست كذلك فى الصباح والمساء، وفضلًا عن ذلك، فإنّ هذا التعبير جاء فى الكثير من الحالات لبيان الديمومة والتعميم، فمثلًا تقول: إنّ الشخص الفلانى يدرس صباحاً ومساءً، أو إنّه يؤذى شخصاً آخر، أى إنّه كذلك على الدوام.

يُستفاد من مجموع هذه الآيات أنَّ القرآن الكريم يولى اهتماماً خاصاً حتى للظلال، ويعتبرها من آيات عظمة اللّه، والتعبير ب «السجود» الذى هو غايةُ الخضوع إشارةٌ إلى هذا المعنى

توضيح

لو لم تكن هناك الظلال ...؟!

من أجل ادراك أهميةِ أىّ موجودٍ لابدّ من احتمالِ زواله تماماً فى لحظةٍ أو يومٍ أو شهرٍ

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢۴١

ما، ثم الالتفات إلى آثاره.

والأمر كذلك فى مسألة الظلال التى تبدو موضوعاً عادياً وغير مهم للوهلة الاولى، ولكن افرضوا أنّ كل أنواع الظلِّ والمظلات رُفعت عن الكرة الأرضية لمدّة اسبوعٍ، فلا- جبال، ولا أشجار، ولا حائط بيتٍ ولا سقف، ولا حتى ظلَّ نصف الكرة الأرضية الذى يُغطى النصف الآخر وهو الليل، واختفت كلّها بصورة مفاجئة، وتبدلت جميع الأجسام فى هذا العالم إلى حالةٍ كالبلور ونفذ ضوء الشمس من خلالها، فكم ستصبح الحياة صعبةً وغير قابلة للتحمل؟ إذ يشعُ ضوء الشمس باستمرار، ويتعرض له كل شىء، ويسلبُ كل أشكال

الاستقرار والاطمئنان والراحة من الإنسان وسائر الموجودات، ولو حدثت مثل هذه الفرضية فى فصل الصيف فسوف تهلك جميع الكائنات الحية خلال فترة قصيرة.

بناءً على ذلك يمكن القول أنّ لوجود الظلال دوراً مؤثراً جدّاً فى حياة الإنسان للأسباب الآتية:

۱- إنّ وجودَ الظلال ضروريٌّ للغاية من أجل تخفيف ضوء وحرارة الشمس، لأنَّ الأشعة الحياتية للشمس لو لم تُخفَّف بالظهور المتناوب للظلال ستُفنى كل شيء وتحرقه خلال فترة قصيرة.

يقول الفخر الرازى فى تفسيره: «إنّ الظل هو الأمر المتوسط بين الضوء الخالص وبين الظلمة الخالصة، وهو ما بين ظهور الفجر إلى طلوع الشمس، وكذا الكيفيات الحاصلة داخل السقف وأفنية الجدران، وهذه الحالة أطيب الأحوال، لأنّ الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وينفر عنها الحس، وأمّا الضوء الخالص وهو الكيفية الفائضة من الشمس فهى لقوتها تبهر الحس البصرى وتفيد السخونة القوية وهى مؤذية، فاذن أطيب الأحوال هو الظل، ولذلك وصف تعالى الجنّة به فقال: «وظِلٌّ مَمْدُودٌ» «۱».

۲- يبدو أنَّ دور الظلال لاسيما الظلال المتحركة حيوىٌّ جدّاً بالنسبة للمسافرين وقاطعى الصحراء، فهؤلاء يستطيعون الاستعانة بالخيام ووسائط النقل المسَقَّفة من وقاية

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۲۴، ص ۸۸.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۴۲

انفسهم أزاء أخطار أشعة الشمس المباشرة.

۳- والمسألة الاخرى الجديرة بالاهتمام، هى أنّه خلافاً للتصور العام فانَّ النور لا يكفى لوحده لرؤية الأشياء، بل يجب أن يكون متزامناً مع «الظلال» كى تتوفر إمكانية رؤية الأشياء، وبعبارة أكثر جلاءً:

لو أنّ النورَ يشعُ على موجودٍ ما من أربعة جهات بحيث لا يوجد أىُّ شكلٍ للظل أو بعضه، فلا يمكن رؤية ذلك الشىء الذى يغرقُ فى النور المتساوى من جميع الجهات، اذن فكما لا يستطيع الإنسان رؤية الأشياء فى الظلام المطلق فهو غير قادرٍ على رؤية الأشياء فى النور المطلق أيضاً، بل يجب أن يتظافرا معاً كى تتيسر رؤية الأشياء (فتأمل جيداً).

فالخالقُ الذى أناطَ هذه الأدوار المهمّة والحيوية لموجودٍ عاديٍّ بهذا المستوى جديرٌ بالعبودية والخضوع والسجود.

نختتم هذا الحديث بعبارةٍ لأحد المفسّرين، إذ يقول لمن غَفَلَ عن السجود للَّهتعالى

«أمّا ظلك فسجد لربك وأمّا أنت فلا تسجد له بئسما صنعت» «۱».

---

(۱) التفسير الكبير، ج ۲۰، ص ۴۳.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۴۳

۱۵- آياتُهُ فى عالم النباتات والثمار

تمهيد:

إنَّ النباتات هى أكثر الكائنات الحيّة الموجودة على الأرض، وتحتل المرتبة الاولى من حيث التنوع والكثرة، والعجائب والزينة، وكذلك من حيث الآثار المفيدة والثمينة أيضاً.

لهذا فقد استند القرآن الكريم فى آياته التوحيدية مراراً على مسألة خلق النباتات، ومزاياها المختلفة، ودعا الإنسان إلى التفحُصِ فى

أسرار هذه الموجودات الرائعة فى عالم الخَلق، الموجودات التى يُمكنُ أن تُقدِّمَ ورقةٌ واحدةٌ منها كتاباً عن معرفة اللَّه تعالى

بعد هذا التمهيد نتمعن خاشعين فى الآيات الآتية ومواضيعها اللطيفة:

۱- «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلىَ الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيم* انَّ فِي ذَلِكَ لَآيةً وَمَا كَانَ أَكْثَرَهُمْ مُّؤمِنِيْنَ». (الشعراء/ ۷- ۸)

۲- «أَمَّنْ خَلَقَ السَّموات وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَآءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَاءَ ءِإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ». (النمل/ ۶۰)

۳- «خَلَقَ السَّموَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وأَلْقى فى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أَنْ تَمِيْدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيْهَا مِنْ كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَآءً فَأَنْبَتْنَا فِيْهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيْم* هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِيْنَ مِنْ دُوْنِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِى ضَلالٍ مُّبِيْنٍ». (لقمان/ ۱۰- ۱۱)

۴- «وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ أَحيَينَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُوْنَ* وَجَعَلْنَا فِيْهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخيْلٍ وأَعْنابٍ وفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ* لِيأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيْهِم أَفَلا يَشْكُرُونَ* سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۴۴

يَعْلَمُونَ». (يس/ ۳۳- ۳۶)

۵- «وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُوْنَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ أُنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ اذَا أَثمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِى ذَلِكُم لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤمِنُونَ». (الانعام/ ۹۹)

۶- «وَفِى الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيْلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَآءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ انَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». (الرعد/ ۴)

۷- «هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجرٌ فِيْهِ تُسِيْمُونَ* يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيْلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمراتِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ». (النحل/ ۱۰- ۱۱)

۸- «وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوْشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوْشَاتٍ وَالنَّخْلَ والزَّرْعَ مُخْتَلِفاً اكُلُهُ والزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغيرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذآ أَثْمَرَ وآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسرِفُوا إِنَّهُ لَايُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ». (الانعام/ ۱۴۱)

۹- «وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَينَا فِيهَا رَوَاسِىَ وأَنْبَتْنَا فِيْهَا مِنْ كُلِّ شَىءٍ مَّوْزُونٍ* وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِيْنَ». (الحجر/ ۱۹- ۲۰)

۱۰- «إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الحَبِّ والنَّوَى ... ذلِكُمُ اللَّهُ فَأَنىَّ تُؤفَكُونَ». «۱»

(الانعام/ ۹۵)

شرح المفردات:

«النَبات»: يعنى فى الأصل كلَّ نوعٍ من الزرع الـذى يخرج من الأرض سواء كان له ساق كالشَجَر، أو بدون ساقٍ والذى يُسمِّيه العربُ ب «النَّجم»، إلّاأنّ هذا اللفظ غالباً ما يُطلق على

(۱) هنـاك آيات كثيرة فى القرآن الكريم تشير إلى هـذا المعنى كالآيات التاليـة: النبأ، ۱۵؛ طه، ۵۳؛ عبس، ۲۷؛ ق، ۷؛ البقرة، ۲۶۱؛ البقرة، ۲۲؛ ابراهيم، ۳۲؛ الانعام، ۱۴۱؛ الاعراف، ۵۷؛ النحل، ۶۷.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۴۵

الزرع الذى ليس له ساق، وفى التعابير الأكثر شمولًا يُطلق «النبات» على كل موجودٍ نامٍ سواء كان نباتاً أم حيواناً أم إنساناً «۱».

و «الشَجَرْ»: تعنى النباتات ذات السيقان، ولهذا جاء فى القرآن الكريم أزاء «النجم» الذى يعنى النبات الذى لا ساق له: «والنَّجْمُ والشَّجرُ يَسجُدان». (الرحمن/ ۶)

وورد فى «مقاييس اللغة» أنّ «الشَّجَرَ» له معنيان فى الأصل: هما الارتفاع والعلو، وتداخل أجزاء الشىء مع بعضها، وحيث إنّ الأشجار ترتفع عن الأرض، كذلك فانَّ أغصانها تتداخل فيما بينها، لذلك اطلقَ عليها «شَجَرْ»، و «مشاجرة»: تعنى النزاع والاختلاف والمحادثة لأنَّ حديث الجانبين يتداخل مع بعضه.

إلّا أنّ البعض يعتقد أنّ أصلَ هذه المادة يعنى الشىء الذى ينمو ويرتفع وتتفرع منه أوراقٌ وأغصان، وقد يُطلق على الامور المعنوية أيضاً كما فى: «والشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فى الْقُرآن». (الاسراء/ ۶۰)

(التى تمَّ تفسيرها بمعنى «شجرة الزقوم» أو «اليهود» أو «بنى اميّه») «۲».

وكما يُفهم من كتب اللغة المختلفة فإنّ «الزرع» تعنى فى الأصل نثر البذور والحبوب فى الأرض، ومن هنا حيث سيتبعُ نثر البذور نمو النبات وحصاده، فيُطلقُ على كل واحد من هذه العمليات «زرعاً».

ويقول بعض اللغويين: إنَّ الزرع تعنى الإنماء، وهذا فى الحقيقة هو فعلُ اللَّه تعالى وإذا اطلقَ لفظ الزارع على العباد فهو بسبب توفيرهم لأسباب ومقدّمات ذلك، وقد يقال ل «المزروع» زرعاً أيضاً.

وغالباً ما يُطلق لفظ «زرع» على الحنطةِ والشعير، إلّاأنّ مفهومه أكثر شمولًا، حيث يشملهما وغيرهما «۳».

---

(۱) «النبات» لها معنىً مصدرى، واسم مصدرى أيضاً.

(۲) مفردات الراغب؛ مقاييس اللغة؛ مصباح اللغة؛ والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

(۳) مفردات الراغب؛ لسان العرب؛ والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم؛ وصحاح اللغة.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۴۶

وأمّا ال «ثَمَرْ» فقد جاء فى «مقاييس اللغة» أنّ هذا اللفظ يعنى فى الأصل كلَّ شىءٍ يتولد من شىءٍ آخر، وقال بعض اللغويين، أنّه يعنى ما يحصل من الشجرة فقط.

وصرَّحَ قسمٌ آخر من ارباب اللغة، بان كل موجود يحصل ويتولد عن موجودٍ آخر مأكولًا كان أم غير مأكول، مرغوباً كان أم غير مرغوب، حلواً كان أم مُراً، يسمى «ثَمَراً».

لكن الظاهر أنّ الثمر كان له فى الأصل مفهومٌ محدودٌ وهو الفاكهة الحاصلة من الشَجَر، لكنَّ هذا المفهوم اتَّسَعَ فيما بعد واطلقَ مجازاً على محصول ومنتوجِ أىّ شىء، حتى أصبح يقالُ إنَّ ثمرةَ هذا المذهب وهذه التعاليم كانت كذا وكذا، وجاء فى الروايـة: «امُّك أَعْطَتكَ مِنْ ثَمرةِ قَلبها»، إشارة إلى حليب الام أو محبتها، وفى الروايات أيضاً اطلقَ على الوَلَد بانه ثمرة الفؤاد.

جمع الآيات وتفسيرها

الورق الأخضر للأشجار:

أشار فى الآية الاولى إلى المشركين أو الجاحدين، فقال: «أَوَلَمْ يَرَوا إلى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيْمٍ».

ثمَّ صرح قائلًا: «إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤمِنينَ».

أجَلْ ... فلو تَمَعَّنَ هؤلاء فى هذه النباتات الملّونة، والأزهار، والثمار، والأشجار، والخضار، والسنابل، وأنواع الزروع الاخرى سَيَروْنَ آيات اللَّه فيها بكلِّ جلاء، فهؤلاء لا يريدون أنْ يؤمنوا وينظروا إلى صورة ذاته المقدَّسةِ ببصيرة القلوب، وإلّا فانَّ جمالَه لا يخفى على

أحدٍ، نعم فهؤلاء ليست لديهم آذان للاستماع إلى آيات اللَّه التشريعية ولا أبصار لمشاهدة آياته التكوينية.
وهنا ما المقصود من «زوج»؟ فالكثير من المفسِّرين فَسَّرَ ذلك بمعنى النوع والصنف، واعتبروهُ إشارة إلى تنوعِ وتشعب النباتات، حيث إنّ عددها غير محدودٍ ولا يمكن حصرهُ،

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۴۷

وأيّاً منها يُعتبر آيةً من آيات البارى عزوجل.
فى حين احتملها البعضُ إشارة إلى «الزوجية» (أى الذكر والانثى الموجودة فى عالم النباتات، وهذه الحقيقة اكتشفت لأول مرّة على نطاقٍ واسعٍ على يد عالم النبات السويدى المعروف «لينه» أواسط القرن الثامن عشر الميلادى، حيث إنّ النباتات- على الأغلب- تحمل وتثمر كالحيوانات عن طريق تلاقح الذكر والانثى فى الوقت الذى وردت هذه الحقيقة فى القرآن الكريم قبل قرون عديدة.
ومن هنا حيث لا تعارُضَ بين هذين المعنيين فيمكن أن تكون إشارة اليهما معاً.
إنَّ وصف «الزَوْج» ب «الكريم» علماً بأنَّ لفظ «كريم» يعنى الموجود الثمين، إشارة إلى أهميّة أنواع النباتات وقيمتها الفائقة.
إنَّ تنوعَ النباتات كثيرٌ إلى الحد الذى يقول بعض العلماء: إنَّ «النخل» أكثر من ثلاثة آلاف نوعٍ، و «الكاكتى» أو «التين الهندى» ألف وسبعمائة نوع، و «ورد الثعلب» الف ومائتا نوع، ونَسبوا ل «الكَمأْ» مائة الف نوع، ول «الطحالبٍ» أربعة آلاف نوع، ول «التفاح» سبعة آلاف نوع، وذكروا ل «الحنطة» خمساً وثلاثين الف نوع! «۱».
حقاً ... كم هو عجيب عالمُ النباتات الفسيح بكل هذا التنوع؟ وكم هو عظيمٌ خالقُه ومدبّرهُ!
وفى الآية الثانية ومن أجل إثبات «وحدانية المعبود» يدعو الناس إلى تَفحُصِ أسرار خلق السموات والأرض ثم نزول المطر، ثم يقول: «فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِق «۲» ذاتَ بَهْجَةٍ»، وليس فى إمكانكم أبداً أن تُنبتوا أشجارَ هذا البستان الجميلة: «مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا»،

---

(۱) عالم الزهور، ص ۹۹ إلى ۱۱۸.
(۲) «الحدائق» جمع «حديقةٍ» وتعنى «البستان»، وهى تعنى فى الأصل قطعة الأرض التى تجمَّعَ فيها الماء، وقدفسَّرها الكثير من المفسرين بأنّها البُستان الذى ضُربَ حوله بسور وفيه ما يكفى من الماء.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۴۸

ومع هذا تقولون هناك إلهٌ مع اللَّه: «أ إلهٌ مَعَ اللَّه».
إلّا أنَّ هؤلاء أفراد يجهلون حيث يعدلون عن الخالق العظيم الذى أبدعَ كل هذه العجائب والغرائب ويجعلون الموجودات التى لا حول لها ولا قوةَ ندّاً للَّه: «بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُوْنَ».
ومن الممكن أن يكون التعبير ب «يعدلون» بمعنى عدولهم عن اللَّه الواحد المنفرد، أو اختلاق مثيلٍ ونظيرٍ له.
أجَلْ ... فعملُ الإنسان نثرُ البذور والرَّى وأمثال ذلك، واللَّه وحدهُ الذى خلقَ الروحَ فى جنين هذه البذرة الصغيرة، واعطاها القدرة على أنْ تتحولَ إلى شجرةٍ عملاقةٍ مثمرةٍ مزدهرةٍ نظرةٍ حيث يَبعثُ منظرُها فى البساتين الفَرَح والسرورَ فى نفس الإنسان، ولو وضع الإنسان قدمَهُ وسط أحد هذه البساتين المزدهرة النظرة فى أحدِ أيام الربيع، وفتح بصيرتَه إلى جانب بصرهِ الظاهرى، ليرى كلَّ هذا التنوع والعجائب والمناظر الخلّابةِ والأزهار الملَّونَة والأوراق والثمار المختلفة، لاستنشقَ عطرَ التوحيد وارتوى من كأسِ العبوديةِ واصبح مسحوراً مفتوناً، بنحوٍ يجعلُهُ يترنَّمُ بلحنِ التوحيد ويعترف بهذه الحقيقة.
وهذا الشعر المنقول من اللغة الفارسية يقول:
هنالك واحدٌ لا أحد سواه وحده لا إله إلّاهو وهنا يثمر هذا الأمر:
كلُّ نباتٍ ينمو من الأرض يقول وحده لا- شريك له وفى القسم الثالث من الآيات أعلاه وضمن تعرضه لخمسة أقسامٍ من براهين

توحيد الخالق جلَّ وعلا وآيات الآفاق (خلقُ السموات بغير عمدٍ ترونها، وخلق الجبال، وخلقُ الدّواب والحيوانات، وخلق المطر، وخلقُ النباتات)، خاطبَ المشركين قائلًا: «هَذَا خَلْقُ اللَّه فَأَرُوْنى مَاذَا خَلَقَ الَّذِيْنَ مِنْ دُونِهِ».

وأضاف فى ختام الآيةِ: «بَلِ الظّالِمُونَ فِى ضَلالٍ مُبينٍ».

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۴۹

فكيف يُمكنُ لمَن يملُك بصراً ويرى آثار قدرةٍ وحكمةٍ وعظمة الخالق فى عَرَضِ عالم الوجود، ثمَّ يخضعُ تعظيماً لغيره؟!

ونواجه فى هـذه الآيات مرّةً اخرى التعبير ب «كُلِّ زَوْجٍ كَريْمٍ» بخصوص النباتات، حيث يتحدث عن التنوع الضرورى جدّاً للنباتات، وعن الزوجية فى عالمها، ويُشعر سالكى طريق التوحيد بأهميّة هذا الموضوع.

لفظة «ظلم» لها معنى واسع حيث يشمل وضع اى شىء فى غير محلّه، وحيث كان المشركون يعتبرون تدبير الكون بيد الأصنام، أو يتصورونها واسطةً بين المخلوق والخالق ويسجدون لها، فقد ضلُّوا وارتكبوا ظلماً عظيماً، ولهذا جاءت هذه الكلمة فى الآية أعلاه بمعنى الشرك، أو بمعنىً واسع حيث إنَّ الشركَ مصداقٌ واضح له.

لا يخفى أنّ عبارة «فأرونى»- فى الواقع- جاءت على لسان النبى صلى الله عليه و آله، وبتعبيرٍ آخر:

انَّهُ مكلَّفٌ بانَّ يقول هذه الجُملة للمشركين، لانَّ الآراء للَّهلا يمكن أن يكون لها مفهوم.

ويقول بصراحةٍ فى الجزء الرابع من هذه الآيات التى وردت فى سورة يس: «وآيَةٌ لَّهُمُ الأَرضُ المَيْتَةُ أَحيَيْناها».

وفى الحقيقة أنَّ مسألة الحياة من اهم أدلَةِ التوحيد، سواء كانت فى عالم النباتات، أم الحيوانات والبشر، أنّها المسألة الغنيةُ بالأسرار والمدهشةُ التى حيَّرت عقول كبار العلماء، ومع كل النجاحات التى حققها الإنسان فى مختلف الحقول العلمية، لم يفلح أيُّ شخصٍ من حلِّ لُغز الحياة حتى الآن، ولا عِلْمَ لأىأحدٍ كيف وتحت تأثير أية عوامل تبدّلت الجمادات إلى كائناتٍ حَيةٍ؟!

ثمَّ أشارَ خلال بيان مسألة احياء الأرض الميتة، إلى إنماء المحاصيل الغذائية (كالحنطة والشعير والذرة و ...)، وبساتين العنب والنخيل النظرة، وتكوين ينابيع الماء الصافى، وقال فى الختام: «لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ ومَا عَمِلَتْهُ أَيْديهِمْ أَفَلا يَشكُرُونَ».

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۵۰

إنَّ عبارة «ما عَمِلَتْهُ أَيْديهم» إشارة لطيفةٌ إلى أنَّ هذه الثمار الطازجة، غذاءٌ كاملٌ مهيأٌ للأكل دون الحاجةِ إلى طبخِهِ وإضافة المواد الاخرى إليه، فليس للإنسان تدخلٌ فى أصل وجودها، ولا فى اعدادها للأكل، فعملُ الإنسان لا يتعدى نثرُ البذور وسقى الأشجار فحسب «۱».

على أيّةِ حالٍ، لم يكن الهدف من خلق كل هذه النِّعم المختلفة انهماك الإنسان بالأكل كالحيوانات، وأنْ يقضى عمره على هذه الحال، ثم يموت ويصبح تراباً، كلا، فالهدف ليس هذا، بل إنّ الهدف هو أن يرى ذلك ويعيش فى ذاته الشعور بالشكر، ومن خلال «شُكر المنعم» يصل إلى معرفة واهب النِّعم حيث ينالُ اسمى المواهب وأرفع مراحل تكامل الإنسان.

والمسألة الجديرة بالاهتمام فى الآيات أعلاه هى انّها تضع الزوجية فى عالم النباتات إلى جانب الزوجية فى عالم الإنسان فتقول: «سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ انْفُسِهِمْ ومِمَّا لَايَعْلَمُونَ».

فهذا التعبير دليلٌ على أنَّ الزوجيةَ هنا تعنى جنس الذكر والانثى ووجودها على نطاقٍ واسعٍ فى عالم النباتات، وهذا من المعاجز العلمية للقرآن الكريم، لأنَّ هذا المعنى لم يكن آنذاك واضحاً لدى الإنسان بأنَّ هنالك وجودٌ لقوام الذكر والاجزاء الانثوية فى عالم النباتات، وتنطلقُ الخلايا التى هى نُطَفُ الذكور لتستقر فى الأجزاء الانثوية وتَتَلاقَح معها وتنعقد نطفةُ النبات.

ويمكن أن تكون عبارة «ومِمَّا لاـ يَعلَمُونَ» إشارة إلى أنَّ مسألة الزوجية لها نطاق واسع، وما أكثر الموجودات التى تجهلون وجود الزوجية فيها، وسيزيل تطورُ العلم النقاب عنها (كما ثبتت هذه المسألة فى الذّرات حيث تتركب من قسمين مختلفين يكمِّلُ أحدُهما الآخر

(١) وهـذا فى حالـةِ كون «ما» فى عبارة (وما عملتهُ) نافيـةً (وهذا هو الظاهر)، إلّاأنّهم احتملوا أن تكون موصولةً، تلميحاً إلى الثمار التى تنتـج عن طريق التطعيم والتى للإنسان دَخَلٌ فيها، أو إلى المشـتقات التى يأخـذونها من الفاكهة كالعصـير والخل التى تؤخذ من العنب والتمر، وممّا لا شك فيه أنَّ المعنى الأول أكثرُ تناسباً.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٥١

كـالزوجين: ف «الالكترونـات» تحمل الشـحنات السالبـة، و «البروتونات» تحمل الشـحنات الموجبـة)، ومواضـيع اخرى لم يتوصل إليها العلم البشرى حتى الآن.

وفى الآية الخامسة حيث تبدأ بالتعريف باللَّه من خلال الآيات المختلفة، أشارت أولًا إلى نزول المطر من السماء، ثم قالت: «فَاخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىءٍ».

وربّما يكون التعبير ب «نَباتَ كُلِّ شْيءٍ» إشارة إلى أنواع النباتات المختلفة، حيث تُسقى بماءٍ واحدٍ، وتنمو على أرضٍ واحدةٍ، ومع هذا فهى تختلف فى الشكل والطعم والخواص وأحياناً تتعارض فى ذلك، وهذا من عجائب خلقِ اللَّه.

أو أنَّ المقصودَ هو النباتات التى تحتاجها الطيور والبهائم البرية والبحرية وكذا الإنسان «١»، (ويمكن الجمع بين هذين المعنيين أيضاً).

ثم يتطرقُ إلى ذكِر مسألـةٍ اخرى فيضـيف: «فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرا»، وبهذا يشـير إلى مادة «الكلوروفيل» الخضـراء التى هى من أهم وانفع اجزاء النبات، هـذه الخُضـرة التى تبعث الحيويـة، واللطافة، والجمال، وتسـلب القلوب والتى تخرج من التراب الغامق اللون والماء الرائق الشفاف.

إنَّ التعبير ب «خَضِراً» بالرغم من اطلاقه، إلّاأنَّه استناداً إلى الجملة التالية التى تقول:

«نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً»، يشير بالأساس إلى سيقان وسنابل الحنطة والشعير والذرة وما شابه ذلك «٢».

ثم يُلفتُ النظرَ إلى أشجار النخيل، فيقول: «ومِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيَةٌ».

«قنوان»: جمع «قِنْو» على وزن (حزب)، وتعنى الفروع الرفيعة التى تخرج من الطلع بعد

(١) فى هذه الحالة يكون مفهوم الجملة «فاخرجنا به نباتاً لكل شىء».

(٢) «مُتراكب» مأخوذة من مادة «ركوب» وتعنى الصـعود، وهى إشارة إلى الحبوب التى تتراكُب على بعضها على هيئة سنبلةٍ ذات منظرٍ جميلٍ ومحبَّبٍ للغاية.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٥٢

تَفتُحِه، وهى التى تُكَوِّن عذوق التمر فيما بعد.

وقد يكون التعبير ب «دانيةٌ» إشارة إلى قرب هذه العذوق من بعضها أو انحنائها نحو الأسفل بسبب ثُقل ثمار الرطب.

ويقول بعض المفسـرين بما أنَّ عذوق التمر تختلف أيضاً، فالبعض يكون فى الجزء الأسـفل من النخل ويَمكن استثماره بيُسر، والبعض الآخر بعيداً عن متناول اليد فتكون الاستفادة منه صعبةً بعض الشىء، فقد أشار البارى تعالى إلى الصنف الأول باعتباره أكثر فائدة «١».

وأشـار فى سـياق هـذه الآيـة إلى بسـاتين العنب والزيتون والرُّمـان: «وجَنّاتٍ مِّنْ أَعنابٍ والزَّيتُونَ والرُّمَّانَ»، التى تتشابه فى نفس الوقت الذى تختلف فيه، وتختلف فيما بينهما فى حين أنّها متشابهة «مُتَشَابَهاً وغَيْرَ مُتَشابِه».

يقول بعض المفسرين إنَّ هذه الثمار تتشابه فى المنظر، إلّاأنّها تختلف فى الطعم (كانواع العنب والرُّمان الحامض والحلو).

وقال البعض الآخر إنَّ أوراق أشجارها تتشابه أحياناً (كاوراق الزيتون والرّمان)، فى حين أنَّ ثمارها مختلفة.

ولكن المناسب اعطاء أوسَع مفهومِ لتوضيح الآية وهو الإشارة إلى أنواع التشابه والتفاوت.

واللطيف أنّه يدعو الجميع للتمعُنِ فى الثمار فيقول: «انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ويَنْعِهِ».
«لأنَّ فى هذا، آياتٌ وبراهين عن عظمةِ وقدرة وحكمة البارى تعالى لأهل الإيمان» «إِنَّ فِى ذَلِكُم لَآياتٍ لِّقَوْمٍ يُؤمِنُونَ».
وليست آيـة واحدة بل فيها آيات جمة للّه‌تعالى لأنَّ تكون الثمار كولادة الصـغار فى عالم الحيوانات، حيث تنتقل حبوب لقاح الذكور إلى الأقسام الانثوية عن طريق الرياح أو الحشرات، وبعد انجاز عملية التلقيح والاختلاط فيما بينهما يتم تشكيل البويضة والنطفة

(۱) تفسير القرطبى، ج ۴، ص ۲۴۸۴.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۵۳

أولًا، ثم تظهر فى جوانبها خلايا الثمار والالياف واللب والفروع الجذّابة التى تغذيها.
وفى داخل هـذه الثمار تكمُنُ هناك أعظمُ المختبرات الخفيّـة التى تعمل باسـتمرار فى صـناعة المركبات الحديثـة بمزايا جديـدة، وقد يَكون الثمر بلا طعمٍ فى بداية الأمر، ثم حامضـى الطعم تماماً، ثم يصـبح حلواً، وفى كلِّ وقتٍ يحدث فيها انشـطارٌ وتفاعلٌ جديد، كما تتغير ألوانها باستمرار وهذه من عجائب خلقِ اللّه التى يدعو القرآن الكريم- لاسيّما فى الآية الآنفة- الإنسان إلى التمعُنِ فيها.
وأشـار فى الآيـة السادسـة من البحث فى بـادىء الأمر إلى قطع الأرض المختلفـة التى تملـك قابليـات متفاوتـة لتربيـة أنواع الأشـجار والنباتات وغيرها، إذ يقول: «وفى الأَرْضِ قِطَعٌ مُتجاوِراتٌ» مع أنَّ هذه القطع يلتصقُ بعضـها بالبعض الآخر، فبعضها خصبٌ ومستعدٌ لأى شكلٍ من الزراعة، وبعضـها مالحٌ لا تنبتُ فيه سـنبلةٌ أبداً، وقد يناسبُ بعض هذه القطع زراعة الأشجار أو نوعٍ خاصٍ منها فقط، ويناسبُ البعض الآخر نوعاً خاصاً من الزراعة، وهذا عجيبٌ حيث تتفاوت الأراضى المترابطة بشكلٍ تستعد للقيام بواجباتٍ مختلفة.
وبعـد ذِكر هـذه المقدَّمـة أشـار إلى أنواع الأشـجار والزراعات، فاضاف قائلًا: «وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعَنَابٍ وَزَرْعٌ ونَخيلٌ صِنْوانٌ وغَيْرُ صِنْوانٍ».
«أعناب»: جمع عِنَب وتعنى الكَرْم و «نخيل» جمع «نخل» و «نخيلة» و تعنى شجرة التمر، وذكرهما بصيغة الجمع يُحتملُ أن يكون إشارة إلى الأنواع المختلفة للعنب والتمر، لأنَّ لهاتين الفاكهتين مئات أو آلاف الأنواع المختلفة.
والتعبير ب «صِنْوانٌ وغَيْرُ صِنْوانٍ» بالالتفات إلى أنَّ «صـنوان» جمع «صـنو» «وتعنى الفرع الـذى يخرج من البـدن الأصل للشـجرة»، من الممكن أن يكون إشارة إلى قابليـة الشـجرة على تغذيـة الثمار المختلفـة عن طريق التطعيم، لهـذا تظهر على أغصان شـجرةٍ واحـدةٍ لها ساق واحد وجذر واحد وتتغذى من ماءٍ وأرضٍ واحدةٍ أنواعٌ مختلفةٌ من الثمار، وهذا من عجائب الخلقة.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۵۴

ومن الممكن أن يكون هذا التفاوت إشارة إلى تفاوت الأغصان التى تَنمو على أصل واحدٍ، وتتفاوت من حيث الثمار الطبيعية.
ثم يُصـرِّحُ بانَّ هذه الأشـجار مع هذا الاختلاف فانّها تُسـقى بماءٍ واحدٍ: «يُسْـقَى بِماءٍ واحِدٍ»، وفى نفس الوقت فانّنا نُفضِّلُ بعضـها على البعض الآخر من حيث الثمر «ونُفَضِّلُ بَعضَها عَلى بَعْضٍ فى الأُكُلِ».
ومن المسلَّم به أنَّ فى هذا الأمر آيات وبراهين للمتفكرين: «إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآياتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ».
حقاً إِنَّهُ مـدهشٌ، فالماء واحـدٌ، والترابُ واحـدٌ أيضاً، أمّا الاختلاف بين الثمار فكثيرٌ بحيث إنَّ أحـدها حلوٌ والآخرُ حامضٌ تماماً (ففى الكثير من المناطق تنمو أشـجار الليمون الحامض إلى جانب أشـجار النخيل) أو تنمو المحاصـيل الزيتية والمحاصيل النشوية وغيرها فى مزرعةٍ واحدةٍ، وتتفاوت تماماً، حتى أنَّ لهذه الفواكه والمحاصيل أنواعاً مختلفةً بالكامل.
ما هـذا الجهاز العجيب المكنون فى أغصان الأشـجار وجـذورها الـذى لـديه القـدرة على صـنع المواد الكيميائيـة مختلفة الخواص من خلال اسـتغلال نوعٍ واحـدٍ من المواد (نوعٌ واحـد من الماء والتراب)؟! فلو لم يكن هنالك دليلٌ على علم وحكمـةِ خالق الكون سوى هذه المسألة لكانت كافية لمعرفة هذا الخالق العظيم، وكما يقول أحد شعراء العرب «۱»:
والأرضُ فيها عبرةٌ للمُعتَبر تُخبرُ عن صُـنعِ مليكٍ مقتدر تُسـقى بماءٍ واحدٍ أشجارُها وبقعةٌ واحدةٌ قرارها والشمسُ والهواء ليس يختلف

واكُلُهـــا مختلـــفُ لا ـــيـــأتلف فمـــا الـــذى أوجَـــبَ ذا التفاضـــلا إلّـــا حكيـــمٌ لَـــم يَرِدْهُ بـــاطلا

(۱) تفسیر روح المعانی، ج ۱۳، ص ۹۳.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۵۵

وفی الآیـة السابعـة یتطرق إلی شـرح أدلـةِ التوحیـد ومعرفـة اللَّه بقرینـة بدایتها ونهایتها، فیقول: «هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّکُمْ مِنهُ شُرابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِیهِ تُسِیمُونَ».

فلیس کلُ ماءِ صالـحٌ لشـرب الإنسان، ولاکلُّ ماءٍ صالـحٌ لنمو النبات والشَـجَر، إلّاأنّ هذا الماء السـماوی مفیدٌ للکل وأساسٌ لحیاةِ کل شیء.

«شَجَر»: کما قلنا له معنیً شامل فی اللغة، حیث یشـمل أنواع النباتات سواء کانت ذات سیقان أم لا، و (تُسیمون) من «اسامة» وهی من مـادة «سَوْم» وتعنی رعی الحیوانات «۱»، وحیث إنّ الحیوانات تتناول کلًا من الأعشاب وأوراق الأشـجار عنـد رعیها فالتعبیر ب «شـجر» یبدو مناسباً جدّاً لاشتماله علی کلیهما.

ثم یضیف: «یُنْبِتُ لَکُمْ بِهِ الزَّرْعَ والزَّیتُونَ وَالنَّخِیْلَ وَالأَعْنابَ وَمِنْ کُلِّ الثَّمَراتِ».

واللطیف أنَّ الآیة أعلاه مع انَّها تتحدث عن کافة الِّثمار وجمیع أنواع المحاصیل الزارعیة بما فیها الحبوب، فهی تستند خاصة إلی ثلاثة ثمار هی: الزیتون، والتمر، والعنب.

وهذا یعود للأهمیة الفائقة لهذه الثمار من حیث المواد الغذائیة، وأنواع الفیتامینات والمیزات الدوائیة التی تمت معرفتها مع تطور العلوم الغذائیة فی هذا العصر «۲».

لهذا یعود ویؤکّد فی نهایة الآیة بانَّ فی هذه الامور برهاناً واضحاً عن حکمة وقدرة وعظمة اللَّه لُاولئک الذین یتفکرون: «إِنَّ فِی ذَلِکَ لَآیَةً لِّقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ».

والذین لا یتفکرون فی هذه الآیات الجلیّة لا یستحقون أن تُطلق علیهم کلمة الإنسانیة، کما یقول الشاعر نقلًا عن الفارسیة:

عجـــبٌ لهـــذا الرســـم علی بـــابِ وجـــدار الوجـــود فکلمـــا فعَـــل فکرکَ کـــانَ رســـماً علی الحـــائط

(۱) وطبعاً أنَّ المعنی اللغوی ل «السَـوْم» هـو وضع العلامـة، وبمـا أنَّ الحیوانـات حین العلف تـترک أثراً علی الأرض اطلق علیه هـذا الاصطلاح.

(۲) طالعوا شرح هذا الکلام فی التفسیر الأمثل، ذیل الآیه ۱۱ من سورة النمل.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۵۶

هل یتمکن أن یعطی فاکهـةً ملونةً من الخشب؟ أم یقدرُ أن یسـتخرج من الشوک ورداً بمائةٍ لون؟ لقد تناثر الارجوان علی عتبة المرج الخضـراء عیوناً تبقی الابصارُ حیری فیه! وفی الآیة الثامنة نواجه تنوعاً آخر فی عالم النباتات والأشـجار الذی یُطرح کأحِدِ ادلةِ التوحید ومعرفة عظمة اللَّه، إذ یقول: «وهُوَ الَّذِی أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعُروشَاتٍ وغَیْرَ مَعْرُوشَاتٍ».

«معروش»: من مادة (عَرْش) وتعنی السریر المرتفع أو السقف، وفی ما یعنیه هذا المفهوم فی هذه الآیة، هنالک خلاف بین المفسِّرین:

فقال بعضـهم: إنّ «المعروشات» تعنی النباتات التی تنساب علی الأرض أو تتسـلق علی الأبنیة أو علی هیکل من حدید أو خشب یصـنع لهـا، مثـل الأعناب والخیار والبطیـخ. و «غَیْرَ مَعْرُوْشات» ما قام علی ساق مثل النخل وسائر الأشـجار: وقال البعض الآخر: المعروشات ما ارتفعـت أشـجارها وأصـل التعریش الرفع، عـن ابـن عبـاس، وقـالوا أیضـاً: المعروشـات مـا أثبته ورفعه النـاس- واحیـط بسـور-، وغیر المعروشات ما خرج فی البراری والجبال من الثمار «۱».

ولكن يظهر أنَّ التفسير الأول أكثر ملائمةً.

على أيّة حالٍ، فالعجب أنَّ بعض الأشجار كالسرو والصنوبر ترتفع في السماء برتابة ولا تستطيع الرياح العاتية والعواصف من التأثير على قامتها، في حين أنَّ البعض الآخر كأشجار الكروم لا تملك غصناً مستقيماً واحداً، وتهتز وتنحني باستمرار، وكلٌّ منها له عالمهُ الخاص. فأشجار العنب بعناقيدها الثقيلة لو كانت لها قامة كاشجار الصنوبر لانكسرت ولم

(۱) وردت هذه التفاسير الثلاثة في تفسير القرطبي، ج ۴، ص ۲۵۳۴.

تستمر يوماً واحداً، فضلًا عن ابتعادها عن متناول يد الإنسان، في حين أنَّ طفلًا صغيراً باستطاعته اقتطاف جميع الثمار في بساتين العنب.

ثم يضيف مستنداً إلى أربعة أنواعٍ من الثمار والزرع: «وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً اكُلُهُ والزَّيْتُوْنَ وَالرُّمَانَ مُتَشابِهاً»، لابدّ من الانتباه إلى أنّ «جنات» جمع «جنّة» تُطلقُ على البستان، وعلى الأراضي التي يغطيها الزرع، و «اكُل» على وزن (دُهُل) من مادة «أَكْل» على وزن (مَكْر) وتُطلق على جميع المأكولات.

على أيّة حالٍ، فالأشجار والزروع والنباتات لا تختلف كثيراً من ناحية الظاهر فقط، بل إنّ ثمارها ومحاصيلها تتفاوت للغاية أيضاً، من حيث اللون والطَعَم والشكل الظاهري، وكذلك من حيث ما فيها من مواد غذائية وخصائص متنوعة، اضافة إلى أنَّ منها المرغوب والمتوسط، وهذا بيان لقدرة الخالق جلَّ وعلا الذي أوجَدَ مثل هذا التنوع العظيم الواسع في عالم النباتات، وكلُّ نوعٍ يُسَبِّح بحمده وثنائه.

وفي نهاية الآية يُصدرُ أَوامره: «كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وآتُوا حَقَّه يَومَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَايُحِبُّ المُسرِفِيْنَ».

وعليه فانَّ الأمرَ ب «كُلوا» دليل على حليّتها الكاملة ولكن بشرطين: الايفاء بحقوق المحتاجين، وعدم الاسراف.

وبالرغم من أنَّ بعض المفسرين قالوا إنَّ المقصود ب «حقّ» هنا هو الزكاة، إلّاأنَّ أغلبَ المفسرين واستلهاماً من الروايات الواردة عن طريق أهل البيت عليهم السلام وأهل السُّنة، صرَّحوا بأنَّ المقصود بهذا الحق ليس الزكاة «۱».

بناءً على ذلك لابدّ أن يُخصصَ أصحابُ المزارع والبساتين نصيباً للمحتاجين أثناء قطف الثمار، وحصاد المحاصيل كحكمٍ إلهيٍّ، وهذا النصيب ليس له حدٌّ معينٌ في الشرع، بل يتعلق بهمّةِ المالكين. وعليه فإنّ ذيل الآية تتحدث عن حكمٍ أخلاقي وصدرها يشتمل على دورس توحيدية.

(۱) يُراجع سنن البيهقي، ج ۴، ص ۱۳۲؛ ووسائل الشيعة، ج ۶ كتاب الزكاة «أبواب زكاة الغلات»؛ وتفسير الميزان؛؛ و تفسير القرطبي فيما يخص الآية.

ويشير في الآية التاسعة إلى موضوعٍ آخر من عجائب عالم النباتات والأشجار، فيقول بعد ذكر مسألة بسط الأرض وتكوّن الجبال: «وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيءٍ مَوْزُونٍ».

بالرغم من أنَّ «موزون» من مادة «وزن»، إلّاأنّها هنا إشارة إلى النظام الدقيق والمحدَّد، والتقديرات المتلائمة والمتناسقة التي تحكم جميع ذرات النباتات، إضافة إلى أنّ «وزن» كما أوردها الراغب في المفردات تعني في الأصل معرفة قَدرِ الشيء.

وقال بعض المفسِّرين أيضاً إنَّ المُرادَ من هذا التعبير هو أنَّ اللَّه خلقَ من كلِّ نباتٍ بقَدْر حاجة الإنسان «۱».

كما قالوا إنَّ المراد من «موزون» هو وجوب تظافر كميات محدّدة من الماء والهواء والتراب وضوء الشمس كي تنمو النباتات.

واحتملَ بعض المفسرين أنّ التعبير ب «كلِّ شيء» يشتمل على المعادن أيضاً، ولكن من خلال الفَهم بأنّ عبارة «أنبتنا» لا تتناسب كثيراً

مع المعادن، فانَّ هذا التفسير يبدو بعيداً، وأنَّ الجمعَ بينَ التفسيرين ممكنٌ، وورد فى بعض الروايات إشارة إلى التفسير الثانى أيضاً «٢».
ويردفها الإشارة إلى توفير الوسائل المعاشية والحياتية للناس ولحيواناتهم ولاولئك الذين يرتزقون على مائدة الخالق الواسعة فيقول: «وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ». «معايش»: جمع «معيشة» ولها معنىً واسعٌ جدّاً، فتشمل كلَّ شىءٍ يعدّ من وسائل حياة الناس، وجملةُ «ومَنْ لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِيْنَ» إشارة إلى الحيوانات والكائنات الحيّة التى ليس بمقدور الإنسان أن يُطعمها، فوضع البارى تعالى الطعامَ المناسب لكلٍّ منها فى اختيارها على أساس النظام الخاص الذى يسود العالم، ولو فتحنا أعيننا وتأملنا طريقة تغذية أنواع الحيوانات من النباتات، لوجدنا فيه عالَماً من أدلة معرفة اللَّه.

---

(١) ذكرالفخر الرازى هذا فى تفسيره كاحتمالٍ أول، والتفسير الثانى كثالث احتمال، (التفسير الكبير، ج ١٩، ص ١٧١).

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ۶، أشار الإمام على عليه السلام فى هذه الرواية إلى المعادن المختلفة التى أوْجَدَها اللَّه فى‌الجبال وتباعُ وتَشترى بالوزن.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢۵٩

فبعضها يستفيد من الثمار، وبعضها من الحبوب، ومجموعةٌ من أوراق الأشجار، وطائفةٌ من السيقان، وآخر من القشور، والبعض من رحيق الأزهار، وقسمٌ آخر يأكل الجذرَ فقط.

وفى الآية العاشرة والاخيرة من البحث اشيرَ إلى ميزةٍ اخرى لعالم النباتات، وهى مسألة انفلاق حبوب ونوى النباتات تحت الأرض.

وقد وُصِفَ البارى تعالى فى هذه الآية كما يلى: «إِنَّ اللَّه فَالِقُ الْحَبِّ والنَّوى»، ويقول فى نهاية الآية: «ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنّى تُؤفَكُونَ».

«فالق»: من مادة (فَلْق)، وكما يقول الراغب فى المفردات فهى تعنى انفطار الشيء، وانفصال جزءٍ عن جزءٍ آخر «١»، و «الحبّ» تعنى حبوب الطعام والغذاء أو كل أشكال الحبوب النباتية، و «النوى تعنى نوى الثمار، وإذا حَصَرها البعض بمعنى نوى التمر فذلك بسبب تكاثره فى ذلك المحيط.

على أيّةِ حالٍ، فانَّ أهم والطف مراحل حياة النباتات هى مرحلة انفلاق الحبِّ والنوى وفى الحقيقة فانَّ هذه الحالة تشبه حالة ولادة الطفل، والعجيب أنَّ هذا البرعم النباتى بما فيه من رقّةٍ وظرافةٍ يشقُ هذا الجدار القوى الذى يحيط به، ويخرج إلى العالم الخارجى، فيولد هذا الكائن الحى الذى كان محبوساً إلى ما قبل لحظات فى القشرة والنوى ولم تكن له علاقة بالعالم الخارجى، ويقيم علاقاته مع الخارج فوراً، فيتغذى من المواد الغذائية الموجودة فى الأرض، ويرتوى من الماء والرطوبة التى تحيط به، ويبدأ بالحركة بسرعة فى اتجاهين متعاكسين فمن جهةٍ ينفذ فى الأرض على هيئةِ جذرٍ، ومن جهة اخرى يستقيم فوق الأرض على هيئةِ ساقٍ.

فالقوانين الدقيقة التى تسود هذه المرحلة من حياة النبات مدهشةٌ حقاً، وتعتبر دليلًا

---

(١) قد يستعمل هذا اللفظ بمعنى «الخلقة» كأنَّ حجبُ ظلمة العدم تتمزق وينكشف نور الوجود عنها (تفسير روح‌المعانى، ج ٧، ص ١٩۶)، ولنفس هذا الشيء يسمى بياض الصبح «فلق» على وزن «شَفَق» أيضاً.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢۶٠

حياً على علم وقدرة الخالق جلَّ وعلا.

يستفاد من مجموع ما ورد فى هذه الآيات القرآنية حول خلق النباتات وخصائصها المختلفة ابتداءً من رشد النباتات إلى تنوعها ومسألة اللقاح والزوجية، وأنواع المواد الغذائية للإنسان والحيوانات، حتى كيفية نمو طلع التمر، والحبوب المرتبة بعضها فوق بعض كالحنطة والشعير، وتكاثر الثمار والزروع المتباينة تماماً الناتجة عن ماء واحد وأرض واحدة وسيادة القوانين الموزونة على جميع المراحل وانفلاق الحبوب والنوى أنّها جميعاً آيات لتلك الذات المقدّسة، ودليل حى على وحدانية الرب ونفى كل أشكال الشرك.

توضيحات

١- التركيب المذهل للنباتات

من الطبيعى أن ننسى عجائب وأسرار كل شىء إذا بدا لنا واضحاً فيكون مصداقاً للآية الشريفة: «وكَأَيِّنْ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنهَا مُعْرِضُونَ». (يوسف/ ١٠٥)

فنمر عليها مرور الكرام فى الوقت الذى يكمن فيها عالم من عجائب وقدرة وعظمة الخالق جلَّ وعلا.

لنبدأ من جذور النباتات، فالجذر بلطافته وَرِقِته له قدرةٌ مذهلة، فهو ينفذ فى طبقات الصخور والأراضى الصلدة، وأحياناً يغور تحت قطع صخريةٍ تزنُ عدة اطنان ويرفعها عن مكانها وتتحرك العمارات والأحواض التى أُنشِئَت من القوالب والطبقات المسلحة نتيجة نمو الأشجار حولها.

فعملُ الجذر هو امتصاص المواد الغذائية والرطوبة من كل ناحيةٍ، وكأنّها تعرف مراكز الرطوبة والمواد الغذائية من خلال شعورها العجيب فتسعى نحوها.

ولكلِّ جذرٍ جهازٌ عظيمٌ لهُ قدرةٌ خاصة فى انتخاب نوع الغذاء وتغييره وتبديله، ثم

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٦١

يدفعه إلى داخل الأغصان بعد التغييرات التى يُحدثها فيه، ومنها إلى الثمار، وتجرى عليها تفاعلات كيمائية جديدة فى كلِّ مرحلةٍ، كى يصنع من التراب فاكهةً طيبةً كالعسل، أو يصنَع دواءً شافياً وصحياً.

ومن أهم واجبات الجذر امتصاص- النتروجين المذاب- الضرورى لبناء النبات الذى لا تتمكن بقية أجزاء النبات من جذبه.

وبناء الأوراق أكثر عجباً منه، فلو وضعنا ورقةً أمام أشعة الشمس ستلفت نظرنا الفروعُ الدقيقة جدّاً الممتدة فيها والتى يكون واجبها ايصال الماء والغذاء إلى كافة خلايا الورقة.

وفى الواقع أنَّ كلَّ ورقةٍ تعتبر بحد ذاتها مدينةً كاملةً، وهذه الفروع هى الأنابيب المنّظمة لهذه المدينة ابتداءً من الانبوب الرئيسى، وحتى أصغر التفرعات.

والورقة مع رقتها لها سبع طبقات، وكلُّ طبقةٍ لها بناءٌ وبرنامجٌ خاص يَبعث على الدهشة، والغلاف الذى يغطى الورقة كجلد الإنسان ذو مساماتٍ دقيقة جدّاً، وكل من هذه المسامات لها خلايا للصيانة تقوم بتنظيم انفتاح وانغلاق المسامات.

وتتنفس الورقة من خلال هذه المسامات، فتستنشق الهواء وتفصل عنه غاز ثانى اوكسيد الكاربون، لتصنع به «الكلوروفيل» النباتى، وفى المقابل تطرح الاوكسجين وكميةً من الرطوبة لتلطيف وتطهير الجو كموهبتين عظيمتين لدنيا الإنسانية.

والأرقام التى يقدمها العلماء هنا تبعث على الحيرةِ إذ يقولون: من أجل أن يتمكنَ النبات من صناعة رطل واحد من السُكَّر يجب أن تستنشقَ الأوراقُ ما يعادل ثلاثمائة الف لتر من الهواء وتحلّله.

وبناء الأزهار ومن ثَمَّ الثمار أعجبُ من ذلك أيضاً، فهناك الأقسام الذكرية والانثوية، وتفاعل الذّرات الذكرية الدقيقة جدّاً مع الأجزاء الانثوية، ثم تكوين البويضة فى رحم النبات بعد هذا الزواج الصامت، وكيفية نموه، أنّه عالمٌ عجيبٌ يسلب معه روحَ وعقلَ الإنسان، ويجعله غارقاً فى محيطٍ من العجائب.

إنَّ تفصيل بناء هيكل النباتات والأزهار والثمار لا يفى بالغرض المطلوب فى هذا

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٦٢

البحث المختصر، فقد تمَّ تأليف العديد من الكتب من قبل العلماء حول هذا الموضوع، وظهرَ علمٌ واسعٌ بإسم (علم النبات)، فمن الأولى أن نكتفى هنا بكلامٍ لأحد خبراء الزراعة ونغلقَ هذا الملّف الضخم على عجل، يقول عالم النبات «تشرالدت»: «إنَّ الاله يظهرُ

من خلالِ القوانين الثابتة والرمزية التى يدير بها عالم النبات إنّه يظهر ويتجلّى من خلال هذه الطرق:

١- النظام والترتيب: و يشمل التكاثر والانقسامات الخلوية وبناء الأجزاء المختلفة من النبات حيث يتم بشكل منظم ومرتب.

٢- التعقيد: فلا تقاسُ أيُّ ماكنةٍ من صنعِ الإنسان مع الترتيب المعقد والمذهل لنباتٍ عاديٍّ.

٣- الجمال: إنَّ جمالَ الساق، والورق والزهر أمرٌ الهيٌّ، إذ لا يقدرُ أيُّ نحاتٍ ماهرٍ ورسامٍ مجرِّبٍ من تقديم تمثالٍ أو لوحةٍ بهذا الجمال.

٤- الوراثة: فكلُّ نباتٍ يولِّدُ مثلِه وهذا هو انتاج المثل، وهو يجرى وفقاً لارادةٍ وتخطيطٍ، فبأى مكان زرعوا وكيفما زرعوا فانَّ «الحنطة تنبتُ من الحنطة والشعير من الشعير».

ثم يضيف: باعتقادى، أنّ هذه المظاهر دليلٌ على وجود الخالقِ ذى الحكمة البالغةِ والقدرة اللامتناهية» «١».

يقول «تايلر» استاذُ علم البيئة السابق فى جامعة مانشستر: «تأملوا النباتات والحشائش التى نَبتتْ على جانبى الطريق، فهل تستطيع الآلات الحديثة التى صنعها البشر حتى الآن أن تضاهى صنع هذا النبات الطبيعى؟!

فهذه الحشائش الطبيعية بكل معنى الكلمة مدهشة ومذهلة حيث تنمو باستمرار وتقوم يومياً بآلاف الأفعال والتفاعلات الفيزيائية والكيميائية، وكلُ ذلك يجرى بإشراف المادة البروتوبلازمية التى تكوّنت فيها كل حياة الطبيعة، فهذه الآلة الحيّةُ العجيبة من صُنعِ أيِّ قدرة؟!».

---

(١) عالم الأزهار (اقتباسٍ وتلخيص).

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٦٣

٢- فوائد وبركات النباتات

إنَّ النباتات تُمثِّلُ الركن الأساس للحياة على الكرة الأرضية، وكافةُ الكائنات الحيَّةِ الاخرى بحاجة إلى النباتات، ففوائد النباتات كثيرة ووفيرة للغاية حيث يمكن الإشارةإلى اثنتى عشرة فائدة متسلسلة:

١- أفضل مادة غذائية: يتمّ تحضير افضل اطعمتنا نحن البشر من النباتات والحبوب والفاكهة، فطاقتنا وقدرتنا وسلامتنا تُؤَمَّنُ عن طريق الغذاء النباتى، والكثير من الطيور والدَّواب واللبائن والأسماك فى البحر تستفيد من النباتات، لهذا فكلُّ بلدٍ يتمكن من تأمين منتجاته الغذائية عن طريق النباتات فانه يبلغ الاكتفاء الذاتى فى الواقع.

٢- التهوية: نحن نعلمُ أنَّ الإنسان واغلب الموجودات الحيّة تستخدم اوكسجين الهواء بنحوٍ دائمٍ وتقوم بإحراقه، ولولا وجود مصدرٍ يعوِّضُ ذلك فسيُستهلك هذا الاوكسجين الموجود فى الجو والأرض خلال مدة قصيرة، ويَهلك هذا الصنف من الموجودات أثر الاختناق، إلّاأنّ الإله الحكيم اناطَ مسؤولية تعويض هذه الخسارة بالنباتات، فهى تتنفس على العكس من الإنسان، إذ تأخذ غاز ثانى اوكسيد الكاربون وتُحلّله وتطرح غاز الاوكسجين، لهذا فانَّ هواء البساتين والمزارع منعش ومُنَشِّطٌ، كما يوصون لنفس هذا السبب بأنْ تقامَ فى كلِّ مدينةٍ متنزهاتٍ مُشَجَّرةٍ، وتخصَصُ لكلِّ شخصٍ مساحةٌ من هذه المتنزهات، ويطلقون على هذه المتنزهات «رئةُ المدينة».

٣- الملابس: إنّ الجانب الأعظم من ملابسنا يتمّ تصنيعه من ألياف بعض النباتات، وفى الواقع فإنّ المصدر الذى لا ينفد لملابس الإنسان فى الدرجة الاولى هو النبات.

٤- البيت وأثاثه: لو ألقينا نظرة على ما حولنا فى البيت لوجدنا أنّ أغلب الأبواب والشبابيك واللوازم الاخرى هى من أخشاب الأشجار، بنحوٍ لو أردنا الغاءَها من حياتنا فستصبح الحياة صعبةً بالنسبة لنا، وفى الكثير من المناطق يصنعون بيوتهم من الخشب بشكلٍ كامل، ولهذه البيوت مزايا كثيرة، وأحد اللوازم المهمّة للحياة المعاصرة هو النايلون، ونحن نعلمُ إن مادته الاصلية تُستخرج من عصير

شجر (المطاط).

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٦۴

۵- الأعشاب الطبيـة: كانت أغلبُ الأدويـة فی السابق تُستخلصُ من النباتات، واليوم فانَّ القسم الكبير منها يستخرج من النباتات أيضاً، ونظراً للآثار السلبيهٔ للأدويهٔ الكيميائيهٔ فقد بدأت الآن حملهٌ للعودهٔ إلى الأدويهٔ النباتيه، وهنالک صيدليّات جميع أدويتها من النباتات.

۶- السيطرهٔ على الكثبان الرمليـهٔ: إنَّ أحـد الأخطار الجدّيـهٔ التی تهدد المدن لا سيما القريبهٔ من الصحارى الرمليهٔ هی الكثبان الرمليهٔ حيث تدفن تحتها أحياناً قريهً كاملهٔ، وأفضل سبيلٍ لتثبيت هذه الرمال هو استخدام النباتات المختلفهٔ التی توقف حركتها وتقدُّمَها.

٧- تحضير الورق: نحن نعلم أنَّ اختراع الورق كـان له نصيب مهم للغايـهٔ فی تطور الحضـارهٔ والعلم البشرى، والنباتات هی المصـدر الأساس لصناعهٔ الورق.

٨- معادلهٔ الحرارهٔ والبرودهٔ: إنَّ النباتات وبسبب الرطوبهٔ المناسبهٔ والمعتدلهٔ التی تلقيها فی الفضاء تقوم بالحدِّ من شدّهٔ البرد، وكذلک الحدِّ من شدّهٔ الحرارهٔ، ولهذا فانَّ الجو فی المناطق كثيفهٔ الأشجار يكون معتدلًا دائماً.

٩- وسائط النقل: إنَّ الكثير من البواخر والقوارب كانت تصـنع سابقاً وتصنع حالياً من الخشب، وهی تعتبر من أفضل وسائط النقل التی يستخدمها الإنسان سابقاً وفی الوقت الحاضر.

١٠- الجمـال والطراوهٔ: لا يخفى هـذا الأثر اللطيف للأشـجار والنباتات والزهور على أحـد حيث تبهرُ روحَ الإنسان بجمالها المـدهش، وتُريـحُ القلبَ وتزرع الطمأنينـهٔ فی نفس الإنسان لمواجهـهٔ الضـغوط الشديـدهٔ للحياهٔ، لهذا يقومون بتزيين المستشـفيات بأنواع النباتات والأشـجار من أجل تحسـين أحوال وأوضاع المرضـى ويلجأ الإنسان باستمرار إلى أحضان الطبيعهِ فی وسط الأشجار والبساتين ومزارع الحنطهٔ من أجل ازالهٔ المتاعب وتجديد النشاط.

١١- المصدر المهم للطاقهٔ: إنَّ الخشبَ والورق وجذور النباتات كانت ولا زالت أحدى

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢۶۵

المصادر المهمّهٔ للطاقهٔ وتأمين الحرارهٔ، وحتى الفحم الحجرى الذى هو أحد مصادر الطاقهٔ المهمّهٔ فهو من منتوجات الأشجار والنباتات أيضاً، والحرارهٔ التی تحصل من الخشب وأوراق الأشـجار ملائمهٔ، وتلويثها للبيئهٔ ضـئيلٌ جدّاً، وحتى الرماد المتبقى منها يصـلحُ كسمادٍ للأشجار يستفادُ منه مجدداً.

١٢- أصـناف العطـور والمـواد الكيميائيـهٔ: نحنُ نعلمُ أنَّ أفضـلَ العطـور الملطفـهٔ لروح الإنسـان كـانت ولاـ زالت تُستخلص من رحيق الأزهار، والأشجار والنباتات ذات الورق والخشب المعطَّر ذا الرائحهٔ الطيبهٔ، ليست بالقليلهٔ.

ناهيک عن كثيرٍ من الواد الكيميائيهٔ المستخلصهٔ من النباتات التی تستخدم فی مختلف الصناعات.

عظيمٌ ذلک الأله الذى أودع كلَّ هذه الآثار والفوائد والبركات فی هذا المخلوق، وجعلَهُ آيهً عظيمهٔ من آيات علمه وقدرته.

إنَّ التعابير الشاملـهٔ التی تَلَوْناها فی الآيات المـذكورهٔ، يمكن أن تجمع كلَّ هذه الفوائد فی عبارهٔ «معايش» جمع «معيشهٔ» وتعنی وسـيلهٔ الحياهٔ.

٣- الأنواع غير المحدودهٔ للنباتات

كما أشـرنا سابقاً فانَّ أنواع النباتات كثيرهٌ بالقدر الذى لا يمكن حصـرُها، وقد تمّ حتى الآن احصاء ثلاثهٔ آلاف نوع من النخيل، والف وسبعمائهٔ نوع من التين الهندى، والف ومائتى نوع من ورد الثعلب.

يذكر مؤلف كتاب «عالم الأزهار» (فرديناندلين) أنَّ عددَ النباتات ذات الحبّ المغطّى يبلغ مائهٔ وخمسين الف نوع وقد تم بيان صفات أكثر من ثمانيهٔ عشر الف نوع من النباتات فی بعض كتب علم النباتات «١».

(١) تاريخ العلوم، ص ٣٥٢.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٦٦

وقد تم بحثُ الف نوع من الكمأة من التى تمّ احصاؤها، وأكثر من أربعين الف نوعٍ من الطحالب، وسبعة آلاف نوع من التفاح، وخمسة وثلاثين الف صنف من الحنطة «١».

ومن بين النباتات، هنالك نباتات لا تُرى بالعين المجرّدة، وهنالك نباتات يصل طولها إلى خمسين متراً، وبعضها ينمو فى وسط الصخور، وبعضها يعوم وسط الماء، وجذور بعضها يتفرع تحت الماء وأزهاره فوق سطح الماء، ولكلٍّ منها منظَرةُ البديع واللطيف فى عالمه حيث يصدح بلحنِ التوحيد.

۴- عجائبُ عالم النباتات

لو تركنا كلَّ ما قيل بخصوص النباتات بشكل عام، سنلاحظ أنّ هناك عجائب جَّمةً فى عالم النباتات، حيثُ صار بعضها طى النسيان لاعتيادنا عليها.

فأوراق وسيقان النباتات الضخمة ترفع يومياً مليارات الأطنان من الماء من الأرض خلافاً لقانون الجاذبية، ثم تنثُره بخاراً فى الفضاء المحيط بها، أىُّ قانون يسمحُ للنباتات أن تستعرض قوتَّها هكذا خلافاً لقانون الجاذبية التى تجذب كلَّ شىءٍ نحو الأسفل- لا سيما الماء؟- هنالك الكثير من النباتات كورد عباد الشمس تدور مع حركة الشمس فتتحرك أزهارها الكبيرة نحو الشرق فى أول الصباح ونحو الغرب أثناء الغروب.

والنباتات آكلة اللحوم من أكثر ظواهر عالم النباتات إثارةً.

وقد اجرى البروفسور «ليون برتن» مدير «متحف التاريخ الوطنى الطبيعى الفرنسى» تحقيقاتٍ بخصوص هذه النباتات آكلةِ اللحوم حيث يوجد منها عشرة أنواعٍ فقط فى فرنسا، وأشهرها النباتات الآتية:

أ) «آلدروفوند»: ويكثر فى ولاية «جيرفوند» الواقعة غرب فرنسا على سواحل المحيط

(١) معرفة اللّه، ص ٢٩١ و ٢٩٢.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٦٧

الأطلسى، فهذا النبات ذو ورقةٍ تتكون من قطعتين خاصتين متقابلتين كصفحتى كتابٍ مفتوحٍ، تتصلان من الأسفل بواسطة مفصلٍ خاصٍ، وتغطى سطح الأوراق طبقةٌ حساسةٌ.

وعندما تقترب ذبابةٌ منه وتمسُ أرجلُها أو جسمُها هذه الطبقة، تنطبق الصفحتان المذكورتان بسرعة، فيقع الحيوان فى وسط ذلك السجن، وفى النهاية يُهضمُ تدريجياً ويصبح جزءً من جسم النبات أثر افراز مادة لاصقة خاصة حيث تفرز من الورق.

ب) «دروزرا»: وهذا النبات لهُ أوراقٌ حمراء اللون تشاهد عليها نتوءات رفيعة تشبه الشَعَر، وحينما تضلّ الذبابةُ طريقها، تقف على أوراق هذا النبات ظنّاً منها بأنّها قد عثرت على المكان الآمن الخالى، وفجأةً تنطبق المخالب من ناحية رأسها، فتجرها مخفورةً إلى داخل الورقة فتهضمُ ويمتصها النبات وسط الافرازات اللزجة للورقة.

ج) «نيانتس»: وهو أكثر النباتات الآكلةِ للحوم عجباً، حيث يُوجد فى نهاية الفرع الدقيق ما يشبه الوعاء الصغير، تكون فوهتُه نحو الأعلى وله بابٌ خاصٌ مفتوحٌ خلال الأوضاع العادية.

ويُعتبر هذا الوعاء فخاً خطيراً للحشرات الغافلة والهائمة فى الجو، فهو يحتوى باستمرار على العسل اللَّزج الحلو حيث يدعو الحشرات

«عابدة البطن» نحوه، وكذلك فانَّ جمال وشفافية لون الوعاء ذو جذبٍ خاصٍ للحشرات «ذات الذوق الجيد».

فإذا وقعت حشرةٌ ما أسيرةً لهواها ودخلت الوعاء فانَّ فوهته ستنغلق على الفور وستبتلى بسجنٍ لا خلاص منه أبداً.

على أيةِ حالٍ، هذا الوعاء يعتبر كالمعدةِ بالنسبة لهذا النبات، والافراز الداخلى كافرازاتها، ويجعل الحشرةَ قابلةً للامتصاص.

يقول العلماء: إنَّ قيام هذه النباتات باصطياد الحشرات يعود لعدم قدرة جذورها لامتصاص (النتروجين)، لهذا فهى تعوّضُ هذا النقص عن هذا الطريق.

ويأملُ العلماء بأنْ يأتى اليوم الذى يستطيعون فيه تربية كميةٍ كبيرة من هذه النباتات فى حدائق البيوت أو إلى جانب الأحواض، ويقضون بهذه الطريقة الصحية والطبيعية على الذباب والحشرات الضارة الموجودة فى بيئة الإنسان.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۶۸

وورد فى مذكرات السِّيّاح والرَّحّالة قصصٌ عجيبةٌ حول النباتات التى تأكل البشر، فيقول بعض العلماء من الممكن أن تكون هذه النباتات من النباتات آكلة الحشرات إلّاأنّها أكبر حجماً لنموها فى أرضٍ غنيةٍ، وتستطيع أن تقتنصَ احياءً أكبر فى بطن فروعها واوراقها وتمتصها تدريجياً (ولكن لا يمكن تأكيد وقبول ذلك بسهولة) «۱».

ومن أعجب وألطف جوانب وجود النباتات هو انتاج الثمار.

وواحد من مئات الامور الظريفة فيها وجود سائلٍ حلو ولذيذٍ فى الكثير منها مخزون فى أوعيةٍ صغيرة خاصةٍ مربوطةٍ بإحكامٍ، حيث يبدو أفضل طرق الربط فى عصرنا الحاضر، بدائيةً جدّاً أزاءها.

افتحوا برتقالةً واحدة، ستجدون كأنَّ شقاً منها يتكون من مئات القطع الزجاجية الصغيرة الظريفة التى تفيضُ بسائلٍ لذيذٍ ومعطَّر، الزجاجات التى تجمّعت معاً دون أيِّ فاصلةٍ (ولو كان هنالك فاصلةٌ وهواء فيما بينها لفسدت بسرعة).

لكن هذه الزجاجات لا تتكسر أبداً، وتتحمل صعوبات الحمل والنقل، واللطيف هو إمكانية أكلها مع محتوياتها.

وكلُّ مجموعةٍ من هذه الزجاجات الصغيرة والظريفة مغلفةٌ بقشرةٍ سميكة وهى بمثابة الغلاف، وتظهر على هيئة شقٍّ (وهذا الوعاء قابلٌ للاكلِ مع محتوياته أيضاً، بل هو مفيدٌ للجهاز الهضمى).

وهذه الأغلفة الصغيرة تجمّعت بدونِ اقلِّ فاصلةٍ مع تفريغٍ كاملٍ من الهواء، والتَوتْ وسط عدّة لفافاتٍ من أجل السلامة والأمان، وفى النهاية أصبحت معدة على هيئةِ حملٍ صالحٍ جاهز للشحن لمسافات نائية.

ويُلاحظ هذا الأمر على نحوٍ أكثر طرافةً داخل ثمار الرمان والعنب والتين أيضاً.

تأملوا جيداً لو أنَّ عصارة أيٍّ من هذه الثمار وُضعت فى الهواء الطلق ستتغير بعد مرور ساعة واحدة، وقد تتعفن خلال عدّة ساعات، إلّاأنّ تغليفها دقيقٌ ومحبوكٌ بنحوٍ لا يسمح

(۱) نظرةٌ على الطبيعةِ وأسرارها، تأليف البروفسور ليون بر تن، ص ۱۳۱- ۱۳۴ (مع الاختصار والاقتباس).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۶۹

بنفوذ الهواء إلى داخلها أبداً، ولهذا فهى تبقى سالمةً لعدة شهور دون أقلّ تغييرٍ فى طعمها.

وهذا يتعلق بمسألة التغليف العادية فقط، وأمّا المركبات الكيميائية لكلِّ فاكهةٍ وخواصها الغذائية والطبية وأنواع الفيتامينات وموادها الغذائية فهى بحد ذاتها ذات قصةٍ مفصلةٍ حيث يختص ببحثها المتخصصون بعلم الغذاء، وقد تم تأليف كتبٍ كثيرة فى هذا المجال، ولو أردنا أنْ نطرقَ كلَّ هذه المسائل فسنخرج عن إطار كتابنا التفسيرى، فضلًا عن أنّ «وزن كتاب كهذا سيبلغ الأطنان».

۵- أسرار خلق النباتات فى توحيد المفضل

ونقرأ فى حديث توحيد المفضل عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال:

«فكّر يا مفضل فى هـذا النبات وما فيه من ضروب المآرب، فالثمار للغذاء، والأتبان للعلف، والحطب للوقود، والخشب لكل شـىء من أنواع النجارة وغيرها، واللحاء والورق والاصول والعروق والصموغ لضروب من المنافع، أرأيت لو كنّا نجد الثمار التى نتغذى بها مجموعة على وجه الأرض ولم تكن تنبت على هـذه الأغصان الحاملة لها كم كان يدخل علينا من الخلل فى معاشنا، وإن كان الغذاء موجوداً فإنّ المنافع بالخشب والحطب والأتبان وسائر ما عددناه كثيرة، عظيم قدرها جليل موقعها هـذا مع ما فى النبات من التلذذ بحسن منظره ونضارته التى لا يعد لها شيء من مناظر العالم وملاهيه.

فكّر يا مفضل فى هذا الريع الذى جعل فى الزرع فصارت الحبة الواحدة تخلف مائة حبة وأكثر وأقل وكان يجوز أن يكون الحبة تأتى بمثلها فلم صارت تريع هذا الريع إلّا ليكون فى الغلّة متسع لما يرد فى الأرض من البذر وما يتقوت الزراع إلى إدراك زرعها المستقبل ... تأمّل نبات هـذه الحبوب من العدس والماش والباقلاء وما أشبه ذلك فانّها تخرج فى أوعية مثل الخرائط لتصونها وتحجبها من الآفات إلى أن تشدّ وتستحكم كما قد تكون المشيمة على الجنين لهذا المعنى بعينه، فأمّا البُرّ وما أشبهه فانّه يخرج مدرّجاً فى

قشور صلاب على رؤوسها مثال الأسنة من السنبل ليمنع الطير منه ليتوفّر على الزراع ...

تأمل الحكمة فى خلق الشجر وأصناف النبات فانّها لما كانت تحتاج إلى الغذاء الدائم كحاجة الحيوان ولم يكن لها أفواه كأفواه الحيوان ولا حركة تنبعث بها لتناول الغذاء جعلت اصولها مركوزة فى الأرض لتنزع منه الغذاء فتؤديه إلى الاغصان وما عليها من الورق والثمر فصارت الأرض كالأم المربية لها وصارت اصولها التى هى كالأفواه ملتقمة للأرض لتنزع منها الغذاء كما يرضع أصناف الحيوان امهاتها.

تأمل يا مفضل خلق الورق فانك ترى فى الورقة شبه العروق مبثوثة فيها أجمع، فمنها غلاظ ممتدة فى طولها وعرضها، ومنها دقاق تتخلل الغلاظ منسوجة نسجاً دقيقاً معجماً لو كان ممّا يصنع بالأيدى كصنعة البشر لما فرغ من ورق شجرة واحدة فى عالم كامل ولاحتيج إلى آلات وحركة وعلاج وكلام فصار يأتى منه فى أيام قلائل من الربيع ما يملأ الجبال والسهل وبقاع الأرض كلها بلا حركة ولا كلام إلّابالإرادة النافذة فى كل شيء والأمر المطاع».

ثم أشار الإمام عليه السلام فى سياق هذا الحديث إلى عجائب الثمار والنّوى وموت وحياة النباتات فى كل عام، وتلقيح وحمل الأجزاء الانثوية عن طريق الالتحام مع الأجزاء الذكورية، وكذلك أدوية العلاج التى تستخلص من أصناف النباتات، والحبوب والنباتات التى يُعتبر كلٌّ منها غذاء لأحدِ الحيوانات، وقدَّمَ شرحاً لطيفاً حول كلٍّ منها، حيث إنّ ذكرها جميعاً لن يكون ممكناً، وبمقدور الراغبين مراجعة الحديث أعلاه «١».

نضطرُ هنا إلى طى هـذا البحث الطويل ونختمه ببعض الابيات من الشعر التوحيدى الأصيل، فلو اطلقَ عنانُ العلمِ فيجبُ تأليفُ كتب عديدة، فى هذا المجال يقول الشاعر نقلًا عن الفارسية:

إنَّ جميع خلقِ اللَّهِ انذارٌ للقلب ليس له قلبٌ من لا يُقرُّ باللَّه فالجبال والبحار والأشجار كلُّها تسبِّحُ ولا يفهمُ كلُّ مستمعٍ هذه الأسرار!

---

(١) بحارالأنوار، ج ٣، ص ١٢٩- ١٣٦ «مع الاختصار».

والعقُل متحيرٌ من عنقود العنب الذهبى والذهنُ يَعجزُ عن حقيقة ياقوتة الرُّمان وتتدلى عناقيد الرَّطب من النخل والنخل من صنع قضاء وقدر ماهرٍ ولكى لا يصبح ظلاماً ظلُّ الأشجار الكثيف فقد وضع تحت كل ورقةٍ مصباحاً من نور الرّمان وهبط الندى على الزهرة عند حلول السحر يشبه عرق المحبوب المعطَّر! فافتح بصرك وانظر خلقَ النارنج يا مَن لا تصدِّق أنَّ «فى الشجر الاخضر نار» مقدرٌ منزَّةٌ

الاله الذی سخرَّ الشمس والقمرَ بتقدیرٍ وكذلك اللیل والنهار «١»

(١) هذه الابيات مترجمة من «كليات سعدى»، فصل القصائد، ص ٤٤٣.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٧٣

١٦- آياته فى خلق الأرزاق العامة

تمهيد:

إنَّ لكلِّ كائنٍ حيٍّ احتياجاتٍ من أجل استمرار حياته، أو بتعبيرٍ آخر إنَّ النشاطات الحياتية تتطلب مواداً تولدُ الطاقةَ يجب أن تصل إلى الكائن الحيِّ دائماً، ويُطلق عليها بالاصطلاح (التلافى)، وتعويض ما يتحلل.

ويجب أن تكون هذه المواد ملائمة تماماً لذلك المخلوق من جميع الجوانب كى يتمكن من الاستفادة منها بُيسر.

إنَّ نظامَ الرزق فى عالم الخَلق، وكيفية إعداده، ثم كيفية وضعهِ فى متناول كلِّ موجود، وكذلك الاستفادة منها، نظامٌ جميل ودقيقٌ للغاية، ومليءٌ بالأسرار أحياناً، حيث يختفى فيه جمع من الآيات المهمّة لتوحيد اللَّه وعلمه وقدرته، لهذا استند عليه القرآن الكريم مراراً فى مختلف الآيات.

بعد هذا التمهيد نعود إلى القرآن الكريم ونتأمل خاشعين فى الآيات الآتية:

١- «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيرُ اللَّهِ يَرزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَآإِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤفَكُونَ». (فاطر/ ٣)

٢- «اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِّنْ شَىءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالىَ عَمَّا يُشْرِكُونَ». (الروم/ ٤٠)

٣- «أَمَّنْ يَبدَؤُا الخَلّقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ». (النمل/ ٦٤)

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٧٤

٤- «أَمَّنْ هَذَا الَّذِى يَرزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَّجُّوا فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ».

(الملك/ ٢١)

٥- «أَوَلَمْ يَرَوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ انَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤمِنُونَ». (الروم/ ٣٧)

٦- «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِيْنُ». (الذاريات/ ٥٨)

٧- «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ إِلَّا عَلىَ اللَّهِ رِزقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَها كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ». (هود/ ٦)

٨- «قُلْ مَنْ يَرْزقُكُمْ مِّنَ السَّمواتِ والأرْضِ قُلِ اللَّهُ وإنَّا أو إِيَّاكُمْ لَعَلىَ هُدىً أو فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ». (سبأ/ ٢٤)

٩- «وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّماءِ مَآءً مُّبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحَصِيْدِ* وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ* رِّزْقاً لِّلْعِبَادِ». (ق الآيات/ ٩- ١١)

١٠- «فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلىَ طَعَامِهِ* أَنَّا صَبَبْنَا المَآءَ صَبّاً* ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً* فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً* وَعِنَباً وقَضْباً* وَزَيتُوْناً وَنَخْلًا* وَحَدَائِقَ غُلْباً* وفَاكِهَةً وَأَبّاً* مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ». «١»

(عبس الآيات/ ٢٤- ٣٢)

شرح المفردات:

«الرِزْق»: كما يقول الراغب فى كتاب «المفردات» يعنى البذل والعطاء المستمر، دنيوياً كان أو أخروياً، كما يُقال للحظ والنصيب رزقاً،

وكذلك للمواد الغذائية التى تصل إلى جوف الإنسان.

يقول «ابن منظور» فى «لسان العرب» أيضاً: «الرزق» نوعان: ظاهر للأبدان كالأقوات، وباطن للقلوب والنفوس، كانواع المعارف والعلوم.

---

(١) هنـاك آيـات كثيرة اخرى وردت فى هـذا المجال لها شَـبَهٌ بالآيات أعلاه منها ٣١، يونس؛ ١٧٢، البقرة؛ ٢٨، الشورى ٢٦، الرعد؛ ١٢، الشورى ٢٧، الشورى ٢٢، البقرة؛ ٣٢، ابراهيم؛ ٧٣، النحل؛ ١٧، العنكبوت؛ ١٣، غافر.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٧٥

وورد فى كتاب «التحقيق» أيضاً أنَّ الرزقَ يَعنى «العطاء الخاص الذى يناسبُ متطلبات وضع المقابل ويطابق حاجته لاستمرار حياته».

وفى القرآن الكريم استُعملَ فى كلاـ المعنيين فنقرأ قوله تعالى: «هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُوْلًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وكُلُوا مِنْ رِّزْقِهِ». (الملك/ ١٥)

وورد قوله تعالى فى خصوص الشهداء: «بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ». (آل عمران/ ١٦٩)

إلّا أنّه يُستخدم غالباً بخصوص الأرزاق المادّيـة، بالرغم من أنَّ استعماله بخصوص الأرزاق المعنويـة ليس قليلًا أيضاً، وحيث إنّ اللَّه تعالى واهب جميع النعم المادّية والمعنوية فانَّ لفظ «الرزّاق» من صفاته الخاصة «١».

و «الطعام»: له معنىً مصـدرى واسم مصـدرى معاً، أى أنّه يُطلقُ على «أكل الغـذاء»، وكـذلك على نفس «الغـذاء»، وقـد يُستعمل هـذا اللفـظ بخصوص الحنطـة، كمـا ورد فى الروايـة إنَّ النبى صـلى الله عليه و آله أمرَ باعطـاءِ صاع من «الطعام» أو صاع من «الشـعير» (وهنا استُخدمَ الطعام بمعنى الحنطةِ فى مقابل الشعير).

وذَكر صـاحب «لسان العرب» أنَّ الطعامَ اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يؤكل، إلّاأنّه هو والرّاغبُ فى المفردات صَّرحا بانَّ هـذا اللفظ قـد يُستخدمُ للمشروبات أيضاً كما فى: «فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنّى». (البقرة/ ٢٤٩)

يقول الخليـل بن احمـد فى كتـاب «العين» أيضـاً: يقـالُ الطعـامُ فى كلاـم العرب للبّر خاصـة، (إلّا أنّه يعود على ما يَبـدو إلى أنَّ الطعام الأسـاس غالبـاً ما يكون من الخبز الـذى يُصنعُ بـدورهِ من الحنطـة، وإلّا فانَّ الكثير من أرباب اللغـة ذكروا أنَّ للطعام مفهوماً عاماً) «٢»، وقـال بعض اللغويين إنَّ الطعـام يعنى التمرَ أيضـاً، ويبـدو أنَّ هـذا الكلاـم يعود إلى أنَّ التمر كـان هو الطعـام الأساس فى ذلك الزمان وتلك البيئة.

---

(١) لسان العرب؛ المفردات؛ مجمع البحرين؛ والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

(٢) لسان العرب؛ المفردات؛ كتاب العين؛ والنهاية لابن اثير.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٧٦

جمع الآيات وتفسيرها

الكل يتنعم بهذه المائدة عدواً كان أم صديقاً:

لقـد قلنا مراراً أنَّ مشـركى العرب لم يعتبروا الأصـنامَ كخالقٍ لهم أبـداً، إلّاأنّهم كانوا يعتقـدون أنَّ الاوثان لها يـدٌ فى تـدبير هذا العالم وحل مشكلات الناس فيبذلون العطاء لها، لهذا يعتبرونها شفيعةً لدى اللَّه، أو بسبب إناطة مسؤولية تدبير العالم فى هذه الجوانب لها.

لـذلك فقـد تمّ التأكيـد فى الآيات القرآنيـة المذكورة على هذه المسألة بتعابير مختلفة من أجل رد هذه العقائد الخرافية، والتأكيد بأنَّ

الخالقَ والرازقَ واحدٌ، وجميع أنواع الأرزاق تأتى من ناحيته.

من البديهى إذا ما دُعىَ الإنسان إلى مائدةٍ وكان فيها من الأطعمةِ ما لذَّ وطابَ، أن يتقدمَ بالشكر قبل كل شىء إلى صاحب هذه النِعَم، لـذلك فهو يـذهب وراء صـاحب تلـك المائـدة لمعرفته، فهـلْ هناك مائـدةٌ أوسعُ من مائـدة الخالق؟ وهلّا يجب معرفـة صاحب هـذه المائدة التى يتنَعمُ بها العدو والصديق؟ وتقديم الشكر له لعطاياه التى غَمَرْتنا ظاهراً وباطناً من أعلى رؤوسنا وحتى أخمص أقدامنا؟

بناءً على ذلك فانَّ أهمَّ الدوافع «لمعرفة اللَّه» وكذلك أحد الطرق لمعرفته هى هذه الأرزاق.

لـذلك خـاطبَ القرآن فى أول آيـة مـن البحث كافـةَ النّـاس قائلًا: «يَـا أَيُّهـا النَّاسُ اذكُروا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ». «هَـلْ مِنْ خَـالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ».

فهو يُرسِـلُ لكم من السـماء نور الشـمس الـذى يهبُ الحيـاة، وقطرات المطر الـتى تُحيى الأـرض، والنسـيم الـذى يُنمى الأـرواح، ومن الأرض يُنبتُ لكم أنواع النباتات والفواكه والمواد الغذائية، وفى باطنها أنواع المعادن والثروات.

مع هـذا يجب أنْ تعرفوا أنْ لا معبودَ سواه، وهو وحـده الجـدير بالعبادة، فكيف تنحرفون عن الصـراط المسـتقيم وتجعلون هـذا الخالق العظيم واهب الرزق وراء ظهوركم، وتسجدون

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٧٧

للأصنام: «لَآإِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤفَكُونَ» «١».

ويسـتند فى الآيـة الثانيـة على أربعـةِ أمورٍ لإثبات توحيـد الربوبية: «وحدانية الخالق»، وكذلك التوحيد فى العبادة، وهى: خلق الإنسان، ورزقُهُ، ومَوتُهُ، وإعـادة احيـائه، وقـد تمَّ تعريفها من قبل اللَّه تعالى لأنَّها جميعاً ذات نظام دقيقٍ حيث تُبرهنُ أنّها تصـدرُ عن مبـدأ العلم والقـدرة، فيقـول: «اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُم ثُمَّ يُمِيْتَكُمْ ثُمَّ يُحْيِيْكُمْ». «هَـلْ مِنْ شُركَائِكُمْ مَّنْ يَفْعَـلُ مِنْ ذَلِكُم مِّنْ شَـىءٍ» بنـاءً على ذلك يجب أنْ تُسلِّموا لنزاهتهِ وعلوِّهِ عمّا يُشركون به: «سُبحَانَهُ وَتَعَالىَ عَمَّا يُشرِكُونَ».

فحيثما نعلم أنَّ خلقَنا وموتنا وحياتنا بيده، فلا معنى بأنْ نلهثَ وراء غيره، ونخضع ونُسَلِّمَ لسواه.

والجـدير بالذكر أنَّ الخلقَ يشـملُ الرزقَ والموت والحياة، لأنَّ كافةَ أنواع الرزق تعود إلى خلقِ اللَّه تعالى وكذلك فإنّ الحياة جزءٌ من الخلق وتعقبها الأرزاقُ والموت، وعليهِ فانَّ الاسـتناد إلى هذهِ الجوانب الثلاثة ليس لكونها شـيئاً منفصلًا عن الخلق، بل لأنّها فى الحقيقة توضحُ مصاديقَ مهمّةً عن ذلك الموضوع العام.

وهذه النكتة جديرةٌ بالتأمْلِ أيضاً، إذ بالرغم من أنَّ الإحياء بعد الموت لم يَكن مقبولًا لدى مشركى العرب، إلّاأنَّ هذه الآية تُعتبر إشارة لطيفـةً لهـذا الاسـتدلال، وهو أنَّ الخلقَ الأول ونعمـة الحياة فى بدايـة الأمر دليلٌ واضـحٌ على إمكانية تكراره يوم القيامةِ والبعث، بل لو تأمّلنا جيـداً فانَّ مسألة الموت والحياة مستمرةٌ فى هذا العالم، فوجود الإنسان يعتبر ساحةً للموت والحياة فى كلِّ عامٍ وشـهر بل فى كلِّ يوم وساعـة، تموت الملايين من الخلايا، وتحلُ مكانها ملايينُ اخرى فتتجسدُ مسألةُ المعاد باسـتمرار فى هذه الدنيا، إذن ما العَجَبُ فى أنْ يَرجعَ الامواتُ إلى الحياة من جديد فى الآخرة؟

---

(١) «تؤفكون» من مادة «إفْكْ»، وتعنى تغيير الشـىء عن وضعهِ الحقيقى، ولهذا يقال للكذب والاتهام والانحراف عن الحق نحو الباطل «إفْكْ»، وكذلك يُطلقُ على الرياح التى تنحرف عن مسيرها المنظم (مؤفكة) (مفردات الراغب).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٧٨

وفى الآيـة الثالثـة حيث جاءت فى ترتيب آيات «التوحيد» إذ تُحصـى آياتِهِ المختلفة فى السـماء والأرض، تمّ الاسـتناد أيضاً إلى ثلاث مسائـل هى: بدايـة الخلق، ورجوعه، والرزق والاـقوات التى تصـل الإنسان من السـماء والأرض فيقول: أيُّهما أفضل ... مَنْ تعبـدون مِنْ دون اللَّه أم مَنْ بدأ الخلقَ ثم يُعيدُه؟ «أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ» «١» «وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ».

ويضيف في النهاية «أالَهٌ مَعَ اللَّه».

«قُلْ: لَقَد جِئتُكم بدليلٍ عَلى ربوبيّتِهِ فَهَاتُوا دَليلَكُم إنْ كُنتُم صَادِقينَ».

«قُلْ هَاتُوا بُرهَانَكُمْ إنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ».

وبتعبير آخر: «إنَّ هذه البركات تصدرُ عن الذات الإلهيّة المقدّسة، أمّا هذه الأصنام فهي لا تملكُ شيئاً كي تستحق العبادة».

والتعبير ب «خَيْر» أي (أفضل) الذي حُذِفَ من هذه الآية والذي يتجلّى بقرينةِ الآيات السابقة ليس المقصود منه أنّ للأصنام خيراً وبركات قليلة قياساً إلى خيرِ اللَّه وبركاتهِ بل إنَّ هذا التعبير يُستعملُ أيضاً في الحالات التي لا يكون هنالك خيرٌ في الفعل أبداً، فمثلًا يقال لك امتنع عن تناول طعام معين كي تحافظ على صحتك أو لَيسَ الصحةُ أفضل من المرض؟

مِنَ المسلَّم به أنْ لا فضل في المرض بحيث تكون الصحةُ أفضلَ منه، ونقرأ في القرآن الكريم أيضاً: «وَلَعَبْدٌ مُّؤمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ». (البقرة/ ۲۲۱)

ويقول في مكانٍ آخر: «قُلْ أَذلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ». (الفرقان/ ۱۵)

وخلاصة الأمر أنَّ لفظ «خير» بالرغم من أنّه من «افعل التفضيل» ويجب أنْ يستعملَ في مورد شيئين أحدهما حَسَنٌ والآخرُ أحسن منه إلّاأنّ الهدف في أغلب الحالات هو اغراقُ المخاطبِ في التفكر وجعلَهُ يشعرُ بأنَّ ما يختاره ليسَ منشأً لأيّ خيرٍ ومنفعة.

---

(۱) هنالك جملةٌ محذوفةٌ حيث تتضح بقرينة الآيات الآنفة (الآية ۵۹ من نفس السورة) وتَقَدَّر كما يلي «أمَّنْ يبدءُالخلق ثم يُعيدهُ ... خيرٌ أمْ ما يشركون».

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۷۹

إنَّ الاستناد إلى قضية المعاد بالرغم من عدم إيمان المشركين بها إنّما هو لأجل كون الخلق أول دليل على المعاد.

وطُرحَ هذا المعنى في الآية الرابعة بنحوٍ آخر، إذ يقول: «أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ» «۱».

تلميحاً إلى أنّه لو امتنعت السماء عن المطر بأمرِ اللَّه، ولم ينمُ نباتٌ ما، وعمَّ الجدب والقحطُ كلَّ مكان، فهل تستطيع هذه الأصنام أو أيُّ موجودٍ آخر أن يرزقكُم ويُطعِمكُم؟ ولو انقطعت عنكم الأرزاق المعنوية والروحية بأمرٍ من اللَّه، فهل مِنْ هادٍ يرشدكم؟ ينبغي القول أنَّ الجواب على كل هذه التساؤلات سلبيٌ، فكيف اذن يتمادى الوثنيون في عملهم القبيح هذا؟ فهلْ منْ سبب هنا سوى العناد والتعصب؟

لهذا يقول في خاتمة الآية: «بَلْ لَّجُّوا فِي عُتوٍّ وَنُفُوْرٍ» «۲».

وفي الآية الخامسة استند إلى أمرٍ آخر يتعلق بمسألةِ الأرزاق، إذ يؤكد أنَّ بسط وقبضَ الرزق هو بمشيئة اللَّه، فيقول: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّه يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ»؟!

صحيحٌ أنَّ سعيَ ومثابرة الناس والمؤهلات والاستحقاقات تؤثرُ في تحصيل الرزق.

وصحيحٌ أنَّ العالَم، عالم الأسباب، وغالباً ما يستفيد المثابرون أكثر من الكسالى في تحصيل الأرزاق.

إلّا أننا نرى استثناءات كثيرة قبالة هذه القاعدة، فقد نرى أناساً مُقعدين قد فُتحت أمامهم

---

(۱) بالرغم من احتمال بعضهم بتقدير محذوف من الآية إلّاأنَّ ظاهر الأمر يشير إلى أن لا محذوف هناك فيكون المعنى كما يلي «إنْ امسَكَ اللَّه رزقهُ مَنْ هذا الذي يرزقكم» فتكون «أم» هنا بمعنى «بل» (فتأمل جيداً).

(۲) «لجوا» من مادة اللجاجة و «العَتو» تعني الطغيان و «النفور» تعني الابتعاد والهروب من الشيء.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۸۰

أبوابُ الرزق، وبالعكس فقد نرى مثابرين ومستحقين أينما يولّوا وجوههم فانَّ الأبواب مغلقة أمامهم، كما يقول الشاعر العربى المعروف:

كم عاقلٍ عاقلٍ أَعْيَتْ مذاهبُهُ وجاهلٍ جاهلٍ تلقاهُ مرزوقاً وهذا من أجل أن لا يضيع الإنسان فى عالم الأسباب وليعلمَ أنّ وراء هذا العالم، يداً قادرةً تديرُهُ وتعلو قدرتها فوق جميع القدرات، وكى لا يصيبَ الغرورُ المتنعمين والمستفيدين بسبب إمكانياتهم، فيظلموا ويطغوا، وحتى لا ييأس ذوو الإمكانيات المحدودة، لأنَّه من الممكن أن يتغيّر الوضعُ فى كل لحظةٍ حسبَ الإرادة والمشيئةِ الإلهيّة.

وبتعبير آخر: من أجل توفر الرزق والقوت لكل إنسان تتظافر عشرات الأسباب أحدها سعى الإنسان ومثابرته، حتى أنَّ اللَّه قد منح القدرة على السعى والمثابرة ودوافعهما أيضاً.

وهنا يتمكن الإنسان من فهم نفحات من الذات الإلهيّة المقدّسة من خلال مسألة سعة الرزق وضيقه، فقد قال فى نهاية الآية: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» اولئك الذين لديهم استعدادٌ لقبول الحق بسبب إيمانهم، ويتعرّفون أكثر على الذات المقدّسة من خلال مشاهدة هذه الميادين يومياً.

وفى الحقيقة أنَّ الأية أعلاه قد تكرر مضمونُها ومحتواها عشر مرات فى القرآن الكريم تشبه ما نُقل عن أميرالمؤمنين عليه السلام حيث يقول: «عَرَفْتُ اللَّه سبحانه بفسخ العزائم وحلِّ العقود ونقضِ الهِمَم» (١).

وتشابه ما نُقلَ عن بعض المفسِّرين أنَّ أحدَ العلماء سُئل عن الدليل على وحدانية اللَّه؟

فقال: «ثلاثة ادلّة: ذلُّ اللّبيب وفقرُ الأديب وسُقمُ الطبيب» (٢).

والتعبير ب «اوَلَمْ يَرَوا» إشارة إلى أنْ لو تمعنَ الإنسان قليلًا فى حياة الناس لرأى هذه الاختلافات جيداً.

ولابدّ من ذكر هذه النكتة وهى أنَّ إرتباط سعة وضيق الرزق بالإرادة الإلهيّة يعنى

---

(١) نهج‌البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٢٥٠.

(٢) تفسير روح البيان، ج ٧، ص ٣٩.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٨١

الإرادة الممتزجة مع الحكمة وإلّا ليس للَّهمشيئةٌ بدونِ حكمه سواء كان هنا أم فى باقى الموارد.

علماً أنَّ ضيق الرزق فى هذه الآية (والآيات العشر) المذكورة لا يعنى مُطلقَ الحرمان من الرزق، حتى يتعارض مع الآيات الآتية التى تقول: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ إلَّا عَلى اللَّهِ رِزْقُهَا». (هود/ ۶)

بل المقصود قلةُ الرزق وفى نفس الوقت وجود الحد الادنى والكافى منه.

وفى الآية السادسة بعد أن يؤكّد على هذه النكتة وهى: أنَّ اللَّه لا يحتاجُ عبادَهُ وحينما يدعوهم إلى عبادته فليس بسببِ حاجته فيقول تعالى: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو القُوَّةِ الْمَتِيْنُ». (الذاريات/ ۵۶- ۵۷)

و «الرزّاق»: صيغةُ مبالغةٍ تعنى كثير العطاء، وهذا يصدقُ بخصوص ذاته المقدّسة فقط، حيث جلست الكائنات الحية فى كلِّ زاويةٍ من هذا العالم العريض: على الجبال، فى بطون الصخور، فى أعماق الوديان، فى قاع البحار، وباختصارٍ فى كلِّ زاويةٍ وجانبٍ من هذا العالم العظيم على مائدة احسانِه، متنعمة بامداداته وفيضه.

وبما أنَّ مثل هذا العطاء والبذل الواسع وغير المحدود يحتاج إلى قدرةٍ وقوةٍ تامةٍ، فقد ذَكر بعد هذا وصفين آخرين: «ذُو القُوةِ» و «الْمَتِيْنُ» وهى من مادة «متن» وتعنى فى الأصل العَضلتين اللتين تحيطان بالعمود الفقرى، وتقومان بشَدِّ عضلات ظهر الإنسان من أجل انجاز الأعمال الشاقة، وهنا كنايةٌ عن القوة والاقتدار الخارق.

وفى الواقع أنَّ هذه الجملة وصفٌ للذات الإلهيّة المقدّسة فى بذل الأرزاق، لأنَّ هذه الصفة تخصُهُ فقط، وأمّا الآخرون فكل ما يملكون

فهو منه جلَّ وعلا، وإذا استعمل وصف «الرزاق» لبعض الناس أو للأسباب الطبيعية فهو يعنى فى الحقيقة الواسطة فى انتقال فيوضاتهِ وليس الفّياض وخالق النِّعم.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۸۲

واستند فى الآية السابعة إلى موضوعٍ آخر وهو شمول رزق اللَّه لكلِّ الدّواب، هذا العمل الذى لا يمكن حصوله بدونِ احاطةٍ وعلم كامل بجميع موجودات العالم، فلابدّ أن يعرفَ المُضيِّفُ عددَ ضيوفهِ سلفاً، وكذلك مقدار حاجاتهم وأذواقهم، كى يتمكنَ من تقديم الطعام الملائم لهم، لهذا يقول فى هذه الآية: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ الَّا عَلَىَ اللَّهِ رِزْقُهَا».

ويُشير هذا التعبير بجلاء إلى أنَّهُ قد تكفَّلَ برزق عباده، كى يَحدَّ من حرص وطمع بعض الناس واضطراب وقلق بعضهم الآخر من جانب، ومن جانبٍ آخر يبرهنُ على أنّه لو شوهدت شحةٌ فى الأرزاق، فهى مفتعلة ومن المؤكد أنّها حصلت نتيجة لظلم جماعةٍ من الناس وهضم الحقوق، والاحتكار وافتعال الأزمات الكاذبة أو فى النهاية بسبب عدم السعى للاستفادة من هذه المائدة الإلهيّة المبسوطة، تلك هى الأسباب التى يؤدّى كلٌّ منها أو مجتمعة، إلى حرمانِ بعض الناس من رزقهم وقوتهم، وإلّا فانَّ اللَّه قد ضمنَ رزقَ كلِّ الدَّواب.

وبما أنَّ ايصالَ الرزق لهم يُعدّ متعذراً بدونِ علمٍ كاملٍ بأماكنهم وخصائصهم فهو يقول فى سياق الآية: «وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا ومُسْتَوْدَعَهَا».

وكلُّ ذلك مسجّلٌ فى كتابٍ جلّىً (هو اللوح المحفوظ، لوح علم الخالق) «كلٌّ فِى كِتابٍ مُبِيْنٍ».

و «دابَّة»: من مادة «دبيب» «وتعنى المشى البطىء» ويُطلقُ هذا اللفظ (دابّة) على البهائم والحيوانات والحشرات، بالرغم من استعمالهِ بخصوص الخيل فى بعض الموارد، إلّاأنّ المسلَّم به هنا أنّه ذو معنىً واسعٍ وشاملٍ حيث يشمل جميع البهائم «۱».

ولفظ «مُستَقَّر» يعنى المقر، والمكان الثابت، وهو مأخوذ فى الأصل من مادة «قُرّ» على وزن (حُرّ) وتعنى البرد القارص الذى يجعلُ الإنسان جليسَ الدار.

و «مُستَوْدَع»: يعنى المكان غير الثابت، وهى من مادة «وديعة» وتعنى فى الأصل ترك واطلاق الشىء، ولهذا يقال للُامور غير المستقرة «مستودع».

---

(۱) إنَّ «التاء» فى «دابّة» لا تدل على التأنيث، بل تشمل جميع الحيوانات مذكرها ومؤنثها، وبتعبير آخر أنَّ تأنيثها لفظىٌ وليس حقيقياً (مفردات الراغب وتفسير الكبير، ج ۱۷، ص ۱۸۵).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۸۳

وهذه الألفاظ تلمّح إلى أنّه لا- تظنّوا أنَّ اللَّه يوفرُ الرزقَ للموجودات فى مستقرها فقط، بل أينما تكون وفى أىّ نقطةٍ من الأرض والسماء، فهو يعلمُ ويرى مكانها ويعطيها رزقها هناك!

روى بعض المفسّرين فى ذيل هذه الآية حديثاً مفاده: «أنّ موسى عليه السلام عند نزول الوحى عليه وكان برفقة طفله وزوجته فى ليلة ظلماء فى وادٍ بطور سيناء، حيث أمره اللَّه سبحانه وتعالى أن يذهب إلى فرعون، فانصرف ذهنه إلى زوجته وطفله، كيف سيكون مصيرهم بعده.

فأمره اللَّه تعالى أن يضرب بعصاه صخرة فانفلقت وخرجت منها صخرة ثانية؛ ثم ضربها بعصاه مرّة اخرى فانفلقت وخرجت صخرة ثالثة، ثم ضربها بعصاه فانفلقت فخرجت منها دودة كأصغر ما تكون عليه النملة وفى فمها شىء يجرى مجرى الغذاء لها، وعند ذاك رفع الحجاب عن سمع موسى عليه السلام فسمع الدودة تقول: سبحان من يرانى، ويسمع كلامى، ويعرف مكانى، ويذكرنى ولا ينسانى» «۱».

كما ورد فى حديثٍ أنَّ الإمام الحسين عليه السلام كان له سيفٌ كتبَ عليه: «الرزقُ مقسومٌ والحريصُ محرومٌ، والبخيل مذمومٌ،

والحاسدُ مغمومٌ» «٢».

ونختتم هذا الحديث بشعرٍ لأحد شعراء العرب، إذ يقول:

وكيف أخافُ الفقرَ واللّه رازقى ورازقُ هذا الخلق فى العسرِ واليُسرِ تكفَّلَ بالأرزاق للخلق كُلِّهِم وللضَّبِ فى البيداء والحوتِ فى البحرِ

وفى الآيـة الثامنـة، يبدو وكأنّه يحاكمُ المشـركين، ويبينُ بطلان عقائدهم عن طريق مسألة ايصال الرزق إلى الخلائق، ويوضح وحدانية الرَّب، فيقول: «قُلْ مَنْ يُرزُقُكُم مِنَ السَّموَاتِ وَالأَرضِ» من ضوء الشمس، من قطرات المطر الذى يهب الحياة، ومن هذا الهواء

---

(١) تفسير الكبير؛ ج ١٧، ص ١٨٦؛ تفسير روح البيان، ج ۴، ص ٩٧؛ و تفسير روح المعانى، ج ١٢، ص ٢.

(٢) تفسير روح البيان، ج ۴، ص ٩٧.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٨۴

الذى يمد الكائنات بالحياة، ومن أنواع المواد الغذائية الموجودة فى أعماق الأرض وتظهر على هيئة ثمراتٍ وغلاءٍ وخضروات.

ثم لا يَدَعُ النبى صلى الله عليه و آله ينتظر جوابهم فيردّ الجواب قائلًا: «قُلِ اللَّه وَإِنَّا أَو إِيَّاكُم لَعَلى هُدىً أَو فِى ضَلالٍ مُبِينٍ».

ولأنَه لا تجتمع عقيدتان متناقضـتان، وبما أنّكم لا تملكون دليلًا يثبتُ أنّ الأصنام هى منشأ البركات، يتضح اذن أننا نتبع الحقَّ وأنتم فى ضلالٍ مبين.

ولو لاحظنا هنا أنَّ النبى صلى الله عليه و آله لم ينتظر جوابهم، لأنَّهم فى الواقع لا يملكون جواباً لهذا التساؤل، سوى السكوت الممزوج بالخجل، وعليه يجب على المتكلِّم الفصيح أن يُمسكَ بزمامِ الحديث فى مثل هذه الحالات ويقدِّمَ الجوابَ بنفسِه.

وأحـدُ فنون الفصاحـةِ هو أنْ يُلقى الكلاـم الغامض على الخصوم من خلال الحوار ويترك الفصل لهمْ، لهـذا يقول هنا: «وَإِنَّا أَو إِيَّاكُم لَعَلى هُـدىً او فِى ضَـلالٍ مُّبِينٍ» ومن المسلَّم به أنَّ الضّالَ والمهتدى يتضحُ هنا، ومن الأفضل أن تبقى العبارةُ غامضةً فى الظاهر كى لا يتمادى هؤلاء فى عنادهم، وأن يُكلِّفوا أنفسهم عناء الاستنتاج.

والعجيب أنَّ بعضَ المفسِّرين يعتقـدون أنَّ هـذه العبارة من قَبيل «التقيّـة» فى الوقت الـذى لا مجال للتقيّةِ هنا، والأمرُ مشـكوفٌ بجلاء- ولكن بشـىء من اللطافـة-، وحيث يقول فى البدايـة: «إنّـا» ثم يقول: «أنتم» ويتـابع قائلًا على «هـدىً» أو على «ضـلال»، وهـذا التسلسـل يوضحُ الأمرَ أكثر.

وفى الآيةِ التاسـعة، بعد أن أشارَ إلى نزول المطر المبارك من السـماء، اسـتند إلى ثلاثة أصـنافٍ من الارزاقِ التى يستفيد الجميع منها، فيقول: «وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّماءِ مَاءً مُّبارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحَصِيْدِ».

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٨۵

«وَالنَّخلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيْدٌ» «١» «رِزْقاً لِلْعِبادِ».

وفى الواقع فقد استند فى هذه الأية إلى الثمار والمحاصيل الغذائية لأنّها تمثلُ أهمَ وأَصلح جانبٍ من المواد الغذائية للناس، واستند إلى التمر بالخصوص من بين الثمار، بسبب أهميّته الغذائية الفائقة، حيث بحثناه بالتفصيل فى محلِّه «٢».

والجـدير بالـذكر: إنَّ بعض المفسِّرين يعتقـد أنَّ اسـتناد القرآن إلى هذه الأنواع الثلاثة من الأرزاق جاء بسـبب خصائص كلٍّ منها على حـدة، لأنَّ بعض النباتات يُثمرُ سـنوياً، دون الحاجـة إلى بـذر البـذور، كانواع أشـجار الفاكهـة، وبعضـها يحتاج إلى بـذر البذور سـنوياً كالحنطـة والشـعير والرز والـذرة وبعضـها وسـطاً بينهما كالنخيل الذى يكون أصـلهُ ثابتاً إلّاأنّه يحتاج فى كلِّ عامٍ إلى «التلقيح»، بالنحو الـذى يرفعون طلع الـذكر وينثرونه على ثمار النخلةِ كى تحمل بشـكلٍ كامل، ومن الممكن أن تلقـح بطريقة اخرى (عن طريق الرياح والحشرات) إلّا أنّها لن تكون غزيرة الثمار.

وهـذه النكتـة جـديرة بالاهتمـام أيضـاً حيث إنّ فى تعبير «رزقاً للعباد»، «٣» إشارة لطيفـة إلى هـذه الحقيقـة وهى وجوب اسـتثمار النعم

الإلهيّة لسلوك طريق عبوديةِ اللّهِ، وهذه الموجودات مذعنةٌ ومطيعةٌ للإنسان كى ينال الرزق ولا يأكلُه غافلًا عن اللَّه، كما قال الحكماء: أنت تعيش لتأكل وأنا آكل لأعيش وأذكر اللَّه.

(١) «حصيد» تعنى المحصود (أو الجاهز للحصاد)، و «باسقات» جمع «باسقة» وتعنى الطويلة و «طلع» تعنى ثمرة النخيل فى بداية تكوينها، و «نضيد» تعنى المتراكم والكثيف الذى يبعث على التعجب لا سيما فى ثمار النخيل أى التمر.

(٢) يُراجع التفسير الأمثل، ذيل الآية ٢٥ من سورة مريم.

(٣) إنَّ نصبَ «رزقاً» جاء لكونه «مفعولًا لاجله»، ويُستبعدُ احتمال كونه «مفعولًا مطلقاً» أو «حالًا».

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٨٦

وفى الآية العاشرة وآخر الآيات فى بحثنا استند إلى الأنواع المتباينة من الاطعمة التى وضعها البارىء، تعالى فى متناول الإنسان والدَّواب، ودعا الإنسان إلى التفحصِ فيها، كى يُعدَّهُ لمعرفة المُنعم ومعرفة اللَّه من خلال تحريضه على الشعور بالشكر.

فيقول: «فَلْيَنْظُرِ الإنْسانُ الىَ طَعَامِهِ».

ليرى كيف تظافرت مختلف العوامل من الشمس والأرض والهواء والمطركى تضع فى خدمته هذه النِّعَم. فيجب أنْ ينظُر ويرى كيف: «أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً* ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً* فَأَنبَتنَا فِيهَا حَبّاً* وعِنَباً وقَضْباً «١»* وزَيْتُوْناً وَنَخْلًا* وَحَدَائِقَ غُلْباً* وَفَاكِهَةً وَأَبّاً» «٢».

مع أنَّ «فاكهة» تشمل جميع أنواع الثمار، و «حدائق» تتضمن جميع البساتين، إلّاأنَّ الاستناد إلى «العنب» و «الزيتون» و «التمر» يأتى بسبب مزاياها المهمّة للغاية التى ثبتت الآن فى علم النبات بالنسبة لكلٍّ منها.

وبالرغم من أنَّ «طعام» تعنى عادةً الغذاء المادى، لا سيما بخصوص الآية التى تعقبها، فقد ذُكرت موارد عديدة للاطعمة الماديّة، الفواكه والحبوب، إلّاأنّه وكما ورد فى بعض الروايات، يمكن أن يكون للطعام معنى واسع وشامل حيث يشمل الغذاء المعنوى أيضاً، ويجب أن ينظرَ الإنسان جيداً ممَّ يكتسبُ العلمَ الذى هو غذاؤه الروحى، فلا ينبغى أن يكون مشتملًا على علوم سامة وهدامة.

والكلام الأخير حول هذه الآية الشريفة، هو من الممكن أن تكون عبارة «فَلْيَنْظُرِ» هى النظر من أجل إدراك أسرار المبدأ والمعاد، وكذلك النظر لتمييز الصنف الطيِّب والطاهر، من الخبيث والملوث، والمشروع من اللامشروع والمفيد من الضّار.

يستفادُ جيداً من مجموع ما قيلَ فى شرح هذه الآيات أنَّ أنواع الرزق الإلهى آياتٌ

(١) «قضب» على وزن (جذب) وتعنى القطع والقطف، وقد فسَّرها المفسِّرون بأنّها الخُضرُ التى تُقطعُ عدّة مرات.

(٢) «حدائق» جمع «حديقة» وتعنى البساتين المحصورة بين الجداران، و «غُلب» جمع «اغلب» من مادة «غُلبة» وتعنى الضخم الجُثّه، و «أب» تعنى النباتات الطبيعية والمراتع الطبيعية، أو الثمار التى تُجفَّف وتحفظ. (والآية ٣١ من سورة عبس).

نفحات القرآن، ج ٢، ص: ٢٨٧

وآثارٌ على عظمتِهِ، وكيفية ظهورها، والنظام المدهش الذى استُعملِ فى بنائها، والصفات المميزة لكل منها، والمواد المعاشية الموجودة فى كلٍّ منها، وكذلك كيفية ايصالِ هذه الأرزاق إلى المحتاجين ومطابقتها لحاجتهم، فكلٌّ منها آية ودليل عن حكمة وعظمة الذات الإلهيّة المقدّسة.

توضيحات

١- من عجائب عالم الأرزاق

حقاً لو تأملنا في النظام العجيب الموجود في ارتزاق مختلف الموجودات من المصادر الطبيعية، لتجلّت لنا امورٌ لطيفةٌ ومدهشة عن قدرة الخالق جلّ وعلا.

الأمر الأول منها هو لماذا لا تتقلص كمية المواد الغذائية الموجودة على الأرض مع قلتها واستفادة الناس والحيوانات على مدى آلاف الآلاف من السنين؟! كيف لا تنتهي هذه المائدة الممتدة في كل مكانٍ؟!

حينما نتأمل جيداً نرى أنَّ المواد الغذائية في هذه الدنيا لها شكلٌ خاص بحيث لو استُفيدِ منها لملايين الملايين من السنين، لم ينقص منها بقدر رأس الابرة، وهذا بسبب «حركتها الدائرية» فمثلًا أنَّ المياه تتبخر من البحر ثم تظهر على هيئة غيوم وامطار، فيهطل قسمٌ من ماء المطر إلى البحر ثانيةً، والقسم الآخر يصبحُ جزءاً من جسم الإنسان والحيوانات والنباتات ويتبخر وينتشر في الجو، وتستمر هذه الحركة الدائرية دائماً.

فالاشجار تمتص المواد الغذائية من الأرض وتتكون الفروع والأوراق، ثم تتساقط الأوراق وتتفسخ وتتحول فيما بعد إلى سمادٍ ومواد غذائيةٍ لنفس الأشجار، وتستفيد الحيوانات من المواد الغذائية ثم تُصبحُ تراباً، وجزءاً من المواد الغذائية في الأرض.

ويتنفس الإنسان والحيوانات غازَ «الاوكسجين» ويطرح غاز «ثاني اوكسيد الكاربون»، ولكن الأشجار على العكس من ذلك فهي تأخذ غاز «ثاني اوكسيد الكاربون» وتطرح غاز

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٨٨

«الاوكسجين»، ويتكرر هذا التبادل دائماً، هنا نشاهد أنّ هذه المائدة الإلهيّة السرمدية مبسوطة باستمرار لتجلس كافة المخلوقات إليها للارتزاق منها دون أن يصيبها النقصان.

وكيفية إعداد الرزق للحيوانات عجيبةٌ أيضاً، فالبعضُ يتغذى على النباتات والرطوبة الموجودة على الأرض، وبعضٌ يحصل على غذائه من الماء «النباتات العائمة» وبعضٌ من الجو، وبعضٌ عن طريق الالتحام بنباتاتٍ اخرى «كبعض الطفيليات» وتعيش حيوانات أعماق البحار في مكانٍ لا ينمو فيه نباتٌ أبداً، لأنَّ اشعة الشمس تتلاشى تماماً في عمق ٦٠٠- ٧٠٠ م ثم يسود ماءَ البحر بعدها ليلٌ حالكٌ وسرمديٌّ، إلّاأنّ الباري تعالى يهيء ويعدُّ رزقَها على سطح البحر ويرسلُه إليها في أعماق البحر فالنباتات التي تنمو بكثرة على سطح البحر وسط الأمواج تصبحُ ثقيلة وتهبط إلى قاعه بعد نضوجها وتخصيص قسم منها للموجودات الحيّة على سطحه، وكذلك تنزل بقايا الموجودات التي تعيش على سطح البحر على هيئة مائدةٍ سماوية إلى الموجودات في قاعه.

فقد تُصبحُ الطيورُ طُعمةً لأسماك البحر، واسماك البحر طعمةً للطيور، وقد يجعل النباتاتِ غذاءً للحيوانات، أو الحيوانات غذاءً للنباتات التي تأكل اللحوم! وقد يصنع من فضلات ولعاب بعض الموجودات غذاءً لذيذاً لموجودٍ آخر (كما في بعض حيتان البحر حيث تخرج إلى ساحل البحر بعد تغذّيها على أسماك البحر المختلفة، فتبقى الفضلات بين أسنانها، فتفتح فمَها الذي يشبه الغار، فتدخلُ مجموعةٌ من طيور الساحل إلى فمها وتقوم باخراج اللحوم المتبقية من بين اسنانها وتتخذها طعاماً لذيذاً لها، فتقوم بدورِ المسواك في تنظيف أسنان هذا الحيوان، الذي لا يسيء ردَّ الجميل، فلا يُطبقُ فاهُ حتى خروج آخر طيرٍ من فمه، وحينما ينتهي الأمر ويتخلص من المواد المزعجة، وتمتليء بطون الطيور من الطعام حينئذ يُطبقُ فمَهُ ويتجه نحو أَعماقِ البحر [١]».

وباختصار: كلّما دققنا في هذه المسألة أكثر، سنحصل على نقاطٍ جديدة في مجال علم

---

(١) يضيف الفخر الرازي في تفسيره ضمن إشارته المختصرة لهذا الموضوع، أنّه على رأس هذا الطائر شيءٌ يشبه الشوك، فلو قَرر التمساحُ ابتلاع هذا الطائر فسيؤلمه ذلك «تفسير الكبير، ج ٢٤، ص ١١).

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٨٩

وحكمةِ الخالق جلَّ وعلا، والتدبير الذي صُرفَ في مجال الأرزاق، بشكلٍ لا يبقى مجالًا لأي نوع من الصدفة.

يكفينا التأمُل فى وضع الإنسان خلال المراحل الثلاث: الجنين، الرضاعـة، والأكل، كيف أنَّ اللَّه تعالى وضعَ فى متناولهِ ما يناسب حاله فى كـلٍّ واحـدةٍ من هـذه المراحـل الحساسـة بـدونِ نقصٍ، فيتغـذى طيلـة مكوثه فى رحم الام عن طريق جهـاز الحبل السّرى المعقّد والإرتباط المباشـر بدم الام، وبعده الولادة، عندما لا توجدُ أسنانٌ لمضغ الطعام، ومعدتُه وامعاؤهُ غير مستعدةٍ لاستقبال الطعام، يهيىء له ثـدى امه الملىء بالحليب، غـذاءً مناسـباً، غنياً بكافـة المواد الغذائيـة، معتدل الحرارة، لا تغلب عليه الحلاوة أو الملوحة، ولا يحتاج إلى مضغٍ ونشاطٍ لمعدتهِ كى تهضمه.

وفى المرحلـة الثالثـة، يضع فى متنـاوله أنواعاً من الاطعمـة «المناسـبة»، فلو لم تكن أطعمـة الإنسـان وباقى الحيوانات «ملائمـة» ويكون مجبوراً على تناولها كالأدوية المرّة، فاىٌّ مأزق سينشأ فى حياته، ألا يفنى معظمُ الناس بسبب عدم توفر الطعام السليم لهم؟

ومن جانبٍ آخر، فقـد أودعَ فى الإنسان الشـعورَ بالجوعِ والعطش، كى ينجـذب نحوهما بشـكل آلى عنـدما يحسُ بالحاجةِ إلى هاتين المادتين الحيويتين، فتأملوا ما يحصل لولا هذا الشعور؟!

وكما يقول الإمام الصادق عليه السلام فى الحديث المعروف عن المفضّل:

«فكّر يـا مفضـل فى الأفعـال التى جُعلت فى الإنسـان من الطعم والنوم والجماع وما دبّر فيها فانّه جُعل لكل واحـد منها فى الطباع نفسـه محرّك يقتضـيه ويستحث به فالجوع يقتضى الطعم الذى به حياة البدن وقوامه والكرى تقتضى النوم الذى فيه راحة البدن وإجمام قواه والشـبق يقتضى الجماع الذى فيه دوام النسل وبقاؤه، ولو كان الإنسان إنّما يصير إلى أكل الطعام لمعرفته بحاجة بدنه إليه ولم يجد من طباعه شـيئاً يضـطره إلى ذلـك كـان خليقـاً أن يتوانى عنه أحيانـاً بالتثقل والكسل حتى ينحل بـدنه فيهلك ...، فانظر كيف جُعل لكل واحد من هذه الأفعال التى بها قوام الإنسان وصلاحه محرك من نفس الطبع يحركه لذلك ويحدوه عليه» «۱».

---

(۱) بحارالأنوار، ج ۳، ص ۷۸ و ۷۹، توحيد المفضّل.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۹۰

لهذا تُعتبر الرغبةُ فى نوعٍ من الطعام بالنسـبة للاصـحاء من الناس دليلًا على حاجة الجسم إلى ذلك الغذاء على نحو الخصوص، ويجب على مثل هؤلاء الأشـخاص كـذلك النزول عنـد هـذه الرغبات الداخليـة؛ يقول العالم الروسـى المعروف «باولف»: «إنَّ الغـذاءَ الطبيعى والمفيد، هو الغذاء الذى يؤكل بشهيَّةٍ وتلذذ».

ولهـذا أيضاً لا معنى للالتزامِ بنظامٍ خاصٍ فى الامتناع عن الأطعمـة التى يرغب الإنسان بتناولها لأنّ تلك الرغبـة تعتبر بحد ذاتها أفضـل دليلٍ على حاجةِ الجسمِ لها.

ما هذه التركيبات المحبوكة التى تحددُ بنفسها نوع حاجتها، ووقودها، وصنعها؟

وبمجرد أن يحصلَ نقصٌ توقظ شـعورَ الإنسان وتـدفعهُ نحو ذلك؟ هل يمكن حمل مثل هذه الامور على سبيل الصدفة؟ وهل هنالك إمكانية لوجود مثل هذا البرنامج المنظّم لولا وجود عقلٍ وتدبيرٍ واسعٍ؟

۲- هل أنَّ الرزقَ مقسومٌ؟

وردت هـذه النكتـة فى بعض الآيـات أعلاه وهى أنَّ رزقَ كـلِّ دابـةٍ على اللَّه، وقـد تكفَّلَ اللَّه به: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ الَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ...». (هود/ ۶)

وورد فى بعضٍ آخر أنّ سعة الرزق وضيقة مشيئة الهية. (الروم/ ۳۷ وآيات اخرى .

واشـير إلى هـذا المعنى فى الروايات أيضاً، فيقول امير المؤمنين عليه السـلام: «وَقَدَّر الأرزاقَ فكثَّرها وقلَّلها وقسَّمها على الضَّيق والسَّعة» «۱».

وفى حديث آخر عنه عليه السلام نقرأ فى حثّه على طلب العلم إذ يقول:

«إنَّ طلبَ العلمِ أوجَبُ عليكم من طلبِ المال، إنَّ المالَ مقسومٌ مضمونٌ لكم قد قسَّمَهُ عادلٌ بينكم وضَمِنَه وَسَيَفى لكم والعلمُ مخزونٌ عند أهلِهِ قد امرتُم بطلبهِ» «٢».

---

(١) نهج البلاغة خطبة ٩١.

(٢) معالم الدين، ص ٩.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٩١

والآن يبرز هذا التساؤل وهو: لو كان الأمر كذلك فما هو مفهوم السعى والاجتهاد لطلب الرزق والتخطيط لتحسين الوضع الاقتصادى للمجتمع؟

ولكن من خلال التمعُن فى الآيات والروايات فيما إذا جُمعت مع بعضها يتضح الجواب على هذا السؤال بأنَّ المقصود من ضمان الرزق من قبل اللَّه تعالى وتكّفله والتزامه بتقسيمه هو اعداد الأرضية اللازمة، ومتى ما تظافرت الأرضية الخارجة عن طاقة الإنسان، والاستعدادات الموجودة فى ذاتِهِ، يستلم الإنسان نصيبه من الرزق.

وهذا يشبه تماماً رواتب العاملين فى مؤسسة ما والتى يحددها المدير إلّاأنّه لا يجلبُ تلك الرواتب إلى بيوتهم بل يجب عليهم أن يعملوا، ثم يذهب كلٌّ منهم لملء بطاقةِ راتبه ليستلمه.

ولا يجب نسيان هذه الحقيقة بأنّ اللَّه تعالى ومن أجل أن لا يضيع الناس فى «عالم الأسباب» ويعتبروا أنَّ حاصل الرزق يأتى عن طريق السعى والاجتهاد فقط، فهو يوصل الرزق أحياناً لاناسٍ لم يبذلوا جهداً جهيداً وقد يسلب الرزق من أشخاصٍ مجتهدين كى يوضح أنَّ وراء هذا العالم قدرةً اخرى (ولكن يجب أن لا ننسى أنَّ هذا مجرّد استثناء، وأمّا القاعدة الأساسية فهى السعى والاجتهاد).

ولعلّه لهذا الأمر ورد فى حديثٍ عن الرسول صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«واعلموا أنَّ الرزقَ رزقان: فرزقٌ تطلبونه ورزقٌ يطلبكُم فاطلبوا أرزاقكم من حلال، فانّكم إن طلبتموها من وجوهها أكلتموها حلالًا وإنْ طلبتموها من غير وجوهها أكلتموها حراماً» «١».

هذا الفارقُ فى الرزق يعتبرُ فى الواقع دليلًا على الجمع بين الآيات والروايات التى تعتبرُ الرزقَ مُقَسَّماً ومضموناً، والروايات التى تعاكسها، التى تعتبر الجد والاجتهادَ والمثابرة شرطاً للاستفادة من الرزق «٢».

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ٤٧.

(٢) من أجل التعرف على هذه الروايات يراجع، وسائل الشيعة ج ١٢، كتاب التجارة، ص ٩ و ١٦ و ١٨ و ٢٢ و ٢٤ و ٢٦.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٩٢

بالإضافة إلى أنَّ التعرف على هذا الاختلاف فى الرزق يدفع الحريصين إلى التخلى عن حرصهم، ولا يتلوث المؤمنون بتحصيل الرزق من الحرام، ولا ييأس المحرومون أيضاً.

٣- إذا كانَ الرزقُ مضموناً للجميع فلماذا يموتُ البعضُ جوعاً؟

فى الآيات أعلاه تتجسدُ هذه الحقيقة جيداً بأنَّ اللَّه تعالى قد تكفَّلَ برزق جميع الموجودات الحيّة، وايصاله إليها أينما كانت، ولكن يبرز هذا السؤال وهو: لماذا ماتت وتموت مجاميعُ من الناس جوعاً الآن وعلى طول التاريخ؟ أَلَمْ يُؤَمَّنُ رزقُها؟!.

فى الرد على هذا التساؤل يجب أخذ النقاط الآتية بنظر الاعتبار: أولًا: إنَّ تأمين وضمان الرزق لا يعنى اعدادَه للإنسان العاقل والمكلّف

وارساله إلى بيته، أو وضعهِ فى فمه كاللقمة، بل قد اعدت الأرضية اللازمة، وسعىُ الإنسان واجتهاده يعتبر شرطاً لتحقيق هذه الأرضية وايصالها إلى مرحلة الفعل، حتى مريم (عليها السلام) عندما كانت فى ذلك الوضع الصعب وفى تلك الصحراء القاحلة حيث هيأ لها اللَّهُ تعالى رزقها رطباً جنياً على جذع النخلة أمرها بأنْ تسعى وخاطبها: «وهُزّى الَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ».

ثانياً: لو أنَّ الناسَ- فى الماضى والمستقبل- يقومون بهضم حقوق الآخرين ويسلبون أرزاقهم ظلماً فهذا ليس دليلًا على عدم تأمين البارىء تعالى للرزق، وبتعبير آخر: إضافة إلى مسألة السعى والاجتهاد فإنّ وجود العدالة الاجتماعية يعتبر سراً فى التوزيع العادل للأرزاق، وإذا قيل: لماذا لا- يمنع اللَّهُ ظلمَ الظالمين؟ نقول: إنَّ أساس حياة البشر يقوم على الحرية وليس على الاجبار والاكراه كى يخضع الجميع للامتحان، وإلّا فلا يحصل التكامل «فتأمل جيداً».

ثالثاً: هناك مصادر كثيرة لتأمين طعام البشر على هذه الكرة الأرضية ولكن يجب أن تكتشفَ وتُستخدمَ بذكائهم ومعرفتهم، وإذا قصَّر الإنسان فى هذا المجال فالذنبُ ذنبهُ.

لا يجب أن ننسى أنّ بعض مناطق افريقيا التى يموت شعبها جوعاً تعتبر من اغنى

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٩٣

مناطق العالم، إلّاأنّ العوامل المدمرّة التى أشرنا إليها آنفا جعلتهم يهيمون فى ليلٍ مظلم.

نختتم هذا البحث المختصر بحديثٍ عن الإمام على عليه السلام ورد فى نهج البلاغة، يقول:

«انظروا إلى النملةِ فى صِغرِ جُثتها ولطافةِ هيئتها لا تكادُ تُنالُ بلحظِ البَصرِ ولا بمُستدركِ الفكَرِ كيفَ دبَّت على أرضها، وصُبَّت على رزقها تنقُلُ الحبَّةَ إلى جحرِها وتُعِدُّها فى مستقرها، تجمعُ فى حَرِّها لبردها، وفى ورِدِها، لصدرِها» «١».

٤- سعةُ الرزق وضيقه

وردَ فى الآيات أعلاه أنَّ اللَّه تعالى يبسطُ الرزقَ لمن يشاء ويُضيقَهُ على مَنْ يشاء، وهذا التعبير الذى تكرَّر فى آياتٍ عديدةٍ يمكنُ أن يُوجدَ هذا الخلط وهو أنَّ نظام الرزق خارجٌ عن إرادة الإنسان بشكلٍ كامل، طبقاً لذلك فلو تَنَعَّمَ قومٌ وحُرمَ آخرون فهذه مشيئة اللَّه وليس ما كسبته أيدينا وليس لنا حول ولا قوّة! ويُمكن أن يكون هذا مكسباً جيداً لُاولئك الذين يشكلون على أصل الدين ويعتبرونه وليداً للحركات والمشاريع الاستعمارية.

ولكن لو تأملنا فى هذه الآيات والروايات وفكّرنا فى أسباب ضيق الرزق وسعَته لتجلّى لنا تفسير هذه الآيات وأسرارها وسيتم القضاء على تلك الأفكار الهدّامة، ونتوصل إلى امور مهمة وقيّمة للغاية.

لقد قلنا مراراً أنَّ التعبير ب «الارادة الإلهيّة» لا يعنى الإرادة التى تخلو من الحساب والكتاب، بل الإرادة الممتزجة ب «الحكمة».

إنَّ حكمة اللَّه تقتضى أنّ من يسعى ويجتهد ويُخلصُ ويُضحى أكثر، يكون رزقه أوسعُ:

«وأَنْ لَّيسَ لِلِانْسَانِ إلَّا مَا سَعَى . (النجم/ ٣٩)

و «كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ». (المدثر/ ٣٨)

«وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً* وَيَرزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَايَحتَسِبُ». (الطلاق/ ٢- ٣)

---

(١) نهج البلاغة خ ١٨٥.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٩٤

فالتقوى تؤدّى إلى سيادة العدالة الاجتماعية ومن ثَمَّ تؤدى إلى سعة الرزق، كما أنّ السعى والمثابرة تُعِدُّ الأرضية اللازمة للازدهار الاقتصادى وتعتبر سبباً فى سعة الرزق، وبناءً على ذلك فانَّ التعاليم أعلاه ونظراً لجذورها واصولها لا تعتبر سبباً فى الخمول وترك

السعى، بل إنّها من العوامل المؤثرة فى السعى والاجتهاد.
والشاهد هو هذا الحديث القيّم الذى نُقل عن الإمام على عليه السلام، حيث يقول:
«إنَّ الأشياءَ لمّا ازْدَوَجَتْ إزْدَوَجَ الكَسَلُ والعَجْزُ فَنَتَجا بينهما الفَقْر» «١».
نعم .. ففقرُ كلِّ قومٍ، نتيجةُ مباشرةُ لضعفهم وخُمولهم، وقد اقتضت الحكمةُ الإلهيّة أنْ يضيق الرزقُ على مثل هؤلاء.
إنَّ التَأمُّلَ فى أسبابٍ ضيق وسعة الرزق فى الروايات شاهدٌ ناطقٌ آخر على القول السابق.
ومن جملة الامور التى ذكرتها فى الروايات كاسبابٍ لسعة وبسط الرزق ما يلى:
صلة الرحم، نظافة الدار والأوانى والجسم، مواساة المسلمين، السعى مبكراً لطلب الرزق، شكر النعمة، الاقلاع عن البخل، اجتناب اليمين الكاذبة، الاستغفار والتوبة من الذنوب، حسن النية فى الأعمال، الاحسان إلى الجيران وذكر اللَّه «٢».
نقرأ فى حديثٍ عن النبى صلى الله عليه و آله: طيبُ الكلام يزيدُ فى الارزاق «٣».
وجاء فى حديثٍ عن أمير المؤمنين عليه السلام: «فى سعةِ الاخلاقِ كنوز الأرزاق» «۴».
وورد فى حديثٍ آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «كَثرةُ السُحتِ يمحقُ الرزق» «۵».

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ۶٠.
(٢) بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٣١۴ (باب ما يورث الفقر والغنى ، و سفينة البحار، ج ١، ص ۵١٩ و ۵٢٠.
(٣) المصدر السابق.
(۴) المصدر السابق.
(۵) المصدر السابق.
نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٩۵

١٧- آياته فى خلق الطيور

تمهيد:

لقد أَحْبَّ الإنسان على مرّ التاريخ الطيورَ وتمتَّع بتربيتها ومشاهدتها تُحلقُ فوقَ رأسِهِ فى السماء بشكلٍ جميلٍ، وكانت هذه الظاهرة تبعث على دهشته دائماً، وهى كيفية امكان أنْ يحلِّق جسم ثقيل فى السماء ويتحرك بتلك السرعةِ خلافاً لقانون جاذبية الأرض؟!.
وليست هذه الصفة فقط بل صفات اخرى كالريش و الجناحين، التغريد اللطيف لبعضها، طراز بناء البيت والعش، تربيةِ الفراخ واطعامها، الهجرة الطويلة لقسمٍ منها، وامور اخرى من هذا القبيل كانت مصدراً لدهشته، بالرغم من أنّ تكرار هذه الحالات المثيرة أدّى وبالتدرج- إلى أن يمرَّ بعضُ الناس عليها مرور الكرام.
وقد أشارَ القرآن الكريم فى جانبٍ من آياتِ التوحيد إلى هذه المسألة، ودعا الجميع مشاهدة عالم الطيور، كى يَرَوْا آيات وبراهين البارى تعالى
بهذا التمهيد نتأمل خاشعين فى الآيات الآتية.
١- «أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِى جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآياتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ». (النحل/ ٧٩)
٢- «أَوَلَمْ يَرَوا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ ويَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ الَّا الرَّحمَنُ انَّهُ بِكُلِّ شَىءٍ بَصِيرٌ». (الملك/ ١٩)
٣- «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِى السَّمَواتِ وَالأَرْضِ والطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيْحَهُ وَاللَّهُ عَلِيْمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ». (النور/ ۴١)

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٩٦

۴- «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيْرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا امَمٌ أَمْثالُكُمْ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ». (الانعام/ ٣٨)

شرح المفردات:

«طَير»: جمع (طائر) وتُقال لكلِّ حيوانٍ ذى جناحٍ وريشٍ، ويحلِّقُ فى الهواء، ومصدرها «الطيران» «١»

و «تَطَيَّر» تقالُ لطالع السوء الـذى كانوا يسـتلهمونه فى الجاهليـة من حركة الطيور، ولكن اطلقَ فيما بعد على كل أشـكال التشاؤم وسوء الطالع.

كما جاء لفظ «تَطايُر» بمعنى الحركة بسرعة أيضاً «٢».

«صافّات»: من مادة «صف» وتعنى وضع الأشـياء فى خطٍ مستقيم، كالناس أو الأشـجار حينما يكونون فى خطٍ واحد، فعندما يُطلق هذا اللفظ وصفاً أو حالًا للطيور: «والطَّيْرُ صافّاتٍ»، فهو إشارة إلى بسط الأجنحةِ فى السماء أثناء الحركة، ويعاكسها: «ويَقْبِضْنَ».

ولفظ «إصـطفاف» كنايـة عن التسـليم والطاعـة المحضـة والخضوع التام، وإشارة للخدمِ الذين يقفون فى صفٍ واحدٍ اسـتعداداً لتقديم الخدمة «٣».

وبطبيعـة الحـال أنّ احتمـال: «والطيرَ صافـاتٍ» إشارة إلى مجموعـة من الطيور التى تتحرك بشـكلٍ جماعىٍّ فى صفٍ أو عـدة صـفوف حيث تلفتُ الانتباه بتناسقها وارداً أيضاً، إلّا أنَّ عبارة «ويقبضنَ» تمنعُ هذا التفسير.

---

(١) وقد قالوا إنّ مصدر هذا الفعل «طَير» أيضاً، وطيور جمع الجمع (جمع طَير) وذكر بعضهم أنّ «طيور» جمع «طائر».

(٢) مفردات الراغب؛ لسان العرب؛ كتاب العين؛ ومجمع البحرين.

(٣) التحقيق فى كلمات القرآن الكريم؛ ومفردات الراغب.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٩٧

جمع الآيات وتفسيرها

الطيرُ يُسبّحُ وأنا صامت!

أكـدت الآيـة الاولى على أن تحليق الطيور فى جو السَّماءِ خلافاً للجاذبية الأرضـية هو آيةٌ من آيات اللَّه: «أَلَمْ يَرَوْا الَى الطَّيرِ مُسَـخَّراتٍ فى جَوِّ السَّماءِ» «١»

.

ونظراً لطبيعـة الأجسام فى الانجـذاب نحو الأرض فانَّ حركة الطيور فى أعالى الجو تبدو شـيئاً عجيباً، ويجب أنْ تُؤخذ مأخذ جدّ، فمن المسَّلم به أنَّ هناك مجموعة من المزايا لدى الطيور تمكنها من الطيران بيُسرٍ فى السماء مستثمرة مختلف القوانين الطبيعية المعقّدة، إنّه لشيء يبعث على الدهشة بلا شك.

إنّ لهذا الميدان العجيب والقوانين التى تسـبب هذه الظاهرة المدهشة ربّاً قادراً حكيماً مطلعاً على أسرار العلوم، بل ليست العلوم إلّاشيئاً من القوانين التى وضعها، لهذا يقول فى سياق الآية: «مَا يُمْسِكُهنَّ الَّا اللَّهُ».

ويضيف فى ختام الآية: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

وسـنرى فى الايضاحات التى سـتأتى فى نهاية هذه الآيات- إن شاء اللَّه- ما هى القوانين التى يجب أنْ تتظافر كى تحصل هذه الظاهره

التى تُدعى «الطيران»، لذلك نواجه فى كلِّ خطوةٍ آيةً جديدةً من آيات مُبدىء الوجود العظيم.

والآية الثانية تتشابه مع الاولى من عدة وجوه، إلّاأنَّه يُلاحظُ فيما بينهما اختلافاتٌ أيضاً، ففى هذه الآية يدعو الناس «لا سيما المشركين» إلى تفحّص اوضاع الطيور، هذه الموجودات التى تنطلق من الأرض خلافاً لقانون الجاذبية الأرضية، وتتحرك مسرعةً بكل

---

(١) لقد اتخذ بعضهم لفظ «جَوّ» بمعنى الفضاء الذى يحيط بالأرض، وبعضٌ بمعنى «الهواء» قريباً كان أم بعيداً عن الأرض، ولكن يبدو أنّ ما يستعمل عادةً هو المعنى الأول، وهو الذى يناسب الآية أعلاه حيث يمكن أن يكون مصدراً للاعجاب.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٩٨

يُسرٍ فى جو السّماء لساعاتٍ وأحياناً لأسابيع، وحتى أحياناً لعدة شهور بدون توقفٍ، حركةً مرنة وسريعةً، بنحوٍ تبرهن على أنّها لا تواجه مشكلةً فى عملها.

فيقول: «أَوَلَمْ يَرَوا الَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ ويَقْبِضْنَ» «١»

.

فلا أحد سوى الرحمن الذى عمَّت رحمتُه كلَّ شىء، يستطيع أن يُمسكَهُنَّ هناك: «مَا يُمْسِكُهُنَّ إلَّا الرحْمَنُ».

أجل .. اللَّهُ الذى مَنَحها كلَّ أدوات الطيران، وعلَّمها طريقته واسلوبه، كما وضعَ قوانين وانظمةً تستفيدها فتحلّق بيسر وسهولة، فهو العليم بحاجات كل الموجودات والبصير بكلِّ شىءٍ: «إنَّه بِكُلِّ شَىءٍ بَصِيْرٌ».

وابتداءً من الذرات حتى المنظومة الشمسية، والمنظومات الاخرى الجبارة، ومن النباتات والحيوانات المجهرية، حتى الموجودات العملاقة، والكل يستمر فى وجوده بتدبيره جلَّ وعلا، التدبير الذى يُطلعنا فى كلِّ مرحلةٍ منه على آيةٍ جديدةٍ من علمه وقدرته تبارك وتعالى وينفى كل أشكال الاحتمال بوجود الصدفةِ وقدرتها على الخلق، ويملأ القلب بحبّه والإيمان به.

ويُمكن أن يكون التعبير ب «صافاتٍ» و «يَقْبِضْنَ» إشارة إلى وضع الطير، حيث يبسطنَ أجنحتهنَّ تارةً، ويجمعنَها اخرى ويقدرنَ على الطيران من خلال هذين الفعلين، ويردُ هذا الاحتمال أيضاً بأنْ يكون إشارة إلى صنفين من الطيور: الطيور التى غالباً ما تكون أجنحتها مبسوطة، وتركبُ أمواجَ الهواء، وفى نفس الوقت تسيرُ فى كلِّ اتجاهٍ بسرعة، فكأنّما هناك قدرةٌ خفيَّةٌ تُحركُها لا نراها بأعيننا، والطيور التى تخفق اجنحتها باستمرار أثناء طيرانها، ولبعضِ الطيور حالةٌ وسطٌ بين هاتين الحالتين أثناء الطيران «٢».

---

(١) يقول بعض المفسرين لو تعدت «الرؤية» ب «إلى فهى تعنى الرؤية الحسّية، وإذا تعدت ب «فى» فهى تعنى المشاهدة القلبية والمطالعة العقلية (تفسير روح البيان، ج ١٠، ص ٩١).

(٢) لماذا جاءت «صافاتٍ» بصيغة الاسم الفاعل، و «يقبضنَ» بصيغة الفعل المضارع؟ وردت تفسيرات كثيرة أفضلها: يقال إنّه عند انبساط الاجنحة يأخذ وضع الطائر نسقاً واحداً، بينما يتكرر رفيف اجنحته عند خفقانها، وهذا ما يناسب الفعل المضارع ويكسبه صفة الاستمرارية. وذُكر تفسير آخر فى «الكشاف» وأيده بعض المفسرين: بأنّ منشأ هذا التفاوت ينبع من أنّ الطيران هو الحالة الأصلية الاولى للطيور، والحالة الثانية هى عرضية. غير أن الغموض يكتنف هذا التفسير.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٩٩

وفى الآية الثالثة نواجه صياغة جديدة بصدد الآيات التوحيدية لحياة الطيور إذ يخاطبُ النبى صلى الله عليه و آله قائلًا: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِى السَّمَّواتِ وَالأَرْضِ» «والطَّيْرُ صافَّاتٍ».

الطيور التى تتحرك فى الجو صفوفاً، بجلالٍ وعظمةٍ وجمال ولا تتعبُ العين من مشاهدتها أبداً، فهى ترسمُ أشكالًا هندسيةً مختلفة على صفحة السماء بحيث تذهلُ الإنسان، إذ قد تطير المئات بل الآلاف من الطيور وتغيُّر طريقها باستمرار من خلالِ أمرٍ خفيٍّ من دون

أن يحدث اصطدامٌ فيما بينها.

ويضيف فى سياق الآية: «كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وتَسْبِيْحَهُ» «١»

.

نعم .. فلكلٍّ منها صلاةٌ وابتهال ومناجات ودعاءٌ وحاجاتٍ فى عالمها الخاص، ولكلٍّ تسبيحه وتعظيمه وثناؤه، ومن المعروف أنَّ ذرات وجود أيٍّ منها وبناء مختلف أعضائه وحركاته وسكناته تُخبرُ عن مُبدىءٍ عظيمٍ يجمعُ كافة الكمالات ومُنَزَّهٍ عن جميع النواقص، وهى دائمةُ التّسبيح بحمده بلسان حالها.

ويعتقد بعضهم أنَّ حمدَها وتسبيحها وصلاتها عن وعى، ويعتبرون لكلِّ موجودٍ حتى الذى نَحسبُه جماداً وبلا روح، عقلًا واحساساً، بالرغم من جهلنا به، كما نقرأ فى مكانٍ آخر: «وَإِنْ مِّنْ شَىءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَّاتَفْقَهُوْنَ تَسْبِيْحَهُم». (الاسراء/ ٤٤)

وكل تفسير من ذينك التفسيرين الصحيحين يصلح أن يكون شاهداً على ادعائنا بأنَّ جميع الموجودات فى هذا العالم، لا سيما الطيور التى تطير فى جوِّ السماء، آياتٌ وبراهينٌ على قدْرةِ وعلم خالق الكون.

---

(١) هنا حيث يعود الضمير فى «عَلِمَ» إلى «اللَّه» أو إلى «كلّ» هنالك جدالٌ بين المفسِّرين، ولكن ما يناسب وضع الآية هو أن يعود الضمير إلى «كل» فيعنى: «كل واحد» أى أنَّ كلَّ واحدٍ من موجودات الأرض والسماء والطيور يعرف صلاته وتسبيحه جيداً.

ويقول فى نهاية الآية: «وَاللَّهُ عَلِيْمٌ بِمَا يَفْعَلُوْنَ».

فهو يعلم كل أعمالهم ونواياهم وجميع حاجاتهم، وهنا لماذا استند فى هذه الآية إلى بسط أجنحة الطيور فقط «صافات»؟ لعلَّ السبب هو هذا الوضع العجيب والمدهش حيث تستطيع أن تتحرك فى جو السماء بسرعة بدون تحريك اجنحتها كما أشرنا إلى ذلك سابقاً.

والاحتمال الوارد أيضاً هو أنّ الطيور تتحرك فى السماء بشكلٍ جماعى بنحوٍ يبعث على الحيرة، حركة هندسية منظّمة، متناسقة تماماً، وبلا قيادةٍ ظاهرةٍ.

وأشار فى الآية الرابعة والأخيرة من البحث إلى مسألةٍ جديدةٍ اخرى من عجائب عالم الطيور فقال: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا طائِرٍ يَطِيْرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا امَمٌ أَمْثالُكُم».

والتعبير ب «امَمْ» جمع «امّة» يدللُ على أنَّ لها عقلًا واحساساً فى عالمها، والتعبير ب «أمثالكم» يؤكد هذا المعنى أيضاً، لأنّها تشابه الإنسان فى مسألة الإدراك والفهم والشعور، وهذا تأكيد مجدد للتفسير الذى ورد فى الآية السابقة، بأنَّ لها تسبيحاً ودعاءً عن وعيٍ فى عالمها الخاص بها «١».

إنَّ القرائن المتوفرة لدى الطيور، وباقى الحيوانات، تؤيد بأنّها ذات ذكاءٍ وشعور.

لأنَّ: أولًا: الكثير من الحيوانات تعمل بمهارةٍ ودقةٍ فى بناءِ بيوتها وجمع غذائها وتربية فراخها، ورعايتها، وسعيها لسد حاجات حياتها الاخرى بدقة ومهارة لا يُصدق معها، صدور هذا العمل عن غير عقلٍ وشعور؟.

وهى تبدى ردود فعلٍ مناسبة ازاء الاحداث التى لا تمتلك تجربةً سابقةً حيالها، فمثلًا نرى أنَّ الخروف الذى لم يَرَ ذئباً طيلة حياته له وعىٌ كاملٌ عن خطر هذا العدو ويدافع عن نفسهِ بكلِّ وسيلةٍ يستطيعها.

---

(١) لقد اعطى المفسرون احتمالات كثيرة فى تفسير تشبيهها بالإنسان حيث يبدو أنَّ ما اوردناه أعلاه أكثر تناسباً بالرغم من عدم وجود تعارضٍ بين هذه الاحتمالات. يراجع تفسير المنار، ج ٧، ص ٣٩٢؛ وتفسير القرطبى، ج ۴، ص ٢۴١٧.

لقد قاموا بتربية الحيوانات من أجل غاياتٍ مهمّةٍ، كالطيور التى تنقل الرسائل، والحيوانات التى تُرسلُ إلى السوق للشراء، وحيوانات الصيد، وكلاب الشرطة التى تستعمل للكشف عن المخدّرات، وملاحقة المجرمين وامثال ذلك، فتُربّى هذه الحيوانات بنحوٍ قد تكون أفضل وأكثر ذكاءً من الإنسان فى انجاز مهمتها، حتى فى هذا العصر الذى تنوعت فيه معدات كشف الجرائم لم يجدوا فى انفسهم غنىً عن هذه الكلاب!.

خصوصاً أنَّ بعض الحيوانات كالنحل والنمل والأرضة، وبعض الطيور كالطيور المهاجرة، وبعض حيوانات البحر كالأسماك الحرّة التى تقطع آلاف الأميال فى اعماق البحر باتجاه منشئها الأصلى أثناء وضع البيوض، تعيش حياةً دقيقةً ومليئةً بالأسرار بحيث لا يمكن نسبتُها إلى الغريزة، لأنَّ الغرائز تُعتبر عادةً مصدراً للأعمال ذات النَسق الواحد، فى حين أنَّ حياة هذه الحيوانات ليست كذلك، وأعمالها دليلٌ على فهمها واحساسها النسبى.

يقول مؤلف تفسير «روح المعانى»:

أنا لا ـ أرى مانعاً من القول بأنّ للحيوانات نفوساً ناطقة وهى متفاوتة الإدراك حسب تفاوتها فى أفراد الإنسان وهى مع ذلك كيفما كانت لا تصل فى إدراكها وتصرفها إلى غاية يصلها الإنسان، والشواهد على هذا كثيرة وليس فى مقابلتها دَليل يجب تأويلها لأجله «١».

والظاهر أنّ مقصوده من الشواهد هذه التلميحات أو التصريحات التى جاءت فى القرآن الكريم فى قصة «الهدهد وسليمان» وكذلك «النملة وسليمان»، وكذلك الروايات التى نُقلت فى تفسير آية البعث بأنَّ الحيوانات تُحشرُ وتُنشرُ وتحاسبُ يوم القيامةِ أيضاً «٢».

ولكن على أيّةِ حالٍ فسواء كانت أعمالها وتصرفاتها ناتجة عن عقلٍ وإرادةٍ أو عن غريزة فلا أثر لذلك على بحثنا، فهى بأىِّ نحوٍ آيةٌ من آيات اللَّه وبرهانٌ من براهين علمه وقدرته.

---

(١) تفسير روح المعانى، ج ٧، ص ١٤٧.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٢٩٨.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٠٢

واللطيف أنّه يقول فى نهاية الآية: «مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىءٍ» «١». «ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُوْنَ».

والتعبير ب «حَشر» يشير أيضاً إلى أنّها ذات عقلٍ وإرادةٍ نوعاً ما.

يُستفادُ من الآيات أعلاه أنَّ الطيور ومن عدة جوانب تعتبر من آيات اللَّه ولا ـ يمكن نسبة هذه الظواهر الدقيقة والمعقدة والمليئة بالأسرار إلى الصدفة العمياء والصماء أو إلى الطبيعة التى لا عقل ولا شعور لها.

توضيحات

١- فَنُّ الطيران المعقّد

منذ سنواتٍ والإنسان يُفكر: ما هذه القوة الخفيّة التى تساعد الطيور الثقيلة نسبياً على الطيران خلافاً لجاذبية الأرض وتجعلها تطير بانسيابية ويُسرٍ ومهارةٍ فى أعالى السماء، وتتنقلُ بسرعةٍ؟ ولكن باختراع الطائرة وصناعتها تمّ اكتشاف هذا السر بانَّ هناك قوة تسمى (القوة الرافعة) تستطيع أنْ ترفع الأجسام الثقيلة جدّاً وتجعلها تطير فى السماء، فضلًا عن الطيور. ويمكن توضيح ذلك فى عبارةٍ بسيطةٍ وخاليةٍ من المصطلحات الفنية بما يلى:

لو كان لجسمٍ سطحان مختلفان (كاجنحة الطيور أو اجنحة الطائرة حيث يكون سطحها العلوى منحنياً وبارزاً، فلو تحرك هذا الجسم

افقياً ستتولد قوةٌ خاصةٌ ترفعُهُ إلى الأعلى وهذا يعود إلى أنَّ ضغط الهواء سيتضاعف على السطح السفلى أكثر من العلوى (لأنَّ السطح العلوى أوسع من السفلى).

وتعدّ الاستفادة من هذا القانون السبب الرئيس فى تحليق الاجسام الثقيلة فى الجو، ولو

---

(۱) «فَرَّطنا» من مادة «تفريط» أى التقصير فى اداء العمل وتضييعه بنحوٍ يضيع (صحاح اللغة) ويردُ هذا الاحتمال أيضاً بأنَّ المقصود من عدم التفريط فى هذا الكتاب السماوى يعنى أنَّ للقرآن مفهوماً جامعاً حيث يشمل كافة حاجات الإنسان إلّاأنّه نظراً إلى ذيل الآية فانَّ المعنى أعلاه يعتبر أكثر مناسبة.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۰۳

تأملنا اجنحة الطيور جيداً للمسنا هذا القانون الفيزيائى بكل دقة.

غير أنّ هذه مسألة واحدة فقط من عشرات المسائل المهمّة فى الطيران، ومن أجل تصور أوسع له لابد من التطرق إلى الامور الآتية:

۱- السرعة الأولية لحصول القوّة الرافعة (فالطائرة تسير وقتاً طويلًا على الأرض للحصول على هذه السرعة، أمّا الطيور فقد تركض قليلًا أو بقفزةٍ سريعةٍ فى الهواء فتصل هذه الغاية!).

۲- كيفية التحكم بهذه القوّة أثناء الهبوط (وهذا الأمر يجرى فى الطيور والطائرة بتقليل السرعة وتغيير هيئة الجناح!).

۳- كيفية تغيير الاتجاه أثناء الطيران (ويتم هذا الأمر عن طريق الاستفادة من حركات مؤخرة الطائرة أو الريش الخاص فى قوافى الطيور التى تحدث حركات فى مختلف الاتجاهات وتسوق الطائر نحو أيِّ اتجاه).

۴- اتخاذ الشكل المناسب للطيران بالنحو الذى يجعل مقاومة الهواء على جسم الطائر تصل إلى الحد الأدنى (وهذا الأمر تمَّ تأمينه من خلال الهيكل المغزلى للطيور، والرأس البيضوى، والمنقار المدبَّب والحاد، وهيئة الطائرة تقليدٌ له!).

۵- أدوات التنسيق مع الطيران (وهذا المعنى متوفرٌ من خلال الريش الذى يسمح للطيور أنْ تسبح فى الهواء، ووضع البيوض بدلًا من الحمل، كى لا يصبح جسمها ثقيلًا، والعيون الحادّة حيث ترى الفريسة أو الصيد جيداً من مكان بعيد وأمثال ذلك).

۶- لقد كان العلماء ولمدةٍ من الزمن يلاحظون أنَّ عجلات الطائرات علاوة على تخفيفها لسرعتها فهى لا تخلو من الأخطار أثناء طيرانها، حتى شاهدوا الطيور تجمع أرجُلَها أثناء الطيران وتفتحها قبل الهبوط بقليل فادركوا أنّه يجب الاستفادة من العجلات المتحركة التى تُجمع بعد الارتفاع، وتُفتح قبيل الهبوط!.

ولا عجب فى إجراء العلماء لبحوث كثيرة ولسنواتٍ متماديةٍ على مختلف أنواع الطيور مهتمين بكيفية الطيران، والهبوط، وشكل الأجنحة والأذناب، وقاموا بِصناعةِ أنواع مختلفة

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۰۴

من الطائرات تقليداً لمختلف الطيور.

فهل يُمكن أن تكون الاسس الضرورية المذكورة فى الطيران وليدة للطبيعة العمياء والصّماء؟ أوَليسَ جملةُ: «مَا يُمسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ» إشارة دقيقة وجميلة إلى جميع تلك الاسس؟ لا سيما وأنّ المعنى يتم بعد جملة: «إِنَّهُ بِكُلِّ شَىءٍ بَصِيرٌ».

۲- «عجائب الطيور» و «الطيور العجيبة»

للطيور أنواع مختلفة وعجيبة، وبعضها أكثرُ عجباً، إذ يقول بعض العلماء: شوهد ۲۸۹ نوعاً من الحمام و ۲۰۹ نوع من الحجل و ۱۰۰ ألف نوع من الفراشة لحد الآن «۱».

ويمكن ذكر «الخفاش» مثلًا من بين الطيور العجيبة، فهو يضجر من ضوء الشمس على عكس سائر الطيور، ويطير فى ظلام الليل بكل

شجاعةٍ وجرأةٍ وبأىّ اتجاه شاء، وجسمه خالٍ من الريش تماماً واجنحتُه متشكلة من جلد رقيق، وهو لبونٌ ولودٌ، فيحيضُ، ويأكل اللحم، ويقالُ إنَّ الطيور تنصبُ له العداء، كما أنّه يعاديها أيضاًا! لهذا فهو يقضى حياته منعزلًا.

وحركته السريعة والجريئة فى ظلمة الليل من دون أن يصطدمَ بمانعٍ تبعث على الحيرةِ، فهو يَمر من خلال انحناءاتٍ والتواءاتٍ كثيرة بدون أن يضِّل طريقه، ويوفر طعامه بدقّة أينما كان مختفياً ومن دون خطأٍ، لامتلاكه لجهازٍ خفى يشبه «الرادار».

فهو يرى بأذنه «أَجَلْ بأذنه!» لأنَّ الأمواجَ الخاصَّة التى يصدرها من حنجرته ويرسلها إلى الخارج عبر أنفهِ ترتطمُ بكل ما يصادفها وتعود، وهو يلتقط الأمواج المنعكسة بأذنه، ويتحسسُ الوضعَ فى جميع الجهات فيتجنب العقبات.

إنَّ بناءَ حنجرته وانفهِ وأذنهِ عجيبٌ، دقيقٌ لا يوجد له مثيل فى أيٍّ من اللبائن.

والأمواج التى يرسلها إلى الخارج هى أمواج ما وراء الصوت، التى لا نستطيع سماعها، وفى كلِّ ثانيةٍ يرسل ۳۰- ۶۰ مرّة إلى كل الاتجاهات المحيطة به ويستلم ردّها.

---

(۱) يراجع كتاب أسرار حياة الحيوانات، ص ۱۴۲ إلى ۱۹۶.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۰۵

لقد اجروا بحوثاً كثيرة حول «الخفّاش» وأَلّفُوا مقالاتٍ عديدةً، تتشكل منها دروس حقة لمعرفة اللَّه.

ولهذا يتحدث أمير المؤمنين عليه السلام فى نهج البلاغة فى خطبةٍ معروفةٍ باسمِ «خطبة الخفّاش» عن هذا الحيوان، ويُبينُ مهارتَه ودقته فى بيانهِ العظيم والبليغ، حيث يقول:

«من لطائف صنعته، وعجائب خلقته، ما أرانا من غوامض الحكمة فى هذه الخفافيش ...» «۱»

ثم يضيف بصدده قائلًا:

«وقيل من الحيوانات من يحتضن صغاره، ويحمله تحت جناحه وربما قبض عليه بفيه وهو فى حنوه عليه واشفاقه عليه وربما ارضعت الانثى ولدها وهى طائرة ...» «۲».

ومن عجائب الخلق طائرٌ آخر يُسمى «الطاووس»، بريشه الجميل الذى تصيب الدهشة من يتمعن بألوانه، فكأنّما خرجَ لتوِّهِ من تحت يد رسّام ماهر ملیئاً بالألوان الخلابة الزاهية الشفّافة والجذّابة، مصففاً ريشه بمظلة عجيبة التى إذا رأيتها فسوف لن تغيب عن بالك، أنّ ذلك لآيةٌ اخرى من آيات خلقِ اللَّه.

لهذا أكَّد معلمُ التوحيد ومعرفة اللَّه، الإمام على عليه السلام فى احدى خطب نهج البلاغة «خطبة الطاووس» على هذا الأمر قائلًا:

«ومِنْ أَعجبِها خلقاً الطاووس الذى أَقامَهُ فى أَحكَمِ تعديلٍ، ونضّد ألوانه فى أحسن تنضيد بجناحٍ أشرج قَصَبَهُ وذنب أطال مَسْحَبَه إذا درج إلى الانثى نشره من طيّه وسما به مطلًا على رأسه كأنّه قلع دارى عنجة نوتيّةٌ يختال بألوانه ...» «۳».

و «الطيور المهاجرة» من أكثر أنواع الطيور إثارة للدهشة أيضاً، فهى تقطع أحياناً كل المسافة بين القطب الشمالى والقطب الجنوبى، ثم تعودُ إلى مكانها الأول، قاطعة سفراً طويلًا بعيداً قد يبلغ آلاف الأميال، والعجيب أنّها تستخدم فى هذه المسافة الشاسعة آلاتٍ

---

(۱) نهج البلاغة، الخطبة ۱۵۵.

(۲) سفينة البحار، ج ۱، ص ۴۰۳.

(۳) تراجع بقية هذا الحديث فى الخطبة ۱۶۵ من نهج البلاغة.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۰۶

خفية تستطيع بها تشخيص طريقها بين الجبال والغابات والصحارى والبحار.

والأعجب من كل هذا مواصلة طيرانها لعدّة أسابيع بدون توقف ليلًا ونهاراً دون الحاجة إلى غذاء، لأنّها تبدأ بالأكل قبل بداية سفرها- بدافع داخليّ-، أكثر من الحد اللازم، وتختزن هذه الأطعمة على هيئةِ دهون في جسمها، كي تكتسب الطاقة اللازمة لهذا الطيران الطويل المستمر.

فهل تستفيد من الجاذبية المغناطيسية للأرض من أجل تشخيص طريقها؟ أو من استقرار الشمس في السماء والنجوم أثناء الليل؟ وفي هذه الحالة يجب أن تكون هذه الطيور من الفلكيين المرموقين، أو تستفيد من طريقةٍ خفيَّة اخرى نجهلها لحد الآن؟

والأهم من ذلك أنّها تنام في السماء أحياناً وهي طائرةٌ وتواصل مسيرتها نحو هدفها! كما أنّها تتوقعُ التحولات في الجو قبل حصولها من خلال تنبؤ ذاتي، فتستعد للحركة.

لعلكم شاهدتم بأعينكم أنَّ الطيور المهاجرة تتحرك بشكلٍ جماعيٍّ وتُشكِّلُ نسقاً على هيئةِ رقم ۷، فهل هذا حدثَ صدفةً؟ لقد أثبتت بحوث العلماء أنَّ الطير عندما يحرِّك جَناحَيهُ في الهواء فهو يخفضه ممّا يسهل عملية تحريك جناح الطائر الذي يليه، لهذا فانَّ الطيور حينما تتحرك بالشكل أعلاه قليلًا ما تتعب، وتختزن كميةً لا بأس بها من طاقتها، فايُّ معلّمٍ اعطاها هذا الدرس الدقيق؟

۳- الطيور في خدمة الإنسان والبيئة

يقول أحد العلماء: إنَّ شقاءَ وقسوة الإنسان، وغفلته وجهله لا عدّ ولا حدود لها، فيجب أن يعلَم أنَّ قتلَ الطيور يكلفه خسارةً فادحةً، ويحرمُهُ عون ونصرة أعزِّ وأغلى الاصدقاء والرفاق في صراعه مع الحشرات الضارة.

فللإنسان طريقتان في مكافحته للحشرات الضارة: إحداهما الاسلوب البدائي وهو عبارة عن إبادة اليرقات في البساتين والمزارع وقتلها، والقضاء على الجراد وحشرة المنّ، عن طريق السموم، والاخرى الصراع العلمي عن طريق «البيولوجيا» بواسطة الفايروسات

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۰۷

والطفيليات الخاصة التي يتم تكثيرها لهذا الغرض.

إلّا أنّه يدفعُ ثمناً غالياً في هذين الاسلوبين من الصراع ويتحملَ المتاعب والمشقة، بينما لو ترك الطيور سالمةً، وقام بتكثير الطيور التي تقتل الحشرات كالبوم، وبعض الطيور التي تتغذى على الحشرات فستكون المكافحة أسهل وافضل (وارخص).

يقول عالمٌ يُدعى «ميشيل»: «لولا وجود الطيور ستصبح الأرض فريسةً للحشرات»، ويكتبُ آخرُ يُسمى «فابر» في تأييده: «لولا وجود الطيور سيقضى القحط على البشر»!.

وتحدِّثنا الاحصاءات، بأنْ لو حصلنا على حسابات دقيقة نسبياً عن معدل اليرقات والحشرات التي تستهلكها الطيور الصغيرة سنوياً في طعامها وطعام فراخها فستتضح هذه المسألة كثيراً.

فهنالك طيرٌ صغيرٌ يُدعى «رواتوله» يأكل سنوياً «ثلاثة ملايين» من هذه الحشرات المهاجمة! وهناك نوع من الطيور يُسمى «الطائر الازرق» يأكل سنوياً «ستة ملايين ونصف المليون» من الحشرات، ويستهلك «أربعاً وعشرين مليوناً» لاطعام فراخه التي لا تقل عادةً عن اثنى عشر أو ستة عشر فرخاً ...

والسنونو تطوى يومياً أكثر من ستمائة كيلو متر وتأكل «الملايين» من الذباب، وهناك طيرٌ يُدعى «تروغلوديت» يتغذى على «تسعة ملايين» حشرة منذ أن يخرج من البيضة وحتى طيرانه من العش! وغالباً ما يعتبر الناس أنَّ الغراب الاسود مضرٌ، ولكن لو ذبحتم أحد الغربان وتفحصتم حوصلته تجدونه مليئاً بنوعٍ من الديدان البيضاء «۱».

هذا جانبٌ من خدمات الطيور للمزارعين والبيئة، فافرضوا الآن لو أنّها تأخذُ نصيباً من محاصيلنا الغذائية الذي لا يساوي واحداً بالالف ممّا تستحقه من هدية! فهل يؤدّي بنا هذا إلى اعتبارها حيواناتٍ ضارةً ومؤذية؟

فَمَنْ أَوْدَعَ هذا التكليف لدى هذه الطيور بأن تتكفَّل بدورٍ مهم بموازنة القوى في عالم الحيوانات والحشرات التي لها فوائدها أيضاً.

(۱) نظرةٌ إلى الطبيعةِ وأسرارها، ص ۱۹۵- ص ۱۹۷ «مع الاختصار».

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۰۸

۴- دروس التوحيد فى وجود الطيور

يقول الإمام الصادق عليه السلام معلمُ التوحيد العظيم فى الحديث المشهور ب «المفضل»:

«تأمّل يا مفضل جسم الطائر وخلقته فإنه حين قدّر أن يكون طائراً فى الجو خفّف جسمه وادمج خلقه فأقتصر به من القوائم الأربع على اثنتين ومن الأصابع الخمس على أربع، ومن منفذين للزبل والبول على واحد يجمعهما ثم خلق ذا جؤجؤ محدد ليسهل عليه أن يخرق الهواء كيف ما أخذ فيه كما جعل السفينة بهذه الهيئة لتشق الماء وتنفذ فيه وجعل فى جناحيه وذنبه ريشات طوال متان لينهض بها للطيران وكُسىَ كله بالريش ليدخله الهواء فيقله، ولما قدّر أن يكون طعمه الحبّ واللحم يبلعه بلعاً بلا مضغ نقص من خلقه الأسنان وخلق له منقار صلب جاس يتناول به طعمه فلا ينسجح من لقط الحب ولا يتقصف من نهش اللحم، ولمّا عدم الاسنان وصار يزدرد الحبّ صحيحاً واللحم غريضاً اعين بفضل حرارة فى الجوف تطحن له الطعم طحنا يستغنى به عن المضغ؛ واعتبر ذلك بأنّ عجم العنب وغيره يخرج من أجواف الانس صحيحاً ويطحن فى أجواف الطير لا يرى له أثر ثم جعل ممّا يبيض بيضاً ولا يلد ولادةً لكيلا يثقل عن الطيران ...» «۱».

ثمَّ يشرحُ الإمام عليه السلام بعد ذلك، الامورَ المهمّة والدقيقة الاخرى حول الطيور حيث نُعرض عنها مراعاةً للاختصار.

(۱) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۱۰۳ وما بعدها.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۰۹

۱۸- آياتُه فى حياة النحل

تمهيد:

إنَّ حياة النحل من أكثر ظواهر الخلق دهشةً، وقد اكتشفت عجائبُ عن حياة هذه الحشرة الصغيرة من خلال بحوث العلماء، إذ يعتقد البعض أنَّ حضارتها وحياتها الاجتماعية أكثر تطوراً من حياة الإنسان، فانتم لا تعثرون على أى مجتمعٍ متطورٍ قد حلَّ مشكلة «البطالة» و «المجاعة» بشكلٍ كاملٍ، إلّاأنّ هذه المسألة حُلَّت تماماً فى عالم النحل (خلايا النحل)، فلا يُعثُر فى هذه المدينة على زنبورٍ عاطلٍ عن العمل أو زنبور جائعٍ أيضاً.

فبناء الخلية، وكيفية جمع رحيق الورود، وصناعة العسل وخزنهِ، وتربية الصغار واكتشاف المناطق المليئة بالأزهار، واعطاء عنوان السكن لباقى النحل، والعثور على الخليّةِ من بين مئات أو آلاف الخلايا كل ذلك دليلٌ على الذكاء الخارق لهذه الحشرة.

إلّا أنّ من المسلَّم به أنَّ الإنسان لم يكن يمتلك مثل هذه المعلومات عن النحل سابقاً، ولكن القرآن الكريم أشار فى السورة المسماة باسم هذه الحشرة «النَّحل» باشاراتٍ مليئةٍ بالمعانى إلى الحياة المعقَّدة والمدهشة لهذه الحشرة.

بهذا التمهيد نتأمل خاشعين فى الآيات الآتية:

۱- «وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلىَ النَّحْلِ أَن اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً ومِنَ الشَّجَرِ ومِمَّا يَعرِشُونَ». (النحل/ ۶۸)

۲- «ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمراتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرابٌ

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣١٠

مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيْهِ شَفاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِی ذَلِکَ لَآيةً لِّقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ». (النحل/ ٦٨- ٦٩)

شرح المفردات:

«النَحْل»: اسمُ زنبور العسل و «نِحلَة» (على وزن قِبلة) تعنی العطاء بلا عوض، ومفهومها محدودٌ أکثر من مفهوم الهبة، لأنَّ «الهبة» تشمل العطاء بعوض وبغير عوض بينما تشمل النحلة العطاء بلا عوض فقط، و «نحول» تعنی الضَعف، تشبيهاً بُهزالِ زنابير العَسَلِ، و «نواحل» تطلق على السيوف الحادة «الرفيعة».

وقد يُحتمل أنّ المنشأ الاصلی ل «نِحلة» يعنی العطاء، وإذا اطلقَ على زنبور العسل «نَحل» فلأنّه يصطحبُ معهُ عطاءً وهبةً حلوةً لعالم الإنسانية. «١»

و (أوْحی : من مادة «وحی» ولها معانٍ كثيرة وقد ذكرنا شرحها فی الجزء الأول من «نفحات القرآن» فی بحث «مصادر المعرفة»، وأصلها يعنی «الإشارة السريعة» وبالنظر إلى أنَّ أمر اللَّه تعالی فيما يتعلق بالنشاطات المختلفة والمعقّدة للنحل قريب الشبه من الإشارة السريعة أو الالهام القلبی فهذا المعنى استُخدمَ أيضاً فيما يخص النحل، لأنَّ جميع هذه الأعمال المعقّدة قد تُنجز من خلال إشارةٍ الهية سريعة.

لنزورَ بلاد النحل:

لقد استند القرآن الكريم فی آيات عديدة إلى جوانب مختلفة من حياة النحل حيث كلٌ منها اعجبُ من الآخر، فقد أشارَ أولًا إلى مسألة بناء بيوتها، قائلًا: «وَأَوْحَى رَبُّکَ الى النَّحْلِ أنِ اتَّخِذِی مِنَ الْجِبالِ بُيُوْتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ».

وقد يكون التعبير ب «اتَّخذی» بصيغة الفعل المؤنث إشارة إلى أنَّ النَّحلَ عندما يهاجر

---

(١) مفردات الراغب.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣١١

لاختيار بيتٍ جديدٍ فهو يسير خلف «الملكة» التی هی بمنزلة القائد فی الخليّة، وعليه فانَّ المتنفذ الحقيقی هی «الملكة».

والتعبير ب «أوحی تعبيرٌ جميلٌ حيث يبرهنُ على أنَّ اللَّه تعالی قد علَّمَ هذا الحيوان طراز بناء البيت الذی يُعدّ من أروع أعمال هذه الحشرة بواسطةِ الهامٍ خفيٍّ وسيأتی شرحه فی «التوضيحات» إن شاء اللَّه، وهی تقوم بانجاز واجباتها على أفضل وجهٍ وفقاً لهذا الوحی الإلهی، فقد تختار صخور الجبال، أو بطون الكهوف لبناء بيوتها، وتضع الخلية بين أغصان الأشجار أحياناً، وقد تستخدم الخلايا الاصطناعية التی يصنعها الإنسان لها على القصب، أو أنّها هی التی تقوم ببناء البيت على القصب.

إنَّ ألفاظ الآية تدللُ جيداً على أنَّ بناء البيت هذا ليس بناءً عادياً وإلّا لما عبَّر عنه القرآن بالوحی، وسنرى عاجلًا أنَّ الأمر هكذا.

وفی الآية الثانية توجَّه نحو صناعة عسل النحل مضيفاً: أنَّ اللَّه قد أوحى لها أن تأكل من جميع الثمار: «ثُمَّ كُلِی مِنْ کُلِّ الثَّمَراتِ» «واقطعی الطرق التی يَسَّرها وسخَّرها لكِ ربُّكِ لتكوين العسلِ الحلو»: «فَاسْلُكِی سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا».

«سُبُل»: جمع «سبيل» وتعنی «الطريق اليسير» «١»

.

وهنا: ما المقصود من هذه السُبُل فی الآية أعلاه؟ لقد أبدى المفسِّرون احتمالات مختلفة:

فقال بعضهم: المقصود هی الطرق التی يطويها النَّحلُ نحو الأزهار، والتعبير ب «ذُلُل» (جمع «ذلول» وتعنی التسليم والطاعة) «٢» يدللُ

على أنَّ هذه الطرقَ تُعيَّنُ بدقةٍ بحيث يكون ارتيادها سهلًا وعاديّاً للنحل؛ وتؤيدُ دراساتُ خبراء النحل هذا المعنى أيضاً، فهم يقولون:

(١) كما أوردها الراغب في المفردات.

(٢) من الممكن أن تكون «ذللًا» حالًا ل «سبل»، أو ل «النحل»، ويبدو أنَّ الاحتمال الأول اكثرُ صحةً.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣١٢

تخرجُ مجموعـةٌ من النحل مكلفـةٌ بتشـخيص مكان الأزهار صـباحاً، من الخلّيـةِ، وبعـد اكتشاف المناطق المليئة بالأزهار ترجع، وتعطى للباقين العنوان الكامل لذلك المكان بشـكلٍ سـرىٍّ ومدهش، وقد تشَـخِّصُ الطريق بوضـعها علاماتٍ عليه متكونة من موادٍ ذات رائحةٍ خاصةٍ، وبنحوٍ لا تضل أيّة نحلة باتباعها.

وقال بعضـهم الآخر أيضاً: إنّ المقصود هو طريق العودةِ إلى الخليـة، لأنَّ النحلَ قَـدَ يُجبَر على قطع مسافاتٍ طويلـةٍ، ولا يبتلى بالتيه عند عودته، فهو يتجه نحو الخليّة بدقةٍ، بل وأنّه يعثر على خليته بيُسرٍ من بين عشرات الخلايا المشابهة.

وقال آخرون: إنَّ «السُبُلَ» هنا لها معنىً مجازىٌّ فهى تشير إلى الاساليب التى يتبعها النحلُ لإعداد العسل من رحيق الأزهار، فهى تمتص رحيقَ الأزهـار بنحوٍ خـاصٍ ترسـله «حوصـلتها» وهنـاك حيث تكون كمختبرٍ للمواد الكيميائيـة يتبـدل إلى «عسلٍ» من خلال التغييرات والتطورات التى تجرى عليه، ثم يستخرجه الزنبور من حوصلته.

أجَلْ .. إنّه يعرف الاسلوب اللازم لاجراء هذا العمل جيداً، من خلالِ أمرٍ إلهىٍّ فيسلكُ هذا الطريق بدقّة.

ونظراً إلى أنّ هذه التفسيرات الثلاثة لا تتعارض فيما بينها وكون ظاهر الآية عاماً، فيمكن القول: بشـمول جميع هذه المفاهيم، إذ يقطع النحل هذه الطرق الملتوية والمنحنية بالاستفادة من الشعور الذى منحه اللَّه له، أو بالالهام الغريزى، ويستخدم هذه الأساليب بكل مهارةٍ واقتدار.

وفى المرحلةِ الآتية أشار إلى صفات «العسل» وفوائده وبركاته قائلًا: «يَخْرُجُ مِنْ بُطُوْنِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ».

وقـد حَمَل بعضـهم التعبير ب «بُطُوْنِ» (جمع بطن) على معنى مجازىٍّ وقالوا: إنّها تعنى الأفواه، وقالوا إنَّ العَسَل الـذى هو رحيق الأزهار مخزون فى فم النَّحل ثم ينتقل إلى الخليّة «١».

(١) تفسير مجمع البيان، ج ۶، ص ٣٧٢.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣١٣

بينما يعتقد بعضهم أنَّ العسل هو فضلات النحل!

ويعتبره بعضهم الآخر من المسائل الخفيّة التى لم تُكتشف لحد الآن «١».

ولكن بحوث العلماء برهنت على عدم صواب أىٍّ من هذه الآراء- كما أشرنا-، بل إنّ النحلَ يُرسلُ رحيق الأزهار إلى مكان خاصٍ فى جسمه يسمى «الحوصلة» وبعد أن يجرى عليه تغييرات وتطورات يقذفه خارجاً من فمه «٢».

والتعبير ب «بُطون» شاهدٌ على هذا المعنى واجلى منه التعبير ب «كُلى»، لأنَّ العربَ لا يقولون لحفظ الشيء فى الفم «أكل» أبداً، وحمل هذه الجملة على المجاز تفسيرٌ مجازىٌ لا ضرورة له.

وأمّا المقصود من «ألوان مختلفة» هنا فهى ذات تفاسـير متباينة أيضاً، فقد اعتبرها بعضـهم بمعنى هذا «اللون» الظاهرى الذى يتفاوت فيه العسـل فبعضـه أبيضٌ شـفاف، وبعضٌ أصـفر، والآـخر أحمر اللون، وبعضُـه يميـلُ إلى السـواد، ويمكن أن يكـون هـذا التبـاين مرتبطاً باختلاف أعمار النحل، أو مصادر الأزهار التى يتغذى عليها، أو كليهما.

وقـد احتمـلَ أيضاً أن يكون المقصود من هـذا التفاوت (نوعيـة) العسل، فبعضٌ غليظ، وبعض خفيف، أو أنّ عسلَ الأزهار المختلفـة له

آثار ومزايا مختلفة أيضاً، كما يختلف العسل العادى كثيراً عن «الشهد» (العسل الخاص الذى يُصنع لملكة الخليّة)، لأنَّ المشهور أنَّ ل «الشهد» قيمةً من الناحية الغذائية بحيث يزيد كثيراً فى عمر الملكة ولو تمَّكنَ الإنسان أن يتغذى عليها فإنّها تترك اثراً عميقاً فى طول عمره.

وفى بعض البلدان هناك حدائق من ورودٍ متشابهة حيث تُنصب فيها الخلايا الخاصة بالنحل، وبهذا تُستخلص أنواع مختلفة من العسل كلٌّ منها مستخرجٌ من زهرٍ خاص، ويتمكن الراغبون من شراء العسل من الورد الذى يرغبونه، وبهذا نواجه ألواناً مختلفةً من

---

(١) وفى تفسير القرطبى ينقل عن ارسطو أنّه صَنَع خليَّةً من الزجاج كى يرى كيفية صناعة العسل غير أنَّ النَّحلَ كان يُعتِّمُ الزجاجة لكى لا ينكشف السر حينما يريد مزاولة عمله (المصدر السابق ليرى .

(٢) تربية النحل، لمحمد مشيرى، ص ١١٣؛ وكتاب نظرة على الطبيعة وأسرارها، ص ١٢۶.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣١۴

العسل تدخل فى المفهوم الواسع والعام للآية.

والتعبير ب «شراب» جاء لأنَّ العرب لا يستخدمون لفظ «أكل» بخصوص العسل كما يقول بعض شّراح لغة العرب، ويُعبر عنه بالشرب دائماً (ولعلَّه بسبب أنَّ العسلَ فى تلك المناطق يكون خفيفاً) «١».

وفى الختام أشار إلى تأثير العسل فى العلاج قائلًا: «فِيْهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ».

والتعبير ب «شفاء» بصيغة النكرة، إشارةٌ إلى أهميّته الفائقة، وكما سيأتى فى التوضيحات إن شاء اللَّه، فللعسل الكثير من المزايا العلاجية الجاهزة التى تحتوى عليها الأزهار والنباتات الطبية الموجودة على الكرة الأرضية، وقد ذكر العلماء لا سيما فى هذا العصر خصائص عديدة له تشمل الجانب العلاجى وجانب الوقاية من الأمراض أيضاً.

فللعسل تأثيرات مذهلة فى علاج الكثير من الأمراض وهذا يعود إلى الفيتامينات والمواد الأساسية التى يحتويها، حيث يمكن القول: (إنَّ العسلَ يخدم الإنسان علاجياً وصحيّاً وجمالياً).

وفى نهاية الآية أشار إلى الجوانب الثلاثة الآنفة (بناء خلية النحل، طريقة جمع رحيق الأزهار وصناعة العسل، وخصائصه العلاجية) فيقول: «إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

وعليه ففى كل مراحل حياة النحل، واستخراج محصول هذه الحشرة الذكية والمثابرة، تظهر للعيان آيةٌ بل آياتٌ لعلمِ وقدرة الخالق جلَّ وعلا الذى ابتدعَ مثل هذه الظواهر المذهلة.

توضيحات

١- حضارة النَّحل العجيبة!

مع اتساع علم الحيوان وعلم الاحياء والدراسات المستفيضة للعلماء تم اكتشاف

---

(١) تفسير روح المعانى، ج ١۴، ص ١۶٨.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣١۵

مسائل عجيبة وحديثة عن حياة هذه الحشرة الصغيرة أذهلت الإنسان بشدة، ولا يُصدَّق أبداً بأنْ يسودَ حياة النحل مثل هذا النظام والتدبير والتخطيط بلا أيِّ احساسٍ طبيعيٍّ.

يقول أحد العلماء المختصين بعلم الاحياء ويدعى «مترلينغ» الذى كانت له دراسات كثيرة على مدى سنوات طويلة حول حياة النحل، والنظام العجيب الذى يحكم ممالكها يقول: «إنَّ الملكة فى مدينة النحل ليست هى الزعيم كما نتصورها، بل هى كسائر أفراد هذه المدينة تخضع لسلسلةٍ من القوانين والأنظمة العامة أيضاً».

ثم يضيف: «نحن لا ـ نعرف مصدر هذه القوانين وبأيّة طريقةٍ توضعُ، ونحن ننتظر اليوم الذى نتوصل فيه إلى معرفة واضع هذه المقررات، إلّاأننا نطلقُ عليه حالياً اسم «روح الخليّة»، ولا ندرى أين تكمنُ «روح الخليّة» وفى أىٍّ من سكان الخلية حلّت، إلّاأننا نعرف أنَّ الملكةَ كالآخرين تطيعُ روح الخلية أيضاً»!.

«إنّ روحَ الخليّةِ لا تشبه غريزة الطيور، ولا تعمل بآليةٍ وإرادةٍ عمياء، فهى تشخصُ تكليفَ كلِّ واحدٍ من سكان هذه المدينة العملاقة حسب قابليته وتعطى لكلٍّ منها واجباً، فقد تأمُر مجموعةً ببناء البيت، وأحياناً تُصدر أمرَ الرحيل والهجرة»

«والخلاصة إننا لا نستطيع إدراك أنَّ قوانين مملكة النحل التى توضع من قبل روح الخليّة هل ستطرح فى «مجلس شورى ويُصادقُ عليها ويتخذُ القرار بتنفيذها؟، ومَنْ الذى يُصدرُ أمرَ الحركةِ فى اليوم المحدَّد»؟! «۱»

إلّا أنَّ القرآن الكريم أعطى جواباً لجميع هذه التساؤلات بتعبيرٍ جميلٍ ودقيقٍ جدّاً إذ يقول: «وَأَوْحى رَبُّكَ الَى النَّحْلِ»!

وهو نفس التعبير الذى ذكَرَهُ بخصوص الأنبياء (عليهم السلام)، صحيحٌ أنَّ هذا الوحى يختلف عن ذلك الوحى كثيراً، إلّاأنّ تناسقَ التعبير دليلٌ على أهميّة العلم الذى أودعه اللَّه لدى النَّحل، كى يدعو مفكّرى العالم إلى دراسة أوضاعها.

فمن المسلَّم به أنَّ بناء خلية النحل يجرى بالهامٍ الهىٍّ، لأنَّها تبنى تشكيلات سداسيّة

---

(۱) كتاب النحل، تأليف مترلينغ، ص ۳۵ و ۳۶ مع الاختصار.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۱۶

منظمة واسعة من كمية قليلةٍ من الشمع (حيث يمكن استغلال جميع زواياه ويكون مقاوماً أمام الضغط أيضاً) وتتكون بيوتها من طبقتين، وعندما تبنى بيتاً فى الجبال أو على الأشجار فهى تقتصر على هاتين الطبقتين إلّاأنّها تضيفُ طبقتين اخريين فى الخلايا الاصطناعية وبما يمكن استيعابه منها.

ويتخذ قعر البيت شكلًا هرمياً حيث يتألف من ثلاثة سطوح لوزية الشكل ويغور الرأسُ والأجزاء البارزة بكل طبقةٍ فى قعر الطبقة السفلى

وقد أثبتت التجارب أنّه لو كان سطح الشمع مربع الشكل أو باى شكل آخر وصُبَّ فى قوالب اصطناعية ووُضعَ النحل فى داخله فسوف لا يرتضى مثل تلك الجدران غير المطابقة للمواصفات، بل يرفع الجدران إلى الأعلى ويعيدها إلى وضعها الصحيح.

لقد قاسَ أحد العلماء، قعر بيت النحل، فكانت زاويته الكبيرة تُقدرَّ ب ۱۰۹ درجة و ۲۸ دقيقة، ثم طرحت هذه المسألة على مهندسٍ المانى كبيرٍ يُدعى «كنيك» كسؤالٍ عامٍ بأن لو أراد إنسان بناءَ هرمٍ بأقلِ كميةٍ من مواد البناء وباكبر ظرفية بحيث يتشكل من ثلاثة سطوحٍ لوزية فما مقدار زواياه؟.

فقام بحلِّ هذه المسألة المعقدة بالاستعانة بحساب «ديفرانسيل» وكتب فى الجواب، مائة وتسعة درجات وستة وعشرين دقيقة بدونِ علمٍ منه بأنَّ هذا يرتبط ببيت النَّحل ومتفاوت معه بدقيقتين فقط.

ثم تلاهُ مهندسٌ آخر يُدعى «ماغ لورن» فاجرى حساباتٍ دقيقةً وتأكّدَ بأنَّ تلك الدقيقتين كانتا نتيجة لاهمال المهندس الأول، والجواب الصحيح كما فى عمل النحل»! «۱»

ينقل العالم البلجيكى المعروف «متر لينغ» فى كتاب «النحل» عن أحد العلماء ويُدعى «رأيت» ما يلى: لدينا ثلاثة طرق علمية فقط فى الهندسة لتقسيم الفواصل المنظمة وربطها وتكوين الأشكال الكبيرة والصغيرة، وهذه الطرق الثلاثة عبارة عن (المثلث القائم الزوايا) و

(المربّع) و (المسدَّس) وتستخدم الطريقة الثالثة أى «المسدَّس» فى بناء غرف النحل،

---

(١) تفسير روح الجنان هامش المرحوم الشعرانى، ج ٧، ص ١٢٣ «مع شىء من الاختصار».

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣١٧

وهذا الشكل أكثر ملاءمةً لاستحكام البناء (لأننا لو دققنا قليلًا نجد أنَّ الشكل السداسى يشبه الأقواس من جميع الجهات حيث يمتلك الحد الأقصى لمقاومة الضغط، بينما تتضرر المثلثات والمربعات أمام الضغط كثيراً).

بالإضافة إلى أنَّ جسمَ النحل اسطوانى الشكل تقريباً ويتلاءم كثيراً مع الخروج والدخول فى مثل هذه البيوت.

على أيِّةِ حالٍ، كلَّما تحققّنا بخصوص ما أشار إليه القرآن الكريم فى مسألة بناء بيت النّحل نحصل على مسائل عجيبةٍ جديدة، تجعلنا نعظم خالق ومبدع ومرّبى هذه الحشرة العجيبة.

٢- جمع رحيق الأزهار وصناعة العسل

الأمر الثانى الذى استند إليه القرآن هو جمع العسل من رحيق الأزهار، وهو من المسائل المدهشة والمحيّرة حقاً.

يقول بعض العلماء: يجب أن تسافر ٥٠ الف نحلة من أجل إعداد كيلو غرام واحد من العسل!.

وتؤكد حسابات العلماء أيضاً أنّه من أجل اعداد كيلو غرام واحد من الرحيق يجب أن يَمتصَ النحل سبعة آلاف وخمسمائة زهرةٍ كمعدلٍ ويستخرج رحيقها (وطبقاً لهذه المعادلة يجب امتصاص ۵، ٧ مليون زهرةٍ لاعداد كيلو غرام واحد من العسل!) «١».

ولابدّ أن نعلمَ أيضاً أنَّ النَّحلَ يسافر يومياً حوالى ١٧- ٢۴ مرّة من أجل جمع رحيق الأزهار.

ولا عجب أن نعلم أنّ النَحْلَ لم يَذق طعمَ الراحةِ طول عمره، وأنّه لا يرى النومَ أبداً، فهو يقظٌ طول عمره! «٢».

---

(١) تربية النحل، ص ١١٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١١۵.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣١٨

ومن أجل أن ندرك العَمَلَ المرهق لهذه الحشرة الكادحة يجب أن نقول انَّهُ يتعين على النحل أن يسافر ٨٠ ألف مرّة ذهاباً واياباً على الاقل من أجل كل اربعمائة غرام من العسل الذى يَحصل عليه، ولو ربطنا هذا الذهاب والاياب معاً وقدَّرنا مسافةَ كلِّ مرةٍ (كمعدل) بكيلو مترٍ واحدٍ، ستكون المسافة التى يقطعها النحل من أجل الحصول على اربعمائة غرام من العسل تعادل ضعفَ محيط الكرة الأرضية، أى أنَّ هذه الحشرة الكادحة تقطع مسافةً ما يعادل ضعف محيط الكرة الأرضية من أجل جمع شرابٍ يُصنعُ من اربعمائة غرام من العسل! «١».

ومن الضرورى الانتباه إلى هذه النكتة وهى أنَّ معظمَ الأزهار لا تمتلك الرحيق باستمرار كى يستطيع النحل امتصاصه، بل إنّها تقدّمُ رحيقها مرةً واحدةً فى اليوم وفى ساعاتٍ معينةٍ تتبع نوع الزهرة، فبعض الأزهار تعطى رحيقها صباحاً، وبعضها ظهراً، وبعضها الآخر بعد الظهر، والعجيب أنّ النَّحلَ يعرف هذه البرامج جيداً فيتوجه نحو الأزهار وفقاً لها تماماً فلا يذهب وقته هدراً! «٢».

و حريٌّ بالإنسان أن يخجلَ عندما يشاهد هذه الأرقام والاعداد فى مجال جمع العسل وعدد مرات الطيران وعدد الأزهار المستهلكة من أجل غرام واحدٍ من هذه المادة الغذائية المهمّة، ولكن لو فكَّر بامعان فى نفس الوقت بعظمة خالقِ هذه الحشرة الكادحة وتَحقَّقَ بعلمه وقدرته لخضع امامه مؤدياً شكر هذه النعمة، ويُمكن أن يكون كل ذلك مقدمةً لهذه الغاية السامية.

والنكتة الاخيرة التى يجب أن نذكرها ونغلقَ هذا الملف الكبير قبل أن نخرج عن مضمون البحث التفسيرى، هى أنَّ النحل علاوةً على

امتصاصه للرحيق فهو مكلَّفٌ بجمع «الحبوب الصفراء» للأزهار المسماة «بولن» ومزجها مع العسل.

ولهذه الحبوب آثار حياتية فائقة، فهى تحتوى على ۲۱ نوعاً من حامض الامونيك

---

(۱) عالم الحشرات وفقاً لنقل عجائب الخلق، ص ۱۴۳.

(۲) الحواس الخفية للحيوانات تأليف فيتوس دروشر، ص ۱۵۷ (مع الاختصار).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۱۹

وأنواع الزيوت، وهورمونات النمو، والسكَّر، والانزيمات، كما تستخدم عصارة الحبوب تلك فى معالجة الالتهابات والاورام المزمنة التى تعجز المضادات الحيوية عن علاجها، كما أنّ لها آثاراً منشّطة أيضاً «۱».

وللأرجل الخلفية للنحل نتوءات كأسنان المشط يثير بها غبار الأزهار، ويصنع منه ذرات كروية، وهنالك أيضاً إلى جانب تلك النتوءات ما يشبه «السلّة» وآخر يشبه «الملقط» حيث يجمع ذرات غبار الورد هناك ويحفظها، وحينما يعود إلى الخليَّة يجلب معه بالاضافة إلى رحيق الأزهار كرتين صفراوين كانتاج لعملهِ اليومى «۲».

۳- العسل غذاءٌ مفيدٌ ودواءٌ شافٍ

لقد تحدثَ القرآن الكريم فى الجزء الثالث من الآيات المذكورة عن مسألة التأثير المهم للعسل فى شفاء المرضى بتعبير مختصر وغامض ويتم فى هذا العصر كشف النقاب عن أسراره من خلال دراسات المختصين بعلم الغذاء، إذ يذكر هؤلاء مزايا وآثاراً لا تُحصى للعسلِ تبعث على دهشة الإنسان.

فهم يقولون: إنَّ العسلَ مادةٌ لا تفسد أبداً وتبقى صالحةً لآلاف السنين فيما إذا كان صافياً، لأنّ اى مكروب لا يمكنه أن يعيش فيه أبداً «۳».

وقد عُثرَ فى قبور الفراعنةِ على ظروفٍ من العسل تعود إلى آلاف خلت من السنين، وقد بقى هذا العسل صالحاً وطبيعياً بشكل كامل، وهذا بحد ذاته دليلٌ على صدق الادعاء أعلاه.

العسل ونظراً لأنّه يُستخرج من رحيق الأزهار المختلفة (ونحن نعلم أنّ كل نوع من

---

(۱) الجامعة الاولى ج ۵، ص ۵۷ إلى ۵۹ (مع الاختصار).

(۲) نظرة على الطبيعة وأسرارها، ص ۱۲۷.

(۳) مجلة السلامة.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۲۰

الأزهار يحتوى على مواصفات علاجية خاصة) فيمكن أنْ يحمل معه صفات هذه الأزهار.

يقول العلماء: يعتبرُ العسلُ مادةً حيَّةً بسبب احتوائه على الفيتامينات و «الانزيمات» و «حامض الفورميك» فهو يحتوى على الفيتامينات: أ، ب، ث، د، ك، آى، ومواد معدنية كالبوتاسيوم، والحديد، والفسفور، و «الرصاص» و «المنغنيز» و «الالمنيوم» و «النحاس» و «الكبريت» و «الصوديوم» ومواد اخرى متفرقة، وكذلك يحتوى على مختلف الحوامض «۱».

ونحن نعلمُ أنَّ لكلٍّ من هذه المواد الحياتية دوراً اساساً فى حياة الإنسان، ولهذا فانَّ العسلَ يحتوى على المواصفات الآتية:

يؤثر العسل فى تركيب الدم.

للعسل أثرٌ جيدٌ فى ازالة التعب وتقلص العضلات.

يحدُّ العسل من حدوث الالتهابات فى المعدة والامعاء.

ويؤدّى إلى أن يتمتع الوليدُ بجهازٍ عصبىٍّ متينٍ إذا ما تناولته المرأة الحامل.

والعسلُ مفيدٌ لمن لديهم جهاز هضمى ضعيف.

ويعتبر العسلُ مُرَمِّماً قوياً.

ويؤثر فى تقوية القلب.

ويولدُ العسلُ طاقةً لا بأس بها لدى المسنّين.

ينفع لعلاج قرحة المعدة والاثنى عشرى.

ويفيدُ العسلُ لعلاج مرض الربو «ضيق التنفس».

ويعتبر عاملًا مساعداً فى علاج الأمراض الرئوية.

ويعتبر دواء لعلاج مرض الروماتيزم، وضعف نمو العضلات، والمتاعب العصبية.

ويعدّ العسلُ مفيداً للمصابين بالاسهال نظراً لميزته فى قتل الجراثيم.

---

(١) الجامعة الاولى ج ۵، ص ۱۲۹ (مع شىء من الاختصار).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۲۱

وتُصنعُ منه ادويةٌ تؤثرُ فى نعومةِ وجمال الجلد وازالة الحروق والتجعدات.

ويُصنع من العسل دواءٌ يعالج ورمَ الفم ويُعطرُ التنفس.

ويستثمر العسل أيضاً فى معالجة ذبول الجلد، والتشققات، والحروق، والرَّمد، واللدغات المؤلمة للحيوانات، وورم العين، والسعال.

وقد قام بعض العلماء بصناعةِ اقراصٍ من رحيق الأزهار تحتوى على مواصفاتٍ تشبه مواصفات العسل واهم آثارها مضاعفة طاقة الشباب وتنشيط الخلايا ومن ثمّ يؤدّى إلى الراحة وطول العمر «١».

ولهذا فقد عُرِف أنَّ «فيثا غورس» كان يوصى طُلّابَه «كلوا العَسَلَ والخبز ما استطعتم» وكان «بقراط» يقول: «لو أردتم عمراً طويلًا فعليكم بالعسل».

إنَّ الآثار المنشّطة والخواص العلاجية والترميمية للعسل أكثر ممّا تمّ بحثه فى هذا المختصر، حتى دوَّنَ بعضُ العلماءِ كُتباً مستقلةً حول الميزات الغذائية والعلاجية للعسل.

وقد جمع القرآن الكريم كل هذه المطالب فى جملة: «فِيهِ شَفَاءٌ لِلنّاسِ» بشكل دقيق.

ولا عجب إن كانت لدغة النحل والسم الموجود فيها علاجاً للكثير من الأمراض أيضاً، كالروماتيزم، والملاريا، وتضخم الغدة الدرقية، وألم الأعصاب، وبعض أمراض العين، وغيرها، ويجب أن يكون التداوى بوخز النحل حسبَ برنامجٍ خاصٍ وبإشراف الطبيب، فمثلًا فى اليوم الأول مرّة واحدة، وفى الثانى اثنتان، وحتى اليوم العاشر يستفاد من عشرة زنابير، وتلك هى المرحلةُ الاولى من العلاج، وأما فى المراحل الثانية فيتخذ العلاج شكلًا آخر، وإذا تجاوز وخزُ النحل الحدَّ المعينَّ فمن الممكن طبعاً أنْ تتمخض عنه أخطارٌ، كما أنّ قليلُهُ مضر بالأشخاص الذين لديهم حساسية اتجاهه.

لقد كتبَ بعضُ العلماء مقالةً أو مقالاتٍ بهذا الخصوص، واختار بعضهم رسالته للدكتوراه تحت عنوان «مستخرجات سمِّ النحل وخواصها العلاجية» «٢».

---

(١) الجامعة الاولى ج ۵، ص ۲۱۲- ۲۹۰، نشرة الطب والدواء وكتب اخرى

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٤.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٢٢

٤- خدماتٌ اخرى للنحل أَثمنْ من العسل!

إنَّ حياة النحل مليئةٌ بالعجائب والاحداث، وما تحدثنا عنه لحد الآن كان جانباً منها، فقصة بناء الشمع- تلك المادة التى يُشيد منها بيت النحل بشكلٍ كامل- بحد ذاتها قصةٌ مفصَّلة، والعجيب أنّها لا تستثمر هذا الشمع لبناء البيت فقط، فقد تقوم بتحنيط اجساد الحشرات المؤذية التى لا تستطيع دفعها إلى الخارج كى تأمنَ شرَّها!.

يقول أحد خبراء النحل: أنّه لفت انتباهه فى أحد الأيّام وجود كرة كبيرة نسبياً داخل خلية نحل، وعندما فتحها وجد فيها جثة جرادةٍ حنَّطها النحل.

وقال بعضهم عن الشمع، أنّه روح العسل والعسل روح الزهر وهو خفيف، بحيث إنّ وزن خمسمائة بيت من مدينة النحل لا يتجاوز بضعة غرامات، ولا شكَّ فى صعوبة معرفتنا بكيفية ترشح هذا الشمع بالنسبة للنحل، غير أننا نعرف جيداً أنَّ للشمع استعمالًا هاماً.

وعملية تلقيح وحمل الأزهار، من أهم أعمال النحل.

يقول أحد العلماء: «لولا وجود الحشرات، لخلت سلالُنا من الفاكهة، لأنَّ الحشرات التى تستفيد من الأزهار يمكن أن تلقحها افضلَ من بقية عوامل نقل حبوب اللقاح، فعندما تمدُ احدى الحشرات التى تعشقُ الأزهار خرطومَها فى الزهرة، فهى إمّا أنْ تُدخلَ اغلبَهُ، أو أنْ تُدخلَ جزءاً من جسمها فى الزهرة كما يحدث غالباً، وفى خروجها يتغطى جسمُها بالغبار ذى اللون الأصفر وهو غبار الورد، فتنقله مباشرة إلى زهرةٍ اخرى وكما نعلم- أن غبار الأزهار عاملٌ مؤثرٌ فلا تتبدل البذور إلى حبوب، ولا المبيض إلى ثمار بدونه.

وهذه النكتة جديرةٌ بالاهتمام من الناحية الفلسفية إذ إنَّ الحشرات التى تعشق الأزهار تميل إليها منذ بدء التكوين ... كلٌّ منها بموازاة الاخرى ينمو ويتكامل، وقد وصل الحال بها اليوم إلى عدم قدرتها على الحياة منفصلة عن بعضها ... ومن أهم الحشرات التى تعشقُ الأزهار- ولابدّ أنّكم تعرفونها- هى: الفراشة، والنحل، والزنبور الذهبى و ... لكن النحل أكثرُ استعداداً وتجهيزاً من بين هذه الحشرات لاخراج الغبار والرحيق من الأزهار» «١».

---

(١) نظرة على الطبيعة وأسرارها، ص ١٢۶.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٢٣

ومن الضرورى الانتباه إلى أنّ الأشجار التى تحتوى على الأزهار الذكرية والانثوية صنفان: الأشجار العقيمة غير المثمرة، والأشجار المثمرة التى لها القدرة على ذلك.

ومن أجل تكون الثمار فى الصنف الأول لابد من وجود واسطةٍ للتلقيح، وهذه الواسطة عبارة عن النحل، وقد ثَبُتَ أنّ ٨٠ خ من عملية تلقيح الأزهار يجرى عن طريق النحل، ومن أجل المزيد من الاطلاع على دور النحل يجب الانتباه إلى أنّ جميع أنواع التفاح، والاجاص، والكرز، واللوز وأمثالها تعتبر من الأشجار العقيمة!

وقد واجهت المساعى التى بُذلت بصدد إجراء التلقيح بالطرق الكيميائية والميكانيكية والاصطناعية فشلًا ذريعاً، ومن هنا يتضح دور النحل «١».

ويضيف العلماء: «إنَّ النحل يساعدنا بكلفة لا تقل عن مائتى الف درهم فى الزراعة مقابل كل الف درهم من العسل والشمع الذى يصنعه لنا»! «٢».

ونختم هذا الحديث بجملةٍ عجيبةٍ عن «متر لينغ» استاذ علم البيئة، بقوله: «لو هلك النحل (سواء الوحشى منه أو الأليف)، فسيَفنى مائةُ

الفِ نوع من النباتات والأزهار والثمار وما يدريك بأنْ لا تزول حضارتنا أصلًا»!! «٣».

٥- البناء الجسمى للنحل عجيبٌ أيضاً!

إنَّ تركيب النحل ذاته ذو قصةٍ طويلةٍ ومدهشةٍ وعيونها بالذات اكثرُ عجباً إذ يقول العلماء: تتألف عيون النحل من الفين وخمسمائة طبقة صغيرة! تُشكِّل مع بعضها زاوية من ٢- ٣ درجة، وهذه العيون قادرةٌ على تعيين موقع الشمس فيما إذا حجبتها الغيوم، عن طريق الأشعة فوق البنفسجية التى تؤثر فيها.

---

(١) تربية النحل، ص ٢٣٣ و ٢٣٤ «مع الاختصار».

(٢) اقتباس عن عالم الحشرات.

(٣) الجامعة الاولى ج ۵، ص ۵۵.

لغة النحل وتشاورها مع بعضها تعد من الحقائق العلمية التى تم اكتشافها فى السنوات الأخيرة أيضاً «١».

إنَّ النحلَ لا يرى الأزهار الملّونة بشكلها ولونها الذى نراه، بل إنّه يرى بواسطة الاشعة فوق البنفسجية، وهذا النور يضاعف فى جمال الأزهار فيجذبها نحوها «٢».

وللأسف فانَّ طبيعة البحث لا تسمح لنا بمزيد من الكلام فى هذا المضمار، ولكن يجب القول بأنّه كلّما سَمِعنا عن هذه الحشرة ونشاطاتها التى أشار إليها القرآن الكريم تتكشفُ لنا أسرارٌ جديدة عن قدرة الإله العظيم خالقِ كلِّ هذه العجائب.

و «مسك الختام» نُيممُ باسماعنا وقلوبنا صوب كلام الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول فى توحيد «المفضّل»:

«انظر إلى النحل واحتشاده فى صنعة العسل، وتهيئة البيوت المسدسة وما ترى فى ذلك اجتماعه من دقائق الفطنة فانك إذا تأملت العمل رأيته عجيباً لطيفاً وإذا رأيت المعمول وجدته عظيماً شريفا موقعه من الناس، وإذا رجعت إلى الفاعل الفيته غبياً جاهلًا بنفسه فضلًا عما سوى ذلك، ففى هذا أوضح الدلالة على أنّ الصواب والحكمة فى هذه الصنعة ليس للنحل بل هى للذى طبعه عليها وسّخره فيها لمصلحة الناس ...» «٣».

---

(١) الحواس الغامضة للحيوانات، ص ١٣٧ و ١۴٠ و ١۴٣.

(٢) سرُّ خلق الإنسان، ص ٩٣.

(٣) بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٠٨.

١٩- آياته فى خلق الحيوانات

تمهيد:

إنَّ الحيوانات تُمثل جانباً عظيماً من الموجودات الحيَّة فى العالم، وهى تجلب اهتمامَ كلِّ ناظرٍ إليها لتراكيبها المختلفة واشكالها المتنوعة وتباينها الكثير، وعجائبها العظيمة، ودراسة كلٍّ منها، تُعرِّفُ الإنسان على العلم والقدرة اللامتناهية لخالقها.

وتتجلّى أهميّة هذه المسألة عندما نرى هذه الحيوانات فى مكانٍ واحدٍ، فمثلًا لو ذهبنا إلى حديقة الحيوانات، وزرنا غرفَ الأسماك

وأنواع الطيور، والقردة، والاسد والفهد والنَّمر و الزّرافة والفيل، وننظرَ عادات وعجائب خلقِ كلٍّ منها، فلا يمكن لمن يمتلك قليلًا من العقل والفطنة، أن لا يغرق بتفكيره بها، ولا يُذعن أمام خالق هذه الموجودات المتنوعة والعجيبة.

ومن بين هذه الحيوانات، هنالك حيوانات أليفة تخدم الإنسان وذات منافعَ وبركات مختلفة للبشر، جديرةٌ بالاهتمام أكثر من غيرها، لهذا فقد استند القرآن الكريم في آياته التوحيدية إلى جميع الدواب بشكلٍ عام وإلى الأنعام والبهائم بشكل خاص، وذكرَ جوانبَ من عجائبها في آياتٍ عديدة.

بهذا التمهيد نُمعن خاشعين في الآيات الآتية:

١- «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيْهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلىَ جَمْعِهِمْ اذَا يَشَاءُ قَدِيْرٌ». (الشورى ٢٩)

٢- «إنَّ فِي السَّمواتِ وَالأَرْضِ لَآياتٍ لِّلْمُؤْمِنْينَ* وَفي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ

آياتٌ لِّقَوم يُوْقِنُونَ». (الجاثية/ ٣- ۴)

٣- «أَفَلَا يَنْظُرُونَ الىَ الِابِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ». (الغاشية ١٧)

۴- «وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيْكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيْهَا مَنَافِعُ كَثِيْرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ* وَعَلَيْهَا وَعَلىَ الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ». (المؤمنون/ ٢١- ٢٢)

۵- «وَانَّ لَكُمْ فِي الأَنْعام لَعِبْرَةً نُّسْقِيْكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خالِصاً سَائِغاً لِّلشَّارِبِيْنَ». (النحل/ ۶۶)

۶- «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ بُيُوْتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ جُلُودِ الأَنْعامِ بُيُوْتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَومَ ظَعْنِكُمْ وَيَومَ إِقامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوافِهَا وَأَوبَارِهَا وَاشْعارِهَا أَثَاثاً وَمَتاعَاً إِلىَ حِيْنٍ». (النحل/ ٨٠)

٧- «وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوابِّ وَالأَنْعام مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذَلِكَ انَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلماءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيْزٌ غَفُوْرٌ». (فاطر/ ٢٨)

٨- «أَوَلَمْ يَرَوا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيْنَا انْعَامَاً فَهُمْ لَهَا مالِكُونَ* وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ* وَلَهُمْ فِيْهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ افَلا يَشْكُرُونَ».

(يس/ ٧١- ٧٣)

٩- «وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعامِ مَا تَرْكَبُوْنَ* لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ اذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِيْنَ». (الزخرف/ ١٢- ١٣)

١٠- «اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ* وَلَكُمْ فِيْهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُوْرِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلىَ الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ* ويُرِيْكُمْ آياتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ» (١)

. (غافر/ ٧٩- ٨١)

---

(١) هنالك آيات اخرى في هذا المجال أيضاً مثل: الشعراء، ٣٣؛ والانعام، ١۴٢؛ والزمر، ۶؛ والزخرف، ١١.

شرح المفردات:

«دابّة»: كما قلنا سابقاً من مادة «دبيب» أي السير ببطءٍ وهدوء، إلّاأنّها تُطلقُ عادةً على جميع الحيوانات، وعلى المذكر والمؤنث والموجودات التي تَدُبُّ على الأرض وحتى طيور السماء، وجمعها «دوابّ» وتعني البهائم.

وقد تستعملُ أحياناً بصدد نفوذ وحلول شيءٍ في موجودٍ آخر، فيقال مثلًا: دبَّ الشرابُ في الجسم ودبَّ السُّقمُ في البدن.

وهذا المفهوم يشملُ حتى الإنسان، وموارد استعماله فى القرآن الكريم تشهدُ على ذلك «١».

«انعام»: جمع «نَعَم» (على وزن قَلَم) وهى ماخوذة فى الأصل من مادة «نعمـة» ثم اطلقت على «الجَمَلْ»، لأنَّ الجَمَلَ كان من أفضل النعَمِ لدى العرب، ويُطلقُ هذا اللفظ على الدواب الاخرى كالبقر والماشية بشرط أنْ يكون الجملُ جزءاً منها «٢».

وصرَّحَ رهطٌ من ارباب اللغة أنَّ «النِّعَم» ذات معنىً جمعى ولا مفرد لَها، و «انعام» جمع الجمع «٣».

يقول «ابن منظور» فى «لسـان العرب»: إنَّ «النَّعَم» تعنى الحيوان المجـتر، ثم ينقـل عن آخرين أنّ «النَّعم» تُقـالُ بخصوص الجَمـل، وعن بعضهم الآخر أنّها تُطلقُ على الجمال والماشية.

وسُـميت «النَّعامةُ» بهذا الاسم لأنّها تشبه «البعير» كثيراً لضخامة جسمها، ولذلكاطلقت على ظلال الجبال وغيرها، أو الاعلام التى تُثبتُ فى الصحارى لتحديد الطريق.

على أيّةِ حـال .. مهمـا كـان المعنى الأول للفـظ «انعـام» فهـو يطلـقُفى الاسـتعمالات العاديـة على الحيوانـات المجـترّة (البقر والأغنـام والجِمال).

---

(١) لسان العرب، مفردات الراغب، ومجمع البحرين مادة (دبّ).

(٢) مفردات الراغب.

(٣) مجمع البحرين، وأقرب الموارد.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٢٨

جمع الآيات وتفسيرها

ماذا يجرى فى عالم الحيوانات؟

بعـد الإشارة فى الآية الاولى والثانية إلى آيات اللَّهِ فى خلق السـماوات والأرض، وكذلك خلق الإنسان أشار إلى خلق كافة الحيوانات الموجودة فى السماوات والأرض، قائلًا «ومِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّمَواتِ والأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيْهِمَا مِنْ دابَّةٍ».

«بَثَّ»: تعنى فى الأصل تفريق الشـىء كما يُفرّق الهواء الاتربـة، وهـذا التعبير فى الآيـة يعنى تكوين وخلق وابراز الموجودات المختلفة، ونشرها فى مختلف المناطق.

على أيّة حال .. فإنَّ هـذا التعبير يشـملُ جميع البهائم والحيوانات والإنسان، ابتداءً من الموجودات المجهرية التى تتحرك حركةً دقيقةً وخفيَّةً وحتى الحيوانات العملاقة التى يبلغ طولها عشرات الامتار وقد تزن أكثر من مائة طن «١» ويضم كلَّ أنواع الطيور ومئات الآلاف من أنواع الحشـرات المختلفـة، وآلاـف الآلاـف من أنواع الحيوانـات الوحشـية والأليفـة والحيوانـات المفترسـة والزواحف والأسـماك الصغيرة والكبيرة والموجودات الحيَّة فى البحار.

ولو تأملنا قليلًا فى سـعة مفهوم «دابة» وشـموله بالنسـبة لجميع أنواع البهائم لتجسد أمامنا عالمٌ من العجائب والغرائب ومناظرُ من القدرة، حيث يكفى كلٌّ منها أنْ يُعرفَنا على علمِ وقدرة الخالق العظيم لهذا الخلق.

لقد دُوّنت الملايين من الكتب وبمختلف اللغات حول خصائص بناء وحياة أنواع الاحياء، واعدّوا الكثير من الاشـرطة المصورة فى هذا المجال، واصدروا مجلات مختلفة وبلغاتٍ متباينة بخصوص هذا الموضوع، حيث تجعلُ مطالعتُها الإنسان يغرقُ فى بحرٍ من

---

(١) يصل وزنُ بعض الحيتان إلى مائـة وعشرين طناً، وكما يقول صاحب كتاب «نظرة على الطبيعـة وأسـرارها» (البروفسور ليون برتن)

فانَّ هـذا الوزن يعادل وزن الفِ وخمسـمائة رجلٍ ضـخم الجثة! أو اربعة وعشـرين فيلًا ضـخما! وقد أجريت حساباتٍ على وزن أعضاء جسـمها: فقلبه يزن سـتمائة كيلو غرام، والدم يزن ثمانية آلاف كيلو غرام، والرئتان طناً واحداً، والعضلات خمسين طناً، والجلد والعظام والامعاء والاحشاء تزن ستين طناً، (ص ٢٣٨).

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٢٩

العجائب والغرائب، وقـد أزالت المساعى التى بُـذلت من قبل العلماء على مدى آلاف السـنين لمعرفتها، الحجاب عن جانبٍ واحدٍ فقط من حياتها، ومن المسلَّم به أنَّ المستقبل سيشهد فى كل يوم انكشاف اسرارٍ جديدة من حياتها.

فبعض العلماء قضـى عشـرين عاماً من عمره لدراسة حياة النمل فقط، وإذا أرادوا دراسة حياة كافة أنواع الحيوانات بهذا الاسـلوب فمن غير المعلوم أنْ يكفى عمر البشرية لمعرفة أسرارها.

والجـدير بالـذكر أنَّ ما نتحـدث عنه هو الكائنات الحيَّة الموجودة فى الأرض، بينما يسـتفاد من تعبير «فيهما» (فى السـماء والأرض) أنْ هنالك احياءً كثيرة فى السماوات أيضاً ليست فى متناول دراسات علمائنا، وربّما يعثر الإنسان على موجوداتٍ حيَّةٍ عجيبةٍ وغريبةٍ اخرى فى باقى الكواكب من خلال الرحلات الفضائية حيث يصعبُ علينا الآن تصور شكلها ومواصفاتها.

وقال بعض المفسِّرين إنَّ المقصود من حيوانات السـماوات هى الملائكة، بينما لا تُطلقُ كلمة «دابّة» على الملائكة ويعتقد بعضهم أيضاً بعدمِ وجود أيَّ كائنٍ حيٍّ فى السـماوات غير الملائكة، وقد ذكروا تبريرات وتفاسير اخرى للآية، بينما يتضح هذا المعنى لدينا اليوم إذ إنَّ الكائنـات لا ـ تقتصـر على الكرة الأرضـية فقـط، وكمـا يقول العلماء هنالك ملايين الملايين من الكواكب فى هـذا الفضاء الفسيـح يمكنُ السكنُ فيها من قبل الدّواب والاحياء.

والجدير بالذكر أيضاً أنّ الحيوانات لا تعتبر آية من آيات اللَّه فى خلقتها وطراز حياتها وجوانبها المختلفة فحسب، بل لفوائدها العديدة وخيراتها الكثيرة التى تفيض بها على الإنسان.

وإذا قال: «آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ» فهو إشارة إلى الذين لديهم الاستعداد لقبول الحق والإيمان ولم يقصد المعاندين والمتكبرين والأنانيين.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٣٠

ويقول فى الآية الثالثة من البحث بصيغة استفهام توبيخى: «أَفَلا يَنْظُرونَ إلىَ الابِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ».

واللطيف أنّه تمت الإشارة بعد ذلك إلى عظمة خلق السـماء، ثم الجبال ومن بعدها الأرض، فوضعُ الابلِ إلى جانب هذه الاشياء، يُعتبرُ دليلًا على أهميّة خلق هذا الحيوان.

إنَّ التأمُلَ فى أوضاع هـذا الحيوان، يـدلُ على أنّه ذو مواصـفاتٍ متباينـة تجعلُهُ يختلف عن باقى الحيوانات الاخرى ويتضـح جيـداً من خلال الانتباه إلى هذه المواصفات لماذا استند القرآن الكريم إلى هذا الموضوع بشكلٍ خاص ومن جملتها:

١- إنَّ مقاومة الجَمَلَ لا نظير لها، لا سـيما ازاء الجوع والعطش، وشدة التحمُّل، وقد يقاوم العطشَ وهو اصعبُ من الجوعِ لعشرةِ أيّام أو أكثر ولهـذا يعتبرُ أفضل وسـيلةٍ لقطع الصـحراء القاحلـةِ، لـذلك فقد اطلقوا عليه «سـفينة الصـحراء». لأنَه يتمكن من خزن الغذاء والماء لمدةٍ طويلةٍ فى بطنهِ ويقتصدُ فى استهلاكها أيضاً.

٢- لا يتقيد بنوعٍ خاصٍ من الغذاء فى طعامه، وغالبا ما يتغذى على كل ما ينمو فى الصحراء.

٣- والأـعجب من ذلـك أنّه يواصلُ طريقه شاقاً العواصف الترابيـة المليئـة برمال تعمى العيون وتصم الآذان، وهو يسـتطيعُ سـدَّ منخريه مؤقتاً، ويحافظ على اذنيه من الغبار، ولعينيه هـدبان يُطبق أحدهما على الآخر فى هذه الظروف، وينظر من خلفهما، وما قاله بعضـهم بأنَّ الجمَلَ يسير مغمضَ العينين فانَّ هذا هو المقصود.

حتى ذكر بعض المفسِّرين إنَّه يُحسنُ تشخيص الطريق فى الليالى المظلمة أيضاً!.

٤- إنَّ الحيوانـات تتبـاين فيما بينها، فبعضـها يسـتفادُ من لحمه ومنها مَا يفيـد فى الركوب، وبعضُ يسـتفادُ من لبنه فقط، وبعضـها الآخر

للحمل، إلّاأنّ الجَمَلَ يجمعُ بين هذه الجوانب الأربعةِ جميعها، فيستفاد منه للركوب ولحمل الأمتعة ومن لبنه وجلده ووبره.

۵- ومن العجائب المتميزة لهذا الحيوان هى أنَّ الحملَ يوضَعُ على ظهرهِ أو يُركبُ أثناء بروكهِ، وينهض وبحركةٍ واحدةٍ من مكانه ليقف على أرجلهِ، بينما تنعدم هذه القدرة لدى باقى الحيوانات.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۳۱

وقد ذكرَ بعضهم أنَّ هذا يعود إلى القدرة العجيبة الكامنة فى رقبته الطويلة التى تعمل طبقاً لقانون «الرافعة» الذى اكتشفه «ارخميدس» لأول مرّة، (فهو يقول: لو وجدتُ نقطة للاتكاء خارج الكرة الأرضية لتمكنتُ برافعة ضخمة من تحريك هذه الكرة عن مكانها! وهذا هو الواقع، فطبقاً لقانون الرافعة أنَّ الضغط الوارد على أحد طرفى الرافعة الذى يضرب فى المسافة بينه وبين نقطة الاتكاء يوجد فى الطرف الآخر للرافعة الاقرب إلى نقطة الاتكاء ضغطاً عظيماً).

وانطلاقاً من هذا فانَّ رقبة البعير تكتسب صفة الرافعة استناداً إلى نقطة ارتكازها المتمثلة فى الأرجل الإمامية ومن خلال حركةٍ سريعةٍ وقويةٍ تعمل على تخفيف الاحمال الموجودة على ظهر البعير وتسمح له باطلاق رجليه الخلفيتين وينهض من مكانه! «۱».

كلُ هذا وعجائب ومواصفات اخرى أدّت إلى أن يُستند إليه بوصفه آيةً من آيات اللَّه العظيمة، وليس فقط لأنَّ الجَمَلَ كان من الأركان المهمّة فى حياة العرب الذين كانوا أولَ من خوطب بهذه الآيات.

فمنْ يستطيع أنْ يخلقَ كلَّ هذه العجائب والبركات فى مخلوقٍ واحدٍ؟ ومن ثمَّ يجعلُهُ مطيعاً للإنسان بحيث لو أَخذَ طفلٌ صغيرٌ بعنانِ قافلةٍ من الابلِ لكان بمقدوره أن يأخذه إلى المكان الذى يصبوا إليه، والعجيب أنّ الأنغام الموزونة (كالحدى) تترك أثراً فى نفسهِ أيضاً وتدفعه إلى الحركة بحيويةٍ ونشاط وشوقٍ.

أوليست هذه آياتٌ عن عظمة وقدرة الخالق؟ أَجَلْ؛ فاولئك الذين لا يمرُّون على هذه الآيات مرور الكرام باستطاعتهم أن يدركوا أسرارها (لا تَنسَوْا أنّ جملة: «افَلَا يَنْظُرونَ» من مادة «نَظَرَ» إلّاأنّها ليست النظر العادى، بل النظر المتزامن مع التفكُّر والتأمُّل).

---

(۱) اشير إشارة قصيرة فى كتاب الجامعة الاولى ج ۶، ص ۳۲ إلى هذه المسافة، وكما اشير فى كتبٍ اخرى باشاراتٍ مفصلةٍ.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۳۲

ويقول فى الآية الرابعة والخامسة ضمن إشارته إلى المنافع المختلفة للحيوانات بالنسبة للإنسان: «وَإِنَّ لَكُمْ فِى الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً».

وذُكرت «عبرة» هنا بصيغة «نكرة» حيث تعتبر دليلًا على أهميّته الفائقة، وكما يقول الراغب فى كتاب المفردات «عِبرَة» من مادة (عَبْر) وتعنى العبور والانتقال من حالةٍ إلى اخرى وهنا حيثُ يرى المعتبرُ حالةً يدلكُ من خلالها على حقيقة لا يمكن ملاحظتها فاطلقوا على ذلك «عبرة».

وعليه فانَّ مفهوم الآية يشير إلى أنّه بمقدوركم انْ تصلوا إلى معرفة اللَّه وعظمة وعلم وقدرة مُبدىء الخلق العظيم من خلال ملاحظة أسرار وعجائب الحيوانات.

ثم أشار القرآن فى شرحه لهذا المعنى إلى أربعةِ جوانب من الفوائد المهمّة للحيوانات فيقول ابتداءً: «نُسْقِيْكُمْ مِّمَّا فِى بُطُونِهَا» نعم، اللبن هذه المادة السائغة الطعم التى تخرج من الحيوانات ومن بين دمها ولحمها شراباًمغذياً كاملًا، وورد هذا المعنى مع تأكيد أكثر فى الآية الخامسة إذ يقول: «نُّسْقِيْكُمْ مِّمَّا فِى بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِيْنَ» «۱»

.

فأىُّ قدرةٍ تلك التى تُخرجُ مثل هذا الغذاء الطاهر الصافى اللذيذ من بين تلك الأشياء الملّوثة؟ لونه ابيض، طعمه حلوٌ، رائحته عطرة، ومقبولٌ من جميع الجهات.

والعجيب ما يذكره العلماء .. فمن أجل انتاج لتر واحد من الحليب فى ثدى الحيوان يجب أنْ يمرَّ ما يقارب خمسمائة لتر من الدم

خلال هذا العضو كى يتم امتصاص المواد اللازمة من الدم لتكوين ذلك اللتر من اللبن! ومن أجل انتاج لتر واحد من الدم فى الشرايين

---

(۱) «فرث» بمعنى الغذاء المهضوم، والجدير بالذكر أنَّ «بطونها» ذُكرت فى سورة المؤمنون مع ضمير مؤنث حيث لها معنىً يفيد الجمع فى مثل هذه الموارد، وفى سورة النحل «بطونه» بضمير المذكر إذ لها معنىً فردى، وقال بعض المفسّرين أنّ «انعام» اسمُ جمعٍ ولو لوحظ ظاهر اللفظ فانَّ ضمير المفرد يعود إليها، ولو لوحظ معناه فانّه ضمير جمعٍ ولو لوحظ ظاهر اللفظ فانَّ ضمير المفرد يعود إليها، ولو لوحظ معناه فانّه ضمير جمعٍ وقال بعضهم أنّ ضمير المفرد لمفهوم الجمع وضمير المؤنث لمفهوم الجماعة، (يُراجع تفاسير الكشاف و الكبير وروح المعانى و ابو الفتوح الرازى).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۳۳

لابدَّ أنْ تمُرَّ الكثير من المواد الغذائية خلال الامعاء هنا حيث يتجلّى مفهوم: «مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ».

وقد قيلَ الكثير حول تركيب اللبن وكيفية تكوينه فى الأثداء، وأنواع المواد الأولية والفيتامينات الموجودة فيه، ومزاياه التى تمنح الطاقة، والمستخرجات المتعددة التى تُنتجُ منه، وفائدته لكلِّ الأعمار، بحيث لو جُمعَتْ لألَّفَتْ كتاباً مُعتَبراً، يُخرِجُنا التطرق إليه عن اطار البحث التفسيرى.

ونكتفى هنا بذكر روايةٍ مليئةٍ بالمعانى عن النبى صلى الله عليه و آله حيث يقول: «إذا أكَلَ أحَدُكُمْ طعاماً فَلْيَقُلْ اللَّهُمَّ بارِكْ لَنا فيهِ، وأطْعمنا خيراً مِنْهُ، وإذا شَرِبَ لَبَناً فَلْيَقُل أللَّهُمَ بارِكْ لَنا فيهِ، وَزِدْنا مِنهُ، فَانّى لا أَعْلَمُ شَيئاً أَنْفَعُ فى الطّعامِ والشَّرابِ مِنْهُ» «۱».

ثم يتطرق إلى الفائدة الثانية للحيوانات ذوات الأربع، فيقول فى جملةٍ قصيرةٍ وغامضةٍ:

«وَلَكُمْ فِيْهَا مَنَافِعُ كَثِيْرَةٌ».

وهذا التعبير يُمكنُ أنْ يكون إشارة إلى الصوف والوبر والشَعَر فى الحيوانات والتى يُصنعُ منها أنواع الملابس والفرش باستمرار، وكذلك إشارة إلى الجلود والامعاء والعظام والقرون التى تُصنعُ منها وسائل الحياة المختلفة، وحتى فضلاتها يمكن استخدامها كأسمدة فى تنمية الأشجار وتنشيط الزراعة والنباتات.

وفى المرحلة الثالثة أشار إلى فائدة اخرى قائلًا: «وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ».

مع ما ذكره خبراء الغذاء من كل أضرار اللحم، وبالرغم من المؤاخذات الواردة على آكلى اللحوم فى العالم من الناحية الطبية والاخلاقية وغيرها، فأنَّ الكثير يعتقدون أنَّ استهلاك اللحم بكميةٍ قليلةٍ ليس غير مضر فحسب بل وأنَّهُ ضروريٌّ بالنسبة لجسم الإنسان، وتبرهنُ تجارب الذين يعيشون على النباتات بأنَّهم مصابون بالاضطرابات والنواقص وتؤيدُ وجوهُهُم الصفراء ذلك، وهذا يعود إلى أنَّ البروتين وبعض العناصر الأساسية الموجودة فى اللحم لا يمكن الحصول عليها فى أىَّ نباتٍ أبداً، والأهميّة التى

---

(۱) تفسير روح البيان، ج ۵، ص ۴۸.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۳۴

يعطيها القرآن لهذه المسألة تحكى عن هذا المعنى

ولكن ممّا لا شك فيه أنَّ الافراط فى اكل اللحوم شيءٌ مذمومٌ فى نظر الإسلام ومن وجهة النظر الطبية أيضاً.

وأشار فى الجزء الرابع والأخير من هذه الآية إلى الاستفادة من الحيوانات للركوب.

فيقول: «وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُوْنَ».

فقد كانت هذه الحيوانات على الدوام خير وسيلةٍ للحمل والركوب، واليوم فى عصر السيارات والشاحنات لم يستغنِ البشر أيضاً عن

وجود هـذه الحيوانات للركوب وحمل الأمتعة، لا سيما في بعض المناطق الجبلية والطرق التي لا يمكن استغلال وسائط النقل الحديثة فيهـا، فيستفاد من الحيوانـات في الحمـل والنقـل فهنالـك حيوانات كالبغال تعتبر افضل وسيلةٍ لارسال العتاد إلى جبهات الحرب على اعالي الجبال الوعرة، ولولاها لاصبح من الصعوبة السيطرة على الجبال الشاهقة الواسعة.

وبهذا فقد أودعَ الباري تعالى فوائد جمّة في هذه الحيوانات، وبيَّنَ آثار عظمته وفضله على الإنسان من خلالها.

واللطيف أنَّ الحيوانات جاءت في هذه العبارة من الآية في مقابل السفن وهذا دليلٌ على انّها بمثابة سفن في اليابسة! «١».

وفي الآيـة السادسـة وكتعريـفٍ بالـذات الإلهيّـة، أو ذكر النِّعم الـتي تجُر الإنسـان إلى معرفته، أشـار إلى مايستفيده الإنسان من جلـود واصواف الحيوانات، فيقول: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً».

ثم يضيف: «وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَام بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَها يَومَ ظَعْنِكُمْ ويَومَ إقامَتِكُم».

أجـل .. فالبيوت الثابتـة لا تُلبي حاجةَ الإنسان باستمرار، ففي الكثير من الحالات يحتاج الإنسان إلى بيوت متنقلـةٍ كي يستطيع حملها ونقلها بسهولة وتقاوم في نفس الوقت

---

(١) وورد ما يشابه هذا المضمون في الآيات ٥ إلى ٨ من سورة النحل حيث يشير إلى المنافع المتعددة للحيوانات.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٣٥

البردَ والحرَّ والرّياح والعواصف وأمثال ذلك، ومن افضل البيوت المتنقلـة هي الخيام التي تصـنع من الجلود التي تمت الإشارة إليها في هذه الآية، وهي اقوى من الخيام المصنوعة من الصوف أو القطن وأكثر مقاومةً وراحةً.

ويتطرق في ختام الآية إلى جانبٍ آخر من منافعها المهمّة، إذ يضيف: «ومِنْ أَصْوَافِها وَأَوْبارِهَا وَأَشْعارِهَا أَثاثاً وَمَتاعاً إِلَىَ حِيْنٍ» «١».

ونحنُ نعلمُ طبعـاً أنَّ الصـوف من الأغنـام، والـوبر من الابـل، والشَّعْرَ من المـاعز، ونعلمُ أيضـاً أنَّ أنـواع الملابس، والفرش، والاغطيـة، والستائر، والخيام، والسُفَر، والحبال، وأمثالها ممّا يلعب دوراً مهماً في حياة الإنسان، تُصنعُ جميعها من هذه المواد الثلاث.

وبالرغم من أنَّهم قاموا في هذا العصـر بصـناعة أنواع الملابس والفراش من المواد الصـناعية والنفطية، إلّاأنّ دراسات العلماء أثبتت أنّها لا تُعتبر صالحةً لحياة الإنسان، وغالباً ما تؤدّي إلى مضاعفاتٍ غير ملائمة له، بينما تُعتبر الملابس الصوفية والوبرية والشَعرية من أصـلح الملابس.

وقد اعتبرَ بعضهم التعبيرَ ب «الىَ حينٍ» إشارةً إلى دوام الآلات التي تُصنعُ من هذه المواد الثلاث، ويعتبرها بعضهم إشارةً إلى أنَّ جميع ذلك الأثاث معرض للزوال ولا يجب التعلّق به، ويبدو أنَّ هذا المعنى أكثر تناسباً.

وفي الآيـة السابعـة التي وردت ضـمن الآيات التوحيديـة في سورة فاطر، حيث أثارَت انتباه النبي صـلى الله عليه و آله إلى خلقِ الإنسان والدَّوابِ والأَنعامِ، قائلًا: «ومِنَ النّاسِ والدَّوابِ

---

(١) «بيوت» جمع «بيت» ويعني حجرة أو بيت الإنسـان الـذي يـأوي إليه ليلًـا، ولفظـة «بيتوته» التي تعني «المبيت ليلًـا» مأخوذة من ذلك أيضـاً، «ظعـن» تعني الرحيـل والتنقـل مـن مكـان إلى آخر وهي تقابـل «الاقامـة»، ... «اثـاث» مـأخوذة مـن مـادة «اثّ» وتعني الكـثرة والاضـطراب وتطلق على لوازم البيت نظراً لكثرتهـا واعتبرهـا بعضـهم بمعنى الغطـاء واللبـاس وبعضـهم بمعنى البسـاط في حين اعتبرها بعضهم الآخر راجعة إلى «المتاع» الذي يعد وسيلة للتمتع والاستفادة وأنّهما بمعنى واحد.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٣٦

وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ» «١».

أي كما خلقَ اللَّه تعالى انواعَ الثمار وبألوانٍ متباينـة، وتتباينُ الوانُ الجبال فيما بينها، فقـد خلقَ ألواناً مختلفةً من الاحياء سواء الإنسان أم

الدَّواب أم الأنعام، بالرغم من أنَّ اغلب المفسرين اتّخذوا الألوان هنا بمعنى الألوان الظاهرية المختلفة «٢»، ولكن يبدو أنّ التعبير المذكور ذو معنىً واسع، ويُعتبرُ إشارةً إلى تفاوت أنواع واصناف الناس والدَّوابِّ والأنعام، الذى يعتبر من اهم عجائب وغرائب الخلق.
لا شك أننا نعلمُ أنَّ هنالك اليوم مئات الآلاف من أنواع الدَّواب والحيوانات فى العالم، بل يذكر بعض العلماء أنَّ أنواعها يبلغ مليوناً وخمسمائة الف نوع!، وهذا التباين العجيب وبهذه المواصفات التى تتصف بها كلٌّ منها يعتبر آيةً عظيمةً من آيات اللَّه، وبراهين عل علمه وقدرته.
نعم ... فقد ابدعَ هذا الرسّام الماهر بقلم واحد ولون واحد فى رسمِ انواعٍ لا تُحصى من الرسوم ونماذج ملّونةٍ من الألواح كل منها آية فى صنع الخلقِ.
غير أنّ المفكرين والعلماء هم الذين فتحوا بصائرهم لَيروا روحَ العالم فى هذه الميادين البديعة، و «يَرَوْنَ مالا يُرى ، لذلك يقول فى ذيل الآية: «إنَّمَا يَخْشى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ إنَّ اللَّهَ عَزيزٌ غَفُورٌ».
إنَّ ألوانها الظاهرية المختلفة تَشغُلُ أهلَ الظاهر، وألوانها الباطنية وخلقها المتباين تشغل اهلَ الباطن والمعنى
فالألوان الظاهرية للأزهار تجذب نحوها النحل، كى يساعدها فى التلقيح، كما تتجاذب الإناث والذكور من الحيوانات فيما بينها «لا سيما فى الطيور»، إلّاأنّ ألوانها الباطنية وبناءها المتفاوت يدعو العلماء وأصحاب الفكر نحوه، كى يُلقِّحَ فكرهُ من بذر التوحيد.

---

(١) «من الناس» خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، والتقدير هو: «ما هو مختلفٌ الوانه»، و «كذلك» أشار إلى الثمار المختلفة وألوان الجبال المتفاوتة التى وردت فى الآية السالفة.

(٢) تفسير الميزان، وتفسير روح الجنان، وتفسير فى ظلال القرآن، وتفسير القرطبى وغيره.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٣٧

و «خَشْية»: تعنى «الخوف الممزوج بالتعظيم الناتج عن علم ووعى»، وفى الحقيقة هى مزيجٌ من الرهبةِ والرجاء لهذا وَصَفَ اللَّه نفسه بعد هذا الكلام مباشرة بصفتى «عزيز» و «غفور» حيث إنَّ الأولَ منشأ للرهبة والثانى مصدر للرجاء، وعليه فانَّ ذيل الآية مركبٌ فى الحقيقةِ من العلة والمعلول.
علماً أنَّ ذكرَ «الإنعام» بعد الدّواب، جاء من باب ذكر الخاص بعد العام، لأهميّة الانعام فى حياة الناس.
وفى الآية الثامنة وجّه اللَّومَ من خلال استفهام توبيخى للمشركين والكافرين الذين ضلّوا وتركوا خالق الكون وتوجهوا نحو الأصنام، فقال: «أَوَلَمْ يَرَوا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ».
إنّ التعبير ب «لَهُم» ذو مفهومٍ واسعٍ للغايةِ حيث يشمل المنافع المختلفة لجميع أجزاء هذه الانعام، أَجَلْ .. فقد اقتضى لطفُ اللَّه أن يكونَ هو «الخالق» والآخرون هم «المالكون»!.
ثم أشار إلى نكتةٍ اخرى فيما يخص الانعام، مضيفاً: «وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُم وَمِنْهَا يأكُلُونَ* ولَهُمْ فِيْهَا مَنافِعُ وَمَشَارِبُ».
ويقول فى الختام «فهلا يشكرون هذه النِّعم التى وهبها اللَّه للناس»؟ ولا يَسْعَوْنَ لمعرفة ذاته المقدّسة؟ «أَفَلا يَشْكُرُونَ».
ويُمكنُ أن يكون التعبير ب «ممّا عَمِلَتْ أَيْديدنا» إشارة إلى تعقيد مسألة الحياة التى لم ينكشف لغزُها للبشر لحد الآن، وهذا نابعٌ من قدرته الازليّة فقط.
والتعبير ب «المشارب» بعد ذكرِ «المنافع» من قبيل ذكر الخاص بعد العام حيث تمّ الاستناد إليه بسبب أهميّته.
علماً أنّ «مَشارِب» جمع «مَشرب» (لأنّها جاءت مصدراً ميميّاً بمعنى اسم المفعول،

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٣٨

ويمكن أن تكون إشارة إلى أنواع حليب الانعام المختلفة، التى لكلِّ منها آثاره ومزاياه الخاصة به، أو إشارة إلى مستخلصات الحليب

التى نحصل عليها، وبما أنَّ اصلها هو الحليب فقد اطلقَ عليها لفظ «مشارب»، ونحن نعلمُ أنّ الحليب ومستخرجاته يُمثلُ جانباً مهماً من غذاء الناس «١».

ولنا بحثٌ مناسب حول «ذَلَّلناها» سيأتى فى قسم التوضيحات إن شاء اللَّه.

والآية التاسعة من البحث وقعت ضمن سلسلة الآيات التى تتعلق بمعرفة اللَّه والتوحيد لأنَّه قال فى الآيات التى سبقتها: «ولَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزيزُ الْعَليمُ»، ثمَّ تَطرَّقَ إلى وصفِ اللَّه القدير قائلًا: «والّذى نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً بِقَدرٍ فَأَنْشَرنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخرَجُونَ»، ثم يضيفُ فى آية البحث: «والّذى خَلَقَ الازواجَ كُلَّها».

ويبدو أنَّ المقصود من «أزواج» هنا هو أزواج الاناث والذكور من الحيوانات والاحياء، لا سيما وانّه يضيف بعد ذلك: «وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الفُلكِ والأَنْعام مَا تَركَبُونَ» (أى الفلك فى البحار والانعام فى اليابسة).

وبهذا فانَّ ذكر «أنعام» بعد «الأزواج» جاء من بابِ ذكر الخاص بعد العام.

إلَّا أنّ بعض المفسِّرين يعتقِدون أنَّ «الأزواج» هنا إشارة إلى «الاصناف المتفاوتة» للموجودات، سواء كانت حيوانات أم نباتاتٍ ام جماداتٍ، لأنَّ كلًا منها له جنسٌ يقابله، ففى الحيوانات هنالك الذكر والانثى وفى غيرها النور والظلام، السماء والأرض، والشمس والقمر، اليابس والرطب، وحتى داخل أفكار الإنسان هنالك الخير والشر، الكفر والإيمان، التقوى والفجور، وامثال ذلك، والوجود الوحيد الذى لا اختلاف فيه هو ذاتهُ

---

(١) يعتبر بعض المفسّرين أنَّ «مشارب» إشارة إلى الأوانى التى تُصنعُ من جلد الحيوانات كانواع القِرَب والأوانى الاخرى إلّاأنّ هذا التفسير يبدو بعيداً إذ ليس لهذا الأمر أهميّة بالغة بحيث يُستند إليه بعد ذكر المنافع.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٣٩

المقدّسة، وهو متفردٌ فى كافة النواحى، إلّاأنَّ التفسير الأول يبدو أكثر صواباً من خلال ما ذكرناه من قرينة.

على أيّةِ حالٍ، فقد ذُكرَ خلقُ الأزواجِ من جانبٍ وخلق الانعامِ للركوب من جانبٍ آخر فى هذه الآية براهين عن الوجود المقدَّسِ للَّهتبارك وتعالى

إنَّ النظامَ الدقيق الذى يسود مسألة التكاثر فى الموجودات الحيَّةِ والحيوانات نظامٌ معقَدٌ وعجيبٌ للغاية، فما هى العوامل التى تؤدّى إلى أن يكون الجنين فى رحم امه ذكراً أو انثى وما هى العوامل التى تؤدّى إلى حفظ التوازن بين جنس الذكر والانثى وما هى العوامل التى تؤدّى إلى أنْ ينجذبَ أحدُهما نحو الآخر كى تحصل مُقدَّماتُ الحمل؟ وما هى العوامل التى تعمل على تكاملهِ فى مرحلةِ الحياة الجنينيةِ المعقدة؟

فإذا تأملنا جيداً، لوقَعَ بصرُنا على آياتٍ عظيمةٍ من آياتِ اللَّه فى هذا الطريق الطويل، وفيما يخص تذليل الحيوانات لركوبها.

ثم تحدَّثَ عن تسخير هذه الحيوانات القوية والضخمة للإنسان، قائلًا: «لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُوْرِهِ ثُمَّ تَذكُروُا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إذَا اسْتَوَيْتُم عَلَيْهِ وتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنا هَذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِيْنَ».

صحيحٌ أننا ننظرُ إلى هذه المسألة نظرةً بسيطة جرّاء اعتيادنا عليها يومياً، حيث نرى قوافل كبيرة من الابل والخيل، وحتى حيواناتٍ ضخمة كالفيلة مُسَخَّرة بيد طفلٍ صغيرٍ، وأحياناً يُودَعُ عنانُ قافلةٍ منها بيد طفلٍ فيقودها حيث يشاء، إلّاأنَّها فى الحقيقةِ ليست أمراً هيّناً، فلو كان لأحدها أقلُّ حالةٍ من التمرد والمواجهة فلا يستفاد منها فى الركوب أبداً بل لأصبحت تربيتُها من قِبل الإنسان خطيرةً جدّاً.

فنحن لا نستطيع أنْ نُربّى بازاً مشاجراً، وحتى قطة غاضبة وهائجة، فكيف نُربّى هذه الحيوانات الكبيرة القوية التى يمتلك بعضها قروناً وبعضها ذات اسنانٍ قاطعةٍ وفكٍ قوىٍّ، وارجل بعضها قوية وكبيرة تستخدمها للضرب والركل، فإذا لم تكن مطيعة فكيف

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٤٠

نستخدمها للركوب؟ ولولا التسخير الإلهى حقاً لم نستفد منها أبداً: «مَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِيْنَ» «١»

.

والنكتة الجديرة بالذكر أيضاً أنَّ ظهرَ الأَنعام خُلق بحيث يكون مناسباً ومُعَدَّاً لركوب الإنسان.

وممّا يلفت النظر أنّه يذكرُ الركوبَ عليها هدفاً أولّا، وذكر نِعَم الخالقِ يعتبره الهدف الثانى، وتعد معرفة الذات الإلهيّة المقدّسة وتسبيحه وتقديسه هى الهدف النهائى، فذكر النِّعَم يَضَعُ الإنسان دائماً فى طريق معرفتها، ومن ثمّ كلُ مواهب الخلق دافعٌ ومقدمة لمعرفة اللَّه سبحانه.

وذُكر هذا المعنى فى الآية العاشرة والأخيرة بالإضافة إلى منافع اخرى وقد تمت الإشارة فى هذه الآية إلى خمس فوائد اساسية للانعام، واعتبرها من آيات اللَّه.

فيقولُ فى البداية: «اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا» «وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ».

ثم أشار إلى الفوائد المختلفة، كاللبن والصوف والجلد والمواد الطبية وامثال ذلك، فيقول إجمالًا: «وَلَكُمْ فِيْهَا مَنافِعُ» «٢».

ويقول فى المرحلةِ الاخيرة: «وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُم».

إنَّ ذكرَ هذا المعنى على هيئةِ منفعةٍ مستقلة، مع أنَّ مسألة الركوب قد ذُكرت سابقاً، يُمكنُ أن يكون المقصود منه حمل ونقل الامتعةِ وضروريات الحياة «٣»، أو لاغراض التنزُّهِ والسياحةِ والمسابقات أو كسب القوة فى ساحة الجهاد، أو الصراع مع بعض الحيوانات الوحشية، أو عبور الأنهار عن طريق سباحة الحيوانات، لأَنَّها جميعاً تندرجُ فى لفظ «حاجة» الشامل، وهذه الضروريات لا شأنَ لها مع مسألة الركوب فى الأسفار.

---

(١) إنَّ الضمير المفرد فى «ظهوره» و «عليه» و «له» يعود إلى «الانعام» لأنّ «الانعام»- وكما قلنا سابقاً- ذات معنىً جمعى، إلّاأنّها تلفظ مفردة، وظن بعضهم أنَّ هذه الضمائر تعود إلى «ما» فى «ما تركبون»، وفى هذه الحالة تشمل «الانعام» و «السفن» علماً أنّ «مقرنين» من مادة «إقران» وتعنى الاقتدار على الشيء، وفسَّرها بعضهم بمعنى القبض والحفظ.

(٢) ذكرت منافع بصيغة النكرة كى تُبرهنَ على أهميّتها.

(٣) كما تمّت الإشارة إلى ذلك فى الآية ۶ من سورة النحل.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣۴١

ويقول فى الفائدة الخامسة والأخيرة: «وَعَلَيْهَا وَعَلى الْفُلْكِ تُحْمَلُوْنَ».

ولتعبير «حَمْل» مفهوم غير «الركوب» ويبدو أنَّ المقصود منه هو المحامل والهوادج التى توضعُ على ظهور الأَنعام ويجلس فيها النساء والأطفال الذين لا طاقة لهم على الركوب، كما يستفاد منها للمرضى والعَجَزَةِ والضعفاء.

إنَّ ذكرَ «تُحمَلُون» بصيغة «الفعل المجهول»، وجعلها إلى جانبِ الفُلك حيث يوضحُ تشابههما مع بعضهما (الفلك فى البحر والانعام على الأرض) يعتبر من القرائن أيضاً على التفسير أعلاه، وبهذا يتضح اختلاف هذه العبارات الثلاث: «لِتَركَبُوا- وَلِتَبْلُغُوا- وعليها وعلى الفُلك تُحملونَ»، وطالما وقع بعضُ المفسِّرين فى معضلات تفسيرها، وقد فسَّروها بمعنىً واحدٍ!

ومع أنَّ بعضهم يعتقد أنَّ الانعام فى هذه الآية تعنى الابل فقط، ولكن نظراً لسعة مفهوم «الانعام» وعدم وجودِ قيدٍ فى الآية فلا دليل لحصرها، لا سيما أنَّ تكرار «منها» (علماً إنَّ «مِنْ» فى مثل هذه الموارد تُفيد التبعيض) يبرهنُ على أنَّ بعض الانعام يفيد فى الركوب، وبعضها يُفيد فى الأكل، بينما لو كان المقصود هو الأبل فإنَّها تُفيدُ فى جميع هذه الجوانب.

واللطيف أنَّه يقول فى الآية الآتية باستنتاج عام: «وَيُرِيكُم آياتِهِ فأىَّ آياتِ اللَّهِ تُنْكِرُوْنَ».

إشارة إلى أنَّ كُلّا من هذه الامور يعتبر آيةً من آياتِ اللَّه بالنسبة للمتفكرين والعقلاء، آية بيِّنة ولا يمكنُ انكارها، والمنكرون

يستحقون كلَّ اشكال اللَّوم والتوبيخ.

وهكذا نرى أننا نواجه في كلِّ خطوةٍ نخطوها في هذا الجانب آيةً من آياتِهِ في عالم الاحياء والحيوانات خصوصاً الأنعام، ونواجه برهاناً من براهين علمه وقدرته وحكمته ولطفهِ ورحمتِهِ، وكلُّ يحكي بلا لسان ويُعطينا درساً في التوحيد ومعرفة اللَّه، ويُثيرُ فينا دافعَ الشكرِ الذي يدعونا إلى معرفته.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٤٢

توضيحات

١- عجائب عالم الحيوانات

إنَّ كتابَ الخلقِ العظيم كتابٌ تكمنُ في كل جملةٍ- بل في كلِّ كلمةٍ وكلِّ حرفٍ منه- نكاتٌ، بنحوٍ لا يَشعُر الإنسان بالتعبِ من مطالعتها، فلو طالعَ أحد جمل هذا الكتاب العظيم مائة مرّة فسيَنكشفُ له في كلِّ مرّةٍ مفهومٌ جديدٌ واسرارٌ جديدة. فعالمُ «الحيوانات والانعام» الذي يُمثِّلُ جانباً من هذا الكتاب العظيم مليىء بالأسرار والعجائب، نكتفي ببعضٍ منها ويجب أن نوكلَ الامعان في التفصيل إلى الكتب المدَوَّنة في هذا المجال.

٢- ترويض الحيوانات

إنَّ استعداد الحيوانات للترويض مسألةٌ مهمةٌ للغاية.

ومن أجل إدراك أهميّة كلِّ نعمةٍ، لابدّ من تصوُّر الحالةِ التي تتحوَّل فيها الحيوانات الاليفة إلى حيوانات وحشية، «فالجملُ» يشنُّ هجماتِهِ كالفهد ويمزِّقُ الإنسان بفكيه القويتين، ويستخدمُ «البقرُ» قرنَهُ، وتضرب الخيلُ بحوافرها مَنْ يقترب منها، حينها لا يمكن اعتبار هذا القطيع من الأغنام والابل والبقر أساسيَ الوجود فحسب، بل وسنستعين بأية آلة قاتلةٍ من أجل الخلاص من شرِّها والقضاء عليها، وفي الوقت الحاضر أيضاً تغضب هذه الحيوانات الاليفة أحياناً فتشكلُ خطورةً بالغة، فمثلًا تُلَقِّنُ الفيلةُ الهنودَ دروساً، وتَشنُّ الجمالُ الغاضبة هجماتها على أصحابها، ومن الممكن أن تنتهي بالقضاء عليهم إذا ما غفلوا، وكأن اللَّه تعالى يريد أنْ يُبرهنَ على أنْ لو اردتُ سلبها أمرَ الطاعة والتسليم والخضوع فستَرَونَ بايِّ صورةٍ تظهر!

وقد عبَّر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة بتعابير مختلفة، فيقول أحياناً: «وَذَلَّلْنَاهَا لَهُم». (يس/ ٧٢)

وحيناً يقول: «سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنينَ». (الزخرف/ ١٣)

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٤٣

وقد أشار الإمام الصادق عليه السلام إلى هذه المسألة في توحيد المفضّل، فيقول بعد بيان خلق الأنعام: ... «ثُمَّ مُنِعَت الذِّهنَ والعَقلَ لِتَذِلَّ للانسانِ فلا تَمْتَنِعَ عَلَيْهِ إذا كَدَّها الكَدَّ الشّديدَ وحَمَّلَها الحِمْلَ الثَّقيلَ» «١».

وبالطبع أنَّ عدم امتلاكها للعقل جزءٌ من الدليل على تآلفها، علاوة على هذا أنَّ اللَّه تعالى خَلَقها بشكلٍ تأتلفُ فيه بسرعةٍ وتبقى على هذا الحال إلى الأبد، بينما نجد أنَّ بعضَ الحيوانات التي تماثلها في الذكاء والعقل (كالذئاب والنّمور) إذا ما ألفت فبمشقّةٍ تكون مؤقتة، ومع ذلك يجب الحذر منها، وأحياناً تفترسُ اصحابها إذا ما غفلوا عنها.

٣- ذكاء الحيوانات

لعلَّ اختيار هـذا العنوان بعد الذى قيل فى البحث السابق يبدو عجباً ومتناقضاً، والحال أنّه ليس كذلك، مع أنّ الحيوانات تبدو بلا عقلٍ أو قليلة العقل، ونحنُ نشبّهُ البُلداء بالبهائم، إلّا أنّها تبدى ذكاءً ووعياً فى بعض المسائل بحيث تبعث على الدهشة.

فقد شاهـدَ اغلبُنا قطيعَ الأغنامِ عنـدما يعود من الصـحراء، فهنالك عـدد من الغنم والماعز تعود إلى عائلـةٍ ما وبمجرد اقترابها من القريةِ يسلك كلٌّ منها فروع وازقةَ القَرية ويتجه نحو بيت صاحبهِ بدونِ أىِّ اختلاف.

كما شاهـدنا أنَّ النعجةَ لا تسـمح أبداً لغير وليدها أن يرتضع من ثديها، وعندما تُطلقُ الصـغار فى ظلمةِ الليل وتدخلُ فى القطيع يذهبُ كـلٌّ منهـا إلى امه، فتعرفه وتسـتعد لإضاعه، وهـذه المعرفـة تحصل عن طريق «الشَّم» فقط، وهـذا يعنى أنَّ عـددَ روائح الأغنام تضاهى عددها، وكلُّ نعجةٍ تشخصُ رائحةَ صغيرها من بين هذه الروائح!

يقول «غرسى موريسن» فى كتاب «سرُّ خلق الإنسان»: (إنَّ اغلبَ الحيوانات تُشخصُ طريقها فى الليالى المظلمة، وتسير بيُسر، وإذا كانت لاتبصر فى الظلمة الحالكة فهى تعرفه من تفاوت الهواء المحيط بالطريق، ويؤثر النورُ الضعيف جدّاً للأشعة مافوق الحمراء الذى

(١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٩١، توحيد المفضل.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٤٤

يشع من سطح الطريق على عيونها).

إنَّ طراز بناء البيت، وتربيـة الصـغار، وكيفية مقاومة العدو، وحتى معالجة نفسـها أثناء المرض من الامور العجيبة فى الحيوانات، وشـرحُ كلٍّ منها يحتاج إلى بحثٍ مفصَّلٍ.

ذكر أحدُ علماء البيئة ويُدعى «البروفسور هانر منرو» فى كتابه فى خصوص استعداد بعض الحيوانات لمعالجةِ أمراضها قائلًا:

«اجريت بعض الكشوفـات الطبيـة على علاجاتهـا، فمثلًا هنـاك نـوعٌ من الطيـور الـتى تأكـل الأسـماك، تتضـرر أرجلهـا أثنـاء الطيران الجمـاعى أو الهبوط على الأرض، بسبب طولهـا، فوجـدت أنّهـا على اطلاع تـام بـالتجبير وعلاج الكسور، فتـذهب إلى ساحل البحر والمنـاطق الموحلـة التى يمتزج طينهـا مع النورة الخاصـة بالتجبير، وتغمسُ أرجلَها بالنورة الرطبـة، ثم تجلس تحت أشـعة الشـمس كى تَجفَّ النورة، وتبقى تراقب أرجلها بهذا الحال حتى يلتحم مكانُ الكسرِ تماماً ...

ومن الصدفـة أنَّ النّورة التى يسـتخدمها الأطباء فى المستشـفيات من نفس هـذا النوع الـذى يسـتخدمه هذا الطائر الذى يأكل السـمك لعلاج نفسهِ، لأنّه لزجٌ ومتماسكٌ جدّاً» «١».

يعتقـد العلماء أنَّ معظمَ الحيواناتِ لـديها لغـةٌ خاصـة بها، وتتفاهم فيما بينها عن طريقها، فالنمل يتحدث فيما بينه من خلال اللمس، أو من خلال اصـطدام لوامسها، وتتبادل الرسائل، وبعضُها تخابُر أثناء حلول الخطر من خلال ضرب ارجلها على باب الخليّة فترسل برقيات بهذه الطريقة إلى بعضها الآخر.

إنَّ اغلبَ الاحياء علاوة على امتلاكها للغةٍ خاصةٍ فهى تملك لغةً عامةً تستطيع من خلالها فهم لغة بعضها البعض الآخر، فهذه اللغة التى يصـدرها الغراب أثناء حصول الخطر حيث يحـذِّرُ بقيـةَ الحيوانات بصوتٍ خاصٍ كى تبتعد سـريعاً عن منطقة الخطر، ويعتبر الغراب فى الواقع بمنزلة جاسوس من جواسيس الغابة!

لقد توصلَ علماء البيئة فى دراساتِهم إلى هذه النتيجة وهى أنّ الحشرات تلى الإنسان

(١) أفضل طرق معرفة اللَّه، ص ١٩٧.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٤٥

فى امتلاك جهاز اتصالاتٍ متكاملٍ، لا سيما التكلم وجهاز اتصالات النحل، فهو أكثرها عجباً وندرةً «١».

القى عالمُ احياءٍ سويـدى محاضـرةً تثير الاهتمام فى جامعة «لاند» حول لغة النحل وكانت نتيجة هذا التحقيق والتجربة التى أجراها عالم الأحياء هذا بمساعدة الأجهزة وعن طريق المقايسة، أنّها لغة يمكن فهمُ معناها «٢».

إنَّ عجائب عالم الحيوانات أكثرُ من أن يُؤدى حقُها فى كتابٍ واحدٍ أو عشر كتب.

والأفضل أن نكتفى بهذا المقدار ونغلق الملف ونقول بكل خضوعٍ وخشوعٍ أمام الحضـرة الإلهيّة المقدّسة: «سُبحانَكَ اللّهُمَّ وبحَمدِّكَ لا تُحصىَ عَجائِبُ خِلْقَتِكَ وإنَّكَ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ».

---

(١) مجلة الصيد والطبيعة، العدد ٧٢.

(٢) تربية النحل، ص ٦٠.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٤٧

٢٠- آياته فى خلق اعضاء جسم الإنسان

تمهيد:

من أجل أن يتمكن الإنسان من إقامةِ الأواصر مع العالم الخارجى فهو يحتاج إلى ادواتٍ مختلفةٍ، حيث جَهَزه اللَّهُ بها، فقد جهّزَهُ بحاسة البصـر لرؤيـة هيئة ولون وكمية ونوعية الموجودات، وبحاسة السـمع من أجل معرفة أنواع الأصوات كما جهّزه بحواس اخرى من أجل الاحساس بالروائح، البرد والحر، الخشونة والنعومة و ...

إنَّ بناء هـذه الآلات معقَدٌ ودقيقٌ بالقـدر الـذى يُمكن أن يكون شـرح كلٍّ منها موضوعاً لعلمٍ مستقلٍ، وقـد دوِّنت كتبٌ كثيرة بهـذا الخصوص حيث تُعتبر فى الحقيقةِ مجموعةً من أسرار التوحيد، ودروس، وبلاغات ونغمات لمعرفة اللَّه تُردُدها هذه الأعضاء فى مسامع روح الإنسان، فمن غير الممكن أن يتأملَ المرءُ فى بناء هـذه الأعضاء ولا يخضع اجلالًا امام قـدرة وعظمـة خالقها، سواء اعترف بلسانه أم لا.

بهذا التمهيد نُيممُ وجوهنا صوب القرآن الكريم ونتأمل خاشعين فى الآيات التالية:

١- «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَاتَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ والافْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». (النحل/ ٧٨)

٢- «وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفئِدةَ قَلِيْلًا مَّا تَشْكُرُونَ».

(المؤمنون/ ٧٨)

٣- «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّماءِ وَالأَرضِ أَمَّنْ يَملِكُ السَّمْعَ وَالأَبصَارَ .... وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ افَلَا تَتَّقُونَ». (يونس/ ٣١)

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٤٨

٤- «أَلَم نَجْعَلْ لَّهُ عَيْنَيْنِ* وَلِسَاناً وشَفَتَيْنِ». (البلد ٨ و ٩)

٥- «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوْبِكُمْ مَّنْ الهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأتِيْكُمْ بِهِ أنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُوْنَ». (الانعام/ ٤٦)

٦- «سَنُرِيْهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ».

(فصلت/ ٥٣)

شرح المفردات:

«السَّمْع»: تعنى فى الأصل قوّة السَّمع، وقد تطلق على الأذن أيضاً، وقد وَردَ هذا اللفظ بمعنى الاستماع، واستجابة الدعوة والقبول والتجسس أيضاً، وإذا ما استخدمت فى ما يخص البارى تعالى فهى تعنى علمه واطلاعه على المسموعات، و «اسماع» جمع «سمع» إلّا أنَّ هذا اللفظ لم يُستخدم فى القرآن الكريم اطلاقاً، ولعلّه بسبب أنّ «السمع» تستعملُ فى معنى الجمع أيضاً «١».

«بَصَرْ»: وتعنى (العين) وتستخدمُ أيضاً بمعنى «قوة النظر»، ويُستعمل هذا اللفظ فى معنى قوة العقل والفهم أيضاً، فيقال لها «بصر» و «بصيرة» (جمع بصر، «ابصار» وجمع بصيرة «بصائر»).

إلّاأنَّ لفظ بصيرة لا يُطلقُ على العين أبداً، بل يُقال لها «بَصَرْ» والعجيب أنَّ لفظ البصير يُطلقُ أحياناً على المكفوفين، ولكن يظهرُ أنّ هذا الاستعمال ليس بسبب علاقة التضاد، بل لأنَّ المكفوفين غالباً ما يتميزون بقوة إدراكٍ فائقة، ويتلافون فقدانهم لقوة البصر بقوة التفكير والبصيرة «٢».

واعتبر بعضُ أرباب اللغة كمؤلف «المصباح» أنَّ المعنى الأصلى ل «بَصَر» هو النور

---

(١) لسان العرب، المفردات، مجمع البحرين، والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

(٢) مفردات الراغب.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٤٩

الذى نتمكن من خلاله من رؤية الموجودات، وفى «المقاييس» ذُكر لها معنيان: الأول الاطلاق على الشىء، والثانى ضخامة وسمك الشيء، ولكن يبدو أنَّ المعنى الأول والذى أوردَهُ الراغب فى المفردات أيضاً أكثر صواباً وتناسباً مع موارد هذا اللفظ.

و «افئدة»: جمع «فؤاد» من مادة «فَأد» (على وزن وَعد) وتعنى فى الأصل «الشوى»، لذا يُقال «فؤاد» للأفكار والعقول الناضجة، وقد يأتى هذا اللفظ بمعنى القلب، أو غلاف القلب أيضاً، وقال بعضهم أيضاً أنَّ هذا اللفظ يطلق على القلب والعقل حينما يكون متنوراً ومشرقاً، وقال بعضهم إنَّ «فؤاد» تعنى مركز القلب يُطلقُ على مجموعهِ.

و «العَيْن»: ذات معانٍ كثيرة والمعروف أنَّ لهذا اللفظ سبعين معنىً فى لغة العرب.

إلّا أنَّ المعنى الاصلى ل «العين» هو العضو الخاص بالنظر، وقد يأتى أيضاً بمعنى قوة البصر.

ولكن لها معانٍ كنائية ومجازية كثيرة برزت على هيئة معانٍ حقيقية نتيجة لكثرة الاستعمال، فمثلًا يقال للينبوع «عين» لأنَّه يشبه العين، ويقال للجاسوس والمكلف بالتجسس والاستطلاع «عين» أيضاً، كما يُطلقُ هذا اللفظ على ذوى المكانة وعلى الشمس والذهب أيضاً لأنَّ الذهبَ من بين الفلزات كالعين بين الأعضاء، وكذلك «الشمس» بين النجوم، وكالمرموقين من بين أبناء قومهم، كما يُطلقُ هذا اللفظ أيضاً على الثروة والمتاع الذى يمكن الاستفادة منه، وثقب الحلقة، والبصيرة والاطلاع على الشيء كلٌّ فى محلّه، وسُمِّيت الحور العين بهذا الاسم لأنّها ذات عيونٍ جميلةٍ وواسعة.

و «اللسان»: تعنى عضو التكلُّم، ووردت أيضاً بمعنى قوة البيان، وتُطلقُ أيضاً ككنايةٍ على الأشخاص المتكلمين نيابة عن جماعة ما، كما يُقال ل «ألْسِنة» (جمع لسان) أيضاً، ويُستخدم هذا اللفظ بصيغة المذكَّر والمؤنث إلّاأنّه جاء فى القرآن الكريم بصيغة المذكر.

و «شَفَة»: على وزن (سَعَة) وتستخدم بصيغة التثنية «شفتان» «١»

.

ومفهوم «مشافهة» يعنى مقابلة الشخص والاستماع إلى شيءٍ ما من شفتيه، وورد هذا اللفظ بمعنى شاطىء «النهر» وساحل «البحر» لأنَّه شفة له.

---

(١) لقد ذكر بعضهم أنَّ اصَلها «شَفْو» (ناقصة الواو) وبعضٌ «شَفَة» لأنّ مصغَّرها «شفيهة» وجمعها «شفاه».

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٥٠

جمع الآيات وتفسيرها

الدور الحساس لآلات المعرفة:

يقول فى الآية الاولى كتعريفٍ بالذات الإلهيّة المقدّسة وبيانٍ لآياته فى خلقِ الإنسان:

«وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ امَّهاتِكُمْ لَاتَعْلَمُونَ شَيْئاً».

إنَّ هـذا التعبير يُبيِّنُ بجلاء أنَّ صـفحة القلب تخلو من جميع المعارف عنـد الولادة، إلّاأنّ بعض المفسِّرين قالوا إنَّ المقصود ليس العلم الحضورى للإنسان بـذاته، أو بتعبير آخر إنّ المقصود هو العلم بالأشـياء الخارجيـة، وذكروا ذلك كشاهـدٍ فى قوله تعالى: «وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَىْ لَايَعْلَمَ بَعدَ عِلْمٍ شَيْئاً». (النحل/ ٧٠)

والانسان فى سنِ الشيخوخة يعلمُ بوجوده إلّاانَّه يُحتملُ جهلِ الوليد بوجوده فى بداية الولادة وأول ما يُدركه هو وجوده.

ثم يضيفُ: «وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ وَالأَفئِدَةَ لَعَلكُمْ تَشْكُرُونَ».

لقـد جعـلَ اللّه العينَ والاـذنَ كى يُـدركا المحسوسـات، والعقـل لإدراك المعقولات، وتَطّلعون على العالم الخارجى من خلال وسائل المعرفة الثلاث هذه، ثمَّ تقومون بشكر هذه النِّعم وتتوجهون قبل كلِّ شىء لمعرفة ذلك الخالق الذى منحكُم وسائل العلم والمعرفة.

ولإدراك أهميّـة العين والاذن والعقل يكفى تصور الحالـة التى تتمخض عن فقدان أحدهما (فضـلًا عن كليهما)، فما هو حال مكفوف البصـر، أو الأخرس أو المجنون أو جميعهم؟ وكم ينأى عن مواهب هذا العالم العظيم؟ وقبل كلِّ شىءً يفقد موهبة العلم والاطلاع التى هى أفضل المواهب ومقدمةٌ للتَنعُم بالمواهب الاخرى

وقال بعضهم إنَّ المقصود من «شيئاً» فى الآية أعلاه هو حق المنعم، وقال بعض آخر: إنّ المقصود هو مصالحه، وفسَّرها قسمٌ منهم على أنّها السعادة والشقاء، أو الميثاق الإلهى فى يوم: «ألستُ بربِّكم»، إلّاأنّ اطلاقَ الآية ينفى كلَّ اشكال التقييد فتشمل كلَّ شىء.

وهنا لماذا تقـدَّم «السَّمع» على «الأبصار»؟ فلعل ذلك يرجعُ إلى اسـتخدام الاذن قبل العين، لأنَّ العينَ لم تكن لديها القابلية على الرؤية فى محيط رحم الام الذى يسودُه ظلامٌ

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٥١

مطبقٌ، وتكون حساسـة جـدّاً ازاء النور إلى حينٍ بعـد الولادة، لـذلك فهى غالباً ما تكون مغمضة، حتى تسـتعد تدريجاً لمواجهة النور، إلّاأنَّ الاذن ليست كذلك فباعتقاد بعضهم أنّها تسمعُ الأصوات فى عالم الجنين أيضاً، وتتعرفُ على انغام قلب الأُم!.

بالاضافـة إلى أنَّ الاذن تعتبرُ وسـيلةً لسـماع رسالة الوحى الإلهى الذى هو أشـرف المسـموعات، وكذلك وسـيلة عامة لنقل العلوم من جيلٍ إلى جيلٍ آخر، بينما ليست العينُ كذلك، لا شكَّ أنَّ القراءة والكتابة وسيلةً لنقل العلوم إلّاأنّها ليست عامة وشاملة.

وجعلُ «الافئدة» وراءهما واضحُ الدليل أيضاً، لأنَّ البَشـر ينقلون المشاهدات والمسـموعات إلى العقل، ومن ثَمَّ يقوم بتحليلها وتفكيكها وينتقى منها معلومات حديثة ويكتشف القوانين العامة للعالم «١».

وفى الآيـة الثانيـة يتابع الحقيقـة التى وردت فى الآيـة الآنفـة، وأشار إلى مسألة خلق الاذن والعين والقلب، من أجل معرفة اللّه، مثيراً فى الإنسان الشـعور بالشـكر الذى هو السُلَّم لمعرفة اللّه تعالى مع هذا الاختلاف حيث يُعبِّرُ عن خلق هذه الأعضاء بتعبير «انشاء» وفى الختام يوجِّهُ اللومّ والتأنيب لُاولئك الذين قليلًا ما يشكرون اللّه، فيقول: «وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيْلًا مَّا تَشْكُرُوْنَ».

و «الإنشاء»: كما يقول الراغب تعنى فى الأصل إيجاد الشىء وانمائِه، ولهذا يقال «ناشئة» للشباب.

إنَّ التعبير بإنشـاء غالبـاً مـا يخص الحيوانـات، بـالرغم من اسـتخدامها أحيانـاً فى غير هـذا المورد مثـل: «أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَـجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ

الْمُنْشِئُونَ». (الواقعة/ ۷۲)

ومن الممكن أن يكون هذا التعبير فى الآية أعلاه إشارة إلى المسيرة التكاملية للعين

---

(۱) إنَّ «سمع» تُطلقُ على المفرد والجمع، بالرغم من أنَّهم يجمعونها بصيغة «اسماع» أيضاً.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۵۲

والاذن والعقل خلال مرحلة الجنين ثم فى مرحلة الطفولة، حيث أَوْجَدَها البارى تعالى ثم يقوم بتربيتها.

ويقول فى الآية الثالثة «كاستفهام تقريرى» من المشركين الذين انفصلوا عن اللَّه وضلّوا فى وادى عبودية الأوثان: «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَملِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ».

منَ المسلَّم به أنَّ الأرزاق التى يحصل عليها الإنسان إمّا أنْ تكون من السماء (كالامطار والهواء وضوء الشمس) أو من الأرض (كالنباتات والأشجار والمعادن المختلفة) فكذلك العلوم والمعارف فغالباً ما يحصل عليها الإنسان عن طريق العين والاذن، لأنَّ هاتين الحاستين المهمتين تُعتبران وسيلةَ اتصالِ الإنسان بالعالم الخارجى، وكلُّ هذه الأرزاق الماديّة والمعنوية من اللَّه تبارك وتعالى

واللطيف أنّه عبَّر هنا بتعبير المالكية، وبما أنَّ المالكية هنا تكوينية فانها لن تنفصل عن مسألة «الخلق» وفى الحقيقة أصبح هذا التعبير من لوازمه، وكذلك لن تكون منفصلةً عن مسألة «تدبير الامور» لذا يقول مستفسراً فى نهاية الآية: «ومَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ» «۱»

.

فيضيف مباشرة: «أنّهم وبالهام من وحى فطرتهم يقولون بسرعةٍ: إنَّ اللَّه هو مالك وخالق ومدِّبرُ هذه الامور» «فَسَيَقُوْلُونَ اللَّهُ».

«فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ».

أى ترك عبادة الأوثان والتوجه إلى غير اللَّه، والابتعاد عن الذنوب والظلم.

---

(۱) قالَ بعض ارباب اللغة إنّ «مِلك» (بفتح الميم وكسر اللام، تعنى مَنْ يتصرف بعامةِ الناس من خلال أمره ونهيِهِ وهذا يستلزم السلطة والاقتدار والتدبير).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۵۳

ويقول فى الآيـة الرابعة ضـمن إشارته إلى جانب من نِعَمِ اللَّهِ على الإنسان لتحريك الاحساس بالشكر الذى هو مقدمة ل «معرفة اللَّه»: «أَلَمْ نَجْعَلْ لَّهُ عَيْنَيْنِ».

العينان اللتان يتمكن من خلالهما أنْ يرى عالم الوجود، وأن يشاهد عجائب الخلق، وأن ينظر إلى الشمس والقمر والنجوم وأنواع النباتات وأنواع الموجودات الحيّة والحيوانات، وأنْ يتفرجَ على عجائب صُنعِ اللَّه، وأن يُميزَ الخير من الشر، ويُشَخصَ الصديقَ من العدو، وأن ينقذَ نفسَهُ من مخالب الحوادث.

ثم يضيف «وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ».

اللسان الذى يُمثلُ وسيلةَ اتصالهِ بالآخرين، اللسان الذى يعتبرُ عاملًا فى نقل العلوم والمعارف من جيل إلى آخر ومن قومٍ إلى آخرين، اللسان الذى يردد ما يحتاجه، وبه يدعو ويتوسل إلى المعبود جلَّ وعلا، وهو الذى ينطق عن جميع ذرات وجوده.

وكذلك الشفاه التى تلعبُ دوراً مهماً فى النطق، وتتحمَّلُ مسؤولية تلفظ كثير من مخارج الحروف «۱» بالاضافة إلى مساعدتها فى شرب الماء واكل الطعام وهضمه والحفاظ على سوائل الفم، بنحوٍ لو جُدِعَ جانبٌ من الشفة فلن تصبح هذه الامور صعبةً بالنسبة للإنسان فحسب، بل وسيكون منظرهُ وصورته باعثاً على الحسرة.

واللطيف أنّ القرآن يتحدث بعد هاتين الآيتين عن هداية الإنسان إلى الخير و (الشر)، قائلًا: «وَهَدَيْنَاهُ النَّجدَيْنِ».

إنَّ هذا التعبير البليغ يشيرُ إلى علاقة العين واللسان والشفاه بمسألة الهداية ومعرفة الخير والشر، لأنّها تُعتبر آلاتٍ لهذا الهدف العظيم.
وفى الآية الخامسة يُلفتُ الانتباه إلى الحالة التى تحصل لدى الإنسان بسبب فقدانهِ

---

(١) وهذه أربعة حروف بالعربية (ب- ف- م- و) وهى (حروف شفهية) بكثرة وفقدان الشفة يؤدّى إلى أن يفقدالمرء قدرة التكلم إلى حدٍ ما.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٥٤

للاذنِ والعين والعقل، فيقول: «قُلْ أَرَأَيْتُم إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصارَكُم وَخَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيْكُمْ بِهِ» «١»

.

ثم يضيف فى نهاية الآية: «انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآياتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ» «٢»

.

وفى الحقيقةِ أنَّ القرآن يريد أن يقول: إنَّ آلات المعرفة المهمّة تلك ليست ملكاً لكم لأنّها لو كانت كذلك لما سُلبت منكم فليس بالقليل اولئك الذين فقدوا نعمة السمع والبصر والعقل نتيجة لتأثير عوامل مختلفة، اذن فهى ملك لخالقٍ آخر، هذا من جهة.
ومن جهة اخرى بما أنَّ الأشياء تعرف باضدادها فانَّ القرآن يريد أن يلفتَ نظرَ الإنسان إلى عظمة الخالق وواهب هذه النعم، من خلال تذكيره بالوضع المؤلم الذى يطرأ للإنسان بسبب فقدان هذه النِّعم التى لا مثيل لها، ويرشده عن هذا الطريق ويُحفزهُ إلى الخضوع أمام عظمته تعالى
ويمكن أن يكون التعبير ب «أخذ» الاذن والعين بمعنى أخذ هذه الاعضاء، أو أخذ قوة السمع والبصر أو كليهما.
وفى الآية الأخيرة من البحث التى تعتبر من آيات التوحيد ومعرفة اللَّه يُسلطُ الانظارَ على آياته قاطبةً فى عالم الخلق بأسرِه، فيقول: «سَنُرِيْهِمْ آياتِنَا فِى الآفاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ».
«آفاق»: جمع «اُفُق» وتعنى الأطراف، وعليه فانَّ «آفاق الأرض» تعنى أطراف

---

(١) لقد فسَّر المفسِّرون جملة «أرأيتُم» وكذلك «أرأيتُكُم» بمعنى اخبرونى أو «هل علمتُم» ولكن باعتقاد بعض المحققين فانَّ هذه الجُمل تتسامح مع المعنى الأصلى فمثلًا جملة (أرأيتم) بمعنى (هل شاهدتم)، ولكن حيث تكون المشاهدة فى مثل هذه الموارد للعلم والأخبار فقد فسِّرت بلازم المعنى وعلى ايةِ حالٍ فإنّ الغاية من ذكر هذه الجُمل هو التذكير والتأكيد على دقةِ المخاطب، ولو أردنا أن نفسِّرها بلازم المعنى فيمكننا القول بانَّ هذا هو مفهومها.

(٢) «نصِّرف» من مادة «تصريف» وتعنى التغيير، وتعنى هنا ذكرُ حقيقة ما بلباس وبيان مختلف، و «يصدفون» من مادة «صَدَف» (على وزن هدف) وتعنى هنا الإعراض.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٥٥

الأرض، و «آفاق السماء» تعنى أطراف السماء، وبما أنّها ذُكرت فى آية البحث بشكلٍ مطلق، فهى تشمل كل الأطراف شمالًا وجنوباً وشرقاً وغرباً.
و «أَنْفُس»: لها هنا معنىً واسع حيث تتضمن الروح والجسم أيضاً، وجميع اعضاء الجسم التى هى موضوع بحثنا.
وهنا إلى من يعود الضمير فى «أَنَّهُ الحَقُّ»؟ قال بعض المفسِّرين: المقصود هو القرآن، والمقصود من آيات الآفاق الانتصارات التى حققها المسلمون فى أطراف العالم، والمقصود من آيات الانفس، انتصاراتُهم فى بلاد العرب أى اننا نُريهم الانتصارات فى أطراف العالم وفى بلاد العرب كى يعلموا أنَّ القرآن حقٌّ.

وقال بعضهم: المقصود هو «رسول اللَّه» صلى الله عليه و آله أو دينه، حيث لا يتفاوت كثيراً مع التفسير الأول.

لكن الظاهر هو (كما فهمهُ عددٌ من المفسِّرين) أنَّ المقصود هو اللَّه، أى أننا نُريهم آيات الآفاق والأنفس كى يتجلّى لهم أنَّ اللَّه هو الحق.

يُعدّ التعبير ب «آياتٍ» من جانبٍ، والتعبير ب «الآفاق والانفس» من جانبٍ آخر بالإضافة إلى الآية التى تليها والتى تتحدث عن التوحيد شواهد على هذا التفسير، علماً أنَّ هذه الآية تتوافق مع عدة آيات فى القرآن الكريم التى تعرضُ آياتِ اللَّه فى عرضِ الخلق ووجود الإنسان، مثل: «وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِيْنَ* وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ». (الذاريات/ ٢٠- ٢١)

وقد ذُكر هذا المعنى أيضاً فى تفسير على بن إبراهيم، على الرغم من أنَّ بعض الروايات ذكرت أنَّ ضمير، (أنّه) يقصُد به الإمام المهدى «عج» ولكن الظاهر أنّه تفسيرٌ لبطون الآيات (والجمع بين التفاسير ممكن أيضاً)، على أيةِ حالٍ ... ففى أيٍّ منها تمعنّا نرى من خلاله آثار علمه وقدرته تعالى وكلُّ نباتٍ ينبتُ من الأرض ينطق بنفسه ب «لا شريك له» و «قلب كلِّ ذرة نفتحهُ- نرى شمسَهُ فى وسطِهِ».

والتعبير ب «سنُريهم» (نظراً لأنَّ الفعل المضارع فى مثل هذه الموارد يعنى الاستمرارية)

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٥٦

يُعتبر إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة وهى أنَّ كلَّ يوم يمُرُّ من عمر الإنسان تنكشفُ له حقائق جديدة عن هذا العالم، وتتجلى أسرارٌ خافية، ففى كلِّ يومٍ يتوصل العلماء فى مختبراتهم ومكتباتهم إلى اكتشافٍ حديث، وتتضح آيات جديدة من آيات اللَّه، ومن المسلَّم به أنَّ هذه المسألة ستستمر حتى لو انقضت ملايين السنين من عمر الخليقةِ، فكم هو عجيب عالَم الخلق الواسع، وكم عظيم خالقُه؟

ومِنْ ثمَّ فاننا لا نعلمُ شيئاً عن مليارات السنين السابقة وما تلاها، وليس لدينا أدنى اطلاع عن هذا الكتاب العتيق الذى فُقد فصلاه (الأول والأخير) وكلُّ ما نعلمُه هو نزرٌ يسيرٌ يتعلقُ بجانبٍ من هذا العالم الواسع وفصل من هذا الكتاب الكبير: «العظمة للَّهالواحد القهار».

نستنتجُ من مجموع ما مضى من الآيات أنَّ كلَّ عضوٍ من اعضاء جسمِ الإنسان، بل كلَّ جزءٍ منها، يعتبرُ مرآةً واضحةً للحق تعالى وآيةً مستقلةً وجليةً من علم وقدرةٍ وحكمة وتدبير خالق الكون.

توضيحان

١- عجائب أعضاء الجسم

لو لم يكن فى كلِّ الكَونِ موجودٌ سوى الإنسان، ولم يكن فى جميع كيان هذا الإنسان شيءٌ سوى عينٍ أو أُذُنٍ واحدة، لصار ذلك سبباً لمعرفة الذات الإلهيّة المقدّسة وعلمهِ وقدرته، لأنَّ بناءها دقيق ومعقّدٌ ومحبوكٌ بقدر لا يصدقُ أيُّ عقلٍ أنّها مِنْ صنعِ الصدفةِ أو الطبيعةِ العمياء والصمّاء، بل نواجه فى كلِّ مرحلةٍ من دراستها، آيةً جديدةً من علم وقدرة ذلك الصانع الحكيم.

فمن بين مئات الخصائص ومن خلال الدقّة فى حاسة البصر، أى العين، يكفينا ذكر المواضع الآتية كى نعرف الغرابة المذهلة فى هذا العضو:

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٥٧

١- العدسة المتغيِّرة: من المعروف أنَّ العينَ تُشبَّهُ بآلة التصوير، بينما لا تصل أحدث آلات التصوير فى العالم انْ تكون كأُلعوبةٍ أمام عين الإنسان، لأنّها تحتوى على عدسة ثابتةٍ، حيث يجب أنْ تُنظَّمَ وتُدارَ مِنْ قبل مصورٍ باستمرار من أجل التقاط الصور من عدة جهات، إلّاأنَّ عدسةَ العينِ الواقعة خلف إنسان العين مباشرة، تتغير دائماً بشكلٍ آلى، فقد يتقلص قطرها أحياناً فيبلغ ١/ ٥ ملميتر وأحياناً يتّسع حيث يبلغ ٨ ملمترات فيسمح لها بالتقاط الصور من مناظر بعيدة وقريبةٍ جدّاً.

۲- طبقات العين السبع: إنَّ العينَ تتألفَ أساساً من سبعةِ حجُب أو سبع طبقات وتُسمى «الصلبية» و «العِنَبية» و «المشيمية» و «الجليدية» و «الزُلالية» و «الزُّجاجية» و «الشَبكيّة»، حيث لكل منها بناؤها الخاص بها وواجبها الذى تتحمله، وشرحها يجرُّنا إلى الاطالة، فيكفينا أن نعلمَ أنَّ اقَلَّ اختلاف فيها يؤدّى إلى اختلال النظر، طبعاً تكمنُ خلف «الشبكية» أعصاب بصرية تنقل الصور التى تقع على الشبكية إلى الدماغ.

۳- الحساسية ازاء الضوء: إنَّ تنظيم النور بالنسبة للمصورين يعتبر عملًا شاقاً، وكثيراً ما تُكلَّفُ مجموعةٌ متخصصة بهذا العمل، بينما تستطيع العين من خلال تغيير حساسيتها ازاء شدة الضوء أن تلتقط الصورَ من مناظر مختلفةٍ وفى نورٍ ضعيفٍ أو قويٍّ جدّاً.

۴- الحركة المستمرة: إنَّ المصوّرين يديرون اجهزتهم باستمرار نحو اليمين واليسار وإلى الأعلى والأسفل، ويستخدمون مختلف الآلات لهذا العمل، بينما نجد أنَّ العضلات التى تحيط بكرة العين تُدير هذا الجهاز بحركةٍ خاطفة إلى الجهات الأربع بشكلٍ كاملٍ، وتضاعف قدرة المناورة لديها للتصوير فى جميع الجهات.

۵- المركبات البسيطة والدقيقة: فمن أجل إعداد أجهزة التصوير يستفادُ من أقوى العدسات والفلزات، بينما تم صنعُ العين من مواد لطيفةٍ وفى نفس الوقت قد تستمر فى العمل مائة عامٍ لأنّها جهاز حى يستطيع بناء نفسه وتجديد قواه باستمرار، بينما تعتبر الأجهزة التى يصنعها البشر اجهزةً ميتة!

۶- اعداد شريط التصوير: يعتبر اعداد شريط التصوير بالنسبة لاجهزة التصوير عملًا

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۵۸

صعباً ويجب استعمال حلقاتٍ متباينة باستمرار من أجل التصوير، بينما تصوِّرُ شبكيةُ العين ذاتياً على الدوام، وبعد انتقاله وحفظِه فى الدماغ يُمحا وتستعد لتصوير منظرٍ آخر، ويُنجزُ هذا العمل بسرعةٍ عجيبةٍ ومدهشةٍ للغاية، علماً أنَّ مسألة اخراج شريط التصوير التى تعتبر عملًا شاقاً ومستهلكاً للوقت لم تُطرح هنا.

۷- الأجهزة الجانبية: من أجل أنْ تقومَ العين بانجاز واجباتها فقد جُهزت بالكثير من اللوازم التى يعتبر كلٌ منها مدهشاً أيضاً.

إنَّ وجودَ الغدد «الفوّارة» التى تَصبُّ السائل الخاص والشفّاف بشكلٍ دائم فى العين، ويَسمح للاجفان أن تتحرك فوق فص العين بدونِ أقَّل تماسٍ خشنٍ، وتسوق فضلات الماء الموجودة فى أسفلها إلى الخارج، فينحدر إلى بؤبؤ العين، وللأجفان ردود فعل سريعةمقابل الحوادث المختلفة حيث تحافظ على العين من الصدمات، وهجوم التراب والغبار، أو الضوء الشديد، وبناء «الأهداب» التى هى بمنزلة ستائر تسمح للعين بالاستنارة قليلًا مع كون العين مفتوحة وتحفظها من دخول الغبار والتراب، واستقرار العين فى صندوقٍ عظمى قويٍّ جدّاً كالقلعةِ المنيعة، ووضع هذا الصندوق فى مكانٍ مرتفعٍ من الجسم حيث يسمح لها أن ترى جوانبها كالراصد الذى يتمركز فى المرصد، ووجود الحواجب التى تُمثلُ درعاً لحمايتها، وامور جمَّة اخرى حيث لكلٍّ منها قصةٌ لطيفةٌ ومدهشةٌ وغنية بالمعانى.

لو جمعنا كلَّ هذه الامور وتمعّنا فيها قليلًا فمن المسلَّم به اننا سنذعنُ أنَّ صانعَ العين كانَ مطلعاً على جميع الأنظمة المتعلقة بالعدسات، وانعكاس الضوء، ومسائل اخرى معقّدة من هذا القبيل، وخلقَ مثل هذا الموجود العجيب بعلمه وقدرته الأزلية.

۲- اللسان، هذا العضو المحترف!

إنّ من بين الأعضاء التى تمت الإشارة إليها فى الآيات المذكورة هو اللسان، الذى يعتبر بحقٍ من عجائب خلق اللَّه، ولو كان لهذا اللسان لسانٌ ينطقُ عنه، لشَرحَ لنا ما فيه من

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۵۹

عجائب، حينها يتضح لنا لماذا استند إليه القرآن الكريم.

لو القينا نظرةً قصيرةً على واجبات ومسؤوليات اللسان، لاظهرت لنا جانباً من هذه الحقائق، وإجمالًا فلّلسان ستة واجبات أساسية هى:

١- دور اللسان فى هضم الطعام: لولا اللسان لما تمت عمليـة هضم الغـذاء بشـكل كامل، و لبقى قسم من الغـذاء غير مهضوم، وسوف نضطر إلى تحريك الأكل باصابعنا لتتم عملية مضغه بواسطة الأسنان فاللسان يُقلب الطعام باستمرار من ثلاث جهات بين الأسنان بحركاته السريعة الماهرة، دون أنْ يبقى فى وسطها! أجل قد يصيبُهُ التعبُ والعجزُ أحياناً فَتقتنصه الأسنان فيُصاب بشدّة، وكأنَّ اللَّه يريد أنّ يثبت لنا بأنّ اللسان لو لم يمنح تلك المهارة الفائقة لتكرر هذا المشهد يومياً ولتعرض اللسان للجرح دائماً.

٢- خلط الطعام بلعاب الفم: اللعاب هو ذلك السائل اللزج الـذى يعمل على ترقيق وانزلاق الطعام وإعـداده للبلع، من جهـة، ومن جهة اخرى يجرى عليه تفاعلات كيميائية خاصة، ويُعدّه للبلع والهضم، فاللسان هو الذى يتكفل بمسؤولية مزجه بهذا السائل الحيوى.

٣- المساعدة فى ابتلاع الطعام والماء: إنَّ اللسانَ يلعبُ دوراً أساسياً فى نفوذ الطعام والماء، فبالتجمُّع والالتصاق بسقف الفم والضغط على الماء والطعام يدفعه سريعاً نحو البلعوم، ولو اصيب بشلل ليومٍ واحدٍ على سبيل المثال لتعسَّر ابتلاعُ لقمةٍ واحدةٍ ولعله يصبح مستحيلًا.

٤- السيطرة على المواد الغذائية: يستطيع اللسان- وبسبب قوة التذوق الشديدة فيه- أن يشخص الكثير من المواد الضارة والسامة للجسم، ويقذفها خارجاً، ولولا دور اللسان فى السيطرة الماهرة على باب الدخول إلى الجسم لأُصيبَ الإنسان بالأمراض بسرعة نتيجة لأكلِهِ الأطعمة المضرّة، ولأصبح عرضة للأخطار، فالطعام المُر والمالح، أو المتَبَّل، أو الفاسد والمتعفن يميزه اللسانُ أولًا، فيمنَعه من الورود إلى الجسم، أجل- هذا الحارس الغذائى مكلَّفٌ بالسيطرة على جميع المأكولات والمشروبات ليلًا ونهاراً.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٦٠

٥- تنظيف الفم: لابدّ أنّكم قد تفحصتم يوماً أنَّ الفم واللسان ينشغلانِ بالحركة بعد الانتهاء من الطعام، فهذه الحركة هى لتحريك وإزالة بقايا الطعام حيث تُجمع فى فضاء الفم ثمَّ تُرسَلُ إلى القناة الهضمية، وهذا العمل يتحملُه اللسان بشكلٍ أساسى وحتى انَّهُ ينظفُ الأسنان إلى حدٍ ما، وخلاصة الأمر: يعتبر اللسان منظفاً ماهراً للفم.

٦- النُطق: وأخيراً فانَّ أهمَّ وادقَّ واجبٍ للّسان هو البيان الذى استند إليه القرآن لا- سيما فى بداية سورة الرحمن لتعريف اللَّه قائلًا: «الرَّحمَنُ عَلَّمَ الْقُرآنَ خَلَقَ الانْسانَ عَلَّمَهُ الْبَيانَ». ومع أنَّ النطق يعتبر أمراً بسيطاً بسبب كثرة ممارسته، إلّاأنّه يعتبر فى الحقيقة من أكثر الأعمال تعقيداً حيث ينجزه الإنسان ب «لسانه» و «عقله».

فيجب أن يختار أولًا الكلمة المناسبة من بين عشرات الآلاف أو مئات الآلاف من الكلمات وأحياناً أكثر من هذا العدد، ثم يصدر الأوامر إلى اللسان أن يتحرك على مقاطع الحروف بحركاته الملتوية السريعة الماهرة، وأن يُركِّبَ الحروف المطلوبة بمساعدة الرئة والحنجرة والأوتار الصوتية ويربطها فيما بينها وأن يكوِّنَ كلمةً واحدة، ثم يختار الكلمة الثانية بنفس السرعة، ويولدُ أصواتاً معينة، ويستمر هكذا حتى تكتمل الجملة، ولو اخطأ الذهنُ قليلًا فى اختيار الكلمات فانّه يقصر عن استيعاب المعنى ولو حدث أدنى خطأ فى حركات اللسان السريعة فى فضاء الفم لما كانت هناك جملة واحدة مفيدة.

تأمّلوا الآن متكلماً يتحدث باتزانٍ وفصاحة وبلاغة ساعة كاملة، لقد أدار لسانه فى أطراف الفم آلاف المرّات واستند إلى مقاطع الحروف تماماً وذلك فى محيط صغيرٍ تتقلص إمكانية المناورة فيه كثيراً فأيُّ عملٍ عجيبٍ واعجازيٍّ يؤدّيه؟ وهذا ليسَ إلّاعرضٌ لقدرة الخالق العظيم.

ومن المسلم به أنّ الشفاه تُكمِّلُ عمل اللسان، وتقوم بتكوين بعض الحروف، وهذا التنسيق بين هذين العضوين يمثل عملًا لطيفاً ومدهشاً وأهم منهُ العمل الفكرى الذى يلازمه.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٦١

والخلاصة أنَّ لكلِّ عضو من الأعضاء الظاهرية أو الأجهزة الداخلية للجسم كالقلب والدماغ والشرايين وشبكة الأعصاب قصةً مفصَّلةً

ومثيرة، ولو أردنا أنْ نتطرق إلى أسرارها واحد تلو الآخر لاستلزمَ سبعين منّاً من الورق لأنّ من اليسير أن تمتلىء آلاف الكتب بأسرارها، فالأفضل لنا أن نعترف بقصورنا فى هذا المجال ونخضع إجلالًا على أعتاب قدرة الخالق العظيم، ونترنَّم بقول الشاعر بصدد الخلق ونقول أيّها الإنسان: عجباً لك إذ لم يكن للعالم مجال لمشاهدتك فلماذا لا تنظر إلى نفسك متعجباً:

أو نقول:

أتزعُمُ انَّكَ جرمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالم الأكبرُ! نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٦٣

٢١- آياته فى الحياة الاجتماعية للإنسان

تمهيد:

ممّا لا شك فيه أنَّ الإنسان موجودٌ اجتماعى بالطبع، ويحصل على ما يحتاج إليه فى الحياة الجماعية، فتكامل الإنسان معنوياً ومادياً، فى العلوم والمعارف، الحضارات والصناعات، الآداب والتقاليد، يحصل من خلال الحياة الجماعية، بنحوٍ يمكننا من القول أنّه لو فقدَ الإنسان هذا الطراز من الحياة فسيفقد كلَّ شيءٍ، ويهبط إلى مستوى الحيوان.

إنَّ اهتمام الإنسان بهذا الطراز من الحياة علاوة على فطريته، فهو نابع من كثرة وتباين حاجاته، وهمته العالية لبلوغ مراحل اعظم وأكمل، ولا يمكن تأمين هذه الحاجات الجسمية والروحية بدون الحياة الاجتماعية، وإلّا فما هو دور الإنسان منفرداً؟

ولكن يجب أن لا ننسى أنّ الإنسان يحتاج إلى عوامل نفسية وبدنية كثيرة من أجل التعايش اجتماعياً، حيث وضعها الخالق فى متناول يديه، وإذا تمَّ تحليل هذا الجانب من حياة الإنسان تحليلًا موضوعياً فسيتضح انَّه من أكثر آيات اللَّه عجباً.

بهذا التمهيد نتجه نحو آيات القرآن التى تستند إلى هذا الأمر ونتمعن خاشعين فى الآيات التالية:

١- «وَمِنْ آيَاتِهِ أنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِّتَسْكُنُوا الَيْها وَجَعَلَ بَيَنَكُمْ مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً انَّ فِى ذَلِكَ لَآياتٍ لِّقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ». (الروم/ ٢١)

٢- «هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ الَيْها».

(الاعراف/ ١٨٩)

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٦٤

٣- «إِنَّا خَلَقْنا الإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيْهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيْراً». (الإنسان/ ٢)

٤- «يَا ايُّهَا النَّاسُ انَّا خَلَقْنَاكُم مِّنْ ذَكَرٍ وَانْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا انَّ اكْرَمَكُمْ عَنْدَ اللَّهِ اتْقاكُمْ». (الحجرات/ ١٣)

٥- «هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِيْنَ* وَالَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ انْفَقْتَ مَا فِى الأَرضِ جَمِيْعاً* مَا الَّفتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّه عَزِيزٌ حَكِيْمٌ». (الانفال/ ٦٢- ٦٣)

جمع الآيات وتفسيرها

شرح المفردات:

«زوج»: تعنى فى الأصل الحيوان المذكر والمؤنث حيث يُطلقُ هذا اللفظ على كلٍّ منهما، ويُطلقُ- أحياناً بمعنى أكثر شموليةً- على كلِّ شيئين متناظرين، سواء كان من ناحية التشابه أو التضاد، كزوج الحذاء، أو الجوراب، أو الليل والنهار والخير والشَّر وأمثالها، أو الارقام التى تقبل القسمة على اثنين متساويين، لأنَّ كلًا منها يناظر الآخر، إلّاأنّها تُقال فى خصوص البشر لمن أبرم عقد الزواج بينهما.

وقال بعض أرباب اللغة إنَّ معنى «زوج» عبارة عن الشكل الذى يكون له مثيل، كالأنواع والألوان المختلفة، أو الشىء الذى له مضاد،

كـالرطب والجاف، المـذكر والمؤنث، الليل والنهار، الحلو والمر، كما صـرَّحوا أنَّ «زوج» تعنى كلَّ فردٍ من الزوجين، لا الاثنين معاً بل يجب أن يقال للاثنين «زوجان»، واطلاقُ زوج على الاثنين هو من كلام الجهلة «١».

«لِتَسْـكُنُوا»: من مادة «سـكون» وتعنى فى الأصل ثبات الشـى بعد الحركـة، وجاء فى «مقاييس اللغة» أنَّ أصلها بمعنى الاطمئنان، والحالة الـتى تعـاكس الاضـطراب والحركـة، وتطلقُ أحيانـاً على تخفيف ضـغط العاصـفة والحر والـبرد، والمطر والغضب أيضـاً، ولهـذا سُـمِّىَ «سكان» السفينة بهذا الاسم حيث يعتبر أساس واطمئنان السفينة ووضعها فى

---

(١) المفردات، مصباح اللغة، التحقيق ولسان العرب.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٦٥

الطريق الصـحيح، ومن هذا الجانب سـميت «السِكّينة» بهذا الاسم، حيث تُسكنُ حركات الحيوان بقطع رأسه، كما يقال لحالة الاطمئنان والاستقرار النفسى «سَكينة» أيضاً، وتُطلق «مِسْكين» على من يبدو ساكناً فى محله لشدة الفقر الذى يعانيه، ويقال لمكان سكن واستقرار الإنسان «مَسْكَن» «١»

.

و «شُـعُوب»: طبقاً لقول بعضهم، جمع «شَعْب» (على وزن صَعْب)، وجمع «شِعْب» (على وزن فِعْل) طبقاً لقول بعضهم الآخر، بينما يعتقد البعض كصـاحب مجمع البحرين أنَّ جمع الأـول «شـعوب» وجمع الثانى «شـعاب»، وعلى أيّـةٍ حالٍ فانَّها تعنى كما يقول صاحب «لسان العرب» الجمع والتفريق، أو الإصـلاح والافسـاد (وذلـك يصور إلى أنّ معناهـا الأصـلى هو الوادى الـذى يتجمَّع فى الجـانب الآخر من الجبل ويتسعُ فى الجانب السـفلى وكما يقول الراغب فى المفردات أنَّ المفهومين اجتمعا فيه) لذلك يقال «شَعب» للقبيلة التى انفصلت عن طائفةٍ كبيرة (فلها صفةٌ جمعيةٌ تفريقية) وقال بعض أيضاً أنَّ «شعوب» تستخدم بخصوص العجم و «قبائل» للعرب «٢».

ولهذا تأتى «تَشَعب» أيضاً بمعنى التفرق وكذلك الاجتماع، والإصلاح والافساد.

«أَلَّف»: من مـادة «إلْف» على وزن (جِلْف) وتعنى الاجتمـاع المتقارن بالانسـجام والوئام، وتأليف القلوب يعنى إيجاد الالفـةِ والأواصـر والصلةِ بينها (وعلى هذا الأساس اطلقوا على تأليف الكتاب هذا الاسم حيث يتمّ إيجاد نوع من التآلف والانسجام بين الألفاظ والمعانى والموضوعات) ولهـذا يقولون للعـدد أَلْف حيث يعتقـد العرف أنَّ كافةَ الاعـدادِ مجموعـةٌ فيه لأنَّه يتكون من عـدد واحـد والعشـرات والمئات والآلاف، ولم تكن هناك أعدادٌ بعده بل تتكرر نفس الأرقام، عشرة آلاف ومائة ألف و .... «٣».

---

(١) التحقيق، لسان العرب، المفردات، مجمع البحرين، وكتاب العين.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ١٣٨.

(٣) مجمع البحرين، لسان العرب، مفردات الراغب.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٦٦

تفسيرٌ وتحليل

الروح الاجتماعية للبشر واحدة من أعظم المواهب الإلهيّة:

فى‌سورة «الروم» وأثناء تعداد الآيات الإلهيّة فى سبعِ آيات متقاربة «١» حيث تبتـدأ كلٌّ منها بتعبير «ومن آياته» أَوضحَ جانباً من براهين عظمـة اللَّه فى عالم الوجود بلحنٍ مرغوبٍ وجـذابٍ ونغمـةٍ لطيفةٍ ومحببةٍ والآية الاولى فى البحث إحداها فقد أشارت إلى اللبنة الاولى

فى بناء المجتمع البشرى، أى وحدة الاسرة والعلاقة التى تسودُها، فيقول: «وِمِن آيَاتِهِ أنْ خَلَقَ لَكَمْ مِنْ أَنْفُسِكَمْ أَزْواجاً لِتَسْكَنُوا إِلَيْهَا». واللطيف أنّه لم يـذكر هنـا أنَّ الهـدف من الحيـاة الزوجيـة هو بقاء النسل، بل يـذكرُ نيل الاطمئنان والسـكينة، الـذى يحصل من خلال الحياة الزوجيـة، لأنَّ هـذين الجنسَـيْن يُكمل أحـدُهما الآخر، ويكونان سـبباً لتفتُحِ وانقاذ وتربيةِ كلٍّ منهما، بنحوٍ يبدو كلٌّ منهما ناقصـاً بدون الآخر، وينال تكامله عن هذا الطريق.

إنَّ هذا الاطمئنان والسكون لا يقتصر على الجانب الجسدى بل إنّ جانبه الروحى أهم واقوى

والاضطرابات النفسية وفقدان التوازن الروحى، والأمراض المختلفة المتمخضة عن الزهد فى الزواج، شاهدٌ ناطقٌ على هذا المعنى

ثم يضيف: «وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً».

هـذه المودةُ والرحمـة الـتى تُعتَبرُ فى الحقيقـة الركن الأسـاس وحلقـة الوصـل والإرتبـاط مـا بين النـاس، فتربـط الأشـخاص المتفرقين والمتباعدين، وتخلق من ذلك مجتمعاً قوياً، تقوم المواد الأساسية فى البناء بشدِّ قطع الطابوق والحجر ويُشيَّدُ منها بناءٌ ضخمٌ وعظيم.

واللطيف كذلك أنّه استند مرّه ثانية فى نهاية الآية إلى هذه النكتة التوحيدية: قائلًا: «إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفكّرُونَ».

---

(۱) تبدأ هذه الآيات من الآية ۲۰ من السورة وحتى الآية ۲۵ (ست آيات متتابعة) والآية ۷ والآية ۴۶ من نفس‌السورة.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۶۷

ولو تأمّلنا فى تشـكيل الحياة الزوجيـة وهى أول وحدةٍ اجتماعية، فى الرابطة القوية التى تتكون بين هذين الجنسـين المختلفين، ومن ثم لو تأملنا فى الوحدات الاجتماعية الأكبر:

العائلة، الأقارب، الطائفة والعشيرة، ثم فى المدن والاقطار وفى كل المجتمع البشرى، فاننا سنواجه فى كلِّ خطوةٍ نخطوها آيةً من آياتِ اللّه العظيمة.

فمن الذى خلقَ المحبّةَ والمودةَ بين المرأة والرجل، والأب والام وابنهما، والعشيرة والأقارب، وكلِّ الناس بشكلٍ عام؟

من الـذى وَضَعَ التوازن بين جنس المرأة والرجـل فى المجتمع البشـرى؟ بشـكلٍ يتمّ الحفاظ على هـذا التوازن رغم الحوادث المعقـدة التى تطرأ فى المجتمعات كالموت والولادات!

من الـذى خلقَ الأذواق المختلفـة فى العقول، والرغبات المتباينة فى القلوب؟ وأخذ بيد كلِّ صـنفٍ نحو عملٍ وبرنامجٍ، كى يتكون من مجموعهم مجتمعٌ إنسانىٌّ ككتلةٍ واحدةٍ متكاملةٍ من جميع الجوانب.

ولعلَّهُ لهـذا السبب أشـار فى الآيـة الآتيـة إلى اختلاـف الاـلسُنِ وتبـاينِ الأـلوان ويعتبر ذلـك من آيـات اللّه. فيقول: «وَمِنْ آيـاتِهِ خَلْقُ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ الْسِنَتِكُمْ وَالْوانِكُمْ إنَّ فِى ذَلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِيْن». (الروم/ ۲۲)

وممّـا لاـ شـك فيـه أنَّ أحـد التفاسير لاختلاـف الأـلسن والأـلوان، هـو هـذا التبـاين الموجـود فى النطـق والأـذواق والجـذب الفكرى للأشخاص، ممّا يؤدّى إلى أنْ يتحلّى المجتمع البشرى بالانسجام التام، بنحوٍ لا يحصل معه فراغٌ فى أى من الحاجات المعنوية والمادية للبشر.

«مَوَدَّة»: من مادة «وُدّ» (على وزن حُبّ) وتعنى المحبّة كما تطلق على «الأمل فى تحقيق الشـىء» (وكلا المعنيين قريبان لبعضـهما) ولفظ «وَدّ» (على وزن حَدّ) اسمٌ لأحد اصـنام الجاهلية، وسمى بذلك الاسم لمحبتهم الشديدة له، أو لأنّهم كانوا يظنّون بوجودِ مودةٍ بين اللّه وهذا الصنم، كما يُطلقُ هذا اللفظ على «المسمار»، حتى قالَ بعض إنَّ لفظ «وَتَدْ»

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۶۸

الـذى يعنى فى لغـة العرب «المسـمار» مـأخوذٌ من أصـل «وُدّ» لأنَّ المسامير تلتصق بالجـدار أو الأشـياء الاخرى ومن هنا فهى تتشابه مع مفهوم المحبّة «۱».

«رَحْمة»: وتعنى حالة الليونة التى تحصل فى قلب الإنسان فتجعله يميل إلى الاحسان تجاه من يستحق الرحمة، ومن المسلَّم به أنّها حينما تُستَخدمُ فى مورد البارى تعالى فانّها تعنى الإنعام والعطاء والاحسان.

وهنا ما الفرق بين الاثنين (المودة والرّحمة) فى هذه الآية؟ لقد اعطى المفسِّرون عدّة احتمالات، ويُمكن القول أنَّ الجامع بينها هو أنَّ «المودَّة» تُقالُ لشيءٍ لهُ مقابل، كالمحبّة التى بين المرأة والرجل أو الاخَوَيْنِ، حيث تدفع كلًا منهما إلى تقديم الخدمةِ إلى الآخر، إلّا أنّ «الرحمة» من جانبٍ واحدٍ وتشتمل على التضحية، كعلاقة الحب بين الوالدين وابنهما، أو أحد الزوجين نحو الآخر عندما يعجز عن العمل.

وهنا تكمنُ نكتةٌ مهمّة، وهى يجب أن يقوم فى الحياة الزوجية وكذلك الحياة الاجتماعية بشكلٍ عام نوعان من العلاقة المعنوية:

الأول: العلاقة التى تتخذ طابع الخدمات المتقابلة، فيقوم كل فردٍ أو طبقةٍ بخدمات متقابلة تجاه الأفراد أو الطبقات الاخرى

والثانى: «الخدَّمات المجانية»، لأنَّ المجتمعات البشرية أو الاسرَ التى هى مجتمعٌ مصغرٌ تعجُّ بالأطفال والضعفاء والعجزة باستمرار ولو شاؤا انتظار الخدمات المتقابلة لظلّوا يعانون الحرمان، هنا حيث يعطى مفهوم «المودة» مكانه إلى «الرحمة»، وتحلُّ الخدمات التضحية محلَّ الخدمات المتقابلة، وكم لطيف هذا التعبير القرآنى الذى لن ترى المجتمعات البشرية صورة الاطمئنان والراحةِ إلّابالعمل به.

والآية الثانية من البحث تردد هذه الحقيقة التى وردت فى الآية الآنفة مع هذا الفارق

---

(۱) مفردات الراغب مادة (ود).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۶۹

حيث تقول: «هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِّنْ نَّفْسٍ واحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنهَا زَوْجَها لِيَسْكُنَ إلَيْها».

والمقصود من «نفسٍ واحدةٍ» باعتقاد اغلب المفسّرين هو آدم عليه السلام «۱»، ومن المسلَّم به أنَّ التعابير التى جاءت فى ذيل الآية وتُشَمُّ منها رائحة الشرك، لا تعنى الشرك فى الاعتقاد ولا فى العبادة، بل يُمكنُ أن يَكونَ المقصود منها هو ميل آدم إلى ابنائِهِ، الميلُ الذى قد يجذبُ الإنسان نحوه فى لحظات خاطفة ويجعله يغفل عن غيره.

ويُحتملُ أن يكون المراد من «نفس واحدة» هو «الوحدة النوعية»، أى (خلقكم من نوعٍ واحدٍ).

وليسَ المقصود من عبارة: «جَعَلَ منها زَوْجها» أنَّ زوجة آدم «حواء» قد خُلقَتْ من جزءٍ من جسمه، كما نُقل فى الرواية الموضوعة أنَّ حواء خُلقت من ضلع آدم الأيسر، ولهذا يقل عدد الاضلع فى الجانب الايسر عنها فى الجانب الأيمن بضلعٍ واحدٍ، لدى الرجال، ولا شك أنَّ عددَ الأضلع فى كلا جانبى الرجل لا يتفاوت أبداً، ومن السهولة تجربة ذلك، بل إنّ المقصود هو:

إنَّه خلقَ زوجة آدم من جنسه، كى تكون بينهما الجاذبة الجنسية، وليس من جنسٍ بعيدٍ وغريبٍ، كما نقرأ بخصوص النبى صلى الله عليه و آله فى القرآن الكريم: «هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّيْنَ رَسُوْلًا مِنْهُمْ».

ويشير فى الآية الثالثة إلى خلق الإنسان من نطفةٍ مختلطة، فيقول: «إنّا خَلَقْنا الانْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيْهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيْعاً بَصِيْراً».

وتم التلميح فى هذه الآية إلى ثلاث مزايا للإنسان: الاولى امتزاج النطفة، ويستفاد هذا الامتزاج من لفظ «أمشاج» جمع «مشيج» أو «مَشَج» (على وزن مَدَدْ) وتعنى الشيء

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۴، ص ۵۰۸؛ و التفسير الكبير، ج ۱۵، ص ۸۵؛ و تفسير روح البيان، ج ۳، ص ۲۰۹۴؛ تفسير الميزان، ج ۸، ص ۳۹۱، ونقل هذا المعنى فى تفسير القرطبى (ج ۴، ص ۲۷۷۳) عن جمهور المفسرين.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۷۰

الممزوج، ولهذا معنىً واسع حيث يشمل اختلاط النطفة من «البيضة» و «الحيمن»، وكذلك المواد المعدنية المختلفة وغيرها من المواد

التى تتظافر لصنع النطفة، كما يمكن أن تكون إشارة إلى القوى المختلفة والقابليات المتباينة والأذواق المتفاوتة الموجودة فى نطفة الإنسان وتُعدهُ للحياة الاجتماعية فى المجالات كافة.

والثانى عبارة «نبتليه» التى تشير إلى انتقال الإنسان من حالةٍ إلى اخرى والتحولات المستمرة وأنواع الابتلاءات والاختبارات التى تأخذ بيده فى مسيرته التكاملية وتعتبر دليلًا على تكليف الإنسان ومسؤوليته، لأنَّ الاختبار غير ممكنٍ بدون حرية الإرادة، والقابلية على أداء التكليف.

والثالث امتلاك الأدوات المهمّة للمعرفة ومن أهمّها السمع والبصر، فالسمع للاستفادة من العلوم النقلية وأفكار الآخرين، والعين للمشاهدة والاتصال المباشر بحقائق العالم.

فهكذا إنسان وبمثل هذه المواصفات جديرٌ بأن يرتقى إلى مقام خليفة اللَّه وقادرٌ على الحياة الجماعية.

وفى الآية الرابعة وجَّهَ الكلام إلى الناس قاطبةً، قائلًا: «إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وانْثى .

بناءً على ذلك ليس هنالك أىُّ تمايزٍ بين الأجناس والقبائل والشعوب، لأنّهم يرجعون إلى أصلٍ واحدٍ: «أبوهم آدم وامُّهم حواء».

ثم أشار إلى فلسفة تصنيف الناس إلى شعوب وطوائف مضيفاً: «وَجَعَلناكُم شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا».

لا شكَّ أنَّ أول شروط الحياة الاجتماعية هى معرفة الأشخاص ببعضهم، إذ لولاها لاختَلَّ نظام المجتمع البشرى خلال يومٍ واحد، فلم يُعرف المجرم من البرى، ولا الدائن من المدين، ولا القائد من المقود، ولا الأئمّة من التابعين، و ... اجَلْ .. اللَّهُ الذى خلقَ الإنسان لمثل هذه الحياة وجَعَلَه أجناساً وقبائل وجماعاتٍ تتباين تماماً بالمواصفات وجَعَل فى كلِ

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٧١

قبيلةٍ أشخاصاً يمتازون بمزايا شخصية خاصةٍ كى تُحلَّ مسألة «التعارف».

ويقول فى نهاية الآية كاستنتاج أخلاقى من هذه المسألة الاجتماعية: إنَّ الانتسابَ للقبائل والجماعات ليس دليلًا على أىِّ تفاضُل أبداً بل: «انَّ أَكْرَمَكُم عِنْدَ اللَّهِ اتْقاكُمْ».

فالتقوى لا تُعتبرُ مسألة أخلاقية فحسب، بل مسألة اجتماعية لا تستقيم الحياة الاجتماعية للبشر إلّامن خلالها، التقوى فى جميع المجالات، التقوى الاقتصادية، التقوى السياسية، تقوى اللسان والتقوى الفكرية.

وفى الآية الخامسة والاخيرة من البحث يعتبر «تأليف القلوب» احد الأدلة المهمّة على انتصار نبى الإسلام صلى الله عليه و آله، فيقول: «هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وبِالْمُؤْمِنِيْنَ* وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ».

ويثبتُ هذا التعبير بوضوح أنَّ تأليف القلوب يعتبر أمراً حتمياً من أجل التغلُّب على المشكلات الاجتماعية، وقد خلقَ اللَّهُ هذا الاستعداد لدى البشر ولولاه لم يتسنَ التأليفُ بين القلوب، ولو لم يحصل فستضطرب حياة البشر الاجتماعية.

ثمَّ يُلمِّحُ إلى مسألةٍ لطيفةٍ وهى أنَّ تأليف القلوب لا يتحقق بالطرق المادّية، بل يمكن تحقيقه من خلال الإيمان والأساليب المعنوية والقيم الإنسانية السامية، فيقول: «لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيْعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِم وَلكِنَّ اللَّهَ الَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ».

صحيحٌ أنَّ هذه الآية نزلت بخصوص أصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، إلّاأنَّ من الواضح أنَّ مفهومها عامٌ ويشملُ المؤمنين قاطبةً، كما اشير إلى هذا المعنى فى تفسير الميزان «١».

إنَّ المسائل الماديّة وبسبب ضيقها تكون مصدراً للنزاعات والصراعات، ولو فرضنا أن تكون عاملًا للوحدة يوماً ما، فستكون وحدةً غير راسخةٍ، فالوحدة الراسخة تتحقق فى ظل الإيمان والتقوى والقيم الروحية فقط.

---

(١) تفسير الميزان، ج ٩، ص ١٢٠.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٧٢

وورد قرينُ هـذا المعنى بتعـابير اخرى فى قـوله تعـالى حيث يقول حول أصـحاب رسول اللّه صـلى الله عليه و آله: «أَشِدّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ». (الفتح/ ٢٩)

ومـا يثير اهتمامنـا هنـا هو التعبير ب «هو الـذى» فى بدايـة الآيـة، حيثُ تُعرِّفُ البـارى من خلال نصـرة رسول اللّه صـلى الله عليه و آله والتـأليف بين قلوب المؤمنين، ويعـدَّها من آيـات وجود اللّه تعـالى التـآلف الـذى يَسـمو على جميع انواعِ التـآلف، حـتى على الروابط النسبيـة والسـببية، ولهـذا فقـد هيمنت أواصـر العصبية القبلية وبنحوٍ مذهلٍ على العلاقات التى كانت تسود المجتمع العربى أبان العصـر الجـاهلى لكن أواصـر الإيمان والتقوى طغت على جميع أنواع الراوبط، وظهرت آثار هـذا التآلف الروحى والمعنوى فى جميع جوانب حياتهم الفردية والاجتماعية، وأذْعَنَ العالمُ باسرهِ أمام عظمتهم.

توضيح

هل للمجتمع روحٌ؟

إنَّ الأَحياء على قسمين وأغلبُها يعيش منفرداً ولا وجود اجتماعى فيما بينها ولو على صعيد اصغر وحدة اجتماعية أى العائلة، وبعضها قد تخطّى هـذه الحيـاة قليلًا وأخـذ يعيش مع قرينهِ، ولكنّ قليلًا من الحيوانـات تعيش حياةً جماعيـةً، وبعضـها قـد كون حضارةً، كالنحل، والنَّمل، والأرضة وغيرها من الحيوانات.

إلّا أنَّ هـذا الصـنف (الحيوانـات الاجتماعيـة) لهـا نوعـان من النقص أيضاً: الاوّل: هو اسـتحالة الحياة المشتركـة بين المجاميع المتباينة (كنحلِ خليتين أو بضع خلايا)، والثانى:

إنَّ حياتها الاجتماعية تتخذُ طابعاً واحداً باستمرار، اى أنَّ النحلَ يعيشُ اليوم كما يعيش قبل مليون سنة.

فالكائن الوحيـد الـذى يعيش حياةً جماعيـةً غير مقيّـدة ويسـير نحو التطور والتكامل هو الإنسان، والدليل على ذلك هذا النمو والتطور وسيادة العلم والعقل على حياته الاجتماعية.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٧٣

وهنا بحوث كثيرة لو أردنا الولوج فيها سنخرج من اطار البحث التفسيرى ولكن يبدو من الضرورى التذكير ببعض الامور:

١- مـا هو منشـأ رغبـة الإنسـان للحياة الاجتماعيـة؟- هنالك آراء مختلفـة، ويبـدو أكثرها صواباً هو أنّه مزيـجٌ من الحوافز «الغريزيـة» و «العاطفيـة» و «الفكريـة» فالعقلُ يقول إنّ التكاملَ ممكنٌ فى ظل الحياة الاجتماعيـة فقط سواء كان معنوياً أو عادياً، لأنَّه من البديهى إذا أراد فردٌ أو اسـرةٌ أن تعيش بمعزل عن الآخرين، فلا وجود لهـذه العلوم والمعارف ولا هـذه الصـناعات والاختراعات والابـداعات، فلا شك أنّها حصـلت من خلال اسـتثمار تكـدُس الطاقات الفكريـة والجسـمية، ونقل كلُ جيلٍ تجاربه إلى الأجيال الاخرى واثمرت هذه الظواهر الجبارة من خلال تجمعها وتظافرها.

ومن ناحيـةٍ اخرى فـانَّ الإنسـان يميـل إلى هـذه الحياة من خلال حافزٍ ذاتيٍ وعاطفى، فهو يضـجر من العزلـة، ويشـعر باللـذة من خلال حديثه وجلوسه وقيامه مع رفاقهِ، وسجنُ الوحدة يمثل أقسى عذابٍ بالنسبة له، وقد اثبتت تجارب العلماء أنَّ العزلة لو استمرت فستؤدّى إلى اضـطرابات نفسية على مدى فترةٍ قصيرة، وبغض النظر عن منافع التعايش الجماعى فإنّ هذا يُؤكد على أنَّ الإنسان يرغبُ بطبعهِ فى هذا التعايش.

٢- لقد اعتبر الإسـلام الحياةَ الاجتماعيةَ للبشـر من أهم مبادئه، ولم يهتم بها فى العلاقات السياسـية والاقتصادية فقط بل حتى فى مسألة العبادات التى تعتبر علاقـة بين الخلق والخالق، فاعطى للعبادات الجماعيـة (صـلاة الجماعـة) وصـلاة الجمعـة ومناسك الحـج، أهميّةً لا مثيل لها.

فماهيةُ الصلاة، والاذان والاقامة تُحفزُ الجميع لصلاة الجماعة، ويبرهن ضميرُ الجمع الوارد فى سورة الفاتحة، والسلام الذى فى خاتمة الصلاة، على أنّ الصلاة ذات صفةٍ اجتماعية واداؤها فرادى يُعد صيغة فرعية.

وقد اعطيت الحياة الاجتماعية اهميةً بالغةً فى الإسلام بحيث اعتُبرَ كلُ ما يؤدّى إلى الاختلاف والتفرقة (كالحسد، قول الزور، والغيبة، والنفاق و ...) من الذنوب الكبيرة، وكلُ

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٧٤

ما يؤدّى إلى السّلام والوئام والإصلاح بين الناس جزءاً من أفضل العبادات.

٣- أنَّ تحقيق الحياة الاجتماعية للبشر ليس امراً بسيطاً، لأنّه يحتاج إلى توزيع القابليات والقدرات العقلية والجسمية المختلفة، وتخطيطٍ دقيقٍ، وتوزيع للأعمال، والتنسيق والتآلف بين القلوب، وطبقاً للتعبير الذى ورد فى تفسير الآيات فانَّ البشر كمواد البناء- الطابوق والحديد والمواد الإنشائية الاخرى التى إذا لم تكن فيما بينها وسيلة للربط والالتحام لم يتشيَّد منها بناءٌ شامخٌ، وهنا جاءت يد القدرة الإلهيّة لمساعدة الإنسان، ووضعت الخطة الدقيقة الرامية إلى تأليف القلوب، وتوزيع القابليات العقلية والجسمية، وأنواع الأذواق والفنون، ورفَدت الإنسان بالمواهب العظيمة التى لن تدور عجلة الحياة الاجتماعية للبشر بدونها أبداً، ويُعبَّر عن مجموع هذه الامور أحياناً ب «روح المجتمع» وإلّا فاننا نعلمُ أن ليس للمجتمع روح خاصةً غير ما ذُكر.

من يا ترى أوْجَد هذه الروح الاجتماعية بكل ما فيها من مواصفاتٍ من أجل دفع الإنسان نحو التكامل؟ فهل تستطيع الطبيعة العمياء الصمّاء التى لا عقل ولا احساس لها أنْ تُوجدَ هذا التخطيط، وهذه المودة والرحمة، وهذه السكينة والاطمئنان، ونطفة الامشاج، وهذا التعارف العام، وهذا التآلف بين القلوب؟!

لهذا تَعتبرُ الآياتُ المذكورة هذه الامور من آيات عظمةِ وعلمِ وقدرة اللَّه تعالى

ونختتم هذا الكلام بالحديث الذى ورد عن النبى صلى الله عليه و آله فيما يخص اهتمام الإسلام بتقوية الأواصر الاجتماعية بين أبناء البشر، إذ يقول صلى الله عليه و آله:

«إنَّ المُسْلِمَ إذا لَقىَ أخاهُ المسلمَ فاخذَ بيَدِهِ تحاتت عَنْهُما ذُنوبُهما كَما تَتَحاتُ الوَرقُ عن الشَجَرةِ اليابسةِ فى يوم ريحٍ عاصفٍ و «لا يفترقان» إلّاغُفِرَ لَهما ذنوبُهما ولَو كان مثلَ زَبَدِ البحار!» «١».

كلمة الختام:

من مجموع ما جاء فى بحوث هذا الكتاب المختلفة تتضح هذه الحقيقة بجلاء وهى أنَ

(١) الطبرانى، نقلًا عن تفسير فى ظلال القرآن، ج ۴، ص ۵۷.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣٧٥

المعشوقَ يتجلّى من كلِّ بابٍ وجدارٍ، وافاض بأنواره على كلِّ موجودات الدنيا، ورسمَ اسماءَه وصفاتهِ على جبين كلِّ الكائنات.

فقد تجلّى بمائةِ الفٍ من الأنوار، كى نراه بمائة الفٍ من الابصار، وهو قد اضاءَ شمساً فى قلبِ كلِّ ذرةٍ، واظهرَ آثار علمهِ وقدرتهِ فى السماء والأرض.

وقد وُصِفَ فى آيات القرآن بهذا الطريق وأحصى آياتهِ فى الآفاق والانفس.

فتكفى عينان، واذنان، وقلبٌ يقظٌ كى يرى المرءُ هذه الأنوار، وأن يسمع انغام التوحيد، وان يدعو خيرَ المحسنين إلى القلب، ويستضيفه فى هذه الخلوةِ الانيسة، وهذا العرش العظيم، ويخاطبه فى جذبةٍ روحيةٍ ويترنم بما يلى من الاشعار:

لَبَّيكَ يا عالماً سرّى وَنَجوائى لَبَيكَ لَبَيك يا فَقْرى وَمُغْنائى أدعوكَ بَلْ أَنْتَ تَدْعُونى فَهَلْ نَاجَيَتُ إيّاكَ أو ناجَيْتَ إيائى حُبّى لِمَولاىَ

أضنانى وأسْقَمَنى فَكَيفَ أشكوا إلى مَوْلاىَ مَوْلائى يا وَيْحَ رُوحى مِنْ روحى ويا أسَفى علىَّ منّى فإنى أصل بَلْوائى «۱» الهى! املأ قلوبَنا من حبّكِ ومعرفتكَ والإيمان بك.

ربّنا! أفِضْ علينا نحن العطاشى من كؤوس معرفتك واجعلنا سكارى إلى الأبد فى جذبةٍ روحية من جذباتك.

يا مولاى! من الصعب طىُّ طريق معرفة ذاتك المقدّسة إلّابلطفك ورعايتك وتوفيقك، فاجعلنا مشمولين برعايتك وفضلكَ وتوفيقك.

آمين يا رب العالمين

ختام الجزء الثانى من نفحات القرآن

۱۱/ ۴/ ۱۳۶۷

الموافق ل ۱۷ ذى القعدة ۱۴۰۸

(۱) روضات الجنان، ج ۳، ص ۱۴۸، الشعر لحسين بن منصور الحلاج.

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ ُبنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َيَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلّامة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافىّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لَم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلى التَّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جهةٍ اُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثـّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی" القائمیّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخـَرَ

ه) إنتاج المُنتـَجات العرضیّة، الخـَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع" ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنـَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التـِّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّـة الحالیّـة لهـذا المرکز، شـَعبیّـة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتـُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنـّها لا تـُوافِی الحجمَ المتزاید و المتـّسعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثـّقافیّة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفـِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التـّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.